



مركز دراسات الدكتوراه: الجماليات وعلوم الإنسان
تكوين الدكتوراه: تاريخ وتراث دول المغرب
مختبر الببليوغرافيا التحليلية والتوثيق للتراث المغاربي

أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ في موضوع :

الدبلوماسية المغربية في العصر الوسيط

دراسة لآليات العمل الدبلوماسي

447-869هـ / 1056 - 1465م

الأستاذ المشرف
الدكتور عبد الإله بنمليح

إعداد الطالب
بدر الزاهر
ر.و.ط : 2220787936

السنة الجامعية
2020 - 2019

الإهداء

إلى روح أجدادي،
رحمة الحموشي، أحمد الأزرق وحسن الإدريسي، تغمدهم الله برحمته الواسعة؛

إلى والداي أطل الله عمرهما؛

إلى روح أصدقائي،
الذين اختطفتهم المنايا في زهرة الشباب؛

إلى كل من ساندني ودعمني؛

شكر وتقدير

بعد حمد الله والثناء الجميل الذي يليق بذاته المقدسة، يطيب لي أن أتقدم
بخالص الشكر وعظيم الامتنان لصاحب الأيدي الكريمة، الذي أسهم بعلمه الوافر
ووقته الثمين وعونه الصادق في بلوغ هذا العمل منتهاه، الأستاذ القدير الدكتور عبد
الإله بنمليح.

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى أعضاء اللجنة العلمية على قبولهم تقييم ومناقشة هذا
العمل وتجشم عناء تنقيحه وتصويبه، كما أتقدم بالشكر إلى أساتذتي بشعبة التاريخ بكلية
الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرارز بفاس، اعترافاً لهم بتفانيهم في خدمة العلم والباحثين
وبفضلهم الكبير علي.

اختزالات

- ج : الجزء.
 - د ت : من دون تاريخ.
 - ص : صفحة.
 - صص : صفحات متتالية.
 - ط : طبعة.
 - ق : القسم.
 - ق م : قبل الميلاد.
 - م : المجلد.
 - م : تاريخ ميلادي.
 - م س : مصدر سابق أو مرجع سابق أو مقال سابق.
 - هـ : تاريخ هجري.
-
- ASV : Archive secret du Vatican.
 - Ed : Édition.
 - HSS : Histoire, Sciences Sociales.
 - Ibid : Même source.
 - Ibidem : Même source et même page.
 - In : En.
 - J-c : Jesus - christ
 - Op.cit : Opus citatum/ ouvrage — article cité.
 - P : Page.
 - Pp : Pluieurs pages.
 - Rev :Revue.
 - S : Siècle.
 - SHMESP : Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public.
 - T : Tome.

قائمة المحتويات

2	تقديم
19	الباب الأول : خصائص الدبلوماسية المغربية الوسيطة
20	الفصل الأول : التأصيل الاصطلاحي والمفهومي
42	الفصل الثاني : الخصائص الشكلية واللغوية للوثائق الدبلوماسية الوسيطة
75	الفصل الثالث : الأغراض الرئيسية للرسائل الدبلوماسية : دراسة إحصائية تحليلية
109	الباب الثاني : آليات ومحددات العمل الدبلوماسي الوسيطي
110	الفصل الرابع : معايير انتقاء السفراء
245	الفصل الخامس : آليات العمل الدبلوماسي القانونية والعرفية ومحدداته التجارية والدينية
309	خاتمة
313	قائمة المصادر والمراجع
325	فهرس الرسوم البيانية والجداول والخرائط
327	فهرس الموضوعات

«وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَخَفُورٌ رَحِيمٌ»

سورة هود، الآية 41.

تقديم

تُعتبر الدبلوماسية أحد أبرز آليات التواصل السياسي بين الدول، كما تُعد من بين أهم أدوات إقرار الأمن والسلم العالميين، وهي أهمية تنبع من وعي متنام لدى الدول والشُعوب بضرورة ترجيح كفة خيارات التسوية السلمية للنزاعات الدولية على الحلول العسكرية المكلفة بشرياً ومادياً، وهو التوجه الذي جعل من العمل الدبلوماسي الراهن مجالاً مشتركاً ينشط فيه الفاعل الحكومي إلى جانب الفاعل المدني، وأسهم في تعدد أشكاله، فمنه الرسمي والموازي، ومنه كذلك الاقتصادي والثقافي والديني، وهي الأشكال التي تعكس مدى التطور الذي بلغته الممارسة الدبلوماسية التي ارتبط تطورها ارتباطاً وثيقاً بالتطور التاريخي للمجتمعات البشرية منذ أقدم العصور إلى الزمن الراهن.

وفي هذا السياق، يُعتبر المؤرخ الفرنسي René MAULDE DE LA CLAVIÈRE¹ العمل الدبلوماسي قديم قدم الإنسان، ولن يختفي إلا باندثاره،² لأنه انعكاس لتطور المجتمعات البشرية وحاجتها المستمرة والمتعاضمة لآليات التواصل وتنظيم العلاقات، رغبةً في إقرار السلم والحفاظ على المصالح المشتركة³، فالأصل في العلاقات البشرية هو السلام، والدبلوماسية إحدى أهم آليات إقراره، في حين لا تعدو الحرب أن تكون إلا استثناءً متكرراً في التاريخ البشري.

وعلى مدى قُرون، ظلّت الاستمرارية والتأقلم الزمني والمكاني مع حاجيات المجتمعات البشرية هي السمة الغالبة على العمل الدبلوماسي، حتى أضحت لكل حقبة زمنية دبلوماسيتها وخصائصها العُرفية والقانونية والسياسية والمُعجمية التي تميزها عن غيرها من الحقب، وهو الأمر الذي يفرض على كل باحث

¹ مؤرخ متخصص في علوم الكتابات القديمة.

Historien, archiviste paléographe Français (1848-1902). Site officiel de l'Académie Française, <http://www.academie-francaise.fr/rene-de-maulde-la-claviere>, consulté le 22 octobre 2019.

² Selon René MAULDE DE LA CLAVIÈRE " La diplomatie est vieille comme le monde et ne périra qu'avec lui ". Françoise AUTRAND, Lucien BELY, Philippe CONTAMINE, Thierry LENTZ, Histoire de la diplomatie française, du moyen âge à l'empire, collection Tempus, éditions Perrin, Paris, 2005, p.72.

³ انتظمت الدبلوماسية كآلية للتواصل عن طريق ممثلين يملكون القدرة على التحدث والتفاوض باسم الجماعة التي ينتمون إليها، وذلك لتنظيم العلاقات المتبادلة، وتلبية الحاجات الفطرية أو تسوية النزاعات التي كانت تحدث بينهم؛ انظر عبد الفتاح علي رشدان، محمد خليل الموسى، أصول العلاقات الدبلوماسية والقنصلية، المركز العلمي للدراسات السياسية، ط 1، الأردن، 2005، ص 31.

في التاريخ الدبلوماسي الحذر في التعاطي مع خصوصية كل فترة، والابتعاد عن الأحكام العامة التي قد تُغيب بعض التفاصيل التاريخية المهمة والضرورية لفهم التطور التاريخي للدبلوماسية وآليات عملها.

ومن هذا المنطلق، فإن تسليط الضوء على التطور التاريخي للدبلوماسية المغربية ليس في رأينا ضرباً من ضروب الترف الفكري، وإنما هو ضرورة ملحة لفهم تطور العمل الدبلوماسي المغربي الراهن، وذلك بالرجوع به إلى جذوره التاريخية، خاصة الفترات التي لم يشملها بعد اهتمام الباحثين والمؤرخين كالحقبة الوسيطية.

ولأجل ذلك وضعنا حدوداً زمنية ومجالية لموضوع هذا العمل الذي اخترنا له العنوان التالي " الدبلوماسية المغربية في العصر الوسيط، دراسة لآليات العمل الدبلوماسي " امتدت على مدى القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط وعلى مجال جغرافي يمتد من غرب أوروبا إلى تخوم الغرب الإسلامي، وهي فترة زمنية قلما أثارت، حسب اعتقادنا، فُضول الباحثين والمشتغلين على موضوع التطور التاريخي للدبلوماسية المغربية، على الرغم من كونها فترة زمنية فاصلة وحلقة وصل بين الحقب، ستُسهّم دراستها لا ريب في فهم آليات العمل الدبلوماسي المغربي الوسيط وكيفية انتقاله من الممارسة الهاوية إلى الاحترافية على وجه الخصوص، ومن الفترة الوسيطية إلى العصر الحديث على وجه العموم.

وتعد مسألة إماطة اللثام عن خصائص الفترة التي مرت منها الدبلوماسية المغربية والتي امتدت على مدى قرون إحدى غايات هذا العمل، كما تُعد أيضاً إحدى إشكالياته البارزة بالنظر إلى ارتباطها بمسألة التكيف الوظيفي للعمل الدبلوماسي، بمعنى هل كان هذا العمل خلال الفترة الوسيطية وظيفية شأنها في ذلك شأن بقية الوظائف المتعارف عليها كالوزارة والحجابه والكتابة وغيرها؟ أم كان مجرد مهمة ظرفية مؤقتة تنقضي آثارها بانقضائها؟ وهل يستقيم الحديث خلال هذه الفترة عن العمل الدبلوماسي المؤسساتي القار والدائم في ظل دبلوماسية ظرفية وهاوية ؟

هذه التساؤلات وغيرها ولدت لدينا بدورها مجموعة أخرى من التساؤلات المرتبطة بخصائص العمل الدبلوماسي المغربي، تتعلق بالوثيقة الدبلوماسية ومميزاتها الشكلية واللغوية والبلاغية وبالمبعوثين الدبلوماسيين ومعايير انتقائهم وبالمحددات التجارية والدينية ودورها في توجيه دفة العمل الدبلوماسي، وهي الأسئلة التي فرضت علينا قبل الإجابة عليها وضع مجموعة من الفرضيات، عملنا على بسط تفاصيلها وتأكيدنا أو نفيها في خاتمة العمل.

إن من شأن الإجابة على هذه الإشكاليات والأسئلة والفرضيات تحديد أسباب بطء تطور الدبلوماسية المغربية وتخلفها بقرون طويلة عن اللحاق بركب الدبلوماسية الغربية التي كانت خلال الفترات المتقدمة من العصر الوسيط تتقاسم الخصائص نفسها مع نظيرتها المغربية.

وبخصوص اختيارنا لموضوع البحث الذي جاء باقتراح من الأستاذ المشرف، عندما فطن إلى اهتمامنا الذاتي بالمواضيع ذات الصلة بالقوانين الدولية والحقل الدبلوماسي، بحكم طبيعة تكويننا المزدوج الذي يجمع بين التاريخ والقانون، فإن عملنا السابق في السلك الدبلوماسي لمدة خمس سنوات كان له الأثر البالغ في توجيهنا نحو هذا الموضوع، وتحفيزنا لاقتحام مجال البحث التاريخي رغبةً في كشف النقاب عن خصائص هذا العمل ومميزاته خلال الفترة الوسيطة وتصحيح بعض الصور النمطية التي ارتبطت به.

وشكل أيضاً إغراء البحث في مجالٍ لم يعتد الكثيرون ولوجه، حافزاً آخر جعلنا نقبل على البحث فيه على الرغم من تعدد العقبات والصعاب. كما شكلت الرغبة في التعريف بالدبلوماسية المغربية وربط الدراسات السابقة التي اتخذت الحقب الحديثة والمعاصرة والراهنة موضوعاً لها بجذورها الوسيطة حافزاً آخر للإقبال على هذا العمل والتشبث به والاستمرار فيه.

وبالنسبة للمنهج المعتمد في البحث، فلقد أملت طبيعة الموضوع وخضع لطبيعة المادة المصدرية المتوفرة، فالحديث عن التطور التاريخي للدبلوماسية أسقط الحدود بين التاريخ والقانون، وفرض علينا التنقل بين مختلف المصادر والوثائق التاريخية والمراجع والدراسات القانونية والسياسية والفقهية بحذر شديد، رغبةً في فك رموز العمل الدبلوماسي المغربي الوسيط والوقوف على خصائصه العرفية والقانونية؛ كما أسقط أيضاً الحدود الجغرافية بين المجالين الإسلامي والمسيحي بالشطر الغربي لحوض البحر المتوسط، وفرض علينا اعتماد منهج المقارنة لرصد أوجه التشابه والاختلاف بين الدبلوماسية المغربية ونظيراتها في الغرب المسيحي.

وإلى جانب المنهج المقارن، اعتمدنا المنهج الإحصائي التحليلي أثناء وبعد عملية تجميع المعطيات المتعلقة بالعمل السفاري الموزعة بين عدد كبير من المصادر والوثائق الدبلوماسية، وهو العمل الذي مكنا من صياغة قاعدة بيانات ضمت معلومات تتعلق بـ 270 سفارة و 433 مبعوث و 117 رسالة

دبلوماسية استخرجنا منها عدداً كبيراً من الأعداد والنسب والرسوم البيانية التي أخضعناها للتأمل والتحليل والاستنتاج.

والجدير بالذكر أنه على الرغم من ندرة الدراسات المغربية والعربية المرتبطة بموضوع الدبلوماسية المغربية خلال العصر الوسيط، إلا أننا حاولنا الوصول إلى أكبر عدد منها، سواء تلك التي تقاطعت بشكل مباشر أو عرضي مع موضوع الأطروحة. وقد انقسمت هذه الدراسات إلى ثلاثة:

- دراسات تعرضت للتاريخ الدبلوماسي بشكل عام من دون التوقف عند الحقبة الوسيطة؛
- دراسات أفردت هامشاً ضيقاً للتاريخ الدبلوماسي في معرض حديثها عن تاريخ العلاقات الدولية بين المغرب ومحيطه؛
- دراسات اهتمت بدبلوماسية العصرين الحديث والمعاصر، ولم تتعرض للدبلوماسية الوسيطة إلا من باب التأصيل التاريخي وإن بشكل مقتضب.

لقد حاولنا تدارك هذه الندرة البيبليوغرافية عن طريق الاسترشاد ببعض الدراسات المرجعية التي احتوت على معطيات مهمة ذات ارتباط مباشر بموضوع الأطروحة، وفي مقدمتها دراسات الأستاذ المؤرخ عبد الهادي التازي الذي يعد أحد رواد البحث التاريخي المغربي المتخصصين في التاريخ الدبلوماسي، فكانت دراساته وأبحاثه نبهتنا على أهميته، اعتمدنا عليها بشكل كبير لتأسيس أرضية صلبة، انطلقنا منها لخوض غمار هذه التجربة، وهي الأرضية التي ضمت عدداً من المقالات⁴ والدراسات الموسوعية، خاصة كتاب "الوسيط في التاريخ الدولي" الذي يقع في ثلاثة أجزاء⁵ والذي تعرض من خلاله الأستاذ عبد الهادي التازي إلى تطور علائق المغرب مع محيطه الدولي منذ الحقب القديمة إلى المعاصرة، وذلك وفق تسلسل كرونولوجي للأحداث السياسية، عمل من خلالها، تارة بشكل مباشر وتارة أخرى بشكل ضمني، على العرض للعمل الدبلوماسي وتبسيط الضوء على بعض أدوات عمله كالوثيقة الدبلوماسية والمبعوث؛ كما استفدنا أيضاً من عمله الموسوعي "التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم" الذي يقع في عشرة أجزاء⁶، اطلعنا عليه واعتمدنا عدداً من المعطيات الواردة فيه خاصة الجزء السابع الذي تعرض

⁴ عبد الهادي التازي، ابن خلدون سفيراً، أعمال ندوة ابن خلدون بمناسبة مرور ستمائة سنة على تحرير ابن خلدون للمقدمة، من 14 - 17 فبراير 1979 منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، 1981، صص 365 - 386.

⁵ عبد الهادي التازي، الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب، دار نشر المعرفة، الرباط، 2001، ج 1 و 2.

⁶ عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مطابع فضالة، 1988، المحمدية، م 7.

خلاله الأستاذ التازي للعمل الدبلوماسي في الفترة المرينية، حيث أورد معطيات قيمة تتعلق بالوثائق والبعثات والمصطلحات؛ وعلى الرغم من قلة المادة الوسيطة مقارنة بما أورده الأستاذ التازي بخصوص دبلوماسية العصر الحديث، إلا أن هذا الأمر لا ينتقص من قيمة عمله شيئاً ولا يقلل من حجم استفادتنا منه وإسهامه في تدليل عدد من الصعاب التي واجهتنا.

كما لا تفوتنا الإشارة في هذا الصدد إلى عمل الأستاذ أحمد عزاي "رسائل موحدية" الذي يقع في جزئين، والذي تضمن عدداً كبيراً من الرسائل الديوانية الموحدية، من ضمنها عدد من الرسائل الدبلوماسية التي خصها بالدراسة والتحليل، حيث قدم الأستاذ عزاي قراءة معمقة في الخصائص الشكلية واللغوية والبلاغية لهذه الرسائل كما عمل على ربطها بسياقها التاريخي والسياسي، وهو الأمر الذي أعاننا في مستهل هذا العمل ويسر لنا الإحاطة ببعض خصائص الكتابة الدبلوماسية المغربية الوسيطة، كما زدنا بمادة مصدريّة غنية اعتمدنا عليها لتعميق البحث في هذا المجال.

ولا نغفل التنويه في هذا السياق بحجم استفادتنا من أعمال الأستاذ عبد الإله بنمليح، خاصة باكورة أعماله كتاب "الرق في المغرب والأندلس"، الذي أفادنا بشكل كبير على مستوى المنهج والبيبلوغرافيا، كما شكل هذا العمل مادة أساسية استقينّا منها عدداً كبيراً من المعطيات الإحصائية المتعلقة بحضور الأقليات الوظيفية "العبيد" في العمل الدبلوماسي خلال العصر الوسيط.⁷

وشكلت أعمال ندوة "التاريخ والدبلوماسية"⁸ التي عرفت مشاركة عدد من الأساتذة والباحثين المغاربة والأجانب إحدى الركائز الأساسية التي قام عليها هذا البحث، بالنظر إلى طبيعية المواضيع التي تعرض لها الأساتذة والباحثون المشاركون في هذه الندوة، والتي انصبّت في مجملها على القضايا المتعلقة بالمصطلح والمنهج والفعل الدبلوماسي في العالم الإسلامي والمغرب خلال العصرين الحديث والمعاصر، وعلى الرغم من توقف معظم الإسهامات عند حدود العصر الحديث، إلا أن تعرضها لمسألة المصطلح والمنهج أفادنا بشكل كبير في بناء تصميم الأطروحة والتأصيل المفهومي والاصطلاحي للدبلوماسية، وتظل مساهمة الأستاذ محمد إمام بخصوص دبلوماسية العصر الوسيط هي المساهمة الوحيدة التي تعرض فيها الباحث لموضوع تقاطع زمني وموضوعاتيا مع موضوع أطروحتنا، من خلال قراءة في السفارة المتبادلة بين

⁷ عبد الإله بنمليح، الرق في بلاد الأندلس والمغرب، منشورات الانتشار العربي، بيروت، 2004.

⁸ التاريخ والدبلوماسية، تنسيق عبد المجيد قدوري، جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 105، ط 1، 2003.

بيزنطة وقرطبة 839-840 م⁹، أفرد فيها حيزاً مهماً للحديث عن توظيف المصطلحات الدبلوماسية ودلالاتها، كما استعرض خصائص العمل السفاري الوسيط انطلاقة من النموذج الأندلسي البيزنطي، وهو الأمر الذي ساعدنا على فهم بعض آليات العمل الدبلوماسي والتأصيل التاريخي له.

وفي الإطار نفسه وبُغية تدارك ندرة الدراسات المغربية المرتبطة بالدبلوماسية الوسيطة، ارتأينا التحول بأنظارنا صوب الدراسات الغربية، لعلنا نحقق الغاية من بحثنا، ونذكر ما غاب عنا في الدراسات باللغة العربية، ونيسر سبيل مقارنة الدبلوماسية المغربية بنظيراتها في الغرب المسيحي. وفي مقدمة الدراسات الغربية المعتمدة في هذه الأطروحة مؤلف المؤرخ البريطاني جيريمي بلاك Jeremy BLACK "تاريخ الدبلوماسية"¹⁰، الذي تعرض فيه للتطور التاريخي للعمل الدبلوماسي الدولي منذ سنة 1450م إلى الزمن الراهن، حيث بسط عمله مختلف الخصائص القانونية والعرفية لهذا العمل في الغرب، كما عمل على التأصيل التاريخي والمفهومي للدبلوماسية بالعودة إلى جذورها اليونانية والرومانية القديمة، وإن كانت معظم الفترة الزمنية التي خصها الباحث بالدراسة تقع خارج النطاق الزمني للأطروحة، إلا أن استفادتنا من المعطيات التي أوردها كانت محورية في توجيه دفة البحث، وإقناعنا بضرورة الانفتاح على التجارب الدبلوماسية الغربية، من خلال إضفاء بعد مقارن على هذه الأطروحة.

واعتمدنا كذلك على العمل الذي قام به المؤرخان الفرنسيان جون ماري موجلان Jean- marie MOEGLIN و اسطفان بيكوينيو Stéphane PEQUIGNOT "الدبلوماسية والعلاقات الدولية في العصر الوسيط"، وهي دراسة شبه موسوعية تجاوز عدد صفحاتها الألف صفحة، استعرض فيها الباحثان التطور التاريخي للعمل الدبلوماسي في أوروبا الغربية، حيث أوردا عدداً من المعطيات التاريخية والإحصائية المتعلقة بالسفارات والسفراء، والمعاهدات والأوقاف، مكنتنا من تعزيز مكتسباتنا المعرفية في هذا المجال، ناهيك عن ضمها فصولاً ومباحث عديدة تتحدث عن الإطار القانوني والعرفي للممارسة الدبلوماسية في العصر الوسيط، كما تعرض للمراسم وتنقل البعثات السفارية وتمويلها¹¹. وقد أفادتنا هذه الدراسة على مستويين : مستوى المنهج حيث اطلعنا على طريقة تعاطي المؤرخين الفرنسيين مع موضوع الدبلوماسية الوسيطة، المختلفة إلى حد ما عن طريقة تعاطي المؤرخين المغاربة والعرب، خاصة

⁹ التاريخ والدبلوماسية، م.س.، صص 89 – 101.

¹⁰ جيريمي بلاك، تاريخ الدبلوماسية، ترجمة أحمد علي سالم، مشروع كلمة، ط 1، هيئة أبو ظبي للثقافة والسياحة، أبو ظبي، 2013؛

الطبعة الأولى: Jeremy BLACK, History of diplomacy, relation books, first published, london, 2010.

¹¹ Jean- marie MOEGLIN et stéphane PEQUIGNOT, Diplomatie et relations internationales au moyen age IX – XV siècle, nouvelle édition, puf, 1^{er} édition, Paris, 2017.

مسألة التعرض لبعض الأبعاد الدقيقة في العمل الدبلوماسي الوسيط، كتنقل البعثات الدبلوماسية وتمويلها وظروف إقامة السفراء والأمن والحصانة وغيرها، وهو الأمر الذي نرجعه لتوفر هؤلاء الباحثين على مادة مصدرية ووثائقية غنية عبارة عن مذكرات وتقارير للسفراء، ومراسلات دبلوماسية وتقارير رسمية محفوظة بعناية في الأرشيف الوطني لعدد من الدول الأوروبية، وهو الأمر الذي افتقدناه عند قيامنا بهذا العمل. أما على المستوى الثاني فقد كان لهذه الدراسة تأثير ملموس في صياغة التصميم وتبني المنهجين المقارن والإحصائي التحليلي، كما كان لها دور مهم في رفد هذا العمل بعدد كبير من المعطيات الإحصائية المحينة، بالنظر إلى أن تاريخ إصدارها يعود إلى سنة 2017.

وفي السياق ذاته اعتمدنا عمل المؤرخة أوليفيا ريمي كونستابل Olivia Remy CONSTABLE "إسكان الغرب في العالم المتوسطي"¹²، الذي ضم معطيات قيمة بخصوص الفنادق التجارية والعمل القنصلي في الحوض المتوسطي، فقد أوردت الباحثة نماذج من المعاهدات والاتفاقيات الوسيطة التي ضمت بنوداً تتعلق بالعمل القنصلي والفنادق، كما أثبتت معطيات إحصائية بخصوص عدد منها، وضمنت عملها قراءة دقيقة ومفصلة لتطور العمل القنصلي وتعدد أدوار الفنادق خلال الفترة الوسيطة، وهو الأمر الذي استفدنا منه بشكل كبير خاصة في المباحث الأخيرة من هذا العمل التي خصصناها لدراسة التقاطعات بين الوظيفة القنصلية والمهام السفارية.

من جهة أخرى، فرض علينا المنهج المتبع البحث عن دراسات تتقاطع منهجياً مع الأطروحة، حيث اطلعنا على مجموعة من الدراسات الإحصائية الأجنبية، أبرزها دراستا الباحثين الفرنسيين آن بريجيت سبيتزبارت Anne-Brigitte SPITZBARTH¹³ وشارل جيرى دولوازون Charles GIRY-DELOISON¹⁴ عن معايير انتقاء السفراء في كل من دوقية بورغون وفرنسا وإنجلترا خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط، وهما دراستان في غاية الأهمية بالنسبة لموضوع الأطروحة بالنظر إلى اعتمادهما على المنهج الإحصائي التحليلي الذي يتقاطع مع المنهج المعتمد في الأطروحة، واشتغالهما على نطاق زمني يوازي الفترة الزمنية

¹² أوليفيا ريمي كونستابل، إسكان الغرب في العالم المتوسطي، السكن والتجارة والرحلة أواخر العصر القديم والوسيط، تعريب تقديم محمد الطاهر المنصوري، المدار الإسلامي، دار الكتاب الجديد، لبنان، 2013، ص 172.

¹³ Anne-Brigitte SPITZBARTH, Le choix des ambassadeurs bourguignons sous Philippe le Bon, troisième duc Valois de Bourgogne (1419-1467) : La stratégie de la spécialisation, entre savoir-être et savoir-faire, Études de lettres, n° 3 | 2010 2016, URL : <http://edl.revues.org/251> ; DOI : 10.4000/edl.251, mis en ligne le 15 septembre 2013, consulté le 04 octobre 2019.

¹⁴ Charles GIRY-DELOISON, Le personnel diplomatique au début du XVI^e siècle. L'exemple des relations franco-anglaises de l'avènement de Henry VII au Camp du Drap d'Or (1485-1520), In Journal des savants, 1987, n° 3 – 4, pp. 205-253.

موضوع البحث، وهو ما ساعدنا على تجاوز ندرة الدراسات المغربية والعربية المماثلة، على مستويات المنهج والحقبة الزمنية، والمعطيات الاجتماعية والثقافية المتعلقة بالمبعوثين الدبلوماسيين خلال هذه الفترة، وهي التي عملنا على تحويلها إلى رسوم بيانية ونسب مئوية.

وإلى جانب الدراسات التاريخية والإحصائية، مكننا الاعتماد على كتب الوثائق من التواصل بشكل مباشر مع عدد كبير من الرسائل الدبلوماسية الوسيطية، ورسائل الاعتماد والصلاحيات، والمعاهدات والاتفاقيات، حيث تميزت هذه الكتب بإيراد الوثائق دون تصرف أو تعليق، وهو الأمر الذي ذلل أمامنا مشقة البحث عنها في الأرشيفات الوطنية للمغرب وللدول التي كانت على علاقة به خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط. ويأتي في مقدمة هذه الكتب الإصدار الأول لمجلة الوثائق الملكية،¹⁵ الذي تضمن عدداً كبيراً من الوثائق الدبلوماسية المرابطية والموحدية والمرينية، ورسائل ميشيل أماري AMARI Michele¹⁶ الذي أورد عدداً كبيراً من الرسائل الديوانية باللغة العربية، خاصة تلك المتبادلة بين الموحدين وعدد من المدن الإيطالية.

وفي السياق ذات لا نغفل الإشارة إلى استفادتنا الكبيرة من وثائق أرشيف أراغون التي تضمنت عدداً من الرسائل الدبلوماسية المتبادلة بين مختلف السلاطين المرينيين ومملكة أراغون خلال العصر الوسيط¹⁷؛ إلى جانب العمل الكبير للمؤرخ دي ماص لاتري L. DE MAS LATRIE الذي يحمل عنوان "اتفاقيات السلم والتجارة ووثائق مختلفة مرتبطة بالعلاقات بين المسيحيين وعرب إفريقيا خلال العصر الوسيط"¹⁸ الذي يوجد في جزآن، خصص جزؤه الأول للحديث عن أهم الأحداث السياسية التي شهدتها الفترة الوسيطية خاصة بشمال إفريقيا، وعن تطور العلاقات التجارية بين الأوروبيين والمسلمين في تلك الفترة، إلى جانب ضمه مجموعة من الرسائل الدبلوماسية والمعاهدات التجارية التي وقّعت بين تجار البندقية وجنوة ومرسيليا وفلورنسا من جهة، وعدد من الأمراء المرابطين والخلفاء الموحدين وغيرهم من جهة أخرى، كما قدم معلومات مستفيضة عن السلع التي كان يُتاجر بها في تلك الحقبة، وهو ما أسهم

¹⁵ مديرية الوثائق الملكية، مجلة الوثائق الملكية، مجموعة وثائقية دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية، المطبعة الملكية، الرباط، 1976، م 1.

¹⁶ AMARI Michele, Diplomi Arabi del R. Archivio Fiorentino, testo originale, in firenze, dalla tipografia di felice le monnier, MDCCCLXIII.

¹⁷ MAXIMILIANO A. ALARCON Y SANROS y DE LINARES Ramon Garcia, Los documentos arabes diplomaticos del archivo de la Corona de Aragon, imprenta de estanislaio maestres, Madrid, 1940.

¹⁸ L. DE MAS LATRIE, Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique au moyen âge, Plon, Paris, T 1 et T2, 1886 – 1872.

بشكل كبير في تعويض النقص الحاصل في المصادر والوثائق الدبلوماسية العربية. في حين حُصص الجزء الثاني بالكامل للرسائل الدبلوماسية التي شملت أيضاً الفترة المرينية. ويعد كتاب دي ماص لاتري من أبرز الأعمال التي استقيناً منها المعطيات المتعلقة بالعمل السفاري الوسيط في المغرب، خاصة المتعلقة برسائل الاعتماد والصلاحيات، والاتفاقيات والمعاهدات التي جمعت المغرب بعدد من الممالك المسيحية في غرب أوروبا، والجدير بالذكر أننا قمنا بنقل عدد كبير من هذه الرسائل وغيرها من الرسائل الواردة في عدد من المصادر العربية إلى ملحق خاص، كما ترجمنا بعضاً منها من اللغة الفرنسية إلى العربية.

ومن جهة أخرى، فرضت علينا طبيعة البحث أن لا نكتفي بالركون إلى الدراسات التاريخية وكتب الوثائق، حيث سعينا لإغناء هذا العمل عن طريق الإطلاع على عدد كبير من الدراسات القانونية والأدبية، في مقدمتها كتاب "الدبلوماسية.." ¹⁹ للباحث والدبلوماسي العراقي همام هاشم الألوسي الذي تعرض فيه للأبعاد القانونية والعرفية للعمل الدبلوماسي الراهن وكذلك للأبعاد البروتوكولية والاصطلاحية، كما تضمن فصولاً تتعلق بالمعاهدات والاتفاقيات الدبلوماسية. ثم كتاب "أصول العلاقات الدبلوماسية والقنصلية" للباحثين عبد الفتاح رشدان ومحمد خليل الموسى اللذين قدما قراءة قانونية وتاريخية لتطور العمل الدبلوماسي منذ الحقب القديمة إلى حدود الزمن الراهن، تعرضوا فيها للبعد المفهومي ولأشكال العمل الدبلوماسي والأنظمة والمبادئ والقوانين والأعراف المؤطرة له على مر العصور، وهو الأمر الذي استفدنا منه بشكل كبير عند تعرضنا لموضوع التأصيل المفهومي للدبلوماسية، كما مكنا من تكوين صورة دقيقة عن تطور مبادئ وآليات العمل الدبلوماسي القانونية وربطها بجذورها الوسيطية.

وبالموازاة مع ذلك استفدنا من كتاب "الدبلوماسية الإسلامية دراسة مقارنة بالقانون الدولي المعاصر" للفقيه القانوني سهيل حسن الفتلاوي ²⁰، الذي عمل على التمييز المفهومي بين "الدبلوماسية الإسلامية" والدبلوماسية كما عرفت المعاهدات والموثائق الدولية، ورصد تطورها التاريخي وفق تسلسل كرونولوجي، ابتداء بالعهد النبوي ووصولاً إلى القرن العشرين، وهو العمل الذي قربنا من الأبعاد الفقهية والقانونية للعمل الدبلوماسي، ومكنا من مقابلة الآراء الفقهية بالنصوص القانونية الوضعية ورصد أوجه التوافق والاختلاف بينهما.

¹⁹ الدبلوماسية، خصائصها الأساسية وتعاملاتها في المجالات الدبلوماسية والقنصلية والبروتوكولية والعلاقات الدولية المتعددة الأطراف، دار القلم للنشر والطباعة والتوزيع، ط 1، الرباط، 2007.

²⁰ دار الثقافة، ط 1، عمان، 2006.

وفي علاقة بالموضوع ذاته، اطلعنا على كتاب "الأصول العامة للعلاقات الدولية في الإسلام زمن السلم" للباحث أحمد عبد الونيس شتا،²¹ الذي تعرض فيه لعدد من المواضيع المرتبطة بالعمل الدبلوماسي من منظور فقهي إسلامي، كالتفاوض وصياغة المعاهدات والأوراق والحصانة وتبادل السفارات بين الدول الإسلامية والكافرة وغيرها من المواضيع التي تتقاطع مع موضوع الأطروحة.

واستعنا أيضاً بعدد من الأعمال التي اتخذت الأدب الأندلسي خلال الفترة الوسيطة موضوعاً لها، كعمل الأستاذ فلاح قيسي "أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري"²² الذي استعرض من فيه عدداً من الخصائص اللغوية والبلاغية للرسائل الديوانية الدبلوماسية الوسيطة؛ وهو الموضوع الذي تقاطع بشكل مباشر مع عدد من محاور الأطروحة خاصة الفصلين الثاني والثالث من الباب الأول، اللذين خصصا لدراسة المميزات الشكلية واللغوية والبلاغية للرسائل الدبلوماسية المغربية.

وأفادنا في السياق ذاته كتاب الأستاذ شوقي ضيف "الفن ومذاهبه في النثر العربي"،²³ الذي خصص حيزاً مهماً من عمله لتفكيك خصائص الكتابة الديوانية في الغرب الإسلامي ونقدها، وهو العمل الذي أمدنا بمجموعة من الأدوات الأدبية واللغوية وظفناها لتحليل وإعادة قراءة الوثائق الدبلوماسية المغربية ورصد خصائصها ومميزاتها على مستوى الشكل والمضمون.

وخلاصة القول، إن أغلب الدراسات السابقة، خاصة ما كتب منها باللغة العربية، لم يتعرض بشكل مباشر للعمل الدبلوماسي الوسيطي وآليات اشتغاله، حيث سجلنا التعاطي العام مع هذا الموضوع بدمجه في سياقه التاريخي السياسي أو تاريخ العلاقات الدولية دون تمييزه عنها؛ كما أن جلّها اختص بدراسة العصرين الحديث والمعاصر لوفرة المادة البيبليوغرافية والوثائقية.

أما بخصوص الأبحاث الجامعية ذات الصلة بالموضوع، فإننا سجلنا ندرتها، وفي بعض الأحيان غيابها بحكم ضعف إقبال الباحثين الجامعيين على خوض غمار البحث في المواضيع المشتركة بين التاريخ والقانون، مما حفزنا على المضي قدماً في هذا العمل رغبة في رفد الخزانة التاريخية المغربية بعمل قد يسهم في سد بعض ثغراتها المتعلقة بالدبلوماسية المغربية في العصر الوسيط.

²¹ المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996.

²² جار البشير لنشر والتوزيع، ط 1، بيروت، 1989.

²³ مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، ط 9، جمهورية مصر العربية، د.ت.

وهكذا عملنا في البحث على دراسة خصائص العمل الدبلوماسي المغربي الوسيط من خلال الإنكباب على آليات اشتغاله، انطلاقاً من الوثيقة ومروراً بالعنصر البشري ووصولاً إلى المبادئ القانونية والعرفية المؤطرة له، وذلك عبر تقسيمه إلى تقديم وبابين وخمسة فصول وخاتمة.

خصصنا الباب الأول للتأصيل المفهومي والإصطلاحي للدبلوماسية والسفارة وتبسيط الضوء على تطورها التاريخي في العصور القديمة، كما توقفنا عند الغاية من العمل الدبلوماسي قبل رصد وتببع معايير انتقاء كتاب الرسائل الدبلوماسية وخصائصها الشكلية واللغوية والبلاغية وتقييم أوجه الإلتاف والاختلاف بينها وبين الرسائل المشرقية والأندلسية. وإلى جانب ذلك عملنا بالاعتماد على المنهج الإحصائي التحليلي على حصر أغراض الرسائل الدبلوماسية انطلاقاً من المعطيات المستقاة من 117 رسالة استخرجنا منها عدداً من الرسوم البيانية، دون أن نغفل التعليق عليها وربطها بسياقها السياسي والاقتصادي والتاريخي.

وفي خلال الباب الثاني وجهنا اهتمامنا صوب العنصر البشري باعتباره أحد أبرز آليات العمل الدبلوماسي الوسيط، حيث عملنا على تببع المعايير المعتمدة لانتقاء السفراء المغاربة ونظرائهم الأوروبيين، كما أولينا عنايةً بالغة بدراسة مبادئ العمل الدبلوماسي القانونية والعرفية، كالأمن الشخصي والحصانة القضائية والإميازات المالية، دون أن نغفل المراسم والهدايا والمسائل المرتبطة بتنقل البعثات السفارية وتمويلها، وذلك وفقاً للمنهج الإحصائي التحليلي الذي مكّننا من جمع معطيات تتعلق بـ 270 سفارة و433 مبعوثاً، عملنا كذلك على تحويلها إلى رسوم بيانية وظفناها في الإجابة على الطرح الإشكالي والأسئلة المرتبطة به وكذلك في تأكيد أو نفي الفرضيات التي وضعناها. وفي ختام هذا الباب حاولنا رصد أبرز المحددات التجارية والدينية التي كان لها أثر كبير في توجيه دفة العمل الدبلوماسي المغربي، من خلال دراسة عدد من الاتفاقيات والمعاهدات وبسط تفاصيل عدد من الآراء الفقهية المتعلقة بالعمل الدبلوماسي الوسيط، كما خصصنا حيزاً مهماً للحديث عن العمل القنصلي ومؤسسة الفندق باعتبارهما نواة العمل السفاري القاري والدائم.

وإذا كانت الدراسات السابقة ذات العلاقة المباشرة أو غير المباشرة بموضوع الأطروحة قد وُجّهت عملنا وحددت معالمه ورسومه وحدوده، فإنه يُعزى الفضل إلى الكتابات المغربية والمشرقية في تزويدنا بالمادة المصدرية اللازمة التي وإن كانت شحيحة إلا أن ما توفر لدينا منها كانت أهميته كبيرة بالنسبة لموضوع العمل، خاصة أن عدداً منها تقاطع زمنياً وموضوعاتياً مع البحث.

ويمكن تقسيم هذه المصادر إلى أربعة أقسام :

- مصادر تقاطعت زمنياً وموضوعاتياً مع البحث، ككتاب "رسل الملوك"²⁴ لابن الفراء و "صبح الأعشى للقلقشندي"²⁵؛
- مصادر تعرضت لموضوع البحث جزئياً في سياق حديثها عن التاريخ العام للغرب الإسلامي ككتاب "الأنيس المطرب" لابن أبي زرع²⁶ و "العبر" لابن خلدون²⁷؛
- مصادر نقلت عدداً من الوثائق الدبلوماسية الوسيطية ككتاب "ريحانة الكتاب"²⁸ و "كناسة الدكان"²⁹ لابن الخطيب؛
- وأخيراً مصادر فقهية وحديثية ككتاب "المغني" لابن قدامة³⁰ و "جامع الأسانيد" للشافعي³¹ و "شرح كتاب السير الكبير" للسرخسي³².

وبالعودة إلى كتاب "رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة" لأبي علي الحسين بن محمد، المعروف بابن الفراء، فإنه تميز بوحدة الموضوع؛ فقد تعرض للمعايير الواجب توفرها في المرشحين للعمل السفاري سيراً على نهج كتب الآداب السلطانية. وهو ما أفادنا بشكل كبير في هذه الأطروحة بالنظر إلى التقاطع الزمني والموضوعاتي الحاصل بينهما، والذي أمدنا بمعطيات دقيقة عن معايير الرفعة الاجتماعية والوظيفية، والكفاءة العلمية والمعرفية التي كانت تشترط في سفراء الفترات المتأخرة من العصر الوسيط.

²⁴ أبو علي الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء، كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحقيق صلاح المنجد، الطبعة الثالثة، دار الكتاب الجديدة، بيروت، 1993.

²⁵ أبي العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب الخديوية، المطبعة الأميرية، 1915 - 1922، ج 1 - 8.

²⁶ علي ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، ط 2، المطبعة الملكية، 1999، الرباط.

²⁷ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تاريخ بن خلدون، تحقيق أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الأردن، د.ت.

²⁸ لسان الدين ابن الخطيب، ریحانة الكتاب ونجعة المنتخب، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة ط 1، 1980، ج 1.

²⁹ لسان الدين ابن الخطيب، كناسة الدكان بعد انتقال السكان، حول العلاقات السياسية بين مملكتي غرناطة والمغرب في القرن الثامن الهجري، تحقيق محمد كمال شبانة ومحمود حسن، وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكاتب للطباعة والنشر، القاهرة، 1966.

³⁰ أبو محمد عبد الله ابن قدامة، المغني، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983، ج 10.

³¹ أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير الشافعي، جامع الأسانيد والسنن، مسند أنس بن مالك، خرجه عبد المعطي أمين فلعي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ق 2.

³² محمد بن أحمد السرخسي، شرح كتاب السير الكبير محمد بن الحسن الشيباني، تحقيق صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، 1972، ج 4.

كما استفدنا من الآراء الفقهية التي حفل بها بحكم ضمه عدداً من النصوص اليونانية والفارسية والهندية المفقودة، المرتبطة بالعمل الدبلوماسي خلال الحقبين القديمة والوسيطة، وهو الأمر الذي ساعدنا بشكل كبير في التأسيس التاريخي والشرعي للعمل الدبلوماسي، وفي رصد وتصنيف معايير انتقاء السفراء المشاركة لمقارنتها مع تلك المعتمدة لاختيار المبعوثين الدبلوماسيين المغاربة. وعلى الرغم من اقتصار حديث ابن الفراء على الأنموذج الدبلوماسي المشرقي إلا أننا لا ننكر استفادتنا الكبيرة من هذا العمل بالنظر إلى تشابه آليات العمل الدبلوماسي بين المشرق والمغرب.

ويعد كتاب صبح الأعشى للقلقشندي من المصادر الرئيسية التي استقينا منها المعطيات المتعلقة بالعمل السفاري خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط، خاصة المعطيات المتعلقة بالكتابة الديوانية ومعايير انتقاء السفراء والكتّاب. وعلى الرغم من كون هذا الكتاب لا يلتزم بوحدة الموضوع، إلا أن تقاطعه الزمني والموضوعاتي مع عدد كبير من محاور الأطروحة جعله في مقدمة المصادر التي اعتمدنا عليها، كما تجلت أهميته أيضاً في إيراد عدد من الوثائق الدبلوماسية خاصة الرسائل التي فكك صاحب الكتاب خصائصها الشكلية واللغوية والبلاغية، الأمر الذي جعل من "صبح الأعشى" أحد المصادر المتفردة التي لم تكتف فقط بإيراد الرسائل والوثائق كما فعل ابن الخطيب في "الريحانة" و"الكناسة"، إنما تجاوزه لتحليل مضامينها وبسط خصائصها. وإلى جانب ذلك يُعد هذا المصدر من الأعمال النادرة التي جمعت بين تحليل الوثيقة الدبلوماسية ورصد معايير انتقاء الكتاب والسفراء، والمبادئ والأعراف الدبلوماسية السائدة آنذاك، خاصة تلك المتعلقة بالمراسم، من دون التقيد بالحدود الجغرافية على غرار ابن الفراء، حيث شمل كل من مصر المملوكية والمغرب المريني والأندلس النصرية وإفريقية الحفصية والمغرب الأوسط الزياني، مما يسر لنا عملية رصد أوجه التشابه والاختلاف بين العمل السفاري في مختلف هذه الكيانات السياسية.

وفي السياق ذاته، يعد كتاب العبر، على الرغم من انتمائه إلى كتب التاريخ العام، من المصادر التي استفدنا منها بشكل كبير، أولاً لأن مؤلفه عمل في الكتابة والسفارة لدى عدد من دول الغرب الإسلامي خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط، وأورد عدداً كبيراً من المعطيات المتعلقة بالعمل السفاري وبالبعثات المتبادلة بين مختلف الكيانات السياسية الإسلامية، كما اكتسب المصدر أهمية كبيرة من كون صاحبه عاصر عدداً من الأحداث المرتبطة بالعمل الدبلوماسي التي تحدث عنها في العبر.

ويعد كتاب "الأنيس المطرب" لابن أبي زرع، من كتب التاريخ العام التي حفلت بعدد كبير من المعلومات المتعلقة بالعمل السفاري خاصة في الفترة المرينية، حيث أورد صاحب الكتاب عدة مقتطفات من بعض الرسائل الدبلوماسية المتبادلة بين عدد من خلفاء وملوك وسلطين المغرب ونظرائهم في المشرق وفي الغرب المسيحي اعتمدنا نسبة مهمة من المعلومات الواردة فيه، في صياغة هذا العمل.

يُعد كتابا "كناسة" الدكان و"الريحانة" لسان الدين ابن الخطيب من المصادر المهمة التي استقينا منها معطيات هذا العمل، فقد ضم هذين المصدرين العشرات من الرسائل الدبلوماسية التي كتبها لسان الدين ابن الخطيب، وأغلبها موجه من الأندلس إلى المغرب، مما مكنا من رصد معلومات دقيقة بشأن عدد كبير من السفارات الوافدة على الدولة المرينية. غير أن إغفال ابن لخطيب ذكر أسماء السفراء والمبعوثين فوت علينا فرصة التعرف عليهم وعلى خلفياتهم الاجتماعية والوظيفية، ناهيك عن عدم تمييزه الوظيفي في الرسائل التي كتبها بين السفير والرسول، وهي ميزة لا يتفرد بها ابن الخطيب.

أما بخصوص المصادر الفقهية، فقد يسرت لنا مهمة الوصول إلى عدد كبير من الأحاديث والآراء الفقهية المتعلقة بالعمل الدبلوماسي، خاصة تلك المرتبطة بالتقسيم الفقهي للعالم "دار إسلام" و "دار حرب" و "دار عهد"، وكذلك بعض المبادئ الفقهية التي تتقاطع مع المبادئ العامة للعمل الدبلوماسي كالأمان والعهد، وهو ما ساعدنا على فهم تعاطي النخب السياسية المغربية مع العمل السفاري، باعتبار أنه لا يمكن فهم تطور هذا العمل خلال الفترة الوسيطية إلا على ضوء الآراء الفقهية الموجهة.

وفي هذا السياق لا مندوحة من التذكير أن اقتحام البحث في هذه الحقبة المفصلية من تاريخ العمل الدبلوماسي المغربي استوجب مجابهة صعوبات جمة، مرتبطة في مجملها بندرة المادة الوثائقية من مراسلات ومعهادات وغيرها؛ حيث أن جُلَّ ما اجتمع لدينا كان عبارة عن نصوص أو مقتطفات لوثائق وردت في كتب عدد من الإخباريين والمؤرخين المغاربة الوسيطيين، والتي غالباً ما كانت ترد مبتورة أو ناقصة، الأمر الذي قوّت علينا إمكانية الوصول إلى معلومات مهمة كانت ستساعدنا على فهم أعمق لدينامية العمل الدبلوماسي المغربي الوسيط والإمام بخصائصه وآليات اشتغاله؛ وهو نقص عمّلنا على تعويضه

عبر البحث في الأرشيفات الغربية، كالأرشيف الوطني لأراغون³³ ومصنفات عدد من الباحثين الأوروبيين كميشيل أماري Michele AMARI³⁴ ودي ماص لاتري L. DE MAS LATRIE³⁵.

وإلى جانب الشح المصدري، واجهتنا عقبة التعاطي اللغوي مع الوثائق التي بين أيدينا، خاصة المراسلات والمعاهدات التي أوردتها عددٌ من المؤرخين الأجانب باللغة اللاتينية، أو بعض اللغات الأوروبية القديمة أو الوسيطية التشكّل، وهو الأمر الذي حاولنا تجاوزه بالاعتماد على عدد من آليات وأدوات البحث التاريخي، إلى جانب ترجمة بعض الرسائل الواردة باللغة الفرنسية وبعض المقتطفات باللغة الإسبانية؛ كما واجهتنا في السياق ذاته إشكالية ترجمة عدد من المصطلحات القانونية والاقتصادية والدينية الواردة باللغة اللاتينية والفرنسية والإسبانية والإيطالية إلى العربية، الأمر الذي دفعنا إلى طرق أبواب أساتذتنا الأفاضل، وفي مقدمتهم الأستاذ المشرف عبد الإله بنمليح الذي لم يبخل علينا بتوجيهاته وإرشاداته السديدة، والتمسنا بعض الأجوبة المرتبطة بالمصطلح في الرواية الشفوية، كما اضطررنا في مرات عديدة إلى استدعاء مكتسباتنا المعرفية والقانونية والتاريخية وغيرها لصياغة ترجمة تقريبية لبعض المصطلحات الواردة في عدد من الوثائق التي اعتمدنا عليها.

وارتباطاً بمسألة المصطلح، جدير بالذكر أنه في بداية عملنا واجهتنا عقبة اعتماد مصطلح الدبلوماسية لتوصيف العمل السفاري خلال الفترة الوسيطية، خاصة وأن عدداً من المؤرخين المغاربة والعرب رفضوا توظيف المصطلحات المعاصرة والراهنة للحديث عن العصر الوسيط، وهو الأمر الذي شق علينا في بداية العمل، قبل أن نحسم الأمر بترجيح كفة اعتماد مصطلح الدبلوماسية للحديث عن العمل السفاري الوسيط وتجاوز غياب مصطلح جامع، كما حفزنا على المضي في هذا التوجه اعتماد عدد من المؤرخين المغاربة والأوروبيين المقاربة نفسها.

من جهة أخرى كان تدبير الغلاف الزمني المرصود لإنجاز الأطروحة من بين أبرز الصعوبات التي واجهتنا، حيث أنه بالنظر إلى طبيعة البحث وإلى المناهج المعتمدة التي فرضت علينا سلك مسارات وطرائق بحثية استنزفت معظم الرصيد الزمني المرصود للأطروحة، رغبةً في تقديم عمل رصين يستوفي شروط البحث العلمي والمعايير الأكاديمية المتعارف عليها، وبالنظر كذلك إلى التزاماتنا المهنية والعلمية الموازية

³³ Archivo de la Corona de Aragon, op.cit.

³⁴ AMARI, op.cit.

³⁵ DE MAS LATRIE, op.cit, T1 et T2.

التي استحوذت على جزء من هذا الرصيد، كدنا في مرات عديدة أن نستسلم لهذه الصعوبات والعقبات، وندسحب من خوض غمار هذا البحث لولا تدخل الأستاذ المشرف وبثه الأمل في وصول الأطروحة إلى غايتها، وهو الأمر الذي حفزنا على بذل المزيد من الجهد والسعي لتحقيق عدد من هذه الالتزامات لصالح التفرغ الكلي، وهو ما نجحنا بحمد الله وحسن عونه في بلوغه.

وإذ أقدم ثمرة جهدي المتواضع، لا يفوتني أن أتوجه بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى الأستاذ الدكتور عبد الإله بنمليح الذي كانت لتوجيهاته وإرشاداته السديدة بالغ الأثر في خروج هذا العمل إلى الوجود، كما كان لتحفيزه المستمر ومده إياي بنصائحه الصائبة دور كبير في تمكني من تجاوز عدد من الصعاب والعقبات التي واجهتني، فجازاه الله عني أحسن الجزاء.

كما أتوجه بالشكر الوافر إلى أساتذتي أعضاء اللجنة العملية الموقرة على قبولهم تقييم هذا العمل ومناقشته، وتجشم عناء تنقيحه وتصويبه، وإلى كل أساتذتي بشعبة التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرارز الذين حظيت لديهم بكامل العناية والتشجيع، وهو ما ينسحب على أساتذتي في شعبة القانون الخاص (القسم الفرنسي) بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بفاس، الذين لم يبخلوا علي بدعمهم وتحفيزهم المتواصل، جازاهم الله جميعاً على تفانيهم في خدمة العلم والباحثين، أوفى الجزاء.

وأغتتم هذه الفرصة كذلك، لتوجيه الشكر والامتنان لكل الأصدقاء ممن آزروني طلية سنوات البحث وكانوا لي سنداً في مواجهة العقبات التي اعترضت هذا العمل، كما أتقدم بشكري العميق والصادق إلى السيد المدير العام للمدرسة الوطنية العليا للإدارة بالرباط، وإلى كل أساتذتي وزملائي بهذه المعلمة العريقة، اعترافاً لهم بفضلهم الكبير علي.

كما أقدم عرفاني وشكري لوالدتي أطال الله عمرها نظير دعمهما اللامحدود، وأعتذر لها عن أي تقصير نجم عن انشغالاتي الأكاديمية أو المهنية، وعظيم شكري موجه إلى والدي حفظه الله لما قدمه لي من مساعدة مادية ومعنوية فجازاهما الله عني أفضل الجزاء.

الشكر موصول إلى كل من :

إدارة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، ومسؤولي المكتبات التي ترددت عليها، خاصة المكتبة الوطنية ومكتبة المدرسة الوطنية العليا للإدارة بالرباط، ومكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود بالدار البيضاء، ومكتبة كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية ومكتبة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز بفاس.

فاس في 30 جمادى الأولى 1441 / 26 يناير 2020

الباب الأول : خصائص الدبلوماسية المغربية الوسيطة

نشأت الدبلوماسية منذ أقدم العصور وسيلةً للاتصال والتفاهم بين الجماعات البشرية المتجاورة، ولأجل ذلك طوّرت آليات التواصل الدبلوماسي كالمراسلات والمعاهدات، واختصتها بمعجم ومصطلحاتٍ اصطلاحية عليها في الزمن المعاصر والراهن بالخطاب الدبلوماسي، لذلك ارتأينا تخصيص الفصل الأول لدراسة الخصائص الشكلية واللغوية للخطاب الدبلوماسي الوسيطي من خلال المعاهدات والمراسلات المتبادلة بين المغرب وعدد من دول حوض البحر المتوسط، وذلك قبل الانتقال لسبر أغوار الممارسة الدبلوماسية الوسيطة عن طريق دراسة القوانين المنظمة لها والأعراف التي ميزتها، دون إغفال قياس درجة التأثير والتأثر بين المغرب والكيانات السياسية المجاورة له في هذا المجال.

قبل التعرّض لخصائص الخطاب الدبلوماسي الوسيطي، يجدر بنا أولاً بسط التعقيد المفهومي والاصطلاحي للدبلوماسية والعمل السفاري، وتميزهما عن غيرهما من المصطلحات الرديفة التي كانت متداولةً إلى عهدٍ قريب من أجل توصيف الدبلوماسية وأدوات عملها؛ وهي محطة نعتبرها ذات أهمية بالغة، لأنها ستنبص على رصد التطور المفاهيمي والاصطلاحي للدبلوماسية على مر العصور، كما ستمكننا من وضع العمل الدبلوماسي الوسيطي في سياقه الزمني قبل التوجه لتسليط أضواء البحث على الدبلوماسية المغربية الوسيطة.

الفصل الأول : التأصيل الاصطلاحي والمفاهيمي

لقد فرضت علينا ندرة التعريفات التاريخية لمصطلح الدبلوماسية والآليات المرتبطة به أن نتوجه صوب كتب القانون العام، خاصة المتعلقة بالعلائق الدبلوماسية والوظائف والمهام المرتبطة بها، فعملنا على استخلاص مجموعة من التعريفات القانونية وتفكيكها وإعادة تركيبها بُغية وضع تعريف جامع ووسطي بين الأبعاد التاريخية والقانونية.³⁶

1- الدبلوماسية الوسيطة، غياب المصطلح وحضور المفهوم

بدايةً، يجدر بنا التمييز بين السياسة الخارجية والدبلوماسية، فهما أمران مختلفان رغم ما قد يوحي به انتماءهما إلى الحقل الدلالي نفسه، فالأولى تعني مجموعة القرارات التي تحدد أهداف الدولة الخارجية السياسية والاقتصادية والأعمال التي تُتخذ لتنفيذها³⁷، أما الدبلوماسية فهي مجموع الأدوات التي تُنفذ بها الدولة سياستها الخارجية، وهو التعريف الذي سوف نعود إليه بالتفصيل خلال الفقرات التالية.

حري بنا في هذا السياق، التذكير بأنه لم يتم اعتماد مصطلح الدبلوماسية إلا في الفترات المتأخرة للعصر الحديث وبداية الحقبة المعاصرة، وهو الأمر الذي ترتبت عنه مجموعة من الإشكاليات بالنسبة للمؤرخين والباحثين المشتغلين بدبلوماسية العصور الوسطى، في مقدمتها كيفية التجرد من الإطار المفاهيمي الحديث والمعاصر لدراسة الدبلوماسية الوسيطة، وهو الجدل الذي حُسم في عدد من دول أوروبا الغربية لصالح اعتماد هذه المصطلحات أدواتٍ لتحليل ودراسة دبلوماسية العصور القديمة والوسيطة، في حين لازال هذا الجدل محتدماً في عددٍ من الأوساط العلمية المشرقية والمغربية، بين دعاة توظيف المصطلحات المعاصرة والراهنة لدراسة الحقب التاريخية السالفة الذكر، وبين مناصري المحافظة على اعتماد المصطلحات المرتبطة بدراسة كل حقبة على حدة، على اعتبار أن توظيف المعجم المعاصر والراهن لدراسة هذه الحقب هو بمثابة انتزاع لها من سياقها الزمني وتشويه للمفاهيم المرتبطة بها، وهو الأمر الذي نخالفهم الرأي فيه، بالنظر إلى أن توظيف المصطلحات الراهنة لدراسة بعض الفترات التاريخية لا ينتزعها من سياقها الزمني بقدر ما يعين الباحثين على فهم ما استُغلق، ويُسهّم في تقريب

³⁶ المعهد الدبلوماسي، دليل قواعد وأصول التنظيم الدبلوماسي والقنصلي وتطبيقاتها في دولة قطر، وزارة الخارجية القطرية، ط 2، الدوحة، نونبر 2014، ص 11.

³⁷ حسين خليل، التنظيم الدبلوماسي، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، 2012، ص 59.

القراء من الدراسات التاريخية عن طريق نَبذ المصطلحات المهجورة عَصية الفهم، واعتماد مصطلحات قريبة لأفهام الباحثين غير المتخصصين في التاريخ الوسيط والمهتمين .

من بين أبرز دعاة اعتماد المصطلحات المعاصرة والراهنّة لدراسة مواضيع وسيطية نجد المؤرخ الأستاذ الباحث إبراهيم القادري بوتشيش، الذي سبق وأن أثار في دراسة سابقة له عن الطبقات في المجتمع الوسيط المغربي، مسألة اعتماد المصطلحات السالفة الذكر حين وظف مصطلح " الطبقة " للحديث عن التطور الاجتماعي في العصر الوسيط، حيث انتهى الباحث إلى ضرورة تجاوز إشكالية المصطلح للحديث عن مفاهيم وقضايا ترجع إلى فترات تاريخية سابقة³⁸ ، وهو التوجه الذي أثّرنا اعتماداً، بالنظر إلى أن اختيار مصطلح الدبلوماسية الذي فرضته طبيعة البحث لا يختص بدراسة التطور التاريخي لوظيفة السفير أو البعثة السفارية فقط، إنما يتجاوزه لرصد ممارساتها والوثائق الصادرة عنها، وتأثيرها وتأثرها بسياقها الاجتماعي والسياسي والثقافي، وبالتالي فإننا أمام منظومة متعددة الأبعاد تتجاوز التعريف البسيط للسفير والسفارة أو الرحلات السفارية كما وردت في كتب الإخباريين والمؤرخين الوسيطين.

إلى جانب الأستاذ إبراهيم القادري بودشيش، اعتمد عددٌ من المؤرخين المغاربة مُصطلحات راهنة ومعاصرة لدراسة الدبلوماسية المغربية خلال العصر الحديث، منهم على سبيل المثال لا الحصر الغاشي مصطفى صاحب كتاب " الرحلة المغربية والشرق العثماني، محاولة في بناء الصورة "³⁹ ، والأستاذ عبد المجيد قدوري مؤلف كتابي " سفراء مغاربة في أوروبا 1610 – 1922 في الوعي بالتفاوت "⁴⁰ و "المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)"⁴¹؛ كما لا تفوتنا الإشارة إلى مداخلة الباحث نفسه التي قدمها بمناسبة ندوة " الدبلوماسية والتاريخ " تحت عنوان " دبلوماسية المأمورية، دبلوماسية

³⁸ إبراهيم القادري بودشيش، تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1994، ص 07.

³⁹ مصطفى الغاشي، الرحلة المغربية والشرق العثماني، محاولة في بناء الصورة، دار الانتشار العربي، ط 1، 2015.

⁴⁰ عبد المجيد قدوري، سفراء مغاربة في أوروبا 1610 – 1922 في الوعي بالتفاوت، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 13، مطبعة النجاح، الجديدة الدار البيضاء، 1995.

⁴¹ عبد المجيد قدوري، المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000.

التأسيس⁴²، وهي الندوة التي اتخذت مسألة المصطلح موضوعاً لها، والتي عرفت مشاركة عددٍ من المؤرخين والباحثين الذين تحرروا بدورهم من ضوابط المصطلح لصالح اعتماد مصطلح الدبلوماسية للحديث عن العصور الوسيطية والقديمة.

اختلف المؤرخون وفقهاء القانون في حصر الإطار المفهومي لمصطلح الدبلوماسية، فهناك من وظّفها للإشارة إلى مفهوم السياسة الخارجية، وهناك آخرون استخدموها للحديث عن آليات حسم الخلافات التي تنشأ بين الدول، فضلاً عما اعتبرها فناً يستند إلى موهبة ونباهة المشتغلين بها.⁴³

عموماً، نَحْيُ مُعْظَمَ فقهاء القانون نحو تعريفٍ عامٍ للدبلوماسية بالاستناد إلى مفاهيم معاصرة وراهنّة، حيث عرفوا الدبلوماسية بكونها العلم الذي يهتم بدراسة العلاقات والمصالح المتبادلة بين الدول والأفراد،⁴⁴ إلى جانب دراسة القواعد والأعراف التي يترتب على الممثل الدبلوماسي مراعاتها في أداء واجبه⁴⁵، غير أن هناك تعريف عدد من الفقهاء استناداً إلى أبعادها الوظيفية بكونها مجموع عمليات إدارة وتنظيم العلاقات الدولية بواسطة عدد من الفاعلين المؤسسيين والذاتيين في مقدمتهم السُفراء والمبعوثون،⁴⁶ عن طريق المراسلات والمفاوضات⁴⁷ وعقد الاتفاقيات والمعاهدات، كما عرّفها فئة أخرى من القانونيين بكونها مجموع العلائق التي تربط دولة بالدول الأخرى، ومجموعة النُظم، والأساليب التي تجري عليها في تنظيم هذه العلاقات وما تنطوي عليه من بواعث وأهداف⁴⁸، وما يتبع ذلك من امتيازات وحصانة للسفراء والقناصل وأماكن إقامتهم.⁴⁹

⁴² عبد المجيد قدوري، دبلوماسية المأمورية – دبلوماسية التأسيس، ندوة التاريخ والدبلوماسية، قضايا المصطلح والمنهج، تنسيق قدوري عبد المجيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 105، مطبعة النجاح الجديدة، ط 3، الدار البيضاء، 2003، صص 255 – 269.

⁴³ محمد زكي فاضل، الدبلوماسية في النظرية والتطبيق، ط 1، وزارة المعارف، بغداد، 1960، ص 7.

⁴⁴ قدوري، دبلوماسية المأمورية – دبلوماسية التأسيس، م. س.، ص 256.

⁴⁵ الألوسي، م. س.، ص 25.

⁴⁶ محمد المجدوب، القانون الدولي العام، منشورات الحلبي الحقوقية، ط 5، بيروت 2004، ص 7؛ أنظر أيضاً، الألوسي، م. س.، ص 25.

⁴⁷ إسماعيل مقلد، علاقة السياسة الدولية، دراسة في الأصول والنظريات، منشورات ذات السلاسل، ط 5، الكويت، 1972، ص 590؛ أنظر أيضاً، تعريف محمد عبد الله عنان للدبلوماسية، بكونها مجموعة العلائق التي تربط دولة من الدول بالدول الأخرى، ومجموعة النُظم، والأساليب التي تجري عليها في تنظيم هذه العلاقات، أو بعبارة أخرى السياسة الخارجية للدول وما تنطوي عليه من بواعث وأهداف؛ عنان محمد عبد الله، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، مؤسسة الخانجي، ط 4، القاهرة، 1962، ص 202.

⁴⁸ نفس المرجع والصفحة.

⁴⁹ محمد اعفيف، الولاء والدبلوماسية نموذج العلاقات بين اليابان وهولندا في القرن 17، ندوة التاريخ والدبلوماسية، قضايا المصطلح والمنهج، تنسيق عبد المجيد قدوري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 105، مطبعة النجاح الجديدة، ط 3، الدار البيضاء، 2003، ص 162.

والملاحظ أن معظم التعريفات المعتمدة من قبل فقهاء القانون العرب غربية المصدر، لا تعترف إلا بالمفاهيم المؤسسية للدبلوماسية،⁵⁰ كما أقرتها المعاهدات الأوروبية كمعاهدتي ويستفاليا Westphalie سنة 1648م⁵¹ وفيينا Vienne سنة 1815م⁵²، واتفاقيات إيكس لاشابيل Ex Lachapelle سنة 1818م⁵³ وفيينا للعلاقات الدبلوماسية والقنصلية لسنة 1961م⁵⁴ و1963م⁵⁵.

يجدر التذكير هنا أن عدداً من المؤرخين المغاربة أحجموا عن اعتماد التعريفات الغربية لتعريف الدبلوماسية المغربية الوسيطة والحديثة، وذلك لما يرونه من وجود اختلافات جوهرية بين دبلوماسية مغربية تتميز بالبساطة والخضوع للمؤثرات الدينية وللإرادة السلطانية وضُعب تكوين المشتغلين بها⁵⁶، ودبلوماسية أوروبية مؤسسية معقدة وفاعلة⁵⁷، وهي مقابلة أغفلت مسألة وجود أنماط متعدد للدبلوماسية منها ما يُعرف بالدبلوماسية الشرقية، التي لها خصائصها التي تميزها عن الدبلوماسية الغربية ذات الجذور اليونانية – الرومانية والخاضعة بشكل كبير للمؤثرات الكنسية.

ارتباطاً بالموضوع ذاته يَعتبر المؤرخ البريطاني جيرمي بلاك Jeremy BLACK أن التعريفات الغربية للدبلوماسية بالغلة الضيق، لأنها تركز على النموذج الغربي فقط، وتقصي من المشهد بقية الأنظمة والآليات الدبلوماسية لدى الشعوب والحضارات الأخرى، لذا نجد أن بلاك يرفض الامتثال للتعريفات السالفة الذكر، ويُعرف الدبلوماسية بشكل أرحب دون أن يتقيد بالمفاهيم الغربية التي تركز على الشكل المؤسسي والنظم العامة لجمع المعلومات والتمثيل والتفاوض،⁵⁸ كما أنه لا يحصرها في البعد السلمي

⁵⁰ بلاك، م.س.، ص 14.

⁵¹ klaus MALETTKE, Les traités de paix de westphalie et l'organisation politique du saint empire romain, in Rev Dix-septième siècle, presses universitaires de france, n° 210 2001/1, pp. 113 à 144.

⁵² Congrès de Vienne (1814 / 1815), acte du congrès de Vienne du 9 juin 1815, avec ses annexe, édition officielle, imprimerie imperiale et Royale, Vienne, 1815.

⁵³ Lettres sur le congrès d'AIX LA CHAPELLE, n°1, J.L Chanson imprimeur libraire, Paris, septembre 1818.

⁵⁴ Convention de vienne sur les relations diplomatiques 1961, faite à vienne le 18 avril 1961, entrée en vigueur le 24 avril 1964, Nations Unies, recueil des traités, vol. 500, p. 95.

⁵⁵ Convention de Vienne sur les relations consulaires 1963, faite à Vienne le 24 avril 1963, Entrée en vigueur le 19 mars 1967, Nations Unies, Recueil des Traités, vol. 596, p. 261

⁵⁶ السفراء المغاربة لم يخضعوا لتكوين دبلوماسي وإنما كانت التجربة والممارسة الميدانية بحكم عملهم وخدمتهم للمخزن المغربي هي التي ساهمت في تكوينهم الدبلوماسي، ولذلك اختلفت شخصيات السفراء وثقافتهم وتجاربهم، الشيء الذي كان ينعكس على المهمة السفارية الموكولة لكل واحد منهم؛ من جهة أخرى، ظلت الدبلوماسية المغربية حبيسة إرادة السلطان والمخزن المحافظة وتجربة السفراء المبعوثين، وهو ما أفقدها الفعالية والديناميكية، فالسفراء لم يكن لديهم تكوين دبلوماسي، فهم في الغالب ينتمون إلى الزوايا والمدارس الفقهية التقليدية؛ أنظر الغاشي، م.س.، ص 46.

⁵⁷ نفس المرجع والصفحة.

⁵⁸ بلاك، م.س.، ص 14.

التفاوضي فقط، بل يُدرج في تعريفه لها جل أدوارها بما في ذلك الإعداد للحرب وحشد الحلفاء وتضليل الأطراف المحايدة⁵⁹ وتهديد الأعداء⁶⁰. إنه التعريف الذي نرى أنه الأصلح لتعريف دبلوماسية العصر الوسيط، لأنه تخلص من الضوابط المؤسسية والوظيفية التي تنهل منها التعريفات القانونية السابقة، كربط الدبلوماسية بشكل الدولة أو الكيان السياسي الذي نرى وجوب تحييده وعزله عن تعريف الدبلوماسية والوسيطية، الذي يجب أن يُصاغ وفق ضوابط أقل تعقيداً وأكثر قرباً من السياق الزمني الوسيط، وبالتالي فإننا نعتبر تعريف جيريمي بلاك للدبلوماسية بمعزل عن شكل الكيان السياسي هو الأقرب لفهم خصائص الدبلوماسية الوسيطية وطرائق عملها⁶¹.

وبالعودة إلى الحقبة الوسيطية، نجد أن مصطلح الدبلوماسية كان غائباً عن كتب الإخباريين والمؤرخين، مقابل حضور عدد من المصطلحات الرديفة كالسياسة والكياسة⁶² والسفارة والسفير والبعثة والوفد، وذلك سواءً في أوروبا أو في الغرب الإسلامي، وهو أمر استمر إلى نهاية الحقبة الحديثة، حيث أصبحت الأوساط السياسية الأوروبية تتداول هذا المصطلح ابتداءً من القرن الثامن عشر بعد أن تم إدراجه في مختلف اللغات القومية الأوروبية، في حين لم يستعمل المغاربة والعرب هذا المصطلح إلا في وقت متأخر من تاريخهم⁶³، وهو الأمر الذي تؤكدته الباحثة التونسية فاطمة بنسليمان في دراستها لكتاب "الإتحاف" الذي ألفه السفير التونسي ابن أبي الضياف في القرن التاسع عشر⁶⁴، حيث اعتبرت أن مصطلح الدبلوماسية غريب عن اللغة العربية وأكدت بالمقابل حضور عدة مصطلحات رديفة للدلالة عليه في الخطاب الدبلوماسي المغربي خاصة والعربي عامة، وهو الأمر الذي نوافقها فيه الرأي، حيث أننا لم نعثر في حدود المراسلات والمعاهدات والمصادر التي توفرت لدينا على ما يفيد أن هذا المصطلح كان

⁵⁹ بلاك، م. س.، ص 29.

⁶⁰ نفسه، ص 15.

⁶¹ Audrey BECKER, Nicolas DROCOURT, Ambassadeurs et ambassades au coeur des relations diplomatiques Rome – Occident Médiéval – Byzance (VIII s. avant j.-c. - XIIe S. après j.-c.), pp.1-10, études réunies par Audrey BECKER et Nicolas DROCOURT, Centre de recherche Universitaire Lorrain d'histoire, Université de Lorraine – site de Metz, Metz, 2012, pp. 1-2.

⁶² الغاشي، م. س.، ص 30.

⁶³ الدبلوماسية مصطلح غربي لم تعرفه اللغة العربية، وعندما عقدت معاهدة فيينا للعلاقات الدبلوماسية لعام 1961، أخذت بمصطلح Diplomacy اليوناني الأصل وبعد تعريب الاتفاقية إلى اللغة العربية لم يعرب هذا المصطلح وإنما استخدم المصطلح الغربي "دبلوماسية"، وأصبح هو المتداول بين الدول العربية والإسلامية؛ الفتلاوي، م. س.، ص 15.

⁶⁴ سمحت وظيفة ابن أبي الضياف كوزير للقلم و كاتب للرسائل الدبلوماسية وسفير لتونس (أوفده الباي في مناسبتين لإستانبول سنتي 1831 م و 1842 م) من الإطلاع على الأحوال الخارجية لتونس وتدوينها تدويناً دقيقاً.

BENSLIMANE Fatma, Diplomatie et vocabulaire à travers la chronique de Ibn abi Diyaf (1862-1872), pp.63- 85, sujets de la terminologie et de la méthodologie, Histoire et diplomatie, cordinnation Abd elmjid KADOURI, publications de la faculté de lettres et des sciences humaines de Rabat, Université Mohammed V, collection séminaires et conférences 105, éditions Anajah Al jadida, Casablanca, p.66.

متداولاً في المغرب خلال الحقبة الوسيطية أو الحديثة، في حين عثرنا على عدد كبير من المصطلحات التي وظفت للدلالة على العلاقات مع الآخر- الأجنبي والآليات المعتمدة لتدبير هذه العلاقة، أبرزها مصطلح المودة والمصادقة⁶⁵ والسفارة.

أضافت الباحثة فاطمة بنسليمان إلى المصطلحات السالفة الذكر مصطلح "الْخُلْطَة" انطلاقاً من دراستها لكتاب الإتحاف، وهو مصطلح اعتمده بن أبي الضياف للدلالة على التواصل مع الأجنبي وتدبير العلاقات السلمية والاقتصادية بين الدول خلال القرن التاسع عشر، حيث أورده في معرض حديثه عن رفض حمودة باشا باي تونس (1782م – 1814م) لطلب استنبول قطع العلاقات الدبلوماسية مع باريس بعد الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م، متعللاً بكون "الْخُلْطَة"⁶⁶ بين سكان تونس وفرنسا مهمة للغاية بالنسبة للتجارة⁶⁷ وأشارت الباحثة أيضاً إلى أن ابن أبي الضياف اعتمد في كتاباته إلى جانب مصطلح "الْخُلْطَة" مصطلح "السياسة" للدلالة على العمل الدبلوماسي خلال هذه الفترة⁶⁸.

إن غياب تداول مصطلح الدبلوماسية خلال الفترة الوسيطية ليس دليلاً على راهنتيه، إذ تؤكد عدة دراسات وشواهد تداوله إبان الحقب القديمة، وتُرجعه إلى أصل يوناني وُظف للدلالة على عددٍ من الوثائق الرسمية الصادرة عن حكام مختلف المدن اليونانية أُطلق عليها إسم " دِبلوما – Diploma"⁶⁹ المشتق من Diplom، وهي الوثائق التي كانت تُعتمد لتدبير العلاقات الخارجية والتي كان بعضها يمنح لحامليه من السفراء والرسل والبعثات⁷⁰، امتيازات مالية وقانونية عدة⁷¹.

⁶⁵ تعرض لهما الكاتب أحمام محمد في مقاله حول السفارات المتبادلة بين بيزنطة والأندلس انطلاقاً من سفارة الأمير عبد الرحمان بن الحكم الأموي إلى الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل، حيث استهل مقاله بالحديث عن أهمية السفارة المتبادلة بين الدولتين، التي اعتبرها من بين أهم السفارات التي طبعت التاريخ الدبلوماسي للغرب الإسلامي في علاقته بأوروبا المسيحية، لينتقل بعد ذلك للحديث عن السياق السياسي والتاريخي الذي جرت فيه السفارة، كما أفرد حيزاً كبيراً للحديث عن أهمية المصطلح الدبلوماسي ودلالته انطلاقاً من رسالة الإمبراطور ثيوفيل من خلال مصطلحي "المودة" و"المصادقة"؛ محمد أحمام، السفارة المتبادلة بين بيزنطة وقرطبة سني 839-840 م، التاريخ والدبلوماسية، قضايا المصطلح والمنهج، تنسيق القدوري عبد المجيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 105، مطبعة النجاح الجديدة، ط 3، الدار البيضاء، 2003، صص 89 – 101.

⁶⁶ خَلَط الشيء بالشيء يخلطه، مزجه وخالط الشيء مخالطة مِخلاطاً، والْخُلْطَة بالضم الشركة والْخُلْطَة العِشْرَة؛ أيضاً يقال، الخلطاء أي الشركاء، والْخُلْط الجيران والخليط الجار يكون واحداً أو جمعاً والأخلاق جماعة الناس؛ ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، د ت، ج 14، م 2، صص 1229 – 1232.

⁶⁷ Fatma BENSLIMANE, op.cit, p.66.

⁶⁸ Ibid, p. 67.

⁶⁹ بلاك، م. س.، ص 27.

⁷⁰ في هذا السياق نورد بعض التعاريف التي أراد من خلالها عدد من الباحثين الإسهام في التأصيل الاصطلاحي للدبلوماسية، حيث اعتبر غريال محمد شفيق أن أصل كلمة الدبلوماسية اليوناني هو دبلون Diplun، الذي يعني في اللغة العربية يطوى أو المطوي، في إشارة منه إلى أن الوثيقة

تُعتبر المدن اليونانية⁷² سباقاً إلى وضع أنظمة لتدبير العلاقات البيئية وتوظيف الوثائق الدبلوماسية كالمراسلات والمعاهدات لضبطها، وذلك وفق أسس اصطلاحية ومفهومية مازالت متداولة إلى حدود الزمن الراهن، كفضّ النزاعات والتسوية والمصالحة وغيرها، ووفق آليات محددة كالبعثات الدبلوماسية المؤقتة تارةً،⁷³ وتارةً أخرى وفق نظام التمثيل الدائم الذي كان يسمح للمدن اليونانية بانتداب ممثلين لها من بين مواطني المدن الأخرى، مقابل حصولهم على مجموعة من الامتيازات المالية والألقاب الشرفية.

إلى جانب الآليات السالفة الذكر، طوّر اليونانيون منظومة دبلوماسية متعددة الأبعاد والأغراض⁷⁴، تشمل إلى جانب التفاوض وصياغة المعاهدات أغراضاً أخرى، كالوساطة والتحكيم وغيرها، وهي الأغراض التي ارتبط إنجازها بمجموعة من المراسيم والأعراف الدبلوماسية، كالهديّة والحصانة والامتيازات المالية⁷⁵ والجدير بالذكر أن اليونانيين القدامى أضفوا على الدبلوماسية بُعداً ميثولوجياً بعد أن جعلوا الإله الإغريقي "هرمس" رمزاً للعمل الدبلوماسي وحام له وللمشتغلين به⁷⁶.

وبالموازاة مع التطور الذي عرفه العمل الدبلوماسي في مختلف المدن اليونانية، شهدت بلدان مصر والرافدين والهند والشرق الأقصى ظهور البوادر الأولى للعمل الدبلوماسي المنظم، كما تضمنت بعض الكتب والتعاليم المقدسة التي انتشرت خلال هذه الفترة كتعاليم كونفوشيوس Confucius وشريعة مانو Manou الهندية⁷⁸ فصلاً عن السياسة الخارجية وطرائق تدبير العلاقات السلمية، ومعايير اختيار

التي كانت تسلم للسفراء والرسائل عبارة عن مطوية من ورق أو رق؛ غربال محمد شفيق وآخرون، الموسوعة العربية الميسرة، دار نهضة لبنان، بيروت 1998، ج 1، ص 783. من جهته خالف زكي محمد ما ذهب إليه غربال محمد حيث اعتبر أن أصل كلمة الدبلوماسية يرجع إلى كلمة دبلوما Diploma وليس دبلون Diplun، أي الوثيقة التي كانت تُمنح للسفراء والتي لم تكن بالضرورة مطوية؛ فاضل محمد زكي، م.س.، ص 07؛ انظر أيضاً، الألوسي، م.س.، ص 24؛ ومصطفى الغاشي، م.س.، ص 29.

⁷¹ رشدان، الموسى، م.س.، ص 15.

⁷² ساعدهم النظام السياسي المرتكز على أساس المدن الدول في تطوير منظومة العمل الدبلوماسي الدول؛ المجذوب، م.س.، ص 589.

⁷³ يُعلّل الانتداب المؤقت لهذه البعثات بانعدام الثقة بين مختلف المدن اليونانية وارتياها في نوايا السفارات الدائمة وتخوفهم من سعيها بين مواطنيها للانقلاب على الأنظمة الحاكمة؛ نفسه، ص 592.

⁷⁴ كانت الدبلوماسية الإغريقية تعتبر تقديم التنازلات شكل من أشكال العبودية وهو الأمر الذي أسهم في اندلاع الحروب بين مختلف المدن الإغريقية عوض المساهمة في نشر السلم؛ بلاك، م.س.، ص 29.

⁷⁵ نفسه، ص 28.

⁷⁶ كثيراً ما كان يُصور الرسول أو السفير يحمل عصا البشارة؛ نفسه، ص 27.

⁷⁷ تنسب الكنفوشيوسية إلى كنفوشيوس "كونغ فو تزو" أشهر حكماء الصين وأكثرهم تأثيراً على الفكر الصيني، عاش ما بين القرنين

السادس والخامس قبل الميلاد 551 - 479 ق م؛ أعيف، م.س.، ص 145.

⁷⁸ معايير اختيار السفراء حسب شريعة مانو، الفصول من 63 إلى 71.

السفراء والمبعوثين، والصفّات التي يجب أن تتوفر فيهم⁷⁹ وفي هذا السياق، يؤكد جيريمي بلاك قِدم التعاملات الدبلوماسية من خلال ذكر أنموذج المراسلات الدبلوماسية (350 رسالة) بين الأسرة الفرعونية الثامنة عشر وعدد من دول الشرق الأدنى القديم، التي عثر عليها في مصر سنة 1887⁸⁰ والتي تعود إلى منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد؛ وهو أيضاً حسب بلاك دليل آخر على وجود شبكة دبلوماسية واسعة النطاق وذات مستوى متقدم من الحركية والالتزام بالشكليات والرسميات⁸¹.

وبالانتقال إلى الفترة الرومانية، نجد أن مصطلح الدبلوماسية كان حاضراً بشكل لافت في الخطاب السياسي الروماني، حيث استخدمه الرومان للإشارة إلى الوثائق الرسمية، التي كانت تُعطي لحاملها بعض الامتيازات القانونية والمالية، والتي كانت تُنسخ على ألواح معدنية، تُطوى وتختتم بشكل خاص⁸².

استعار الرومان بعد ضمهم للمدن اليونانية عدداً كبيراً من المفاهيم والنُظم والمصطلحات المرتبطة بالعمل الدبلوماسي، وعملوا على توظيفها في تدبير علاقاتهم الخارجية والداخلية؛ غير أن رَومنة " La Romanisation " مناطق شاسعة من أوروبا الغربية وأجزاء من حوض البحر المتوسط، وفرض آليات ما اصطلح عليه بالسلم الروماني " Pax Romana " ⁸³ على الشعوب المحتلة والكيانات السياسية الضعيفة المتاخمة لروما، أدى إلى تراجع اهتمامها بالعمل الدبلوماسي خلال قرون نشأتها الأولى، وهو الأمر الذي عَجَّل بانتقال الدبلوماسية من مجموعة من الأعراف المفتقدة للصفة الإلزامية إلى منظومة قانونية أحادية وملزمة لمختلف الفاعلين السياسيين الرومان وشركائهم، حيث سعى الرومان إلى فرض تصورههم للعمل الدبلوماسي عن طريق القوة العسكرية،⁸⁴ الأمر الذي جعل من الدبلوماسية الرومانية دبلوماسية تواصل لا تفاوض.

MANOU le sage, Lois de MANOU, Manava-Dharma-Sastra, traduit du sanscrit et accompagné de notes explicatives par Auguste LOISELEUR-DESLONGCHAMPS, Arbre d'Or, Genève, juin 2007.

⁷⁹ رشدان، الموسى، م. س.، صص 32 – 33.

⁸⁰ رسائل تل العمارنة المكتشفة في مصر تؤكد قيام علاقات دبلوماسية قديمة بين مصر وبابل؛ أنظر الألوسي، م. س.، ص 18.

⁸¹ بلاك، م. س.، ص 25.

⁸² كحق السفر والجواز وعقد الاتفاقات مع الجاليات أو الجماعات الأجنبية الأخرى؛ أنظر رشدان، الموسى، م. س.، ص 15.

⁸³ Patrick LE ROUX, La romanisation en question, pp. 287 – 311, in Rèv Annales HSS, Histoire, Sciences Sociales, éditions de l'EHESS 59^{ème} année, avril – mars 2004/2, p. 287.

⁸⁴ BECKER et DROCOURT, op.cit, p. 04.

غير أنه ابتداءً من القرن الخامس بعد الميلاد، أفضى ضُعب وتفكك الإمبراطورية الرومانية وظهور كيانات سياسية جديدة في أوروبا الغربية وبعض مناطق الحوض المتوسطي، إلى دفع روما نحو مراجعة منظومتها الدبلوماسية⁸⁵ باتجاه الاعتماد بشكل تصاعدي على البعثات ذات المهام والأغراض المحددة⁸⁶.

وإثر انهيار الإمبراطورية الرومانية، تم إرساء قواعد دبلوماسية جديدة فرضت التخلي جزئياً عن المقاربات الدبلوماسية الرومانية الأحادية القطبية لصالح قواعد جديدة تراعي التعدد، وبالتالي الانتقال بالعمل الدبلوماسي من دبلوماسية تواصلٍ وتآلفٍ إلى دبلوماسية تفاوض⁸⁷. لقد تبنت الدول والكيانات السياسية الجديدة التي قامت على أنقاض روما، عدداً من النُظم والمفاهيم الإدارية والسياسة اليونانية - الرومانية، وبذلك انتقل مصطلح الدبلوماسية بعد أن تعززت دلالاته الوظيفية إلى اللغتين اللاتينية والجرمانية ومختلف اللهجات (اللغات) الأوروبية المشتقة عنهما، حيث أضحت حقولها الدلالية أكثر شمولاً وسعة.

وبالنسبة للعمل الدبلوماسي في المناطق الناطقة باللغة العربية، فقد كشفت الحفريات الأثرية وجود أنظمة متعددة للعلاقات الدبلوماسية تعود للألف الثالثة قبل الميلاد كانت قائمة بشبه الجزيرة العربية ومنطقة الشرق الأوسط، وهو الأمر الذي يعكس اهتمام الحضارات والنُظم القبلية التي عَمَّرت هذه المناطق بصياغة منظومة للتواصل وحل منازعاتها بشكل سلمي عن طريق العمل الدبلوماسي⁸⁸.

بُعيد انهيار الإمبراطورية الرومانية بدأت في التشكل بوادر نوع دبلوماسي جديد عُرف فيما بعد بالدبلوماسية الكَنَسِيَّة (نسبةً إلى الكنيسة)، حيث أصبحت هذه المؤسسة الدينية هيئة "فوق - أممية" لتدبير العلائق بين مختلف دول أوروبا الغربية، ساعدها في ذلك توفرها على العناصر البشرية المؤهلة من الناحية المعرفية والسياسية لخوض غمار العمل الدبلوماسي⁸⁹، حيث أُسندت لهم أدوارٌ رئيسيةٌ لتدبير دبلوماسية أوروبا الغربية الوسيطة، وفق المفاهيم المسيحية السائدة آنذاك، كـ "وحدة العالم المسيحي" و "السلام المسيحي Pax Christi"⁹⁰، الذي أفرد له القديس أغسطين Augustin عدداً من مؤلفاته التي تُعد

⁸⁵ المجذوب، م. س.، ص 29.

⁸⁶ نفسه، ص 591.

⁸⁷ BECKER et DROCOURT, op.cit, pp. 2-3.

⁸⁸ الغاشي، م. س.، ص 34.

⁸⁹ بلاك، م. س.، ص 31.

⁹⁰ Theissen GERD, Pax romana et pax christi : Le christianisme primitif et l'idée de paix, pp. 61-84, in Rév de théologie et de philosophie, n°142, 1992, p. 63.

مرجعاً أساسياً للعمل الدبلوماسي الوسيط في أوروبا الغربية⁹¹، كما اعتمدها عددٌ آخر من رجال الدين المسيحيين أرضية لتأليف مجموعة من المصنفات المتعلقة بالعمل الدبلوماسي، أبرزها كتاب "رسالة قصيرة للسفراء" الذي ألفه رئيس أساقفة مدينة تولوز Toulouse برنار دو روزيه Bernard DE ROSIER سنة 1436م.⁹²

عملت الكنيسة خلال العصر الوسيط على إقرار السلم بين مختلف الكيانات السياسية الأوروبية وفق مفاهيم السلم المسيحي، كما عملت على توجيه المجهود الحربي خارج القارة، عن طريق تنظيم حملات صليبية ضد أعداء المسيحية، وهي التوجهات التي اضطلع فيها رجال الدين المسيحيين بدور محوري، الأمر الذي نجم عنه ظهور دبلوماسيتين، إحداهما كنسية وأخرى مدنية تتبّع مباشرة لملوك أوروبا وأمراءها.

وفي هذا السياق، يُورد المؤرخ جيريمي بلاك أن المعجم الدبلوماسي الوسيط في أوروبا الغربية تميز بتعدد المصطلحات التي اعتُمدت لتعريف العاملين في الحقل الدبلوماسي، حيث أُطلق على عدد من ممثلي الكرسي البابوي تسمية مرسلين أو رسل، في إشارة إلى أن دورهم كان ينحصر في تبليغ الرسائل فقط، مع الإشارة إلى أن بعضهم كانت تخول له البابوية صلاحية التفاوض باسمها، بينما أُطلقت تسمية مراقبين على ممثلي الحكام المدنيين الآخرين كما استخدم مصطلح سفير وسفراء أحيانا بحلول القرن الخامس عشر.⁹³

وخلال الفترات الوسيطة المتقدمة تراجع بشكل كبير اعتماد مصطلح الدبلوماسية، وهو ما يؤكد غيابه هذا المصطلح عن المراسلات الخارجية وكتب الإخباريين والمؤرخين الوسيطين الأوروبيين، وهو غياب استمر إلى بداية الحقب الحديثة، حيث أدى تطور العمل الدبلوماسي ابتداء من القرن الخامس عشر باتجاه العمل المؤسسي القار، إلى عودة توظيف هذا المصطلح بشكلٍ كثيفٍ في حقل

⁹¹ بلاك، م. س.، ص 31.

⁹² برنار دو روزيه Bernard de ROSIER، رجل دين فرنسي ولد بتولوز Toulouse وتوفي في 18 مارس 1474م، ألف ما بين سنة 1435م وسنة 1436م مؤلفاً تحت عنوان Ambaxiatorum Brevilogum تحدث من خلاله عن خصائص المهام السفارية؛ أنظر Patrick ARABEYRE, Un prélat languedocien au milieu du XVe siècle : Bernard de Rosier, archevêque de Toulouse (1400-1475), in Journal des savants, 1990, n° pp. 291-326.

⁹³ أنظر أيضاً، بلاك، م. س.، ص 31.

نفسه، ص 40.

العلاقات الخارجية، بعد أن تعززت دلالاته الوظيفية ولم يعد مرتبطاً فقط بوثائق العبور والجواز والامتياز.

فقد أسهم خروج العمل الدبلوماسي من دروب الهواية إلى آفاق الاحتراف،⁹⁴ في تعزيز الاعتماد الرسمي والنهائي لمصطلح الدبلوماسية للدلالة على مجموع المهام والوثائق والمؤسسات المرتبطة بتدبير السياسة الخارجية ابتداء من القرن الخامس عشر، في حين أنه لم يعرف طريقه إلى بعض اللغات، كاللغة الفرنسية إلا في نهاية القرن السابع عشر⁹⁵، ولم يُعتمد وصف دبلوماسي Diplomatique للدلالة على المؤسسات والأشخاص الذين يختصون بدراسة الدبلوماسية والعقود إلا في السنوات الأولى من القرن الثامن عشر، وهي دلالة تعززت ابتداء من هذا التاريخ لتشمل كل الوثائق والمهام المرتبطة بالعلاقات الدولية.

لا مندوحة في هذا السياق من الحديث عن دور القوانين الملاحية البحرية الفرنسية الصادرة سنة 1681م والمعروفة بـ Les ordonnances de la marine، في تطوير آليات العمل الدبلوماسي الحديث وتقنين عمل القناصل والمترجمين وإعطاء تعاريف قانونية دقيقة لها، وهو الإطار القانوني الذي طوره المشرع الفرنسي عقب إصداره قانون 1776م التنظيمي الذي وضع تراتبية للمناصب المرتبطة بالتمثيل القنصلي، في حين سعى المشرع ذاته من خلال قانون 1781م إلى تعزيز هذه المنظومة القانونية عن طريق إدراج المعايير الواجب توفرها عند اعتماد القناصل والمترجمين، التي جعلت في مقدمتها الانتماء الوظيفي إلى مؤسسة إدارية تابعة للدولة، والدفاع عن الصالح العام، والتمتع بالخبرة والأقدمية.⁹⁶

إجمالاً، ارتبط مصطلح الدبلوماسية على مرّ الزمن بتطور الممارسة الدبلوماسية إلى أن شاع استعماله بالمعنى المتعارف عليه خلال القرن التاسع عشر في أوروبا بعد التوقيع على اتفاقية فيينا Vienne

⁹⁴ المجدوب، م. س.، ص 594.

⁹⁵ خاصة الأنشطة التمثيلية والمبادلات والمفاوضات السياسية لسلطة أو غيرها لدى سلطة أخرى، وهي تتضمن أيضاً أدوات العمل كالمراسلات والسفارات ولقاءات القمة والمؤتمرات ومختلف الممارسات المرتبطة بها.

Stéphane PÉQUIGNOT, Les diplomaties occidentales, XIIIe-XVe siècle, Les relations diplomatiques au moyen âge, formes et enjeux, pp. 47-66, Congrès de la SHMESp, Lyon, 3-6 juin 2010, société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public, édition de la Sorbonne, collection histoire medievale, Paris, 2011, p. 47.

⁹⁶ Jörg ULBERT, Qu'est-ce qu'un chancelier de consulat ? Une approche par les textes de droit français, in Mélanges de l'École française de Rome - Italie et Méditerranée modernes et contemporaines, 128-2 / 2016, article en ligne, <http://journals.openedition.org/mefrim/2892> ; DOI : 10.4000/mefrim.2892, mis en ligne le 22 novembre 2016, consulté le 21 novembre 2019.

سنة 1815م⁹⁷ وايكس لاشابيل Ex Lachapelle سنة 1818م⁹⁸ اللتان حددتا الإطار العام للوظائف الدبلوماسية، ونظمتا امتيازات البعثات الدبلوماسية، كما أسستا لتبني قواعد جديدة للممارسة الدبلوماسية، أفرزتها الثورات التي شهدتها أوروبا نهاية القرن الثامن عشر، كالمعاملة بالمثل مع الدول ذات السيادة، وتكريس الحماية والامتيازات القانونية للتمثيلات والبعثات الدبلوماسية.

2 - السفارة و السفير

بُعِيد تَعَرُّضُنَا لِلتَّأْصِيلِ الْإِصْطِلَاحِيِّ وَالتَّارِيخِيِّ لِلدِّبْلُومَاسِيَّةِ، سَنَعْمَلُ خِلَالِ هَذِهِ الْفَقْرَةِ عَلَى التَّأْصِيلِ الْإِصْطِلَاحِيِّ وَالتَّارِيخِيِّ لِلسَّفَارَةِ وَالسَّفِيرِ، لِمَا لِهُمَا مِنْ أَهْمِيَّةٍ بِالْغَةِ بِالنِّسْبَةِ لِمَوْضُوعِ الْبَحْثِ.

جرت العادة أن يُسمي العرب " المبعوث الدبلوماسي " سفيراً أو رسولاً أو مستأمناً، وتجدر الإشارة إلى أن معظم المصادر الوسيطية التي توفرت لدينا وظّفت مُصطلح سفير ورسول للدلالة على معنى واحد، في حين قَصَرَتِ اصطلاح المُستأمن على الرسول الأجنبي الوافد من دار الحرب إلى دار الإسلام، وقد أطلق العرب على البعثة الدبلوماسية مُسمياتٍ عدة مثل السفارة والوفد والبعثة⁹⁹.

لُغَوِيًّا السَّفَارَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنَ السَّفَرِ، أَي قَطْعِ الْمَسَافَةِ، وَالْجَمْعُ أَسْفَارٌ، وَسُمِّيَ السَّفَرُ سَفَرًا لِأَنَّهُ يُسَفَرُ أَي يَكْشَفُ عَنْ وَجْهِ الْمَسَافِرِينَ وَأَخْلَاقِهِمْ، فَيُظْهِرُ مَا كَانَ مِنْهَا خَافِيًّا، وَالسَّفَرَةُ طَعَامُ الْمُسَافِرِ، وَسَفَرَ الصُّبْحُ أَي أَضَاءَ وَأَشْرَقَ، وَأَسْفَرَ الْقَوْمُ أَصْبَحُوا،¹⁰⁰ كَمَا يَقَالُ سَفَرَ بَيْنَ الْقَوْمِ يَسْفِرُ سَفَرًا وَسَفَارَةً وَسَفَارَةً أَي أَصْلَحَ، وَالسَّفِيرُ بَيْنَ الْقَوْمِ مَنْ قَامَ بَيْنَهُمْ فِي الصُّلْحِ، وَتُجْمَعُ عَلَى سُفْرَاءَ¹⁰¹، كَمَا يَسْمَى الْمَلَائِكَةُ سَفَرَةً لِأَنَّهُمْ يُسَفِّرُونَ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَبَيْنَ أَنْبِيَائِهِ، وَيَنْزِلُونَ بِوَحْيِهِ فَشَبَّهُوا بِالسُّفْرَاءِ.¹⁰²

⁹⁷ رشدان، الموسى، م. س.، ص 16؛ انظر أيضاً، عز الدين فوده، النظم الدبلوماسية، الكتاب الأول في تطور الدبلوماسية وتقنين قواعدها، القاهرة، دار الفكر العربي، 1961، صص 47 – 48.

⁹⁸ MOORE Michel, Dictionnaire encyclopédique d'histoire, Bordeaux, 1978, Tome II, p.138 ; Voir aussi, Lettres sur le congrès d'AIX LA CHAPELLE, op .cit.

⁹⁹ الفتلاوي، م. س.، ص 7.

¹⁰⁰ ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، د ت، ج 23، م 3، ص 2025.

¹⁰¹ السفير الرسول والمصلح بين القوم، والجمع سُفْرَاءُ وقد سفر بينهم يَسْفِرُ سَفَرًا وَسَفَارَةً وَسَفَارَةً: أصلح، وفي حديث علي أنه قال لعثمان : " إن الناس قد استسفروني بينك وبينهم"، أي جعلوني سفيراً وهو الرسول المصلح بين القوم؛ نفسه، ص 2026.

¹⁰² نفسه، ص 2026.

إلى جانب المعاني السالفة الذكر، أورد اللغويون الوسيطيون معاني أخرى بعيدة كل البعد عن حقل السفارة والدبلوماسية، لا نجد بأساً في إيرادها رغبةً في رفع اللبس عن المعنى المراد من السفارة والسفير في هذا العمل، فقد ورد أن السفير هو ما سقط من ورق الشجر وسَقَر البيت أي كَنَسَه¹⁰³، كما يُطلق السِّفَر على الكتاب والجمع أسفار¹⁰⁴ كما ورد في قوله تعالى "كَمَثَلِ الْهَمْرِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا"¹⁰⁵.

وقد أورد القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى" مصطلح "السِّفيري" المشتق من السفارة في معرض حديثه عن الألقاب الوظيفية، حيث قال أنه أُطلق في الديار المصرية على "الدَّوْدَار" حامل دواة السلطان الذي يُبَلِّغ الرسائل عنه، كما أضاف أن هذا المصطلح كان يُطلق في الشام على بعض التجار لسفارتهم بين الملوك، وترددتهم في الممالك لجلب العبيد والجواري ونحو ذلك، وهو حسب قوله منسوب إلى السفير أي الرّسول المصلح بين القوم¹⁰⁶.

من خلال ما تقدم نخلّص إلى أن معظم هذه المعاني أسهمت بشكل كبير في بلورة مفهوم وسيطي للعمل الدبلوماسي، حيث ذهب عددٌ من اللغويين إلى حصر معاني السفارة في مجموع الأعمال التي يقوم بها السفير، بغية إزالة أسباب الخلاف الناشئ وبث الوفاق وإصلاح ذات البين بين طرفين متخاصمين.

إن قَصُر معنى السفارة على مهام الصُّلح فقط دون غيره من المهام التي كان يضطلع بها السفراء الوسيطيون، يعكس السياق القبلي الذي أفرز المفاهيم المرتبطة بالسفارة خلال هذه الفترة، والذي كانت فيه السفارة عبارة عن مُهمّةٍ ظرفيّةٍ محدودةٍ في الزمان والمكان، الغاية منها الصُّلح أو افتداء الأسرى بين القبائل المتنازعة، دون أن تمتد مهام السفير إلى غير ذلك.

¹⁰³ ابن منظور، م.س.، ص 2024.

¹⁰⁴ نفسه، ص 2026.

¹⁰⁵ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْهَمْرِ يَحْمِلُ أَثْقَالًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِاللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، سورة الجمعة الآية 5.

¹⁰⁶ أبي العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب الخديوية، المطبعة الأميرية، 1915، ج 6، ص 15.

بالعودة إلى تعريف ابن منظور للسفير والسفارة، انبرى عدد من المؤرخين المعاصرين مثل علي المحمدي¹⁰⁷ و إبراهيم محمد آل مصطفى¹⁰⁸ للتنبيه إلى قصوره عن إبلاغ المعنى الحقيقي لهذا المصطلح، لأنه صيغ بمعزل عن المعاني التي راكمتها الممارسة السياسية في أزمنة وبيئات مختلفة، وأنه لا يمكن اعتماده لتعريف السفارة في الزمن الراهن، بالنظر إلى الدلالة الوظيفية لمصطلح السفارة التي أصبحت أكثر غنى وتشعباً من التعريف المبسط الذي أورده ابن منظور في لسان العرب، وهو من دون شك، مخالف لما تعارف عليه المؤرخون في العصر الوسيط من قصرٍ للسفارة على البعثات المؤقتة المتعددة الأفراد، المحددة مهامها سلفاً من قبل الخليفة أو السلطان، وهي المهام التي تردُّ تارةً في صيغة تعليماتٍ صريحة مُبينة الفحوى، منها الشفهي ومنها المدون في خطاب الاعتماد، وتارة أخرى تأخذ شكل التلميح، ليتولى السفير الإفاضة في شرحها والتحادث بشأنها بالشكل الذي يُحقق المراد من سفارته، وفي هذا السياق يقول المحمدي علي: "إن الرسائل الرسمية تزخر بمصطلحات كثيرة تحيل على السفارة: سفير، مبعوث، ... فكلمة سفير في الاصطلاح العربي تعني الرسول ويقال سَفَرٌ بينهم سَفَراً وسِفارة أي أصلح؛ وتعود المغاربة على استعمال كلمة مبعوث السلطان في كلامهم عن السفير...."¹⁰⁹ وفي هذا السياق، دعا المؤرخ عبد الهادي التازي إلى قصر معنى السفارة والسفير على مهمة الإصلاح بين الناس، دون ربطها بالسفر والإرتحال¹¹⁰.

وتجدر ملاحظة أن العرب القدامى اعتمدوا إلى جانب مصطلح السفير عدداً من المصطلحات الرديفة، في مقدمتها الرسول والوافد والمُستأمن التي كانت تُطلق كما سبقت الإشارة على السفير الأجنبي، الأمر الذي يُفيد أنه لم يكن في هذه الفترة أي تمييز وظيفي بين السفير والرسول، حيث استَخدم عدد من المؤرخين الوسيطيين كابن خلدون في "العبر" مصطلح الرسول في مواضع عدة دون أن يميز وظيفاً بينهما،

¹⁰⁷ علي المحمدي، السفير في مفهوم المخزن، صص 283 - 286، ندوة التاريخ والدبلوماسية قضايا المصطلح والمنهج، تنسيق القدوري عبد المجيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 105، مطبعة النجاح الجديدة، ط 3، الدار البيضاء، 2003، ص 284.

¹⁰⁸ إبراهيم محمد آل مصطفى، سفارات الأندلس إلى ممالك أوروبا المسيحية الكاثوليكية 422هـ/138م - 755هـ/1031م، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2012.

¹⁰⁹ قدوري، دبلوماسية المأمورية - دبلوماسية التأسيس، م.س.، ص 257.

¹¹⁰ التازي عبد الهادي، ابن خلدون سفيراً، م.س.، ص 366.

سواء تعلق الأمر بمهام التفاوض أو بمهمة الإبلاغ فقط¹¹¹، الأمر ذاته ينطبق على لسان الدين ابن الخطيب في مؤلفيه "الريحانة"¹¹² و "كناسة الدكان"¹¹³ والقلقشندي في "صبح الأعشى"¹¹⁴ وغيرهم.

إذا كان الجدل لدى المؤرخين واللغويين العرب يتمحور حول المعاني المرتبطة بالسفير والسفارة، وحول الفروق الوظيفية بين السفير والرسول، فإن مؤرخي الضفة الشمالية لم يبتعدوا بجدلهم عن المحاور السالفة الذكر، حيث أن سعيهم لوضع تعريف تاريخي للسفارة والسفير أسفر عن انقسامهم إلى مجموعتين¹¹⁵، الأولى ترى وجوب استناد التعريف إلى معايير وظيفية انطلاقاً من فرضية تعدد الوظائف والمهام داخل البعثات الدبلوماسية لحسم الجدل المتعلق بتعدد المصطلحات المرتبطة بالسفير من قبيل:

1. Deputatus
2. Ambassador
3. Legatus
4. Nuncius
5. Orator
6. Procurator
7. Commissarius¹¹⁶

¹¹¹ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تاريخ بن خلدون، تحقيق أبو صهييب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الأردن، د.ت.

¹¹² لسان الدين ابن الخطيب، ریحانة الكتاب ونجعة المنتخب، تحقيق محمد عبد الله عنان، المجلد الأول، مكتبة الخانجي، القاهرة ط 1، 1980.

¹¹³ لسان الدين ابن الخطيب، كناسة الدكان بعد انتقال السكان، حول العلاقات السياسية بين مملكتي غرناطة والمغرب في القرن الثامن الهجري، تحقيق محمد كمال شبانة وحسن محمود، وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكاتب للطباعة والنشر، القاهرة، 1966.

¹¹⁴ القلقشندي، م.س.، ج 6، ص 15.

¹¹⁵ بعض الأعمال الغربية التي اهتمت بدراسة الدبلوماسية الوسيطية:

- René DE MAUL DE LA CLAVIÈRE, Histoire de Louis XII, 2e partie : La diplomatie, Paris, 1889-1893, 3 vol.
- Betty BEHRENS, Reatyses on the ambassador written in the fifteenth and early sixteenth centuries, in English Historical Review, London, 1936, vol. LI, pp. 616-627.
- Garrett MATTINGLY, Renaissance diplomacy, London, 1955.
- Donald E QUELLER, The Office of Ambassador in the middle ages, Princeton, 1967.
- John FERGUSON, English diplomacy, 1427-1461, Oxford, 1972.
- David POTTER, Diplomacy in the mid- Century, England and France 1536-1550, thèse dactylographiée inédite, Cambridge, 1973.

GIRY-DELOISON, op.cit, p. 205.

¹¹⁶ Ibidem.

وظفت هذه المصطلحات اللاتينية طلية قرونٍ عدةٍ للحديث عن السفير والمهام المرتبطة به، فهل كانت تتعلق فقط بالسفير والمهام المتعددة الموكولة إليه، أم أن تعددها يُفيد بوجود تراتبية وظيفية داخل البعثات الدبلوماسية الوسيطة ؟

إن تكرار استعمال المصطلحات في مجموعة من الوثائق الدبلوماسية الوسيطة الفرنسية والانجليزية للدلالة على المعنى نفسه¹¹⁷، يؤكد بما لا يدع للشك أنه لم تكن توجد تراتبية وظيفية بخصوص المهام الدبلوماسية داخل البعثات، إنما وظّفت هذه المصطلحات حسب السياق وحسب الغاية والغرض من السفارة للإشارة إلى السفير.

بحلول نهاية القرن الخامس عشر تراجع اعتماد عدد من المصطلحات السالفة الذكر في الخطاب الرسمي لتحل محلها مصطلحات أخرى، كما حدث مع مصطلحي orator الذي حل محله مصطلح ambassator, ambassadeur الذي كان أكثر تداولاً في اللهجات العامية منه في الخطاب الرسمي¹¹⁸، كما قصّر الفرنسيون والإنجليز استعمال مصطلح legatus على مبعوثي البابا¹¹⁹.

أما المجموعة الثانية، فترى ضرورة الانطلاق من الوثائق الدبلوماسية الوسيطة، خاصة رسائل الاعتماد ورسائل الصلاحيات التي كانت تتضمن مهام أفراد البعثات السفارية وحدود صلاحياتهم، لوضع تراتبية وظيفية يمكن اعتمادها للتمييز الوظيفي بين من يكتفي فقط بتسليم الرسالة، وبين من له الحق في التفاوض، من جهته، ويرى D. L. POTTER¹²⁰ أنه من الضروري إدراج معيار السفارة المؤقتة والسفارة الدائمة كمحدد للتمييز الوظيفي خلال الفترات الوسيطة المتأخرة، حيث يجب التمييز بين السفير المقيم الذي يتقلد مسؤوليات أكبر ولديه صلاحيات أوسع، والسفير الخاص أو المؤقت الذي لديه مهام محددة زمنياً وسقف صلاحيات مرتبط بالغرض من السفارة.

قبل الانتقال إلى حديث عن الخصائص الشكلية واللغوية للرسائل الدبلوماسية، حري بنا أن نذكر في خاتمة هذه الفقرة، أنه لم تستقر آراء فقهاء القانون ولا المؤرخون ولا الإخباريون على تعريف محدد

¹¹⁷ GIRY-DELOISON, op.cit, p. 207.

¹¹⁸ Ibidem.

¹¹⁹ يقوم Legatis و Ambassadeurs بنفس المهام، غير أن Legatis خلال الفترة الرومانية كانوا يرسلون في الغالب كقضاة، كان Le Legatus مدعوا شأنه شأن السفراء إلى تقديم تقارير عند عودته إلى روما أمام مجلس السيناتورات؛ ولم يكن حراً في تصرفاته، حيث كان المجلس يحدد مهامه وأهدافه والطريقة التي يجب أن يتصرف بها، مع ترك هامش لاختيار طريقة بلوغ الأهداف التي سطرت من قبل المجلس؛ انظر :

STOUDER Ghislaine, op.cit, p. 14.

¹²⁰ GIRY-DELOISON, op.cit, p. 206.

للدبلوماسية، وذلك راجع إلى تعدد أبعادها ومفاهيمها وآليات عملها، وهي الأمور التي كانت تختلف باختلاف السياق السياسي والاجتماعي والثقافي والتاريخي المحيط بها، لتفرز مفاهيم وتعريفات متعددة عملنا، على استعراضها خلال هذا المبحث، بُغية التقييد المفاهيمي والاصطلاحي للدبلوماسية قبل تسليط أضواء البحث على خصائص الوثيقة الدبلوماسية الوسيطة.

وسنحاول فيما يلي التمييز بين أنماط العمل الدبلوماسي الوسيطي من خلال التركيز على غاياته الظاهرة والمضمرة، رغبةً في الوقوف على دورها في تحديد مفاهيمه ورسم ملامح أغراضه وصياغة مبادئه وأدواته.

3- الغاية الظاهرة والمُضمرة في العمل الدبلوماسي الوسيطي

اجتهد عدد من لغوي ومؤرخي العصور الوسطى في وضع تعريف لغوي واصطلاحي للسفارة والسفير، غير أنه غاب عنهم ربط هذا التعريف بسياقه المفهومي، حيث نجد معظم إخباريي ومؤرخي العصر الوسيط سواءً في الغرب الإسلامي أو الأوروبي يخلطون بين مصطلحي السفير والرسول، فتارةً يوظفون مصطلح الرسول للدلالة على من له صفة تمثيلية وسلطة للتفاوض باسم السلطان أو الملك أو الأمير؛ وتارة أخرى، يعتمدون مصطلح السفير للدلالة على المعنى نفسه، دون أن يميزوا بين الحدود الوظيفية لكلا المصطلحين أو بين أغراض السفارات¹²¹ والغاية منها وصلاحيات القائمين عليها، وهو أمر استمر إلى حدود القرن الثامن عشر بعد أن نَحَت الاتفاقيات التي أبرمت بين عدد من الدول الأوروبية باتجاه التمييز الوظيفي بين مصطلحات العمل الدبلوماسي وتعريفها.

لقد كانت السفارات الوسيطة متعددة الغايات، منها الغاية الظاهرة ومنها المُضمرة، ومنها كذلك الغاية العامة والغاية الخاصة، وهي أمور كانت تُحدد عادةً بواسطة التعليمات الصادرة عن السلطة المخول لها استِسفار السفير أو ابثعات البعثة، التي قد تتخذ أشكال عدة، منها التعليمات الشفوية، والتعليمات المكتوبة المضمنة في الرسائل السفارية، ومنها كذلك التعليمات المضمّنة في رسائل الاعتماد والصلاحيات المنفصلة التي يُزود بها السفراء قبيل الانطلاق في رحلتهم، وهو الأمر الذي أشار إليه الكاتب

¹²¹ سوف نعود بالتفصيل إلى أغراض البعثات السفارية في الباب الثاني، الفصل الأول، المبحث الثالث.

الفرنسي MAULDE DE LA CLAVIÈRE René الذي ميز بين التعليمات الظاهرة والتعليمات المضمرة التي غالباً ما تكون شفوية¹²².

من بين الغايات المضمرة للسفارات نجد التجسس، حيث يُطلب من السُّفراء أو أفراد البعثة السفارية إعداد تقارير عن البلاد الموفدين إليها، يرصدون فيها مواطن القوة والضعف وهو أمر قد يتطلب غالباً، إلى جانب كتابة التقارير، القيام بعمليات جرد وإحصاء ورسم للخرائط وتوطين للمواقع والمواضع، وفي هذا السياق أكد كل من BECKER Audrey و DROCOURT Nicolas أن المزاوجة بين المعلن والمضمر هي إحدى السمات الأساسية للعمل الدبلوماسي الوسيط¹²³.

تحفل المصادر الأوروبية الغربية القديمة والوسيطة بشواهد عدة عن بعثات دبلوماسية شكلية كان الغرض الحقيقي من وراءها التجسس، على سبيل المثال لا الحصر أورد AMMIEN Marcellin أحد أبرز مؤرخي العصر القديم المتأخر واقعة إيفاد الإمبراطور الروماني جوليان Julien (332م- 363م) لمبعوثه Hariobaude في مهمة سرية ظاهرها السفارة وباطنها التجسس على إحدى أكبر التجمعات القبلية الجرمانية les Alamans قبل أن تشن روما حملة عسكرية عليهم¹²⁴.

كانت السفارات المكلفة بمهام الجاسوسية عرضةً لمخاطر كبيرة في حالة افتضاح أمرها، وهو ما دفع السلطات الموفدة إلى اتخاذ عدة إجراءات من أجل ضمان حماية المعلومات المتحصل عليها وإرسالها في ظروف آمنة، وضمان سلامة أفراد البعثة؛ كالاكتفاء بالتقارير الشفوية أو كتابتها عن طريق اعتماد عبارات فضفاضة متفق عليها وإخفائها في جراب "Fourreau" مُعدٍ لحمايتها أو في وعاءٍ معدني مخصص لهذا الغرض، أو الكتابة عن طريق اعتماد حروف وكلمات مشفرة، وفي حالة افتضاح أمر الرسالة أو التقرير، تصبح البعثة برمتها في خطر محقق، حيث تُجَرَّد من الحصانة ويعاقب أفرادها¹²⁵.

وفي هذا السياق أشار ابن خلدون إلى أن عدداً من المراسلات السلطانية، خاصة تلك المتعلقة بالأموال والجيش كان يُعتمد إلى إخفاء مضمونها عن طريق المبالغة في الرسم، أو ابتداء اصطلاح خاص بها عبارة

¹²² René MAULDE DE LA CLAVIÈRE, Les instructions diplomatiques au Moyen Âge, in Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 36^e année, n° 2, 1892, p. 73. Article en ligne en DOI: https://doi.org/10.3406/crai.1892.70081www.persee.fr/doc/crai_00650536_1892_num_36_2_70081, consulté le 15/10/2019.

¹²³ BECKER et DROCOURT, op.cit, p. 7.

¹²⁴ Ekaterina NECHAEVA, Les activités secrètes des ambassadeurs dans l'antiquité tardive, étude, Ambassadeurs et ambassades au coeur des relations diplomatiques Rome - occident médiéval - byzance (VIII s. avant j.-c. - XIIe s. après j.-c.), études réunies par BECKER et DROCOURT, op.cit, p. 190.

¹²⁵ NECHAEVA, ibid, p. 195.

عن حروف وكلمات مشتقة من أسماء الطّيب والفواكه والحيوانات والنباتات، أو وضع أشكال أخرى غير أشكال الحروف المتعارف عليها، يتفق عليه المتخاطبون لتأدية ما في ضمائرهم بالكتابة، كما تحدث بالمقابل عن وضع كتاب بمثابة دليل لفك رموز الحروف والكلمات المشفرة¹²⁶.

لقد تم حفظ بعض هذه التقارير - السري منها والمعلن - في مكتبات وأرشيفات عددٍ من دول غرب أوروبا باعتبارها جزءاً من التراث الدبلوماسي الأوروبي، في حين تكاد تخلو الأرشيفات العربية عامة والمغربية خاصة من تقارير مماثلة خاصة عن الفترة الوسيطية كما لاحظنا أن كُتب الإخباريين والمؤرخين المغاربة التي تعجّ بالرسائل الدبلوماسية الوسيطية قلما تُدرج مثل هذه التقارير في متونها، الأمر الذي يُحيلنا على فرضيتين، الأولى هي تعرضها للتلف والضياع، والثانية كونها شفوية في معظمها، كإجراء احترازي خشيّة افتراس أمر السفارة وإسقاط الحصانة الأمنية عن السفير وأفراد البعثة وتعرضهم للمخاطر.

ومقابل إغفال كُتب الإخباريين لتقارير السُفراء، أورد عدد منهم بعض رسائل الاعتماد والصلاحيات التي تضمنت توجيهات صريحة من قبل السُلطات الموفّدة بكتابة تقارير عن البلاد التي أوفدوا إليها، كرسالة الاعتماد التي وُجّهت للسفير شمس الدولة ابن مُنقذ، الذي أوفده السلطان صلاح الدين الأيوبي (532 هـ / 1138 م - 589 هـ / 1193 م) سنة 586 هـ - 1190 م إلى الخليفة يعقوب بن يوسف بن عبد المومن - (579 هـ / 1184 م - 595 هـ / 1199 م) من أجل طلب تدخل البحرية الموحدية لقطع طريق الإمداد البحري الصقلي على الصليبيين المحاصرين لمدينة عكا، حيث خاطب صلاح الدين الأيوبي بن منقذ قائلاً:

".... ويتوجه - كيفما يسر الله - إلى الجمة الإسلامية المغربية، - حرس الله جانبها، ونص كتابها ومراكبها - ويستقر في الصريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم وأشغالهم وأفعالهم، وما يحبونه من القول نزره أو جمه، ومن اللقاء منبسطه أو منقبضه، ومن القعود بمجالسهم مخفها ومصوله، ومن التحيات المتهاديات بينهم ما صيغته وما موقعه، وهل السنن الحينية أو العوائد الملوكية، ولا يقله إلا بما يحبه، ولا يخالفه إلا بما يسره...."¹²⁷

¹²⁶ ابن خلدون، العبر، م.س.، ص 214؛ انظر أيضاً عبد الهادي التازي، الرموز السرية في المراسلات المغربية عبر التاريخ، المعهد الجامعي للبحث العلمي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1983.

¹²⁷ جمال الدين ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، دار الكتب والوثائق القومية - المطبعة الأميرية، القاهرة - جمهورية مصر العربية الإسكندرية، 1957، ج 2، صص 500 - 504.

وهي التعليمات التي امتثل لها ابن منقذ الذي أعد تقريراً نشر القلقشندي منه في كتابه "صبح الأعشى" مقتطفاً وصف فيه سفير صلاح الدين الأيوبي مدينة فاس أثناء مقامه بها قائلاً:

" .. أنهم أخرجوا إلى بستان بفاس يقال له البحيرة متحصلة في كل سنة خمسة وأربعون ألف دينار، وبه بركة ذرع كل جانب منها مئتان وستة عشر ذراعاً، ... وأهلها مخصصون برفاهية العيش، ولأهلها حسن الصنعة في المخروجات من الخشب والنجاس¹²⁸...

وفي السياق ذاته نورد خبر التقرير الذي صاغه ابن خلدون للسلطان النصري الغني بالله (1338م / 738هـ - 1391م / 793هـ) بعد فراغه من سفارته لدى الملك القشتالي بيدرو الأول (1350م - 1369م) نهاية سنة 765هـ - 1364م، وهو التقرير الذي لم نعثر على نسخة منه في كتب المؤرخين، ولم يصلنا من أثره سوى ما ضمّنه ابن خلدون في كتابه عن رحلته السفارية إلى اشبيلية، وذكر ابن خلدون أيضاً في الكتاب نفسه خبراً عن توجيهه تقريراً آخر إلى السلطان أبي سعيد عثمان بن أحمد بن أبي سالم (1398م / 800هـ - 1420 / 822هـ) بعد اتصاله بتيemor لنك (1370م / 771هـ - 1405م / 807هـ) أخبره من خلاله بما استجد في المشرق وعرف من خلاله بتاريخ التتر¹²⁹.

والجدير بالملاحظة أننا لم نعثر في حدود الوثائق التي اجتمعت لدينا على تقارير أنجزها السفراء أو الرسل الذين استسفروا إلى المغرب خلال الفترة الوسيطية المتأخرة، وذلك عكس الفترتين الحديثة والمعاصرة اللتين تحفلان بالعشرات من التقارير التي صاغها سفراء غربيون أثناء إقامتهم بالمغرب، نذكر من بينها على سبيل المثال لا الحصر تقارير عن عدد من السفراء والقناصل الفرنسيين، كالقنصل Jean-Baptiste Estelle (1685م - 1688م)¹³⁰ والسفير الفرنسي François Pidou de Saint-Olon (1689م - 1699م) الذي ألف كتاباً ضمنه مشاهداته أثناء رحلاته السفارية في المغرب والقنصل العام الفرنسي Louis

¹²⁸ القلقشندي، ج 5، م.س.، ص 157.

¹²⁹ عبد الهادي التازي، ابن خلدون سفيراً، ص 371: انظر أيضاً، عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

¹³⁰ بعد انقضاء مهماته السفارية المؤقتة عين ابتداء من سنة 1689م قنصلاً بمدينة سلا الجديدة " الرباط " Salé-le-Neuf إلى حدود سنة 1701م.

CAILLÉ Jacques, Un consul de Louis XIV au Maroc, in le Monde diplomatique, decembre 1958, p.6, article en ligne, <https://www.monde-diplomatique.fr/1958/12/CAILLE/22840>, consulté le 22/11/2019.

CHÉNIER (1767م - 1782م)¹³¹ وغيرهم من السفراء الذين تقاطروا على المغرب في التاريخ الحديث والمعاصر.

إلى جانب ما أسلفنا ذكره بخصوص الغاية المضمرة والغاية الظاهرة للعمل الدبلوماسي الوسيط محددًا للتمييز بين السفارات، تجدر الإشارة إلى أنه يمكن التمييز أيضاً بين السفارات الوسيطية من خلال الصلاحيات الممنوحة لأفراد البعثات السفارية، وهي ثلاثة أنواع:

- 1- سفارت يمنح بموجبها القائم عليها صلاحيات واسعة للتفاوض؛
- 2- سفارات يمنح بموجبها القائم عليها صلاحيات محدودة لا يحق له تجاوزها دون الرجوع إلى موفيه؛
- 3- سفارات ذات مهمات محددة أو خاصة مثل سفارات أخذ الجزية و التهنة والمصاهرة¹³² والتعزية، وافتكاك الأسرى؛

وكان للسفارات المحددة المهام كـ "افتكاك الأسرى" خصائص تميزها عن غيرها، حيث كان السلاطين المغاربة خلال الفترة المرينية وبداية الوطاسية يعهدون إلى بعض شيوخ الطرق الصوفية كـ "الشاذلية" بمهمة افتداء الأسرى ويزودونهم بالأموال للقيام بهذا الأمر،¹³³ وكان يُسمح لهم بالطواف في مختلف أرجاء البلاد لجمع الأموال "الصّدقات" من أجل الغرض ذاته.¹³⁴

وبالمقابل كانت بعض الدول الأوروبية تُوفد ما كان يُعرف بـ "الفكاكين" Los Rescatadores¹³⁵ من أجل افتداء أسراهم¹³⁶، وغالباً ما كان يُعهد إلى رجال دين مسيحيين بهذه المهمة، وهو الأمر الذي شكّل موضوع عدد من المراسلات الدبلوماسية بين البابوية والموحدين، أورد بعض منها المؤرخ دي ماص لاتري،

¹³¹ GRILLON Pierre, La correspondance du consul général Louis Chénier, chargé d'affaires de France au Maroc (1767-1782), In Rév d'histoire moderne et contemporaine, n°1, janvier-mars 1963, T 10, pp. 65-76.

¹³² في هذا السياق، نورد مثال قيام النبي ﷺ بإرسال عمرو بن أمية الضمري وكيلاً في زواجه إلى نجاشي الحبشة ليخطب أم حبيبة له، حيث فوضه النبي ﷺ ليكون وكيلاً عنه في هذا الزواج عندما بشرت أم حبيبة بهذا الزواج سُرّت به، وقد أصدقها النجاشي أربع مائة دينار؛ أنظر عز الدين أبو الأثير بن الحسن علي بن محمد الجزري، أسد الغاية في معرفة الصحابة، دار ابن حزم، ط 1، 2012، بيروت، ص 920.

¹³³ أوغست كور، دولة بني وطاس 1420م - 1554م، ترجمة فتحة محمد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط 1، 2010، ص 29.

¹³⁴ نفسه، ص 30.

¹³⁵ CALDERÓN ORTEGA José manuel, DÍAZ GONZÁLEZ Francisco javier, El rescate de prisioneros y cautivos durante la edad media hispánica, aproximación a su estudio, Universidad de Alcalá de Henares. Article en ligne, http://institucional.bus.es/revistas/historia/38/art_1.pdf, consulté le 13/11/2019.

¹³⁶ أوغست كور، م.س.، ص 138.

من ضمنها المراسلة التي بعث بها البابا إنوسان الثالث Innocent III (1198م- 1215م) بتاريخ 8 مارس 1198م إلى الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور (1184م/579هـ - 1199م/599هـ) بغرض التوصية بالبعثة السفارية الموفدة من أجل افتداء الأسرى النصارى¹³⁷.

كان من أبرز الغايات من وراء ابتعاث السفارات، القيام أيضاً بالوساطة بين مختلف السلاطين والملوك والأمراء، وهي شبيهة بالغاية من سفارة افتكاك الأسرى التي يتوجه من خلالها السفير إلى السلطان أو الملك من أجل افتداء الأسرى بمقابل مادي أو سياسي. وفي هذا السياق نورد أنموذج مساعي الوساطة التي قام بها السلطان المريني أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (1259م/657هـ - 1286م/684هـ) بين الملك القشتالي ألفونسو العاشر الملقب بالعالم Alfonso X EL SABIO (1252م - 1284م) والملك الفرنسي فيليب الثالث (1245م - 1285م) المعروف ب Philippe LE HARDI سنة 1282م - 681هـ، وذلك من أجل إقناعه بتقديم الدعم العسكري لملك قشتالة المخلوع من أجل استرجاع مملكته الذي استولى عليه ولي عهده سانشو Sanche LE BRAVE (1284م - 1295م)¹³⁸؛ في السياق نفسه نورد طلب مجلس مدينة مرسيليا من جمهوريتا بيزة وجنوة التوسط لدى المغرب من أجل إبرام معاهدة تجارية سنة 1138م - 532هـ على عهد الأمير المرابطي علي بن يوسف (476هـ/1083م - 537هـ/1143م)، لم نعثر على معلومات تتحدث عن مآل هذه الوساطة¹³⁹ كما سجل أحد الباحثين.

وإلى جانب الغايات الخاصة، كانت الغاية العامة من العمل الدبلوماسي الوسيط هي الحفاظ على المصالح الاستراتيجية عن طريق تجديد الاعتراف المتبادل بالسيادة وحدودها، الأمر الذي كان من شأنه إقرار العمل الدبلوماسي آلية لإدامة السلم وتشجيع التبادل التجاري وفق القواعد المتعارف عليها. بُعيد استعراض أهم مراحل التطور التاريخي للعمل الدبلوماسي ورصد سياقه المفهومي والاصطلاحي، ودراسة الخصائص الاصطلاحية واللغوية لعدد من المصطلحات المرتبطة به، سنعمل خلال المبحث التالي على توجيه عنايتنا إلى دراسة الخصائص الشكلية واللغوية للوثائق الدبلوماسية الوسيطية، لما لها من

¹³⁷ DE MAS LATRIE, T1, op.cit, pp. 9-8.

¹³⁸ Pierre DE CENIVAL, Les relations commerciales de Fance avec le Maroc, pp. 451-460, in Rèv Outre-Mers, revue d'histoire, n° 89, 1932, p.459.

¹³⁹ Ibid, p.451.

أهمية بالغة في فهم تطور العمل الدبلوماسي للدول المتعاقبة على حكم المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط.

الفصل الثاني : الخصائص الشكلية واللغوية للوثائق الدبلوماسية الوسيطة

تنتهي الرسالة الدبلوماسية الوسيطة استناداً إلى خصائصها الشكلية واللغوية إلى الرسائل الديوانية، أي الرسائل الصادرة عن مختلف أجهزة الدولة، ذات الأغراض المتعددة والمرتبطة بتدبير شؤونها الداخلية والخارجية؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر نعدد منها، رسائل العهود¹⁴⁰ والهدن،¹⁴¹ والتّوليات والتعيينات، ومناشير الإقطاعات¹⁴²، ورسائل التعليقات،¹⁴³ والولايات والتوجيهات¹⁴⁴، وكذلك الوصايا، والأوامر الإدارية المختلفة¹⁴⁵، التي غالباً ما كان يُشرف على صياغتها وتحريرها ديوانٌ يُعرف بديوان الإنشاء.

في حين تتميز الرسائل الدبلوماسية عن الرسائل الديوانية بتفرد أغراضها ومعجمها، وتنوع أساليبها وأشكالها بين المكتوب والشفهي¹⁴⁶، الأمر الذي استوجب ع دراستها من دون فصلها عن باقي الرسائل الديوانية التي تشترك معها في العديد من الخصائص الشكلية واللغوية. غير أننا ارتأينا أنه من الواجب قبل تسليط أضواء البحث على سمات وخصائص الرسائل الديوانية والرسائل الدبلوماسية، أن نخصص على سبيل الاستئناس استهلال هذا المبحث للحديث عن ديوان الإنشاء الذي يُعد أحد أهم آليات العمل الدبلوماسي الوسيطي.

¹⁴⁰ رسالة ديوانية يدبجها كاتب الرسائل على لسان الخليفة لمن اختاره لولاية الخلافة من بعده. وتعرف بعهد الولاية، وتكتب أيضاً على لسان الخليفة أو الأمير بالأمان للثائر أو الخارج عن الدولة، أو لدولة مجاورة مازالت أسباب الخلاف معها، وتعرف حينئذ بعهد الأمان؛ أنظر فلاح القيسي، م.س.، ص 117.

¹⁴¹ القلقشندي، م.س.، ج 1، ص 54.

¹⁴² نفس المصدر والصفحة.

¹⁴³ فلاح القيسي، م.س.، ص 116.

¹⁴⁴ القلقشندي، م.س.، ج 1، ص 54.

¹⁴⁵ فلاح القيسي، م.س.، ص 111.

¹⁴⁶ أورد ابن الخطيب في الإحاطة خبراً عن رسالة شفاعة بعث بها سلطان غرناطة إلى سلطان المغرب مشافهة؛ لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي ط 1، القاهرة، 1974، م 2، ص 197.

1- ديوان الإنشاء، مصنع الكتابة السلطانية

عرّف القلقشندي ديوان الإنشاء بكونه موضع جلوس الكتاب، يُعبر عنه أيضاً بديوان الرسائل¹⁴⁷، وهو إسم مركب من كلمتين، هما ديوان أي موضع، وإنشاء بمعنى ابتداء الشيء واخترعه، أي أن الكاتب يُنشئ لكل واقعة مقالاً،¹⁴⁸ عن طريق تأليف الكلام وترتيب المعاني¹⁴⁹؛ وهي كتابة كانت تستلزم من أصحابها الإلمام بمجموعة من العلوم، والتوفر على العديد من الملكات، أجمل بعضها منها القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى" حين تحدث عن: "البيان الدال على لطائف المعان .. وزيادة العلم وغزارة الفضيلة وذكاء القريحة، وجودة الرواية..¹⁵⁰"، وهي الصفات والملكات التي سنخصصها بوقفه مفصلة في الفقرات المقبلة.

أسندت مهمة صياغة الكتب والوثائق الدبلوماسية في الدول التي تعاقبت على حكم المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط إلى دواوين الإنشاء، التي كانت تضم عدداً كبيراً من الكتاب، وصل عددهم في عهد بعض خلفاء الدولة الموحدية¹⁵¹ إلى ما ينيف عن المائة يُشرف عليهم رئيس يسمى رئيس الديوان¹⁵² الذي جرت العادة أن يُفوض إليه السلطان، إلى جانب مهام الإشراف على الكتبة، مجموعة من الصلاحيات والسلط ليتسنى القيام بمهامه على أكمل وجه¹⁵³، ومراقبة ما يصدر عن الكتبة

¹⁴⁷ الديوان اسم الموضع الذي يجلس فيه الكتاب؛ أنظر المقرئزي تقي الدين بن علي، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق أحمد جليلي، دار الغرب الإسلامي، 2002، بيروت، م 4، ص 52.

¹⁴⁸ القلقشندي، م.س.، ج 1، صص 89 – 90.

¹⁴⁹ نفسه، ص 54.

¹⁵⁰ نفس المصدر والصفحة.

¹⁵¹ أولت الدولة الموحدية عناية كبيرة للكتابة الديوانية ووسائلها وأدواتها، ويرجع هذا لأسباب متعددة منها سعة رقعة الدولة وكثرة الخراج وتعدد الولايات وتتابع الحركات والتنقلات التي كان يقوم بها الخلفاء الموحدون، أحمد عزايي، رسائل موحدية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة نصوص ووثائق، رقم 2، ط 1، مطبعة النجاح الجديدة، القنيطرة، 1995، ج 1، صص 5-6.

¹⁵² يُستحب في صاحب الرئاسة أن يكون قيماً بجميع أنواع الكتابة وأقسامها، عالماً بشروطها وأحكامها، لأن كل ناظرٍ في فنونها إليه يُرفع ما يُنظر فيه، فلا يجوز أن يكون جاهلاً بشيء منه؛ علي الكاتب ابن خلف، مواد البيان، تحقيق حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق، 2003، ص 49.

¹⁵³ كان ينظر أيضاً فيما تتفاوت به المراتب في المكاتب والولايات من الافتتاح والدعاء والألقاب وقطع الورق ونحوه؛ أنظر القلقشندي، ج 1، م.س.، ص 112.

أو يرد إليهم من وثائق ورسائل¹⁵⁴؛ وإن اقتضت الضرورة يُعَيَّن له نائب أو نواب¹⁵⁵ ليعينوه على أداء مهامه أو يَحْلُون محله أثناء غيابه¹⁵⁶. كما جرى العرف أن يُقرن برئاسة ديوان الإنشاء عدة وظائف ومهام، منها الوزارة¹⁵⁷ والعلامة والتوقيع¹⁵⁸ والإشراف على بيت المال والخزائن والنفقات والجيش والزمّام والبريد¹⁵⁹، كما أُسند إلى بعضهم، إلى جانب المهام السالفة الذكر، كتابة المظالم والقضاء والقواد¹⁶⁰ وغيرها من المهام والوظائف الديوانية، حيث تحفل كتب التراجم بعددٍ من أسماء رؤساء دواوين الإنشاء الذين جمعوا بين المهام السالفة الذكر ووظيفتهم الأصلية في ديوان الإنشاء.

كان رئيس ديوان الإنشاء أول من يتوصل بالرسائل الواردة، والوحيد المخول له قراءة مضامينها واختصارها ونقلها وتفسيرها للسلطان أو الملك حتى لا يختل المقصود بالرسالة، عن طريق إزالة ما لا يخدم الغاية، مثل المقدمة، وكثرة المدائح، والإبقاء فقط على الهدف الموجود فيها، ليقوم السلطان بدوره بإصدار ما يلزم بشأنها.

كما شغل رئيس ديوان الإنشاء مهمة الناطق الرسمي باسم السلطان أو الملك، أو الناطق بحجته، كما أورد ذلك علي بن خلف الكاتب في كتابه "مواد البيان" حيث قال: "كان.. الناطق بحجته، المترجم عن عقله ومقالته، المتصرف في الوعد والوعيد والترهيب والترغيب والإحماذ والإذمام واقتضاب المعاني التي تُقر الولي على ولائه وطاعته وتُبعد العدو العاصي عن عداوته ومعصيته.."¹⁶¹.

¹⁵⁴ الوزارة فعلها وزر، ووزر الرجل الشيء أي حمل ما يثقل ظهره من الأشياء المثقلة؛ ووزر للملك أي صار له وزيراً، وأزره مؤازرة، عاونه على الأمر وقواه؛ نفسه، ص 111؛ انظر أيضاً لسان الدين ابن الخطيب، الإشارة إلى أدب الوزارة، تحقيق محمد شبانة كمال، التراث الأندلسي، مطبعة الساحل، الرباط، 1980، ص 37.

¹⁵⁵ كان لكاتب الديوان معاونون من بينهم صاحب التوقيع هو يد الوزير ونائبه، ومتولي العرض على الخليفة إذا غاب، وإذا لم يكن للسلطان وزير منصوب فالموقع يدخل مدخله؛ انظر ابن خلف، م.س.، ص 51.

¹⁵⁶ "مخصوصاً بالنيابة عنه في الغيبة"؛ انظر ابن الخطيب، الإحاطة، م.س.، م 2، ص 17.

¹⁵⁷ وصفها ابن خلدون بأمر الخطط السلطانية والرتب الملوكية؛ انظر ابن خلدون، العبر، م.س.، ص 120.

¹⁵⁸ التوقيع هو الكتابة على الرقاع والقصص بما يعتمد عليه الكاتب من أمر الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالملكة، وهو أمر كان يتولاها في ابتداء الأمر الخلفاء؛ القلقشندي، ج 1، م.س.، صص 110-111. ذكر في ذات السياق علي بن خلف الكاتب أن صاحب التوقيع هو يد الوزير ونائبه، ومتولي العرض على الخليفة إذا غاب، وإذا لم يكن للسلطان وزير منصوب فالموقع يدخل مدخله، انظر علي بن خلف الكاتب، م.س.، ص 51.

¹⁵⁹ ينظر في أمر البريد وأبراج الحمام؛ القلقشندي، ج 1، م.س.، ص 114 و 118.

¹⁶⁰ ابن خلف، م.س.، ص 47.

¹⁶¹ نفسه، ص 51.

واشترط في المرشح لشغل وظيفة رئيس الديوان¹⁶²، إلى جانب العلم الغزير وطلاقة اللسان وقوة البيان وحدة الذكاء ومضاء اليقظة، أن يكون صبيح الوجه رفيع النسب، حليماً صبوراً، كتوماً وقوراً¹⁶³، مؤثراً للجد، مصغياً، متأنياً، شغوفاً للشغل وساعياً للقرب من السلطان كارهاً للبعد عنه، حتى يتأسى كتاب الديوان بسيرته ويتبعوا نهجه وطريقته¹⁶⁴.

وقد أشار عبد الواحد المراكشي إلى وجود نوعين من دواوين الإنشاء¹⁶⁵، أحدهما مخصص للجند يشمل المراسلات المتعلقة بالحرب، والشرطة، والبريد وولاية الثغور¹⁶⁶، وآخر مخصص للمراسلات الجارية والمخاطبات والصكوك والإقطاعات والمحاسبات التي تشمل الجبايات والعطاء¹⁶⁷. ويبدو أن هذا التقسيم ينسجم إلى حد كبير مع التقسيم الوظيفي الذي أشار إليه ابن خلدون في مقدمته بخصوص وزارة السيف ووزارة القلم¹⁶⁸، وهو تقريباً التقسيم الوظيفي نفسه الذي كان سائداً في ديوان الإنشاء الغرناطي حيث كانت خطة الكتابة تشتمل على صنفين من الكتاب، كاتب الإنشاء والرسائل الذي يجب أن يتحلى بصفات البلاغة والفصاحة، وكاتب الزمام المختص بالحسابات والشؤون المالية الذي كان يسمى أيضاً بالوكيل وصاحب الأشغال، الذي هو بمثابة وزير للمالية¹⁶⁹؛ وهو التقسيم ذاته الذي أورده ابن خلف الكاتب حين تحدث عن مراتب صناعة الكتابة فعدد الوزارة والتوقيع والرسائل والخراج والضّيعا وبيت المال والخزائن والنفقات والجيش والزمام والبريد، بالإضافة إلى الفض والمظالم وكتابة القضاء والقواد والمعاون¹⁷⁰.

¹⁶² المقرئ، م.س.، ص 53.

¹⁶³ القلقشندي، م.س.، ج 1، ص 104.

¹⁶⁴ نفسه، صص 105 - 107.

¹⁶⁵ "استثنى ديوان إنشاء الخليفة عبد المومن الموحد من هذا التقسيم؛ انظر ج. ف. ب. هوبكنز، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، ترجمة أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1980، ص 52.

¹⁶⁶ نفسه، ص 52.

¹⁶⁷ نفس المصدر والصفحة.

¹⁶⁸ ابن خلدون، العبر، م.س.، صص 129 - 130؛ وفي هذا السياق أشار القلقشندي إلى تقسيم مشابه حين تحدث عن كتابة الأموال وكتابة الجيش "... وأما كتابة الأموال فالمراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تحصيل المال وصرفه وما يجري مجرى ذلك ككتابة بيت المال والخزائن السلطانية وما يُجبي إليها من أموال الخراج وما في معناه، وصرف ما يصرف منها من الجاري والنفقات؛ وما في معنى ذلك من كتابة الجيوش"؛ القلقشندي، ج 1، م.س.، ص 54.

¹⁶⁹ أحمد مختار العبادي، لسان الدين ابن الخطيب وكتابات التاريخية، صص 29 - 62، مجلة عالم الفكر، م 6، ع 2، يوليو، غشت، سبتمبر 1975، ص 33.

¹⁷⁰ ابن خلف، م.س.، ص 47.

وفي السياق ذاته ، قسّم القلقشندي الوظائف خلال الفترة الوسيطية المتأخرة إلى أربعة أقسام هي، وظائف الديوان، ووظائف أرباب السيوف، والوظائف الدينية، ووظائف أرباب الصناعات، وقد أحصى ما يربو عن ستة عشر وظيفة ديوانية، لم يأت على ذكر السفير من بينها، وهي¹⁷¹ :

1. الوزارة¹⁷²
2. كاتب السر
3. نظر الجيش المكلف بالنظر في الإقطاعات
4. نظر المهمات الشريفة
5. نظر الخاص
6. نظر الخزانة
7. نظر البيمارستان
8. نظر الجامع
9. نظر خزائن السلاح
10. نظر البيوت
11. نظر بيت المال
12. نظر ديوان الأسرى
13. نظر الأسواق
14. نظر مراكز البريد
15. نظر الحوطات
16. نظر المسابك

وإلى جانب وظيفة رئيس الديوان، ضمت دواوين الإنشاء لدى مختلف الدول المتعاقبة على حكم المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط عدداً كبيراً من الكتبة الذين اشترط فيهم لتولي مهام الكتابة السلطانية، توفرهم على عدد من الملكات والقدرات، واتصافهم بمجموعة من الصفات، سوف نعمل على تسليط أضواء البحث عليها خلال الفقرات اللاحقة.

¹⁷¹ القلقشندي، م.س.، ج 4، ص 188.

¹⁷² ابن خلف، م.س.، ص 49.

2 - كِتَاب دَوَاوِينَ الْإِنْشَاءِ

جَرَى الْعُرْفُ أَنْ يُتَخَيَّرَ لِشُغْلِ مَنْصَبِ الْكِتَابَةِ مِنْ تَوَفَّرَتْ فِيهِ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الشَّرُوطِ الْجَسَدِيَّةِ وَالْخِصَالِ الْخُلُقِيَّةِ وَالْكَفَاءَاتِ الْعِلْمِيَّةِ، وَتَنْقَسِمُ إِلَى صِفَاتٍ وَاجِبَةٍ لَا يَسْتَقِيمُ تَوَلِّيُ الْكَاتِبِ مِنْ دُونِهَا، وَأُخْرَى عُرْفِيَّةٌ تَرْفَعُ مِنْ قَدْرِ الْكَاتِبِ وَتَعْلِي مِنْ شَأْنِهِ يُمْكِنُ تَجَاوُزُهَا عِنْدَ اخْتِيَارِهِ¹⁷³. إِنْ أَوَّلَ مَا يُشْتَرَطُ فِي كَاتِبِ الْإِنْشَاءِ هُوَ الْإِسْلَامُ وَالذِّكُورَةُ، فَالْإِسْلَامُ شَرْطٌ أَسَاسِيٌّ لِشُغْلِ هَذِهِ الْوِظِيفَةِ السُّلْطَانِيَّةِ، فَالْكَاتِبُ هُوَ لِسَانُ السُّلْطَانِ أَوْ الْمَلِكِ، وَهُوَ الْمُطَّلَعُ عَلَى أَسْرَارِهِ، وَالْمُكَاتِبُ لِأَعْدَائِهِ، وَالْمُرْهَبُ لَهُمْ بِوَقْعِ كَلَامِهِ، وَكَذَلِكَ هُوَ الْمُخَاطَبُ لِلرَّعِيَّةِ وَالْمُؤَثِّرُ فِيهَا¹⁷⁴، وَغَالِبًا مَا يَكُونُ مَدْعُوًّا لِلِاسْتِشْهَادِ بِالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ فِي خُطْبِهِ وَمَكَاتِبَاتِهِ¹⁷⁵ وَهِيَ الْأُمُورُ الَّتِي جَعَلَتْ وَظِيفَةَ الْكِتَابَةِ حِكْرًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَقْلِيَّاتِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مُسْتَقَرَّةً فِي الْمَغْرِبِ خِلَالِ هَذِهِ الْفَتْرَةِ مِنْ مَسِيحِيِّينَ وَيَهُودَ.

وَيَجْدُرُ بِنَا التَّذْكِيرِ إِلَى أَنَّنَا لَمْ نَعَثِرْ فِي حُدُودِ الْوُثَائِقِ وَالْمَصَادِرِ الَّتِي اجْتَمَعَتْ لَدَيْنَا عَلَى مَرَاثِلَاتٍ أَوْ وَثَائِقٍ صَادِرَةٍ عَنْ كَاتِبٍ غَيْرِ مُسْلِمٍ أَوْ كَاتِبَةٍ مُسْلِمَةٍ أَوْ غَيْرِ مُسْلِمَةٍ، وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي يَفِيدُ أَنَّهُ إِلَى جَانِبِ الْإِسْلَامِ كَانَتْ الذِّكُورَةُ أَحَدَ أَبْرَزِ مَحْدَدَاتِ اخْتِيَارِ الْكَاتِبِ¹⁷⁶؛ وَفِي هَذَا السِّيَاقِ، نَسَبُ الْقَلْقَشَنْدِيِّ إِلَى الْخَلِيفَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَوْلَهُ فِي مَسْأَلَةِ كِتَابَةِ النِّسَاءِ:

" جَنْبُوهُنَ الْكِتَابَةَ، وَلَا تُسْكِنُوهُنَ الْعُرْفَ، وَاسْتَعِينُوا عَلَيْهِنَّ بِلَا : فَإِنْ نَعَمْ تُضْرِيهِنَّ فِي الْمَسْأَلَةِ"¹⁷⁷، كَمَا نَقَلَ عَنِ الْخَلِيفَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ يُعْلَمُ امْرَأَةً الْخَطَّاءَ، فَقَالَ " لَا تَزِدْ الشَّرَّ شَرًّا"¹⁷⁸.

فِي الْمَقَابِلِ أَشَارَ الْقَلْقَشَنْدِيُّ إِلَى أَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ انْحِيَاظِ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ وَالْكِتَابِ إِلَى اعْتِبَارِ الذِّكُورَةِ مَحْدَدًا أَسَاسِيًّا لِاخْتِيَارِ كِتَابِ الْإِنْشَاءِ، إِلَّا أَنَّ رَوَايَاتٍ أَوْرَدَهَا بَعْضُ الْإِخْبَارِيِّينَ تُوَكِّدُ قِيَامَ عِدَدٍ مِنْ

¹⁷³ الْقَلْقَشَنْدِيُّ، م.س.، ج 1، ص 66.

¹⁷⁴ نَفْسُهُ، ص 61.

¹⁷⁵ نَفْسُهُ، ص 63.

¹⁷⁶ نَفْسُهُ، ص 64.

¹⁷⁷ نَفْسُ الْمَصْدَرِ وَالْجُزْءِ وَالصَّفْحَةِ.

¹⁷⁸ كَمَا أَوْرَدَ الْقَلْقَشَنْدِيُّ فِي الْمَوْضُوعِ نَفْسَهُ الْبَيْتَيْنِ الشَّعْرِيَيْنِ التَّالِيَيْنِ دُونَ نَسْبَتِهَا،

مَا لِلنِّسَاءِ وَالْكِتَابَةِ وَالْعَمَالَةِ وَالْخَطَّابَةِ

هَذَا لَنَا وَلِهِنَّ مَنْ أَنْ يَبْتَغِيَنَّ عَلَى جَنَابَةِ

نَفْسُ الْمَصْدَرِ وَالْجُزْءِ وَالصَّفْحَةِ.

النساء المسلمات بهذه المهمة، في مقدمتهم السيدة عائشة زوجة النبي ﷺ، حيث روى القلقشندي نقلاً عن أبي جعفر النحاس :

" أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها كانت تكتب في مكاتباتها بعد البسملة، من المبرأة عائشة بنت أبي بكر حبيب حبيب الله " وأضاف القلقشندي نقلاً عن جعفر بن سعيد أنه ذكر لعمر بن مسعدة كاتب الخليفة المأمون بخصوص توقيعات جعفر بن يحيى : " أنه قرأ لأم جعفر توقيعات في حواشي الكتب وأسافلها، فوجدها أجود اختصاراً وأجمع للمعاني"¹⁷⁹؛ غير أن القلقشندي بعد إirاده لهذه الأمثلة عاد ليذكر بأن ما أسلفه استثناء، وأن الأصل في الكتابة هو الذكورة¹⁸⁰.

وإلى جانب الشروط السالفة الذكر، اشترط في الكاتب أن يكون حراً، ومكلفاً، وتقياً¹⁸¹، كما استُحب فيه الوسامة، واعتدال القامة، وصغر الهامة، ورقة الحواشي، وكثافة اللحية، بالإضافة إلى بهاء الملابس، ونظافة المجلس، وعطر الرائحة¹⁸².

من جهة أخرى، اشترط في الكاتب أيضاً، الوقار والعلم وفصل الحكم، وقوة العزم ورجاحة الفهم وصواب المنطق، بالإضافة إلى حدة الذكاء وحلاوة اللسان وحسن البيان، وكرامة الأخلاق، والنباهة واليقظة، تمييزاً له عما في الفئات الاجتماعية الأخرى من الطيش والخفة وزلل الألسن كما أورد ذلك بن خلف الكاتب في كتابه "البيان"، الذي أشار فيه أيضاً إلى ضرورة إلمام الكاتب بالفنون الأدبية والعلوم الشرعية وحسن توظيفها، حيث قال : " .. فيوجز في موضع الإيجاز، ويطنب في موضع الإطناب، حتى إذا وقع جمع المعاني وأجملها، وإذا كتب بسطها وفصلها.. "¹⁸³.

وتعاقب على رئاسة دواوين الإنشاء والعمل فيها لدى مختلف الدول المتعاقبة على حكم المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط عدد من الكتاب المغاربة والأندلسيين،¹⁸⁴ وصفهم عبد

¹⁷⁹ القلقشندي، م.س.، ج 1، ص 64.

¹⁸⁰ نفسه، ص 65.

¹⁸¹ نفس المصدر والجزء والصفحة.

¹⁸² لا يجب أن يكون فضفاض الجثة، متفاوت الأجزاء، طويل اللحية، عظيم الهام، فإنهم زعموا أن هذه الصفات لا يليق بصاحبها الذكاء والفتنة؛ نفسه، ص 67.

¹⁸³ ابن خلف، م.س.، ص 52؛ أنظر أيضاً القلقشندي، م.س.، ج 1، صص 66 - 68.

¹⁸⁴ حسب هوبكنز لم يرد اسم كاتب واحد من البربر بين أسماء الكتاب المرابطين وهو ما يؤكد حسب الكاتب أن جل الأمراء المرابطين صرفوا عنايتهم لجلب كتاب أندلسيين؛ هوبكنز، م س، ص 50.

الواحد المراكشي بأعيان الكتابة وفرسان البلاغة،¹⁸⁵ ممن ذاع صيتهم، لبراعتهم في صياغة الرسائل الدبلوماسية، وتفننهم في انتقاء الألفاظ والتراكيب وتطويرها خدمةً لأغراض الرسائل السفارية؛ فقد برز خلال الفترة المرابطية أبو محمد عبد المجيد ابن عبدون¹⁸⁶ الذي كان كاتباً للأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين والي إشبيلية بعد الإطاحة بالمعتمد¹⁸⁷، وأبو بكر ابن القصيرة¹⁸⁸، الذي تقلد الكتابة بديوان الإنشاء بدعوة من يوسف بن تاشفين بعد ضم الأندلس إلى الدولة المرابطية¹⁸⁹، وهو الذي وصفه عبد الواحد المراكشي بالفصاحة، والبلاغة¹⁹⁰.

إلى جانب الكاتبين السالفي الذكر، برز من الكتاب لدى المرابطين أيضاً أبو القاسم المعروف بـ"الأحدب"، الذي تولى الكتابة على عهد أبي الحسن بن علي بن تاشفين وأبو بكر المعروف بـ"ابن القبطرنة"، وأبو مروان، وأخوه أبي عبد الله محمد ابن أبي الخصال¹⁹¹ الذي وصفه المراكشي بالنباهة والأدب والتبحر في علوم القرآن والحديث والأثر.¹⁹²

خلال الفترة الموحدية، سار الخلفاء على نهج الأمراء المرابطين في اصطفاء الكتاب الأندلسيين للعمل في ديوان الإنشاء، فبرز من بينهم أبو جعفر أحمد بن عطية كاتب الخليفة عبد المومن (527-568هـ/ 1133 - 1163م) الذي كان في خدمة علي بن يوسف المرابطي (499 - 537 هـ/ 1106 - 1143م)¹⁹³، كما برز عبد الملك ابن عياش، وابن المرخي، وأبي الحسن الهوزني الأشبيلي وغيرهم¹⁹⁴.

¹⁸⁵ عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني، القاهرة، 1994، ص 145.

¹⁸⁶ كان قد ولي الوزارة للمتوكل بن الألفطس قبل الانتقال إلى ديوان الإنشاء المرابطي.

¹⁸⁷ المراكشي، م.س.، ص 145.

¹⁸⁸ تقلد الوزارة والكتابة والسفارة على عهد المعتمد بن عباد؛ هوبكنز، م.س.، ص 50.

¹⁸⁹ أسندت له مجموعة من المهمات السفارية لدى ملوك الأندلس، كما أسندت له مهمة الاستغاثة بيوسف بن تاشفين، استقر بمراكش سنة 487 هـ وأصبح رئيساً لهذا الديوان إلى حين وفاته سنة 507 هـ؛ شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات بالأندلس، دار المعارف، القاهرة، 1999، صص 405 - 406.

¹⁹⁰ يصف طريقته في الكتابة على أنها طريقة الكتاب القدماء، من إثارة جزل الألفاظ وصحيح المعنى من غير التفات إلى الأسجاع التي أحدثها متأخرو الكتاب؛ المراكشي، م.س.، صص 144 - 145.

¹⁹¹ نفسه، ص 151.

¹⁹² نفسه، ص 152.

¹⁹³ نفسه، ص 170.

¹⁹⁴ هوبكنز، م.س.، ص 51.

وفي عهد الدولة المرينية لمع نجم عددٍ من الكُتّاب، من قبيل ابن الحاج التُميري وابن خلدون¹⁹⁵ ولسان الدين ابن الخطيب وأبو محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي¹⁹⁶؛ حيث جمع عددٌ منهم بين الكتابة والوزارة، تارةً في المغرب، وتارةً أخرى في الأندلس، مُرتّقين بذلك لمرتبةٍ وظيفيةٍ تلي السلطان بشكل مباشر، مَكَّنَتْ بعضاً منهم من الهيمنة على شؤون الدولة المدنية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، إلى جانب إشرافهم على ديوان الإنشاء، لهذا لُقِّبَ عددٌ منهم بعماد الدولة، أو ذي الوزارتين¹⁹⁷ الذي لُقِّبَ به الكاتب الغرناطي لسان الدين ابن الخطيب الذي كانت له حُظوة كبيرة لدى عدد من سلاطين غرناطة وفاس، في مقدمتهم السلطان أبو الحجاج يوسف الأول (733-754 هـ / 1333-1354 م) الذي قلَّده رئاسة ديوان الإنشاء سنة 755 هـ، وكذلك السلطان الغني بالله (754-760 هـ / 1354-1359 م) الذي رفعه إلى الوزارة حيث جمع بين الكتابة والوزارة، ومنها لقبه الذي اشتهر به¹⁹⁸ قبل نكبه التي انتهت بمقتله¹⁹⁹؛ وجدير بالذكر أن نشاط ابن الخطيب لم يقتصر فقط على ممارسة مهام الكتابة والوزارة، فقد تعداه إلى انتدابه من قبل عدد من سلاطين غرناطة للسفارة إلى المغرب²⁰⁰، فكانت أول سفارة قام بها إلى فاس على عهد السلطان أبي الحجاج يوسف الأول، أوفد بموجبه إلى السلطان أبي عنان فارس بن علي (748 - 759 هـ / 1348 - 1358 م هـ)، لتعزيته في وفاة والده أبي الحسن علي بن عثمان (752-731 هـ / 1331-1351 م)، ولما مات السلطان أبو الحجاج، وخلفه ابنه محمد الغني بالله، بعثه سفيراً إلى المغرب أيضاً في غرض الاستغاثة والاستنجاد سنة 755 هـ-1354 م²⁰¹.

¹⁹⁵ تحدث ابن خلدون عن توليه الكتابة لدى السلطان أبي سالم إبراهيم بن علي بن عثمان (760-763 هـ / 1359-1361 م) فقال: "استعملني في كتابة سره والترسيل عنه وإنشاء لمخاطبته، وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الإسجاع، لضعف انتحالها، وخفاء العالي منها على أكثر الناس، بخلاف المرسل انفردت به يومئذ وكان مستغرباً عندهم بين أهل الصناعة؛ انظر ابن خلدون، العبر، م.س.، ص 2059؛ وفي ذات السياق أضاف المؤرخ المغربي عبد الهادي التازي أن ابن خلدون شغل في بلاط فاس كتابة السر وإنشاء المخاطبات؛ التازي، ابن خلدون سفيراً، م.س.، ص 367.

¹⁹⁶ أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي، من أهل سبتة شغل الكتابة بديوان الإنشاء لبني الأحمر بعد استيلائهم على سبتة، وعاد إلى المغرب بعد ذلك فيعين كاتباً بديوان الإنشاء وصاحب علامته توفي عام 1350 م - 750 هـ؛ ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة؛ م.س.، م 2، صص 11 - 17؛ انظر أيضاً ابن خلدون، العبر، صص 1955 - 1956.

¹⁹⁷ العبادي، م.س.، ص 32.

¹⁹⁸ ضيف، عصر الدول والإمارات بالأندلس، م.س.، صص 417 - 418.

¹⁹⁹ ابن خلدون، العبر، م.س.، صص 2017 - 2018.

²⁰⁰ راجع عبد الله المغراوي، أصل الدبلوماسية بين الأندلس النصرية والمغرب المريني من خلال رسائل ابن الخطيب الأندلسي (750-770 هـ)، موقع مجلة التاريخ العربي العدد 06 السنة ربيع 1998 الصفحة 63-100، مقالة رقمية نشرت على الرابط التالي: <http://www.attarikh-alarabi.ma/Html/adad6partie14.htm>، اطلعت عليها في 05.06.2019.

²⁰¹ مخلف حسن ساجد، المعطيات الحضارية في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين ابن الخطيب، صص 170 - 204، مجلة العلوم الإسلامية، ع 2، شعبان 1430 هـ، ص 172.

فَرَضَ تعدُّ أغراضِ الرسائلِ الدبلوماسية على كُتَابِ ديوان الإنشاء تطويع خطاباتهم وإغنائها بشكلٍ مستمر، وهو ما أفضى إلى إقرار مجموعة من القواعد الشَّكلية واللُّغوية، خصَّها عدد من كُتَابِ العصر الوسيط بمؤلفات عدة، أبرزهم ابن خلف الكاتب²⁰² صاحب كتاب "مواد البيان"²⁰³، الذي علل إقدامه على تأليف هذا الكتاب برغبته في تصنيف كتاب جامع لما تفرق من آداب الكتابة الديوانية وعلومها تيسيراً على المشتغلين بهذه الصناعة،²⁰⁴ ويعدُّ هذا المصنف من الكتب المؤلفة قديماً في صناعة الكتابة، وأحد أهم مصادر الفلقشندي صاحب كتاب "صبح الأعشى" الذي نقل عنه في نحو مئتي موضع²⁰⁵، ويُعتبر هذا كتاب إلى جانب كتاب "مواد البيان" دليلاً للكتابة الديوانية في القرون الوسطى المتأخرة. وبرز إلى جانب الكاتبين السالفي الذكر كُتَابُ آخَرُونَ كَابِن خلدون ولسان الدين ابن الخطيب وابن الحاج النُّميري والحضرمي وغيرهم ممن أثروا الكتابة الديوانية المغربية - الأندلسية وأثروا فيها ومنحوها خصائصها المُمَيِّزة وطابعها المتفرد.

على الرغم من اتفاق معظم الكُتَابِ المغاربة والأندلسيين الوسيطيين على القواعد الشَّكلية واللُّغوية للرسائل الديوانية، إلا أن الأساليب المعتمدة من قبلهم كانت في غاية التباين والاختلاف، فعلى سبيل المثال لا الحصر، امتاز أسلوب لسان الدين ابن الخطيب بكثرة السجع²⁰⁶ والإطناب، مقترباً بذلك من الأساليب المشرقية التي عُرف عنها التصنع²⁰⁷، وهو الأسلوب الذي سعى خلاله إلى إثبات تفردّه وتفوقه

²⁰² أبو الحسن علي بن خلف بن علي بن عبد الوهاب الكاتب، من كُتَابِ الفاطميين كان حياً سنة 437 هـ/1046 م، ولم نقف على ترجمة له.
²⁰³ أبواب الكتاب العشرة:

- الباب الأول حد صناعة الكتابة وفضيلتها ومنفعتيها وغرضها وقسمتها ورسم الكتاب وعلة وضعه؛
- الباب الثاني في البلاغة وأقسامها الأصلية؛
- الباب الثالث في أقسام البلاغة الفرعية؛
- الباب الرابع في صناعة البديع؛
- الباب الخامس في ما يخرج الكلام عن أحكام البلاغة؛
- الباب السادس في أن الطبع هو قوام الصناعة ونظامها واحتذاء مذاهب السابقين بكمالها وتماها؛
- الباب السابع في أوضاع الخط وقوانينه وترتيب الصدور والأدعية والعنونات والتاريخ والختم؛
- الباب الثامن في رسوم المكاتبات؛
- الباب التاسع في آداب الصناعة؛
- الباب العاشر في آداب السياسة.

ابن خلف، مواد البيان، م.س.، صص 463 – 469.

²⁰⁴ نفسه، ص 7.

²⁰⁵ نفسه، ص 8.

²⁰⁶ شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، م.س.، ص 335.

²⁰⁷ نفسه، ص 334.

الأدبي واللغوي على معاصريه، كابن خلدون وابن الحاج النميري رئيس ديوان الإنشاء لدى أبي الحسن المريني²⁰⁸، وكاتب علامته²⁰⁹، الذي على الرغم من مغالاته في اعتماد السجع واعتماد الصيغ اللغوية والبلاغية المهجورة²¹⁰، إلا أنه اختلف عن أسلوب ابن الخطيب بسلوك سبيل الاختصار في رسائله، فجاءت قصيرة وبسيطة مقارنة مع رسائل ابن الخطيب التي تكون عادة أطول وأضخم وأحفل بالسجع والمحسنات اللفظية و البديعية.

لقد كانت الرسائل الدبلوماسية خلال هذه الفترة تطول وتقصّر حسب موضوع الرسالة والظرف الذي كتبت فيه، غير أن معظمها كان يميل إلى الإطالة والإطناب، ومرّد ذلك أن هذا الأسلوب يتيح مُنشئ الرسالة أن يُظهر مهارته الفنية وثروته الفكرية والثقافية، فيُسرف في عرض المسائل والقضايا التي يريد أن يوضحها، لاسيما أن الإطناب يقوم على بسط المعاني وتكرارها بعبارات متعددة، تهدف إلى تأكيد الفكرة وتوضيحها. على الرغم من ميل معظم الكتاب المغاربة والأندلسيين إلى الإطناب، إلا أن أسلوبهم إجمالاً اتسم - كما أسلفنا ذكره في الفقرات السالفة - بالسهولة والوضوح والابتعاد عن التعقيد، والحرص على التنوع بين الشعر والنثر، والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، وتضمين الأمثال والحكم.

اعتبر شوقي ضيف مسألة مغالاة الكتاب المغاربة في اعتماد السجع والنثر وتَصْنَعُ المصطلحات خلال هذه الفترة، نتاجاً منطقياً لهيمنة الفقهاء على دواوين الإنشاء خلال العهدين المرابطي والموحدي، وهو الأمر الذي عدّه أحد مظاهر الجمود، وتقرباً من أسلوب المشاركة منه إلى أسلوب كُتّاب ملوك الطوائف في الأندلس؛ كما أضاف شوقي ضيف أن هذا الأسلوب تسرب أيضاً إلى الكتابة التاريخية، خاصة تلك التي تتصل بالترجمة للأدباء، وهو ما اعتبره ضرباً من ضروب التلفيق والتصنع والالتفاف حول المعنى والصُّور، بالإضافة إلى التعبير بالأساليب المحفوظة التي لا تفصح عن فكرة محدودة²¹¹ ولا تخدم مرامي الرسائل الديوانية وأغراضها، وهو الأمر الذي نخالفه فيه الرأي على اعتبار أن الأسلوب المعتمد في كتب التراجم أملت طبيعة الغرض التي تقتضي تجميع أكبر قدر من المعطيات الخاصة بالمتراجم له لتكتسب صفة الجامعة لأخباره.

²⁰⁸ ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قدامح الآداب في الحركة السعيدة إلى القسطنطينية والزاب، دراسة وإعداد محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1990، بيروت، ص 31.

²⁰⁹ نفسه، ص 47.

²¹⁰ نفسه، ص 48.

²¹¹ شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، م. س.، ص 332.

لقد أدى تنقل كُتاب الرسائل ورؤساء دواوين الإنشاء بين مختلف بلاطات دول المغرب والأندلس خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط إلى تعميق التأثير والتأثر بين مختلف الدواوين المغربية - الأندلسية²¹²، حيث انصهرت تقاليد الكتابة وتوحدت ضوابطها الشكلية واللغوية، حتى أضحت من الصعب التمييز بين الكتابة الديوانية المغربية ونظيرتها الأندلسية.

وخلال الفقرات المقبلة سوف نعمل على تسليط أضواء البحث على خصائص الكتابة الديوانية المغربية - الأندلسية، ابتداء بالضوابط الشكلية واللغوية والبلاغية للرسائل الدبلوماسية الوسيطة وانتهاء بتحديد أغراضها.

3 - الضوابط الشكلية

بعد ضمّ المغرب إلى لأندلس انتقل الإرث الديواني الأندلسي بانتقال الكُتاب الأندلسيين إلى دواوين الإنشاء المرابطية والموحدية والمرينية، فطبعوها بطابعهم، وأدخلوا إليها أساليبهم وأعرافهم ومراسيمهم، كما أرسوا ضوابطهم الشكلية واللغوية والأدبية، حتى صارت الكتابة الديوانية المغربية امتداداً لنظيرتها الأندلسية.

على مستوى الشكل، وردت إشارات كثيرة بخصوص المحددات الشكلية للكتابة الديوانية، كحجم الأوراق ونوعها ولونها، وألوان الجبر، وشكل الزخارف المعتمدة في الرسائل الديوانية المغربية - الأندلسية الوسيطة لدى عدد من الكُتاب، كابن خلف والقلقشندي ولسان الدين ابن الخطيب الذي تحدث في "ريحانة الكتاب" عن اعتماد ديوان الإنشاء الغرناطي في مراسلاته الرسمية الورق الأحمر، وهي الأوراق التي تحدث عنها في مجموعة من الرسائل التي صاغها، منها إحدى رسائله الموجهة إلى السلطان أبي عنان المريني حيث قال في وصف رسالته: "وكتبنا هذا الكتاب، فلوان حمرة لونه معتادة، حسب ما اقتضاه عرف وعادة، لقلنا خجل من تقصير"²¹³، وفي رسالة أخرى للملك الناصر أبو عبد الله محمد ابن قلاوون الصالحي (693 - 741 هـ / 1293 - 1341 م) "ولما ضاق نضاق الصبر... أصدرنا هذه المخالصة الحمراء، قد ورع خدّها الخجل، وقصر عن القيام بحضورها المروي، والمرتجل"²¹⁴.

²¹² النميري، م.س.، ص 54.

²¹³ ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، م.س.، ص 407.

²¹⁴ نفسه، ص 493.

إلى جانب اعتماد اللون الأحمر في ورق الرسائل السلطانية، اتخذ ملوك بني الأحمر من هذا اللون شعاراً لهم في قصورهم بالحمراء ولوناً لأعلامهم وقبايهم أو خيامهم، وفي هذا الصدد يقول شاعر الحمراء عبد الله بن زمرك:

خَفَّتْ بِهَ الْعِلَامُكُ الْحُمْرُ النِّي خُفُّوْهَا النَّصْرُ الْعَزِيزُ مُوَكَّلٌ²¹⁵

وفي هذا السياق يُشير ابن خلدون إلى أن الكُتُب السلطانية في بلاد المغرب والأندلس كانت تُكتب على الرِّقّ تشريعاً لها، غير أن كثرة الحاجة إليه إثر تعاظم حجم المراسلات السلطانية²¹⁶ فرض على دواوين الإنشاء الانتقال إلى اعتماد الكاغد في مراسلاتهم²¹⁷ وفي المقابل شاع استعمال الكاغد في بلاد المشرق، حيث تحدث القلقشندي عنه واصفاً إياه بالورق الصقيل الناصع البياض المتناسب الأطراف، كما تحدث عن أنواعه وخصائص كل نوع منه، كالورق البغدادي الذي كان يتصف بالسَّماكة والليونة وتناسب الأطراف، وهو الذي كان يعتمد في كتابة المصاحف وفي بعض المراسلات السلطانية، والورق الشامي الذي يليه جودةً وقدرًا والمعروف بصغر حجمه مقارنةً مع الورق البغدادي، في حين اعتبر القلقشندي أن الورق المصري هو أقل الأوراق جودة²¹⁸ يليه الورق المغربي الذي وصفه برداءة الصَّنعة وسرعة الإبلاء والتآكل، وهو الأمر الذي فسَّر به إقبال المغاربة على تدوين المصاحف والمراسلات السلطانية في الرِّق بدل الكاغد طلباً للجودة وطول البقاء²¹⁹.

وبخصوص أحجام الأوراق المعتمدة في المراسلات السلطانية، أورد القلقشندي في "صُبْح الأعشى" معلومات دقيقة عنها، خاصة الورق البغدادي الذي كان يُعتمد بكثرة في مكاتبات السلاطين المصريين من عُهود ومُراسلات لنظرائهم، فالورق البغدادي كان عرضه ذراع واحد وطوله ذراع ونصف²²⁰، أي ستة وخمسون سنتيمتراً طولاً و ما يربو على أربعة وثمانين سنتيمتراً عرضاً، الأمر الذي مكَّن كُتّاب الإنشاء من كتابة رسائلهم بحروف كبيرة، فكانت السطور عريضة والمسافات الفارغة بينها واسعة، تصل في بعض

²¹⁵ العبادي، م. س.، ص 32.

²¹⁶ انتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار وتعاطاها من قريب ومن بعيد؛ القلقشندي، م. س.، ج 2، ص 476.

²¹⁷ ابن خلدون، العبر، م. س.، ص 214.

²¹⁸ القلقشندي، م. س.، ج 2، ص 476.

²¹⁹ نفسه، ص 477.

²²⁰ القلقشندي، م. س.، ج 6، ص 190.

الأحيان إلى سبعة سنتيمترات إذا كان عرض السطر (الحرف) سنتيمترين، وستة سنتيمترات إذا كان إذا كان عرض السطر (الحرف) سنتيمتر ونصف²²¹.

وبالنسبة لكتّاب المغرب، فإنهم كانوا يكتبون في نوع واحد من الورق بخلاف كتّاب المشرق الذين تعددت لديهم أنواعه، حيث أورد القلقشندي بهذا الصدد أن المغاربة تعارفوا على الكتابة في طُومارٍ واحد²²² أي ورقة واحدة، يزيد طولها على عرضها قليلاً²²³، مقدارها شبرين عرضاً وثلاثة أشبار طولاً، ويترك عند الكتابة بين السطرين عرض أصبع ونصف²²⁴، كما أن قدر المسافة بين المتن والكتابة المدونة في الحاشية أُصبعين²²⁵، كما جرت عادة الكتاب المغاربة أن يكتبوا في آخر المراسلة بقلم الثلث عبارة "وكتب في التاريخ المؤرخ" ويزاد فيه هاء مشقوقة راجعة إلى الخلف²²⁶.

ومن جهة أخرى، وردت إشاراتٌ متعددةٌ إلى نوع الحبر المُعتمد في كتابة المراسلات السلطانية لدى عدد من المؤرخين الوسيطيين، كابن الخطيب في "الإحاطة" والقلقشندي في "صبح الأعشى" وغيرهما، حيث تحدث القلقشندي عن وجود أنواع متعددة من الحبر، فلكل نوعٍ من الورق حبره الخاص، فالكاغد يُكتب عليه بحبر الدخان²²⁷، والزَّق يُناسبه حبر الرأس الذي يكون براقاً عند الكتابة به²²⁸. كما أشار القلقشندي إلى استعمال الحبر المذهب وحبر اللازورد في حالاتٍ نادرة لكتابة فواتح الكلام وبعض الأسماء الجليلة²²⁹ كما تحدث عن حبر الزُّنجفر الذي يعد أجوده "الزُّنجفر المغربي" وحبر "المغرة العراقي" الذي تكتب به نفائس الكتب وكتب السلاطين والملوك في بعض الأحيان²³⁰.

²²¹المقريزي، م.س.، م 4، ص 47.

²²²جرت العادة أيضاً أن يُكتب للخلفاء في قرطاس من ثلثي طومار، وإلى الأمراء من نصف طومار، وإلى العمال والكتاب من ثلث طومار؛

القلقشندي، ج 6، م.س.، ص 189.

²²³نفسه، ص 193.

²²⁴نفسه، ج 8، م.س.، صص 78 - 79.

²²⁵نفسه، ج 6، ص 196.

²²⁶نفسه، ج 8، صص 78 - 79.

²²⁷نفسه، ج 2، ص 465.

²²⁸نفسه، ص 466.

²²⁹نفسه، ص 467.

²³⁰نفسه، ص 468.

وبالنسبة للأقلام المعتمدة في الكتابة، فقد اختص كل نوع من الورق بقلم خاص، فقطع الورق البغدادي الكامل خص بقلم مختصر الطومار، وهو قلم جليل لا قلم فوقه كما قال القلقشندي، يكتب به الملوك أسماءهم²³¹، كما خُصَّ الورق الشامي الكامل بقلم التوقيعات.²³²

ورغم تعدد أدوات الكتابة خلال الفترة الوسيطية وتنوع أساليبها، إلا أن جمالية الخط كانت محط انتقاد عدد من الكتاب والمؤرخين الوسيطيين، وفي مقدمتهم ابن خلدون، الذي تحدث عن تدهور خط أهل المغرب بعد أن كان يُعد من أحسن الخطوط وذلك بعيد انهيار الدولة الموحدية،²³³ ليستعويض عنه سلاطين بني مرين بعد ذلك في مكاتبتهم بالخط الأندلسي بعد انتقال عدد كبير من الكتاب الأندلسيين إلى فاس واستعمالهم في دواوين الإنشاء المرينية.

وفي هذا السياق لا مندوحة من ذكر بعض توجيهات علي بن خلف الكاتب بخصوص تحسين الخط، حيث وضع في كتابه مواد البيان ثلاثة شروط لتحسين الخط :

أولها، تصحيح أشكال الحروف التي تنقسم إلى جليل ودقيق، والجليل ما يقع في الكتب السلطانية ونحوها، والدقيق ما يقع في الكتب الديوانية المشتركة؛

ثانيها، تصحيح الهجاء؛

ثالثها، تشكيل الحروف وهو الأصل في أدب الخط²³⁴.

وبالنسبة لتوزيع أبواب المكاتبات السلطانية، فمن حيث الشكل نجد أن كُتَّاب دواوين الإنشاء المغاربة والمشاركة اتفقوا على شكل عام موحد، وإن وجدت بعض الاختلافات فهي مجرد استثناءات تؤكد القاعدة؛ وفي هذا الصدد، أورد القلقشندي في كتاب "صُبْحُ الْأَعَشَى" أن "السلطانيات كلها على اختلاف قطع الورق فيها تكتب بالبسملة في أول الفصل²³⁵ بعد ما يترك أوصال البياض في أعلى الدرج بحسب ما تقتضيه الحال²³⁶، ثم يكتب تحت البسملة سطر ملاصق لها بحسب ما يقتضيه وضع القلم المكتوب به في القرب والبعد، بحسب الدقة والبعد، بحسب الدقة والغلط، ثم يكتب السطر

²³¹ القلقشندي، م.س.، ج 6، ص 195.

²³² نفسه، ص 194.

²³³ ابن خلدون، العبر، م.س.، صص 213 - 214.

²³⁴ ابن خلف، م.س.، ص 318.

²³⁵ أفراد البسملة في سطر واحد وحدها تبجيلاً لإسم الله تعالى وإعظماً وتوقيراً له؛ القلقشندي، م.س.، ج 6، ص 225.

²³⁶ مقدار البياض قبل البسملة يختلف في السلطانيات باختلاف قُطْع الورق، فكلما عَظُم قطع الورق، كان البياض فيه أكثر، فقطع الورق البغدادي يترك فيه ستة أوصال بياضاً، وتكتب البسملة في أول السابع، وأما حاشية الكتاب فيحسب اجتهاد الكاتب فيه السعة والضيق؛ القلقشندي، نفسه، ص 196.

الثاني وآخر الوصل الذي كتبت البسملة في أوله، بحيث يبقى من الوصل ثلاثة أصابع مطبوقة أو نحوها في القطع الكبير، وقدر إصبعين في القطع الصغير، وما بينهما بحسبه..²³⁷؛ كما اتفق أن البعيدة²³⁸ والصلاة على النبي تكون في صدور المكاتبات²³⁹، في حين يوضع التاريخ في آخرها²⁴⁰، وقد تشد بعض المكاتبات عن القاعدة، حيث يُعمد إلى تقديم أو تأخير أحد العناصر السالفة الذكر، وتُفتح²⁴¹ بعض المراسلات بالبعدية والتاريخ. كما أورد القلقشندي، أن هذا الاستثناء يرتبط عادةً بحدوث تشوف النفوس إلى معرفته، كالإخبار بالفتوحات والحوادث العظام، فَتُفْتَحُ المكاتبة بـ "كتبنا إليك يوم كذا من سنة كذا"²⁴². من جانبه ذكر علي بن خلف الكاتب أن الرسم في الكُتب الصادرة عن السُلطان عليها أن تؤرخ في أعجازها وأواخرها، إلا أن يكون الكتاب في أمرٍ يُستحسن الابتداء بذكره فيؤرخ في صدره باليوم، كالحوادث العظام والفتوحات والمواسم الدينية²⁴³، وهو الأمر الذي ذهب إليه القلقشندي الذي أجمل مراحل كتابة الرسالة السلطانية في الخطوات التالية، "وَيَأْتِي في صدور كتبه بالسلام فيقول سلام عليك، وربما قال - السلام على من آمن بالله ورسوله- وفي خطاب الكافر - سلام على من اتبع الهدى-، .. وكان يُتخلص من صدر الكتاب بأما بعد أو غيرها.. وكان يختم كتبه تارة بالسلام، فيقول والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وربما اقتصر على السلام .. ويقول في خطاب الكافر والسلام على من اتبع الهدى وربما أسقط السلام من آخر كتبه..²⁴⁴

تجدر الإشارة، أن عدداً من كُتاب الفترة الوسيطة المتأخرة حددوا مواضع أسماء الملوك والسلاطين في المراسلات الدبلوماسية وذلك حسب الغرض منها، حيث جرت العادة أن يُقدم إسم المرسل على المرسل إليه كعبارة "من فلان أمير المؤمنين إلى فلان" كما كان يكتب عن النبي ﷺ "من محمد رسول الله إلى فلان"²⁴⁵، وهو ما كان يُعتمد في المكاتبات السلطانية المصرية إلى ملوك المغرب، وقد يؤخر

²³⁷ القلقشندي، م.س.، ج 6، ص 197.

²³⁸ "أما بعد" تستعمل في صدور المكاتبات والولايات وربما استعملت في ابتدائها؛ نفسه، ص 231.

²³⁹ نفسه، ص 229.

²⁴⁰ يحسب التاريخ بعدد الأيام والليالي بالنظر إلى ما مضى من السنة أو الشهر وإلى ما تبقى منهما؛ نفسه، ص 234.

²⁴¹ الافتتاح، الأصل أن يأتي الكاتب في أول المكاتبة بحسن الافتتاح المطلوب في سائر أنواع الكلام، من نثر ونظم مما يوجب التحسين، ليكون داعية لاستماع ما بعده، على ما تقدم بيانه في الكلام على علوم البلاغة؛ نفسه، صص 366 – 365.

²⁴² القلقشندي، م.س.، ج 6، ص 261.

²⁴³ ابن خلف، م.س.، ص 339.

²⁴⁴ القلقشندي، م.س.، ج 6، ص 366.

²⁴⁵ القلقشندي، م.س.، ج 5، ص 427.

ذكر إسم المرسل إليه إلى حين الانتهاء من الدعاء والمدح تعظيماً وتبجيلاً له²⁴⁶، مع جواز ذكر الكنية²⁴⁷ التي يُعرف بها،²⁴⁸ أو اللقب الذي يُلقب به؛²⁴⁹ وفي هذا السياق يرى ابن خلف الكاتب، "إن كانت المكاتب من الخليفة فينبغي أن يفصل من الدرج قدر ذراع، ثم يستفتح ببسم الله الرحمن الرحيم في سطر أول، لأنها أول ما يجب أن يفتح به،.... ثم يُكتب في سطر ثان يلاصقها ويخرج يسيراً من عبد الله ووليه فلان بن أبي فلان".²⁵⁰ ويذكر نعته أمير المؤمنين إلى فلان ابن فلان²⁵⁰؛ وذكر القلقشندي أنه في المكاتبات الواردة عن أصحاب فاس إلى سلاطين مصر، جرت العادة أن تفتتح بلفظ "من عبد الله فلان أمير المسلمين"، كما ذكر أن أول من كتب منهم إلى مصر هو أمير المسلمين يوسف بن تاشفين (463-500هـ / 1071 - 1106م) بعد أن استتب له أمر المغرب، غير أنه لم يورد مضمون الرسالة أو أي مقتطف منها²⁵¹.

ارتباطاً بالموضوع ذاته، أورد ابن الحاج النُميري في كتابه "فيض العباب وإفاضة القداح" مجموعة من الضوابط الشكلية ليسترشد بها كُتاب الرسائل الدبلوماسية في صياغتهم وتحريرهم لها، حيث نصّ النُميري على وجوب استهلال الرسالة الدبلوماسية بالبسملة ثم تعريف المرسل والمرسل إليه، يليه بعد ذلك الإشارة المُقتضبة لموضوع الرسالة أو السفارة قبل توجيه التّحية التي تليها البعديّة والصلاة على النبي وعلى آله، ثم تحديد مُنطلق الرسالة أو السفارة، ليخوض بعد ذلك الكاتب في سرد تفاصيل الموضوع، وآخر ما يكتب هو الخاتمة²⁵². وحري بنا أن نشير إلى أنه على الرغم من تحديد النُميري وعدد

²⁴⁶ القلقشندي، م.س.، ج 5، ص 428.

²⁴⁷ الكنية من المكتوب عنه قد تكون في صدر الكتاب كما يكتب عن الخلفاء "من عبد الله ووليه أبي فلان فلان أمير المؤمنين" أو في موضع العلامة؛ نفسه، ص 436.

²⁴⁸ نفسه، ص 431.

²⁴⁹ نفسه، ص 441.

²⁵⁰ ابن خلف، م.س.، ص 328.

²⁵¹ القلقشندي، م.س.، ج 8، صص 79 - 80.

²⁵² مراحل كتابة الرسائل الدبلوماسية كما أوردها النُميري :

- 1- بعد السطر الأعلى ومقدمته الفضلى
- 2- المرسل : من عبد الله المتوكل على الله فارس أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين ابن مولانا؛
- 3- المرسل إليه : الشرفاء الفقهاء والوجوه والأعيان والأمناء والخاصة من أهل كذا والعامة على الولاء؛
- 4- الإشارة إلى الموضوع "تلميح"؛
- 5- سلام عليكم أجمعين؛
- 6- أما بعد حمد الله؛
- 7- والصلاة على النبي؛
- 8- والرضى على آله؛
- 9- فإننا كتبناه اليكم كتبكم الله من منزلنا الأسعد....؛

آخر من الكتاب كالفلقشندي وابن الخطيب لأركان الرسالة الدبلوماسية الوسيطية، إلا أن الرسائل كانت تختلف صياغتها باختلاف الأساليب التي يعتمد عليها، وباختلاف أغراضها ومكانة المرسل إليهم، وهو اختلاف لم يطل الجوهر بقدر ما كان له أثر في مستوى تراتبية الأركان²⁵³.

وإلى جانب الأركان السالفة الذكر، اتفق معظم كُتاب الحقبة الوسيطية على أن التوقيع²⁵⁴ والختم من الأركان الشكلية الواجبة في المراسلات السلطانية، والتوقيع أو العلامة هي الرمز أو الإشارة أو العبارة التي يتخذها الخليفة أو السلطان أو الملك أو الأمير ليضعها على الرسالة، دلالةً على صدورها عنها وبأمر منه، وكانت غالباً ما تكتب أسفل الرقاع²⁵⁵ ويكون ذلك بكتابة كلمات منتظمة كالتهنئة أو التسبيح أو اسم السلطان أو الأمير أو صاحب الكتاب كائناً من كان، أو شيء من نعوته، وذلك للدلالة على صحة الكتاب ونفوذه²⁵⁶، فقد كتب يوسف بن تاشفين عبارة "الملك والعظمة لله"²⁵⁷، وكتب يعقوب بن يوسف بن عبد المومن الموحي عبارة "الحمد لله وحده" بيده، كما أورد عزاري أن بعض حكام بيزة وصقلية كتبوا "الحمد لله حق حمده" في رسائلهم الموجهة إلى الموحيين²⁵⁸.

خلال الفترة المرينية كتب ملوك بني الأحمر في مراسلاتهم الموجهة إلى فاس عبارات من قبيل "صح هذا" أو "لا غالب إلا الله" التي اتخذها أول ملوكهم أبو عبد الله محمد بن يوسف الأول (635 - 671 هـ / 1238 م 1273 م) لتصبح بعد ذلك شعاراً لهم ولدولتهم²⁵⁹، وهي العلامات والتوقيعات التي كانت تكتب بخط سلاطينهم على السجلات كلها، حيث لم يكن لهم خطة للعلامة كما كان لغيرهم من الدول، وفي ذلك يقول شاعر الحمراء عبد الله بن زمرك في مدح السلطان محمد الخامس:

10- الموضوع "تفاصيل كثير شرح وإطناب.....؛

11- الخاتمة: تضع حداً بصفة تمهيدية للحديث وتشعر بالنهاية وقد تتضمن دعاء صالحاً....؛

أنظر النميري، م.س.، ص 53.

²⁵³نورد في هذا السياق على سبيل المثال لا الحصر رسالة الأمير عبد الرحمان الجوابية على رسالة الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل، وهي الرسالة التي أوردتها بن حيان في المقتبس، حيث يمكن تقسيمها إلى عدة حقول دلالية تبرز الخصوصية البلاغية واللغوية للرسالة السفارية "الدبلوماسية" الوسيطية في الأندلس خلال الفترة الأموية، حيث استهلّت "البسملة المختصرة" ومخاطبة الإمبراطور بضمير المخاطب مجرداً من ألقاب الفخامة والملك وما يعنيه ذلك في الأعراف الدبلوماسية، مروراً بالمتن حيث عمد أمير قرطبة إلى إعادة تذكير الإمبراطور بأهم القضايا التي أثارها رسالته، ووصولاً إلى الخاتمة حيث أخبره بخروج الأغلبية عن سلطة العباسيين وإجابته المهمة لطلب ثيوفيل التحالف ضد الدولة العباسية حيث لم يأخذ أي موقف صريح إزاء هذا الطلب؛ انظر احمام، م.س.، صص 89 - 101.

²⁵⁴المقرئزي، م.س.، م 4، ص 53.

²⁵⁵الفلقشندي، م.س.، ج 1، ص 110.

²⁵⁶ابن خلدون، العبر، م.س.، ص 133.

²⁵⁷العالمي، م.س.، ص 30.

²⁵⁸عزاري، ج 1، م.س.، ص 212.

²⁵⁹ابن الخطيب، ربحانة الكتاب، م.س.، ج 1، ص 121.

يا إماماً قد خذنا من الدهس ملاذاً خطميناك يُنادي صح هذا صح هذا²⁶⁰

وفي هذا السياق تحدث عبد الهادي التازي عن وجود علامتين في المراسلات السلطانية المغربية، إحداهما تكتب في صدر الكتاب بعد البسملة والثانية في تكتب بقلم في سميك آخر المراسلة بغرض الإشعار بمصادقة السلطان أو الملك، وقد ساق مثال العلامة لدى الحفصيين ورثة الموحدين الذين كانوا يكتبون بعد البسملة " الحمد لله والشكر لله " وفي آخر الكتاب بالخط العريض " وكتب في التاريخ المؤرخ به " ²⁶¹.

وجرت عادة الكتاب المرينيين إذا انتهوا إلى آخر الكتاب أفسحوا حيزاً للسلطان حتى يكتب بخط يده " وكتب في التاريخ المؤرخ به " ، وذلك مما أحدثه أبو حفص المريني عم السلطان أبي الحسن ²⁶². والتوقيع أمر كان يتولاه في بادئ الأمر السلاطين والملوك بأنفسهم ²⁶³ قبل أن ينوب عنهم كاتب أطلق عليهم صاحب العلامة ²⁶⁴ ، وذلك بعد تعاظم حجم المراسلات السلطانية.

والجدير بالذكر، أن عدداً من الرسائل الدبلوماسية كتبها بعض السلاطين والملوك بخط أيديهم، منها ما ذكره لسان الدين ابن الخطيب في "ريحانة الكتاب"، حين تحدث عن رسالة بخط السلطان الغني بالله بعث بها إلى سلطان المغرب يعلمه فيها بفتح حصن "أشر" ²⁶⁵ وعن رسالة أخرى وصلته بشأن فتح "أطيرة" ²⁶⁶.

إلى جانب العلامة يعدُّ الختم أيضاً من الأركان الواجبة في المكاتبات السلطانية، حيث ذهب عدد من الكتاب إلى اعتباره إرثاً نبوياً لورود عدة أحاديث بشأنه، حيث أورد بن خلدون نقلاً عن الصحيحين ²⁶⁷ أن النبي ﷺ أراد أن يكتب إلى قيصر ف قيل له " إن العجم لا يقبلون كتاباً إلا أن يكون مختوماً فاتخذ

²⁶⁰ العبادي، م. س.، ص 33.

²⁶¹ التازي، ابن خلدون سفيراً، م. س.، صص 366 - 367.

²⁶² القلقشندي، م. س.، ج 5، ص 210.

²⁶³ نفسه، م. س.، ج 1، ص 111.

²⁶⁴ ابن الخطيب، الإحاطة، م. س.، ج 2، ص 448.

²⁶⁵ ابن الخطيب، ریحانة الكتاب، م. س.، ج 1، ص 320.

²⁶⁶ نفسه، ص 63.

²⁶⁷ عن محمد بن مقاتل أبو الحسن قال أن عبد الله أن شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك : كتب النبي ﷺ كتاباً – أو أراد أن يكتب – ف قيل له : إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً فاتخذ خاتماً من فضة نقشه : محمد رسول الله، كأني أنظر إلى بياضه في يده فقلت لقتادة : من قال نقشه محمد رسول الله ؟ قال : أنس، الحديث رقم 65؛ انظر أبي ذر الهروي، الجامع الصحيح للبخاري، تحقيق، شعبة الحمد عبد القادر، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط 1، 2008، ج 1، ص 69.

خاتما من فضة ونقش فيه (محمد رسول الله)²⁶⁸؛ وذكر علي بن خلف الكاتب أن الختم تقليد ورثه العرب عن ملوك العجم والفرس الذين يختمون كتبهم تمييزاً لها عن غيرها، وصيانة لما ينفذ فيها من عزائم الأمور، كما ذكر أنه كان للفرس ديوان للختم تكتب فيه الكتب التي تُختم بختم الملك، في حين لم يعرف العرب ديوان الختم إلا في عهد زياد بن أمية²⁶⁹، أيضاً روى بن خلف الكاتب نقلاً عن بعض الإخباريين أن كُتب العرب لم تزل منشورة غير معنونة ولا مختومة حتى نهج ملك الحيرة عمرو بن هند²⁷⁰ ذلك في كتبه ومراسلاته.²⁷¹

في السياق ذاته، أفاض ابن خلدون في الحديث عن بعض المميزات التقنية لعملية الختم وأدواتها، حيث أشار إلى أن الأداة الرئيسية لوضع الختم تكون غالباً عبارة عن قطعة معدنية تتخذ شكل خاتم أو نحوه، تُنقش عليها بعض الكلمات أو الحروف. وتعارف سلاطين المغرب على وضع خواتم مصنوعة من الذهب ومرصعة بالفيروز والزمرد في أصابعهم²⁷² كانت تُغمس في " مذاق الطين " أو المداد ثم توضع على المراسلة، فتتسخ النقوش عليها، كما كانت توضع في بعض الأحيان في الشمع فتترسم العبارة منقوشةً فوقه، تُقرأ من الجهة اليسرى إلى اليمنى وهو حسب ابن خلدون أمر واجبٌ وزيادة في صحة الكتاب ونفوذه.²⁷³

ونجد أيضاً من بين الشروط الشكلية للمراسلات السلطانية مجموعة من تقنيات الطّي، الغاية منها حفظ مضمونها وضمان عدم الإطلاع على محتواها إلى حين بلوغها وجهتها. وبهذا الخصوص تحدث عدد من كتاب الفترة الوسيطية كالقلقشندي وابن الخطيب وابن خلدون عن تقنيات السّحو أي ربط

²⁶⁸ حكى عن النبي ﷺ أنه كتب إلى ملك الروم كتاباً ولم يختمه، فقبل له: إنه لا يقرؤه ما لم يكن مختوماً، فاتخذ، عليه السلام، خاتماً ونقش على فحسه، (محمد رسول الله) وختم الكتاب، فصار الختم سنة، فختم به كتبه مدة خلافته. ثم انتقل إلى عمر بن الخطاب فختم به كتبه أيام خلافته، ثم انتقل إلى عثمان بن عفان فختم به النصف من مدة خلافته، وبينما هو في يده وهو على المنبر إذ سقط من يده فطلب فلم يقدر عليه، فاتخذ خاتماً ونقش عليه، (محمد رسول الله) في ثلاثة أسطر وختم به؛ ابن خلف، م.س.، صص 340 - 339.

²⁶⁹ زياد بن خلد بن أمية ولي عبد الملك بن مروان على خراسان عاصر الحجاج بن يوسف الثقفي؛ أنظر ابن عساكر أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي المتوفى سنة 571 هـ، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلّها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من واردتها وأهلها، تحقيق عطا مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية ط 1، 2012، بيروت، ج 16، ص 106.

²⁷⁰ عمرو بن هند بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة (554م - 596م)؛ نورة بنت عبد الله النعيم، سفارة عمرو بن هند " ملك الحيرة إلى بلاط الإمبراطور جستين الثاني حسب رواية المؤرخ منندار، الجزيرة العربية واليونان وبيزنطة التواصل الحضاري عبر العصور القديمة والوسطية، هيئة التحرير، ابن صالح الهلابي عبد العزيز، ليتسوس ديمتري، ج، ابن كميخ المريخي مشلح، بن عبد الرحمن العبد الجبار عبد الله، الرياض، كلية الآداب جامعة الملك سعود، 2012، المملكة العربية السعودية، م 1، ص 377.

²⁷¹ ابن خلف، م.س.، ص 339.

²⁷² ابن خلدون، العبر، م.س.، ص 134.

²⁷³ نفسه، ص 133.

الرسالة بخيوطٍ تعقد حولها، أو الدّس واللصق المتعارف عليه بين كُتاب دواوين الإنشاء المغربية في العصر الوسيط، حيث كان يُعمد إلى لصق طرفي المراسلة، ووضع علامة من الشمع على مكان اللصق يُختم عليها بخاتم نُقشت فيه علامةٌ لذلك، فيرتسم النقش في الشمع حتى يؤمن معها فتحها والاطلاع على ما فيها.²⁷⁴

وعلى سبيل المقارنة والإستئناس نجد أن عدداً من المؤرخين والباحثين الأوروبيين اتخذوا الجوانب الشّكلية للمراسلات الدبلوماسية غرضاً رئيسياً لبحوثهم، من بينهم المؤرخ الفرنسي روبرت هنري بوتّي Robert-Henri BAUTIER، الذي خصّ المُحددات الشّكلية للكتابة الديوانية الأوروبية في العصر الوسيط بمجموعة من الدراسات من ضمنها مقاله المعنون بـ *Caractères spécifiques des chartes médiévales*، الذي تعرض خلاله إلى مجموعة من الضّوابط الشّكلية التي كانت تُعتمد في الكتابات الديوانية الوسيطة الفرنسية وكذلك في أوروبا الغربية، حيث تحدث عن اعتماد الكُتاب الفرنسيين الورق والرق وكذلك أوراق البردي ذات الأحجام الكبيرة نسبياً، كما تحدث عن تعدد ألوان الحبر التي كانت تكتب بها هذه الرسائل.²⁷⁵

في الصدد نفسه، أورد المؤرخ الفرنسي أنه كان يُرسم فوق الأوراق المستعملة في المراسلات خطوط أفقية بالرصاص مع ترك مجموعة من الهوامش الأفقية والعمودية (على اليسار) كانت تخصص في غالب الأحيان لكتابة التاريخ أو لرسم مجموعة من الأشكال الهندسية كالصُّلبان والنباتات وغيرها، كما اعتُمد ما يُعرف بخط البلاط الرسمي لكتابة المراسلات، وفي بعض الأحيان الخط المائل مع كتابة بعض الكلمات والحروف مضخمة باللون الأسود لتمييزها عن غيرها.²⁷⁶

وبالنسبة للغة المعتمدة، تحدث بوتّي عن استعمال اللغة اللاتينية إلى جانب العامية الفرنسية، وفي بعض الأحيان اللغة اللاتينية المُطعمة بالعامية خاصة في الفترات المتأخرة من العصر الوسيط، كما تحدث عن اعتماد المحسنات البديعية، إلى جانب الشعر، حيث اجتهد الكُتاب لابتداع أساليبهم الخاصة التي عرفوا بها.²⁷⁷

²⁷⁴ ابن خلدون، العبر، م.س.، ص 134.

²⁷⁵ BAUTIER Robert-Henri, *Caractères spécifiques des chartes médiévales*, actes du colloque de Rome (20-22 mai 1975), présentés par Lucie Fossier - André Vauchez - Cinzio Violante, in *Informatique et histoire médiévale*, publications de l'école Française de Rome, Rome 1977, pp. 81-96.

²⁷⁶ Ibid, p. 89.

²⁷⁷ BAUTIER, op.cit, p. 90.

خلاصة القول، لقد خضعت الرسائل الدبلوماسية المغربية الوسيطية للضوابط الشكلية واللغوية نفسها التي طبقت على الرسائل الديوانية، غير أنها تميزت بتفرداها ببعض الخصائص الشكلية اقتضتها الأغراض والغايات المتعددة للعمل الدبلوماسي الوسيط، فمماذا عن الخصائص اللغوية والبلاغية للرسائل الدبلوماسية المغربية التي ميزتها عن سواها من الرسائل الديوانية وعن نظيراتها المشرقية؟

4 - الضوابط اللغوية والبلاغية

أورد عددٌ من كُتاب ومؤرخي الفترات المتأخرة من العصر الوسيط كابن الخطيب في "الريحانة" و"كناسة الدكان"، والقلقشندي في كتابه "صبح الأعشى" وابن أبي زرع في كتابه "الذخيرة السنية"، عدداً من الرسائل الدبلوماسية على الرغم من اختلاف أساليبها البلاغية واللغوية إلا أنها انضبطت بشكل كبير للضوابط الشكلية وتقسيم الحقول الدلالية²⁷⁸ المتعارف عليها خلال الفترة الوسيطية. فقد استهلّت جلّها بالبسملة وتعريف المرسل والمرسل إليه²⁷⁹، مع ذكر الألقاب²⁸⁰ والأوصاف الملحقّة بكل إسم²⁸¹، والدعاء بما يليق بهما يلي ذلك إلقاء تحية السلام²⁸²، ثم البعديّة والصلاة على النبي ﷺ ثم يؤتى المقصود، ويُختم بالدعاء²⁸³ والسلام²⁸⁴؛ ثم تُذيل الرسائل بالتاريخ الهجري مع وضع العلامة والختم.

²⁷⁸ انقسمت الرسالة الدبلوماسية الوسيطية إلى أربعة حقول دلالية، منها حقلين رئيسيين هما حقل الآداب اللائقة، وحقل الرسالة الدبلوماسية، وحقل السفارة وحقلين آخرين هما حقل المعاهدة والتعاقد؛ انظر الشاذلي المصطفى، الرسالة السلطانية بين إشكالية المعجم والخطاب، ندوة التاريخ والدبلوماسية قضايا المصطلح والمنهج، تنسيق القدوري عبد المجيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 105، مطبعة النجاح الجديدة، ط 3، الدار البيضاء، 2003، ص 38.

²⁷⁹ كانت الرسائل تفتتح بالبسملة، والصلاة والسلام على الرسول ثم يوجه الخطاب الى المكتوب إليه، مع ذكر صفاته ثم يذكر المكتوب عنه، ويأتي بالسلام ويخلص الى المقصود بقوله أما بعد، ثم يأتي عليه إلى آخره ثم يختم بالسلام؛ انظر أنموذج رسالة أبي عبد الله ابن الأحمر إلى السلطان أبي يوسف بن عبد الحق الواردة عند ابن أبي زرع علي الفاسي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، 1972، الرباط، صص 140 – 143.

²⁸⁰ القلقشندي، م.س.، ج 7، ص 41.

²⁸¹ "كان يقال محل أخينا، أو محل ولدنا أو محل والدنا السلطان، ويؤتى بألقابه ثم يسمى، بعد ذلك يذكر المرسل من فلان، ويفعل فيه كذلك إلى منتهى نسبه، ويدعى له بالبقاء وما يتبعه، ثم يقال معظم قدره، أو معظم مقامه، وما أشبه ذلك، ويذكر اسم المكتوب عنه، ثم يقال معظم قدره أو معظم مقامه، وما أشبه ذلك، ويذكر اسم المكتوب عنه، ثم يقال: أما بعد حمد الله، ويؤتى بالخطبة إلى آخرها، ثم يقال: فإننا كتبناه إليكم من موضع كذا، ويؤتى على المقصود إلى آخره، وتختتم بالدعاء ثم السلام". نفسه، صص 41 - 42.

²⁸² لا تستهل الرسائل الموجهة للملوك أوروبا الغربية بالسلام، "الرسم أن يقال سلام على من أتبع الهدى، ثم البعديّة والتحميد والصلاة على النبي والترضية عن الصحابة والإمام المهدي خلال الفترة الموحدية، في المقابل يُبتدأ بمخاطبة الموحدين، بذكر بالخلافة و أوصافها، والثناء عليها، ونعت الخليفة بأمر المؤمنين، والتعبير عن المكتوب عنه بنون الجمع، القلقشندي، م.س.، ج 6، ص 535.

²⁸³ يعد الدعاء لازمة من لوازم الرسالة الدبلوماسية، يأتي غالباً مقروناً مع الحمدلة، والصلاة والسلام على الرسول الكريم، والرضا عن أصحابه.

وتحدث القلقشندي عن تعدد أساليب الكُتّاب المغاربة وأورد نماذج عدة من الكتب الصادرة والواردة على دواوين الإنشاء المغربية، فمن الكتاب من يفتح المراسلة بعبارة "من فلان إلى فلان" يتلوها الدعاء ثم يؤتى بالبعدية والتحميد، والصلاة على النبي والرضية عن الصحابة، وأردف أن الكتاب الموحدون كان يضيفون الرضية على الإمام المهدي، ثم يؤتى بالمقصود، ويختم بالسلام، ويكون الخطاب فيه بنون الجمع عن الخليفة الموحد، وميم الجمع عن المكتوب²⁸⁵ ومنهم من يفتح المكاتبة بالدعاء المناسب للحال، ويعبر عن المكتوب عنه بنون الجمع ويُخاطب المكتوب إليه بلقب الإمارة، كما كتب القاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى المنصور يعقوب بن عبد المومن الموحد سنة 585هـ يستجيشه على الصليبيين القاصدين بلاد الشام والديار المصرية²⁸⁶.

كما كان بعض الكتاب المغاربة يفتتحون رسائلهم، بالبعدية والرسم فيها أن يقال: "أما بعد حمد الله، أو أما بعد فالحمد لله ويؤتى بالخطبة، ثم يقال: فإننا كتبناه إليكم، من موضع كذا، كتب الله لكم كذا وكذا ثم يتلخص إلى المقصود، ويؤتى عليه إلى آخره، ويختم بالدعاء ثم بالسلام"²⁸⁷، كما كتب أبو الميمون عن المستنصر بالله (609 - 620هـ / 1213 - 1224م) أحد الخلفاء الموحدون إلى بعض نوابه، بعض نقض عهد المهادنة مع النصارى:

".. أما بعد حمد الله الآمر بالوفاء بالعهود، والصلاة على سيدنا محمد المصطفى الكريم سيد الوجود، وعلى آله وصحبه ليوث البأس وغيوث الجود، والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، الآتي بالنعمة الموحدة، في الزمن المحدود، وعن خلفائه الواصلين بأمره إلى التهائم والنجود، والدعاء لسيدنا الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين بسعد تذل له النواصي، ويهد الأقطار القواصي، فكتبناه - كتبكم الله ممن إذا هم بأمر تدبر عواقبه، وإذا عزم على ركوب غر ألفى معاصيه، - من فلانة كلائها الله تعالى وقد بلغنا ما كان منكم من اكتسام النصارى، والزيادة على ذلك باختلاف الأسارى، ونعوذ بالله من شهوة تغلب عقلا، ونخوة تعقب هولنا وذلنا، وقد أخلصناكم في فعلتكم الشنعاء من ثلاثة أوجه: أحدها أنه

²⁸⁴ شوقي ضيف، م.س، ص 492.

²⁸⁵ القلقشندي، م.س، ج 6، ص 444.

²⁸⁶ نفسه، ص 526.

²⁸⁷ القلقشندي، م.س، ج 7، ص 74.

خلاف ما أمر الله تعالى من الوفاء بالعهد، والوقوف مع العقد، والثاني عصيان الأمر العزيز وفيه التفرغ بالمهم، وترك السعة للحرص، والثالث أنكم تشيرون على أنفسكم من شر عدوكم - قصمه الله - شر لا يستعر، وضرر لا يعدم فيه المنتصر، فليتكم تحلّيتهم بالعصيان ورضيتهم الغدر المحرم في الأديان، نُبتّم للعدو إذا داهمكم، ولقيتموه بالجانب القوي متى زحمكم، بل تتذرعون له الفرار، وتتركونه في مخلفيكم وما اختار، وقد جريتم مرات أنكم لا ترزؤنهم ذرّه، إلا رزؤكم ألف بدرّه، ولا تصيبونهم مرّة، إلا أصابوكم ألف مرّة، وإلى متى..²⁸⁸

رغم وضع إطار عام للرسائل الدبلوماسية الوسيطية، إلا أن عدداً منها شدّ عن الضوابط السالفة الذكر، حيث ارتبطت الأساليب المعتمدة في كتابة الرسائل الدبلوماسية المغربية خلال الفترة الوسيطية بالغرض المراد منها، والسياق السياسي المزامن لها، أو حسب قدر ومكانة المرسل إليه²⁸⁹، حيث نجد أن بعضها ابتداءً بذكر مُنطلق الرسالة ومحل كتابتها²⁹⁰ في حين استهل بعضها الآخر بالألقاب الإمارة،²⁹¹ وغيرها من الأساليب التي طوّعت الضوابط الشكلية واللغوية لهذه الرسائل خدمةً للأغراض الدبلوماسية المتعددة كالاستغاثة والاستنجد، التي جرت العادة أن تُستهل باسم المرسل إليه تعظيماً له، والرسم فيه أن يقال: "إلى فلان وينعت بما يليق به، ثم يؤتى بالسلام، ويقال أما بعد ويؤتى بخطبة، ثم يقال .

²⁸⁸ القلقشندي، م.س.، ج 6، صص 446 - 447.

²⁸⁹ الرسم في مخاطبة سلاطين مصر أن يكتب "الأبواب الشريفة" ثم يقول السلطان الفلاني ويصفه ويذكر السلطان المكتوب عنه ثم يقول أما بعد الحمد لله، ويأتي بخطبة في المعنى التي تشتمل على التحميد، والصلاة والسلام على الرسول والرضا على آله، وأصحابه رضي الله عنهم؛ ثم يقول فإننا كتبنا إليكم ويأتي على ما يناسب المقام، ثم ينخرط في سلك المقصود إلى آخره، ويختم بالدعاء؛ القلقشندي، م.س.، ج 8، ص 107 - 108.

²⁹⁰ الرسم فيه أن يقال: المقر، وينعت، ثم يقال مقر فلان وينعت بالألقاب، ثم يذكر المكتوب عنه ثم يقال: أما بعد حمد الله، ويؤتى على الخطبة إلى آخرها، ثم يقال: فإننا كتبنا لكم من موضع كذا، ويتلخص إلى المقصد بلفظ "والى هذا، فإن كذا وكذا، ويؤتى على المقصد إلى آخره، ويختم بالسلام؛ القلقشندي، م.س.، ج 7، ص 51.

²⁹¹ فيقال: الإمارة التي نعتها كذا وكذا، إمارة محل أخينا، ويدعى له، ثم يقال معظم إماراته، أو معظم إخوته فلان، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد حمد الله، ويؤتى بخطبة ثم يقال: فإننا كتبنا إليكم، كتب الله لكم كذا وكذا، من موضع كذا، ثم يتخلص إلى المقصود، بلفظ وإلى هذا، ويؤتى القصد إلى آخره، ويختم، بالسلام؛ وبذلك يكتب إلى الأمراء من أبناء الملوك وغيرهم. كتب لسان الدين ابن الخطيب عن سلطانه إلى أبي علي الناصر بن السلطان أبي الحسن المريني "الإمارة التي لها المكارم الراضية والعزائم ماضية... إمارة محل أخينا الذي نعظم مجده السامي الجلال، ونثني على شيمه الطاهرة الخلال... الأمير الأجل، الأعز... أبو علي الناصر... معظم إمارته الرفيعة الجانب... الأمير عبد الله بن يوسف.. أما بعد حمد الله الذي شرح بالتوكل عليه صدوراً.. والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي بعثه بالحق هادياً.. والرضا عن آله وأحبابه.. وإلى هذا أيد الله إمارتكم.. إننا تعرفنا ما كان من قدمكم السعيد على أحواز المرية.. وأنكم أخذتم في تسكين الأوطان وتمييدها.. وإطفاء نار الفتن وإخمادها.. فكتبنا إليكم هذا الكتاب نهنيكم بما سناه الله لمجدك الرفيع... والسلام الكريم ورحمة الله وبركاته؛ القلقشندي، م.س.، ج 7، صص 61 - 64.

فإننا كتبناه إليكم، كتب لكم كذا وكذا، من موضع كذا، ويتلخص إلى المقصود بلفظ والى هذا ويؤتى على المقصود إلى آخره، ويختم بالسلام²⁹².

كما تميزت بعض الرسائل الدبلوماسية بالخلو من الاستفتاح، والابتداء بالدعاء للمرسل إليه، وباقتحام الموضوع مباشرة، أو بتمهيد يتفاوت بين الإسهاب والتطويل والإيجاز والاختصار، تبعاً لنوع مقامات المرسل إليهم، وباستخدام الألقاب التي تتناسب ومن يكتب إليه²⁹³.

تجدر الإشارة أن بعض الرسائل كانت تبتدئ مباشرة بالموضوع دون المرور عبر المقدمات، وهي حالات نادرة كما سلف الذكر، في حين أن معظم الرسائل كانت تورد مقدمات الاستفتاح حيث تبدأ بالبسملة، والصلاة على الرسول الكريم²⁹⁴، كقول المعتمد بن عباد (431 - 487هـ/1040 - 1095م) في رسالة يستصرخ بها يوسف بن تاشفين:

"بسم الله الرحمن الرحيم،

وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليمًا إلى حضرة الإمام أمير المسلمين وناصر الدين..²⁹⁵

في حين كانت بعض الرسائل تتحرر من جلي الضوابط الشكلية، خاصة رسائل الرد على التهديد زمن الحرب، إذ تقتصر المقدمة على عبارة من فلان إلى فلان، كما جاء في رسالة رد يوسف بن تاشفين على ملك قشتالة ألفونسو السادس Alphonse VI (1072م - 1109م):

من أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، إلى ألفونسو، أما بعد،

فإن الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه بأذنك، والسلام على من اتبع الهدى.

ولا كُتِبَ إلّا المشرفة والقنا ولا رُسل إلّا الخمس²⁹⁶ العرم²⁹⁷

²⁹² نفسه، ص 64.

²⁹³ فلاح القيسي، م. س.، ص 315.

²⁹⁴ نفسه، ص 316.

²⁹⁵ مجهول، م. س.، ص 45 - 46.

²⁹⁶ الأصل في البيت الشعري المنسوب لأبي الطيب المتنبي هو "الخميس العرمم"، والمرجح أن الياء سقطت عند تضمين البيت للرسالة، وحسب ابن منظور الخميس هو الجيش، وقيل الجيش الجرار، ابن منظور، م س، 1264.

²⁹⁷ لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بوع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق ذلك من كلام، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ج 2، ص 389.

من جهة أخرى، تميز أسلوب الرسائل الديوانية الأندلسية - المغربية خاصةً خلال العهدين الموحيدي والمريني بالمبالغة في مدح الخلفاء والسلطين والملوك، والإكثار من ألقاب المرسل²⁹⁸؛ وقد أشار القلقشندي إلى أن كتب الموحدين طغى عليها الإكثار من ألقاب خلفائهم والمبالغة في مدحهم، وفي إطرأهم²⁹⁹ كما تكرر الأمر ذاته مع السلطين المرينيين، وفي هذا السياق نورد على سبيل المثال مُستهل رسالة السلطان أبي الحسن المريني إلى السلطان المملوكي أبي الفداء إسماعيل بن محمد بن قلاوون (743 - 746 هـ / 1342 - 1345 م)، لتعزيتة بوفاة أبيه وتهنئته بتولي العرش وتوصيته بركب الحجاج المغاربة :

" من عند أمير المسلمين، المجاهد في سبيل الله رب العالمين، المنصور بفضل الله، المتوكل عليه، المعتمد في جميع أموره لديه. ملكان البرين، حامي العدوتين، مؤثر المصلحة، مؤازر حزب الإسلام حق المؤازرة، ناصر الإسلام مكاهرين الملك العلام. ابن أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، فخر السلاطين، حامي حوزة الدين، ملك البرين، إمام العدوتين، ممدد البلاد ممدد شمل الأعاد، مجند الجنود، المنصور الرايات والبنود، محله الرحال مبلغ الآمال، أبي سعيد أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، حسنة الأيام، حسام الإسلام، أبي الأملاك مشجي العناد والإشراك مانع البلاد، رافع علم الجهاد، مدوخ أقصار الكفار، مُصرخ من ناداه للانتصار القائم لله بإعلاء دين الحق، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، أخلص الله لوجهه جهاده، ويسر في قهر عداة الدين مراده، إلى محل ولدنا الذي لطم في أفق العلا بدرًا تما، وصدع بأنواع الفخار فجلل بسلاماً وطملاً، وجمع شمل المملكة الناصرية فأعلى منها علماً، وأحيس رسماً حائل الحرمين القائم بحفظ القبليتين، باسم الأمان قابض كف العدول، الجزيل النوال تأمينه بحياسة النفوس والأموال قُصب المجد وسماكة حسب الحمد، ملاك السلطان الجليل الرفيع، الأصيل، الحافل، العادل، الفاضل، الكامل، الشهي، الخفي، الأضخم، الأفخم، المعان المؤزن، المؤيد، المخضر، الملك الصالح أبي الوليد إسماعيل، ابن محل أخينا الشهي علاؤه، المستخير في الآفاق ثناؤه، زين الأيام والليل كمال عين إنسان المجد وإنسان عين الكمال وارث

²⁹⁸ شوقي ضيف، م. س.، ص 497.

²⁹⁹ القلقشندي، م. س.، ج 6، ص 447.

الدول النافثة بصحيح رأيه في عقود أهل الملل والنحل حاملي القبلتين بعدله وحسامه النامي في حفنة الحرمين أجر اضلأعه بذلك وقيامه، هازم أحزاب المعاندين وجيوشها، هادم الكنائس والبيع فهي خاوية على عروشها، السلطان الأجل، المهام، الأحفل، الأفخم، الأضخم، الفاضل، العادل، الشهم، الكيس، الرفيع، الخمين، المجاهد، المرابط، المقسط، عدله في الجائس والقاسط، المؤيد، المكفر، المنعم، المقدس، المصن، زين السلاطين، ناصر الدنيا والدين، أبي المعالي محمد بن الملك الأرضي المهام الأمض، والد السلاطين الأخيان، عاقد لواء النصر في قهر الأرمن والفرنح والتتار، محي رسوم الجهاد، معلم كلمة الإسلام في البلاد، جمال الأيام، كمال الأعلام، فاتح الأقاليم، صالح ملوك عصره، المتقادم، الإمام المؤيد، المنصور المسدد، قسيم أمير المؤمنين فيما تقلد، الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون³⁰⁰، ويستمر الكاتب بعد ذلك في إضفاء مثل هذه الألقاب عليه مع ما يطوي فيها من مبالغات، ويدعو له بعد ذلك ويسلم عليه قائلا، ".. مكن الله له تمكين أوليائه، ونمي دولته التي أطلعها له السعد شمسا في سمائه، وأحسن إيداعه للشكر أن جعله وارث آبائه، سلام كريم يفاوح زهر الربى مسراه، وينافح نسيم الصبا مجراه، يصحبه رضوان يدوم ما دامت تقل الفلك حركاته، ويتولد روح وريحان تحييه به رحمة الله وبركاته أما بعد .." وتمضي الرسالة بعد ذلك مسجوعة من أولها إلى نهايتها.

كما نُورد أيضاً مُستهل الرسالة التي وجهها السلطان أبو الحجاج يوسف الأول ملك غرناطة (733-754هـ/ 1333-1354م) إلى سلطان المغرب أبي عنان فارس المريني لشكره على هدية أوفدها إليه:

".. المقام الذي شأنه هبات تبث، وعزومات تحث، وهمم يبث إليها الإسلام همومه، فيذهب البث، مقام محل أخينا الذي قضيا مجده منتشرة في الجهات، ضرورة بحسب الوصف والذات، عرقية في الأزمان، مشروحة في المواقيف العزومات، ينهض بوجودها الزمن الحاضر وباستقبالها الزمن الآت، ويصرن بها فخر الدين أوراق آياته البينات، السلطان الجليل الرفيع الأسنى، الأنجد، الأسعد، الأوحد، الأسمن، الأعز، الأمنع، الأصعد، الأشهر، المجاهد، الأمض، المؤيد، المعان، المنصور، الأعلى، الأخص، الأعدل، الأفضل، الأخصم، الأحفل، الأصيل، الأهلون

³⁰⁰ أحمد بن خالد السلاوي الناصري، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق محمد عثمان، الدولة المرينية - الدولة السعدية، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 2007، م 2، صص 36 - 42.

الباسل، الهمام، المعظم، الموقر، المبجل، المؤمل، المبرور، أمير المسلمين، أبي عنان، بن محل أبينا
الذي نعظمه ونجله، ونوجب له الحق الذي هو أهله، السلطان الجليل، الرفيع، الماجد، الصاهر،
العاذل، الباسل، الأوحده، الأشهر، الأخضر، الكامل، المجاهد، الأمضى، الأوحده، الأسعد، الأكمل،
الأرضي، الهمام، الأورع، الباسل، الحافل، المعظم، المقدس، صاحب الجهاد المبرور والسعي
المشكور، أمير المسلمين أبي الحسن، بن السلطان الجليل الرفيع الشهير، الخبير، الكبير،
الأوحده، الأحفل، الأسمى، الأسعد، الأرضي، الصاهر، الكامل، المؤيد، المعان، صاحب المكارم
الشهيرة، والمآثر التي هي أوضم من شمس الصهيرة، أمير المسلمين، أبي سعيد، بن السلطان
الجليل الشهير الأسمى، الخبير، الأصيل، الكبير، الحافل، الفاضل، الكامل، الأسعد، الأمجد،
الأعلى، الأخضر، الأخضر، الأسمى، المجاهد، المؤيد، المعان، الأمضى، صاحب الجهاد الأمضى،
والسعي الأرضي، أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب، بن عبد الحق، أبقاه الله وحيد العلماء على
تعدد فضله واشترائه، فذلكه حسابه أولى الأحساب من خلائف الإسلام وأملاكه، ولا زال
بدر هدى صهوة الصرف من أفلاكه، ويحرر ندى جيد الوجود إلى عنصرة العيم الجود درر
أسلاكه، فمتى حاول قصداً جنم منه النجم إلى أملاكه، ومهما كاد ضداً كانت النجوم
الشوايك من شباكه، حتى يرمى معده عن قوس الأفق ويخضر بسماكه، معظم مقامه الذي هو
بالتعظيم مخصص، وموجب حمده الذي محكمه في كتاب البر منصوص، وموقر ملكه الذي
ثناؤه على أسام الأصاله مرصوص، الأمير يوسف، بن أمير المسلمين، أبي الوليد إسماعيل، بن
فرج، بن نصن سلام كريم، لهيب بر عيم، يخص مقامكم الأعلى، ورحمة الله وبركاته. أما
بعد³⁰¹

تُعد المُقتطفات التي أوردناها في الفقرتين السابقتين أنموذجاً عن الأسلوب الذي شاع استعماله في
دواوين الإنشاء المغربية خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط، حيث عمد الكتاب المغاربة إلى جانب

³⁰¹ ابن الخطيب، كناسة الدكان، م.س.، صص 57 - 62.

الإكثار من اعتماد المحسنات البديعة كالسجع³⁰² والطباق³⁰³ والجناس إلى اعتماد أدوات بلاغية أخرى كالخيال³⁰⁴ والصور البيانية، إضافة إلى المقابلة والاقتراس والتضمن، والشعر والأمثال.

من خلال ما سبق ذكره نخلص إلى أن الكتابة الديوانية المغربية الأندلسية تميزت بتنوعها الكبير، وهو ما عده شوقي ضيف أحد عيوبها لأنها عجزت عن اصطناع مذهبٍ خاص بها بعيداً عن المؤثرات المشرقية التي دفعت بالكُتّاب المغاربة والأندلسيين حسب رأيه إلى الخلط في توظيف الأساليب، وذلك على ال من رغم سعيهم المتواصل لملائمة اقتباسهم لألفاظ المشاركة وتراكيهم مع السياق الأندلسي - المغربي والذوق الأدبي السائد آنذاك؛ ويضيف شوقي ضيف أنه على رغم من مؤاخذاته على الكتابة الديوانية الأندلسية خلال هذه الفترة، إلا أنها اتسمت بالسهولة والوضوح والمتانة والجزالة³⁰⁵، إلى جانب ما سبق ذكره، تميزت المراسلات الدبلوماسية المغربية عن نظيرتها المشرقية بتوظيف عدد كبير من المصطلحات والألقاب التي اختصت بها وجعلتها متفردة عن غيرها، وهي المصطلحات التي أدرجناها في الجدول أدناه.

³⁰² لكهم لم يتابعوا السجع المشرقي، ولم يدونوا رسائلهم بأسلوب السجع الذي شاع في المشرق في القرن الخامس الهجري، بل عنوا باستعمال الأسلوب المترسل من السجع الرشيقي، وذلك من حرصهم على ما يحققه من تنغيم الموسيقى، وإيقاع صوتي؛ ويلاحظ الباحث أن الكتاب الأندلسيون قد مالوا إلى الاعتدال في استخدام السجع، فلم يسرفوا في استخدامه مع بعض الاستثناءات؛ أنظر فلاح القيسي، م. س.، ص 346-347.

³⁰³ يعتبر الطباق من أهم المحسنات البديعية التي استعملها الكتاب في ميدان عنايتهم بالمعنى، واهتمامهم بالجمال التي تعبر عنه، وترجم مشاعرهم وعواطفهم، وقد أجمع أهل البلاغة على أن الطباق في الكلام، هو الجمع بين المعنى وضده في جزء من أجزاء الرسالة، وهو نوعان طباق إيجاب، إذا كانت الكلمتان مختلفتين لفظاً ومعنى، وطباق سلب إذا تحقق التضاد.

³⁰⁴ يعتبر الخيال من أبرز الوسائل التي استخدمها الكتاب لتكوين صورة بيانية معبرة، واستعان الكتاب بالخيال في رسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين، وهو خيال مبني على التصور البياني الذي يعتمد على إيراد التشبيهات والاستعارات المختلفة اعتماداً كبيراً؛ أنظر فلاح القيسي، نفسه، ص 362.

³⁰⁵ فلاح القيسي، م. س.، ص 339.

جدول رقم 1 :

الألقاب المُعتمدة في المراسلات الدبلوماسية المغربية خلال القرون الأربعة الأخيرة للعصر الوسيط كما أوردها القلقشندي في صبح الأعشى³⁰⁶

اللقب	معناه	الجزء والصفحة
1 الأتقى	من ألقاب ملوك المغرب التي يكتب إليهم بها من الأبواب السلطانية، مضاهاة لما يوجد في مكاتباتهم من الألقاب، وهو أفعل التفضيل من التقوى.	6:6
2 الأثير	بالثاء المثلثة من ألقاب أرباب الأقلام : من القضاة والعلماء والكتاب ونحوهم، وربما استعمل في ألقاب الصُلحاء أيضاً، وأصله في اللغة المخالصة، وحينئذ يصلح أن يكون لقباً لكل من نُسب إلى المخالصة من أرباب السيوف والأقلام جميعاً، والأثيري نسبة إلى المبالغة.	6:6
3 الأثيل	بالمثلث أيضاً من أرباب الأقلام كالأثير، معناه في اللغة الأصيل، ومنه قيل مجد مؤثّل وأثيل أي أصيل.	6:6
4 الأجل	يكون في الاصطلاح من ألقاب السلطان كما يقال السيد الأجل ويكون من ألقاب السامي بغير ياء فما دونه فيقال " السامي الأمير الأجل".	6:6
5 الأريب	من ألقاب أرباب الأقلام وهو في اللغة العاقل، ومنه قيل للدهاء إرب بكسر الهمزة وإسكان الرائ لأن الدهاء من جملة العقل، والأريبي نسبة إليه للمبالغة.	8:6
6 الأزكى	من ألقاب ملوك المغرب أيضاً، وهو مأخوذ من الزكاة وهي الزيادة، وكأنه نسبة إلى الزيادة في الرفعة ونحوها.	8:6
7 الأرقى	من ألقاب ملوك المغرب، وهو مأخوذ من الرقي وهو الارتفاع والعلو في الدرج.	8:6
8 الأسرى	بالسين المهملة من ألقاب ملوك المغرب، وهو مأخوذ من السرو وهو سخاء في المروءة، ومنه قيل اشتمل على ذلك سَرِيٌّ، وبه لُقّب "سري الدين".	8:6
9 الأسفهسلار	وردت في رسالة اعتماد بن منقذ؛ بسينين مهملتين بينهما فاء ثم هاء من ألقاب أرباب السيوف، ومعناه مقدم العسكر، مركب من لفظين : فارسي وتركي، فأسفه بالفارسية تعني المقدم و سلار بالتركية تعني العسكر.	8:6
10 الأسنى	من ألقاب ملوك المغرب وهو مأخوذ من السناء بالمد، وهو الرفعة، ويجوز أن يكون من السنا بالقصر، وهو الضياء.	8:6
11 الشريف	من ألقاب المقام والمقر في مصطلح كتاب الزمان على ما تقدم ذكره وربما وقع أيضاً في ألقاب ملوك المغرب، وهو أفعل التفضيل من الشرفي بمعنى العلو.	8:6
12 الأصعد	من ألقاب ملوك المغرب : وهو أفعل التفضيل من الصعود ضد الهبوط.	8:6

³⁰⁶ وردت مجمعة في كتاب صبح الأعشى للقلقشندي، الجزئين السادس والثامن.

13	الأصيل	من ألقاب أرباب القلم غالباً، وهو فاعل من الأصل بمعنى الحسب، والأصيلي نسبة إليه للمبالغة.	8:6
14	الأضخم	من ألقاب ملوك المغرب وهو مأخوذ من الضخامة، والمراد بها هنا العظمة، وهي في أصل اللغة الغلظ واستعملت في العظمة تجوزاً.	8:6
15	الأعز	من ألقاب ملوك المغرب، وقد يستعمل في ألقاب لم يتبث فيه ياء النسب من السامي بغير ياء فما دونه كالأخص، فيقال " الأعز الأخص " ونحو ذلك، وهو أفعل التفضيل من العز.	9:6
16	الأعظم	من ألقاب ملوك المغرب، من ألقاب السلطان، يقال فيه السلطان الأعظم، وهو أفعل التفضيل من العظمة وهي الكبرياء.	9:6
17	الأعلى	من ألقاب ملوك المغرب، وهو أفعل التفضيل من العلو، وهو الارتفاع.	9:6
18	الأفخم	من ألقاب ملوك المغرب وهو أفعل التفضيل من الفخامة، وهي العظمة القوة.	9:6
19	الأعلم	من ألقاب ملوك المغرب، وهو أفضل التفضيل من العلم الذي هو خلاف الجهل.	9:6
20	الأفضل	من ألقاب ملوك المغرب، وهو أفعل التفضيل من الفضل بمعنى الزيادة، والمراد الزيادة في الفضيلة.	9:6
21	الأكمل	من ألقاب ملوك المغرب، لم تتبث فيه ياء النسب من السامي بغير ياء فما دونه، والأكملي نسبة إليه للمبالغة.	9:6
22	الإمام	من ألقاب الخلفاء الموحدين.	9:6
23	الأمجد	من ألقاب ملوك المغرب، وهو أفعل التفضيل من المجد، وهو الشرف أو الأصالة.	10:6
24	الأوحد	من ألقاب أرباب الأقلام، والأوحد نسبة إليه للمبالغة.	11:6
25	التقي	من ألقاب ملوك المغرب يقال التقي الزكي ونحو ذلك، بمعنى الصلاح، وهو مأخوذ من التقوى كما تقدم في الأتقى.	11:6
26	الحافل	من ألقاب ملوك المغرب، معناه كثير الجمع، أخذاً من قولهم واد حافل إذا كثّر سيله.	11:6
27	الحائز	من ألقاب ملوك المغرب وهو فاعل من الحيازة، وهي الحياطة، والمراد الحائز للملك، أو الحائز للفضائل ونحو ذلك.	12:6
28	الشهير	من ألقاب ملوك المغرب، ومعناه المشهور الظاهر، والمراد هنا من اشتهر علو قدره ورفعته.	16:6
29	العاضد	من ألقاب ملوك المغرب، وهو في أصل اللغة اسم للمعين، يقال عضدته أعضده إذا أعنته.	20:6
30	الفاتح	من ألقاب ملوك المغرب، وهو فاعل من الفتح بمعنى النصر، والمراد فتح الأمصار وتملكها.	21:6
31	الفائز	من ألقاب ملوك المغرب، وهو فاعل من الفوز بمعنى النجاة أو الظفر، وقد يشاح في التلقيب به فإن الفوز يطلق على الهلاك أيضاً على ما هو مقرر في كتب اللغة، ومثل ذلك يجب اجتنابه، لما فيه من الاشتراك بين المحمود والمذموم، إلا أنه غلب استعماله في النجاة حتى إنه لم يرد في القرآن إلا بمعناها، ولذلك عول الكتاب على	22:6

	استعماله.		
26:6	من ألقاب ملوك المغرب، وربما استعمل في ألقاب الصوفية، والمراد من يرشد الناس إلى الحق ويهديهم السبيل، والمرشدي نسبة إليه للمبالغة.	المُرشد	32
28:6	من ألقاب ملوك المغرب، ومعناه المعاون أخذاً من المظاهرة، وهو المعاونة.	المظاهر	33
29:6	بضم الميم وإسكان العين وكسر الراء من ألقاب ملوك المغرب، والمراد به من أعرق في الكرم، على أن المُعرق قد يطلق في اللغة على المُعرق في اللؤم أيضاً فهو من الأضداد، ومثل ذلك يجتنب في التلقيب.	المُعرق	34
29:6	بزائين معجمتين الأولى منهما مشددة مفتوحة من ألقاب ملوك المغرب، وهو اسم مفعول من العز خلاف الذل، ومنه قراءة من قرأ (وَيُعَزِّزُوهُ وَيُوقِرُهُ) بزائين معجمتين.	المعزز	35
29:6	بفتح الظاء المشددة من ألقاب ملوك المغرب أيضاً، وهو اسم مفعول من العظمة والجلالة، وربما استعمل في ألقاب بعض ملوك الكفر.	المعظم	36
29:6	بفتح الخاء المعجمة من ألقاب ملوك المغرب، وهو مأخوذ من الفخامة والضخامة.	المفخم	37
30:6	من ألقاب ملوك المغرب، وهو مفعّل من الكرامة.	المكرم	38
30:6	من ألقاب ملوك المغرب، وهو مفعّل من المجد وهو الشرف.	الممجد	39
30:6	عن حوزة المسلمين، من ألقاب ملوك المغرب، ويصلح لكل ملك مسلم يقوم بفرض الجهاد، والذاب الدافع، والحوزة بفتح الحاء المهملة والزاي المعجمة من الناحية.	الذاب	40
36:6	في مصالح المسلمين من ألقاب ملوك المغرب.	القائم	41
37:6	المجاهد عن الدين من ألقاب ملوك المغرب	المجاهد	42
33:8	وكان يدعى أيضاً صاحب طليطلة، والأذفونش سمة على كل من ملك منهم، وعامة المغاربة يسمونه الفنش، وله مملكة عظيمة وعمالات متسعة، تشتمل على طليطلة، وقشتالة، واشبيلية، وقرطاجنة، وجيان، وجليقية وسائر أعمالها.	الاذفونش	43
35:8	وتسمى البرتقال، ومملكته صغيرة واقعة في الجانب الغربي عرضاً له، تشتمل على أشبونة وغرب الأندلس.	صاحب أشبونة	44
35:8	صاحب أرغونة وشاطبة، وسرقسطة، وبلنسية، وجزيرة دانية، وميورقة.	صاحب برشلونة	45
35:8	وهي من بين عمالات قشتالة، وعمالات برشلونة، وقاعدته مدينة ينبلونة، ويقال لملكها ملك البشكنش، ووراء هؤلاء بالأرض الكبيرة صاحب افرنسة، التي هي أصل مملكة الفرنج.	صاحب بيرة	46

انطلاقاً من الجدول يمكن اعتبار المصطلحات الواردة أعلاه أحد محددات تمييز الرسائل الدبلوماسية المغربية الوسيطية عن غيرها، إلى جانب عدد آخر من المحددات الشكلية كنوع الورق وطريقة الكتابة إضافة إلى المحددات البلاغية التي سبق ذكرها؛ وعلى الرغم من أنه لا يمكن اعتمادها

للحديث عن أسلوب مغربي خالص للكتابة السلطانية، إلا أن المعطيات التي توفرت لدينا تفيد أننا بصدد أسلوب متفرد ومميز جمع بين خصائص الكتابة السلطانية الأندلسية والمشرقية وطبعها بطابعه الخاص.

الفصل الثالث : الأغراض الرئيسية للرسائل الدبلوماسية : دراسة إحصائية تحليلية

عملنا على جمع شتات الرسائل الدبلوماسية الصادرة عن دواوين الإنشاء في الدُول التي تعاقبت على حكم المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط، فاجتمعت لدينا 117 رسالة كُتبت بعدة لغات أبرزها اللغتان العربية واللاتينية، أخضعناها لإعادة الرّقن والقراءة، كما أخضعنا المعطيات المتحصل عليها لتحليل وفق مقارنة إحصائية، أفضت بنا إلى صياغة عدد من الملاحظات والخلاصات سنعرض لها بالتفصيل والدرس بعد بسط المعطيات المتعلقة بأغراض الرسائل الدبلوماسية المغربية الوسيطة.

لأجل ذلك وضعنا عدة جداول ورسوم بيانية تتعلق بالدول الثلاث التي تعاقبت على حكم المغرب خلال هذه الفترة وفق تسلسل كرونولوجي، ثم وضعنا بعد ذلك جدولاً جامعاً للرسائل الصادرة والواردة عن دواوين الإنشاء في الدول السالفة الذكر، وهو الأمر الذي مكننا من الخروج بتصوير عام لحجم وأغراض المراسلات خلال الفترة الزمنية موضوع البحث.

من خلال تحليلنا للمعطيات الواردة في الجداول أعلاه، أمكن حصر أغراض الرسائل الدبلوماسية الوسيطة في عشرة أغراض أساسية، هي :

- 1- "التجارة"، وتضم كل الرسائل التي تتعلق بالمعاهدات تجارية والتوصية بالتجار والترخيص لهم بالتجارة والإقامة، إلى جانب المراسلات المتعلقة بشكاوى التجار لدى سلطات البلدان التي يقصدونها بتجارهم.
- 2- "الاعتماد والصلاحيات"، وتضم كل الرسائل المتعلقة بالجوانب القانونية والتقنية للبعثات الدبلوماسية، خاصة التنصيب على الحصانة الأمنية والمالية لأفراد هذه البعثات، كما تطرق بعض منها لمسألة المراسيم التي ترافق استقبال وإقامة السفراء والبعثات السفارية.
- 3- "الهدنة والسلم والتحالف"، تضم كل الرسائل المتعلقة باتفاقيات السلم والهدنات المؤقتة، بالإضافة إلى التحالفات العسكرية والسياسية وشؤون الأسرى.
- 4- "الاعتذار"، من الأغراض النادرة، غير أنها شكلت موضوع عددٍ من الرسائل الموجهة إلى المغرب خلال الفترة الوسيطة المتأخرة.
- 5- "الشكر والتهنئة والتعزية".

- 6- "التوصية والشفاعة وطلب الوساطة".
- 7- "التهديد والانداز"، ضمت مجموعة من الرسائل المتفردة على مستوى الشكل والأسلوب.
- 8- "الاستغاثة"، تعد من الأغراض الأساسية للرسائل الدبلوماسية الوسيطية الموجهة إلى المغرب خاصة الرسائل الواردة عليه من الأندلس.
- 9- "الإخبار"³⁰⁷، اجتمع لدينا عددٌ كبير من رسائل الإخبار سواء الصادرة من المغرب أو الموجهة إليه، التي كان موضوع عدد منها الإخبار بالفتوحات والانتصارات، كما تضمن بعض منها أخباراً عن الأوضاع الداخلية الاقتصادية والسياسية.
- 10- "الهدية".

³⁰⁷ تتميز الرسائل المتعلقة بالأخبار بالانتصار في المعارك بطول الصدر؛ انظر عزاوي، ج 2، م.س.، ص 17.

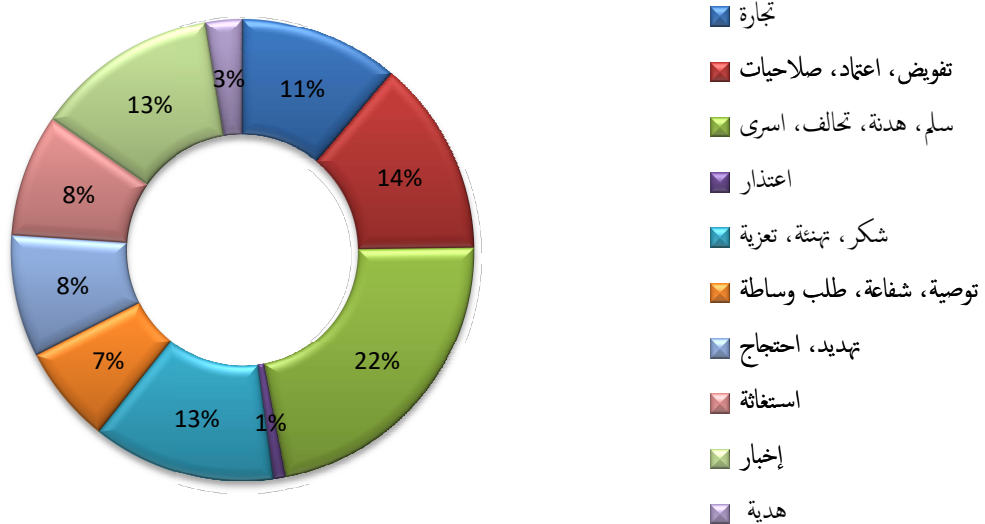
الرسائل الدبلوماسية الصادرة عن الدول المتعاقبة على حكم المغرب والواردة عليها حسب الغرض

447 - 869 هـ / 1056 - 1465 م

الغرض	العدد
1 سلم، تحالف، أسرى؛	26
2 اعتماد، صلاحيات، توجيهات؛	16
3 شكر، تهنئة، تعزية؛	15
4 تجارة؛	13
5 إخبار؛	15
6 تهديد، احتجاج؛	10
7 استغاثة؛	10
8 توصية، شفاععة، وساطة؛	8
9 هدية؛	3
10 اعتذار؛	1
المجموع	117

رسم بياني رقم 01 :

توزيع مجموع الرسائل الدبلوماسية الصادرة والواردة على الدول المتعاقبة على حكم المغرب



الجدول رقم 03 :

الرسائل الدبلوماسية الصادرة عن الدولة المرباطية والواردة عليها حسب الغرض

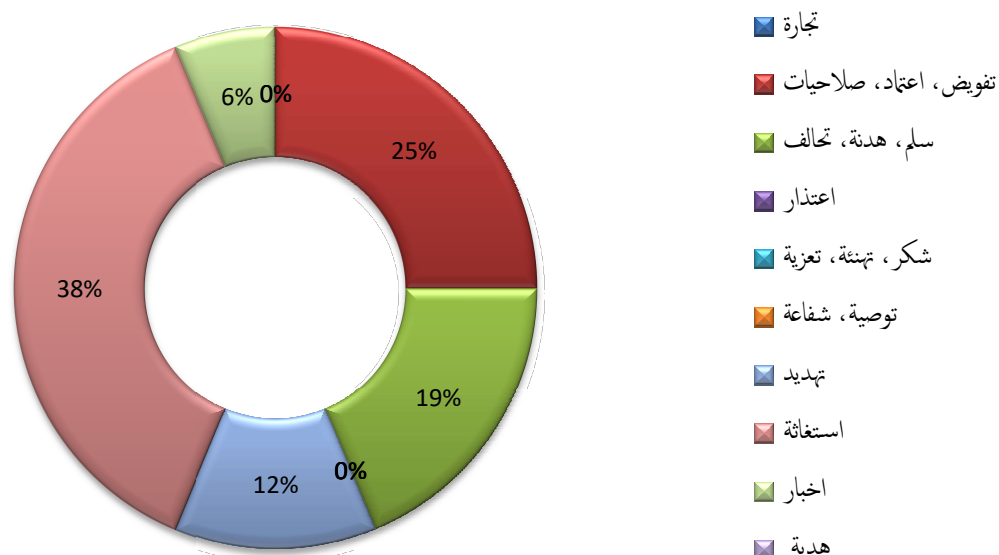
447 - 541هـ / 1056 - 1147م

الغرض	العدد
1 استغاثة؛	6
2 تهديد؛	4
3 اعتماد، صلاحيات، توجيهات؛	4
4 سلم هدنة تحالف؛	3
5 إخبار؛	1
6 شكر تهنئة تعزية؛	0
7 توصية شفاععة، وساطة؛	0
8 اعتذار؛	0
9 هدية؛	0
10 تجارة؛	0
المجموع	18

رسم بياني رقم 02 :

توزيع الرسائل الدبلوماسية الصادرة والواردة على الدولة المرباطية

حسب الغرض



الجدول رقم 04 :

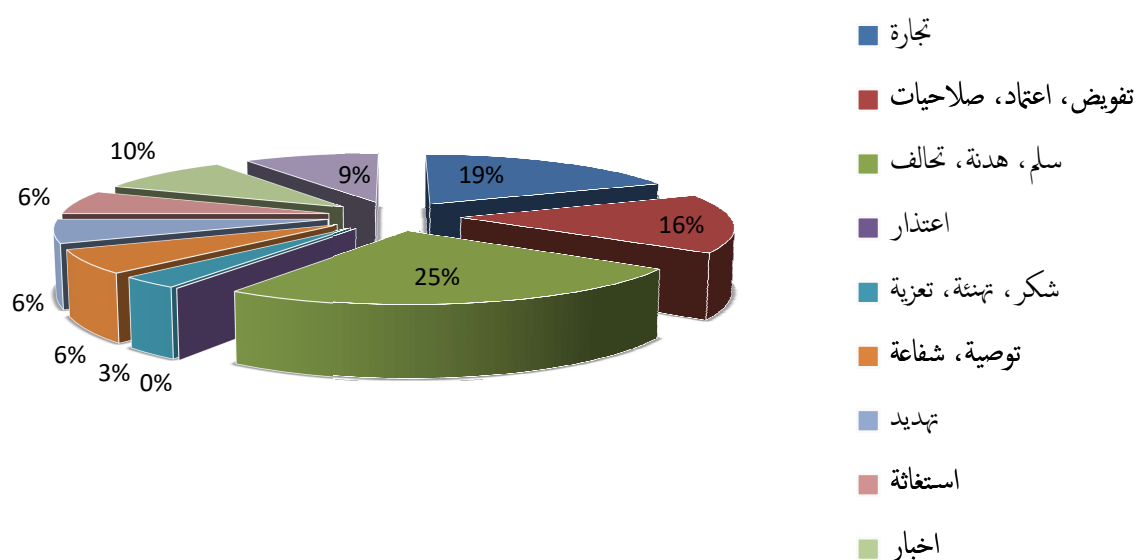
الرسائل الدبلوماسية الصادرة عن الدولة الموحدية والواردة عليها حسب الغرض

514 - 667هـ / 1121 - 1269م /

الغرض	العدد
1 سلم ، تحالف، أسرى؛	8
2 تجارة؛	6
3 اعتماد، صلاحيات، توجيهات؛	5
4 إخبار؛	3
5 توصية، شفاعاة ؛	2
6 تهديد، احتجاج؛	2
7 استغاثة؛	2
8 شكر، تهنئة، تعزية؛	1
9 إعتذار؛	0
10 هدية؛	0
المجموع	29

رسم بياني رقم 03 :

توزيع الرسائل الدبلوماسية الصادرة والواردة على الدولة الموحدية حسب الغرض



الرسائل الدبلوماسية الصادرة عن الدولة المرينية والواردة عليها حسب الغرض

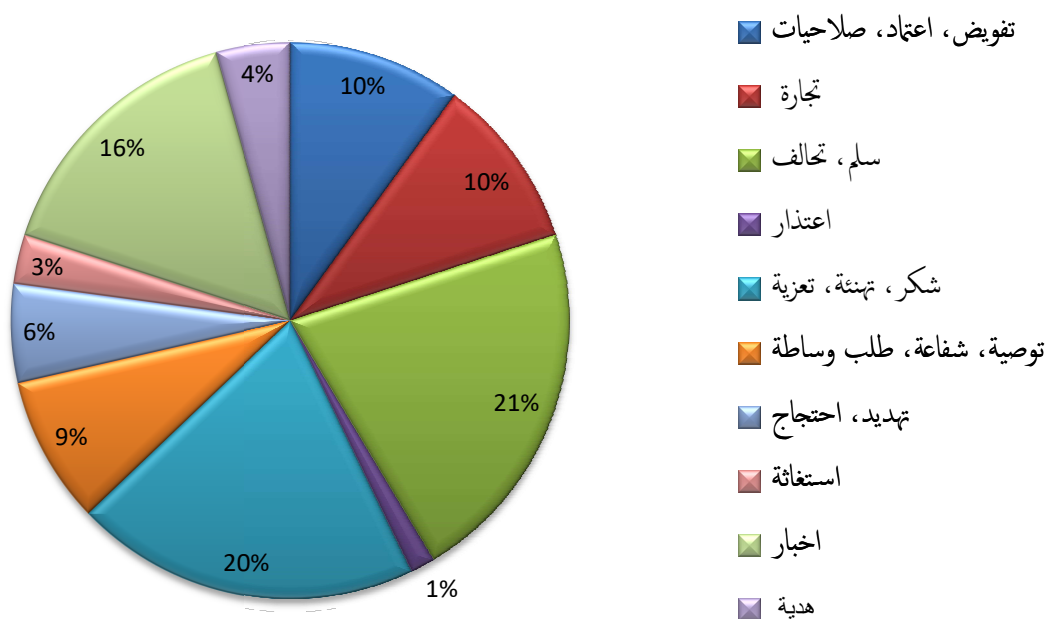
1244م / 641 هـ - 1465 م / 869 هـ

الغرض	العدد
1 سلم، تحالف، أسرى؛	15
2 شكر، تهنئة، تعزية؛	14
3 إخبار،	11
4 تجارة،	7
5 اعتماد، وصلاحيات توجيهات؛	7
6 توصية، شفاععة، وساطة ؛	6
7 تهديد، احتجاج؛	4
8 هدية،	3
9 استغاثة،	2
10 اعتذار؛	1
المجموع	70

رسم بياني رقم 04 :

توزيع الرسائل الدبلوماسية الصادرة والواردة على الدولة المرينية

حسب الغرض



تأثرت الرسائل الدبلوماسية المغربية الوسيطية بالسياق السياسي والاقتصادي المتغير الذي طبع القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط، فجاءت متباينة الأغراض والغايات، وهو ما يعكس تعدد التوجهات واختلاف الأولويات الاستراتيجية من حاكم إلى آخر.

وبالإستناد إلى المعطيات الواردة في الجدول رقم 02 كانت أغلب الأغراض التي وقفنا عليها في الرسائل الدبلوماسية المرابطية تتعلق بالاعتماد والصلاحيات، والتحالف والهدن والسلم، بالإضافة الى الاستغاثة والإخبار بالنصر والفتوحات، وهو أمر يستقيم مع السياق السياسي المرافق لفترة ظهور الدولة المرابطية، الذي شهد تعاظم ضغط الخطر القشتالي على ملوك الطوائف ومسارعهم للاستغاثة بالمرابطين، سعياً لرد الزحف الصليبي على ممالكهم، وهو السياق الذي عرف أيضاً اعتراف المشرق " الخلافة العباسية" بسلطة المغرب على الأندلس بعد أن أصبحت تابعة له، وهي أغراض انبرى لتبنيها والدفاع عنها عدد من كتاب ديوان الإنشاء المرابطي خاصة المستقدمين من الأندلس.

في المقابل لم نعثر على رسائل دبلوماسية مرابطية ذات أغراض تجارية، وهو الأمر الذي ولّد لدينا مجموعة من التساؤلات، من قبيل، هل يتعلق الأمر بفقدان هذه الرسائل لعدم توفر أرشيف رسمي لحفظها ؟ أم أن الأمر يتعلق بكون المرابطين والتجار المغاربة عموماً لم يكن اهتمامهم موجهاً نحو التجارة الخارجية خاصة مع دول وممالك أوروبا الغربية ؟

الإجابة عن هذين السؤالين تتطلب في رأينا إعادة البحث والتنقيب في الأرشيف الأوروبي خاصة الإيطالي والإسباني للتأكد من الغياب الكلي أو الجزئي للرسائل المرابطية ذات الغرض التجاري، وهو أمر مستبعد في رأينا بالنظر الى أن عدداً من الإخباريين والمؤرخين الوسيطيين يؤكدون وجود علائق تجارية بين ضفتي المتوسط، خاصة بين المرابطين وبعض الكيانات السياسية الإيطالية والإيبيرية، وهو أيضاً ما تؤكده الإشارات التي تضمنتها بعض المعاهدات التجارية التي حفظتها بعض الكتب الوسيطية، التي تحدثت عن الحركة التجارية بعدد من المدن الساحلية سواء بالأندلس أو المغرب أو إفريقيا.

بخصوص مسألة مصير الأرشيف الرسمي للدول التي تعاقبت على حكم المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط، نُرجح فرضية " فقدان الأرشيف " نتيجة تعرض خزائن الحفظ للتخريب والنهب بعد سقوط هذه الدول، على فرضية " غياب الخزائن المخصصة لحفظ الأرشيف "، وذلك راجع لعدة اعتبارات، في مقدمتها تعدد الإشارات بخصوص توفر هذه الدول على خزائن لحفظ الوثائق الصادرة عن دواوين الإنشاء، التي تؤكد أنه كان ممارسة وعرفاً متداولاً خلال هذه الفترة؛ وفي هذا

السياق، نورد إشارة لسان الدين ابن الخطيب إلى وجود خزائن لحفظ الوثائق الديوانية لدى بني الأحمر، وذلك في إحدى رسائله الموجهة إلى أحد سلاطين مصر في معرض رده على رسالة وردت على البلاط النصري، حيث قال :

".. فأكرم به من وافء مخلصوب، وزائر مرقوب، صدعنا به في حفل الجهاد انتحاء، واقتنار، ثم صنّاه في كرائم الخزائن، اقتناء للخلف والبخاراً.." ³⁰⁸.

كما نورد إشارة ابن الخطيب في كتابه "ريحانة الكتاب" ³⁰⁹ إلى ضياع معظم الأرشيف الدبلوماسي الغرناطي، حيث قال : " .. وعلى ذلك فألفت عند الإفتقاد عقب الرقاد، بدايع لأدب النثر، قد ضاعت وتملكتها أيدي الدهول عنها، فوهبت وباعت، بعد ما أظلمات وأجاعت، وإذا فلم يبق إلا ثمرات من أوقار غير، وشعرات من جلد بعير، إذ كنت قبل الاعتماد من الدولة النصيرية، بالمشاورة والموازرة، والمعونة والمظاهرة، آكل مسوداتها المجتلبة، إلى حفظ الكتبة، وأرمي بعقودها البذخة إلى الأنامل المنتسخة، مشتغلاً عن الشيء بما يتلوه، غافلاً عن منحنه بالغرض الذي يعلوه، والولد الغالب المختبر، لا يقدر قدره إلا مع الكبر، فلما بت بهمه، وتقت على جمعه، وضمه، وتوهمت الثراء بجمه، راعني صُفور ناديه، وقد عادته عواديه، ونضوب واديه، من بعد إمداد غواديه، وانخفاض ناديه وصمات مناديه..".

كما عبر ابن الخطيب في الكتاب نفسه عن ندمه لعدم جمع الأرشيف الدبلوماسي النصري قبل ضياعه، فقال : " .. فأدميت الأنامل ندماً، أن صار وجوده عدماً، إلا ورقات تشبثت بما أسأرتة الحادثة على الدولة من سقط المتاع، وشلو مختلس برائث السباع.." ³¹⁰.

لقد أوردنا هذه المقتطفات لابن الخطيب على الرغم من بعد المسافة الزمنية بينه وبين الدولة المرابطية لتعزيز فرضية وجود أرشيف رسمي كانت تحفظ فيه مختلف وثائق الدول التي تعاقبت على حكم المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط، على اعتبار أن أعراف وتقاليد الكتابة في دواوين الإنشاء الأندلسية انتقلت إلى المغرب بانتقال الكتاب الأندلسيين للعمل في دواوين الإنشاء المغربية، وهي الأعراف التي من ضمنها - كما أشار إلى ذلك ابن الخطيب - حفظ المراسلات في خزائن مخصصة لهذا الغرض.

³⁰⁸ القلقشندي، م.س.، ج 7، ص 118.

³⁰⁹ الريحانة من المؤلفات المتأخرة التي صنفها ابن الخطيب، تتوزع مادته على مساحة زمنية طويلة تتعدى عشرين سنة حيث وجدت فيه رسائل تعود إلى سنة 770هـ، وإن لم يشر ابن الخطيب في الغالب إلى تاريخ الرسائل لكن مضمونها يشير إلى ذلك؛ أنظر المغراوي، م.س.

³¹⁰ ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، م.س.، ص 18.

خلاصة القول، على الرغم من فقدان الوثائق الرسمية الأصلية الناجم عن تعرض خزائن الحفظ للتخريب والنهب، إلا أن كتب الإخباريين والمؤرخين الوسيطيين قامت بمهمة حفظ جزء من هذا الأرشيف الضائع، ناهيك عما تحفل به بعض الأرشيفات الوطنية الأوروبية من وثائق دبلوماسية وسيطية تمكنا من خلال دراسة جزء كبير منها أن نرصد حركية العمل الدبلوماسي الوسيط المغربي وخصائصه المميزة، وتجدر الإشارة إلى أن أغلب هذه الوثائق تتعلق بالفترة المرينية، في حين تظل الوثائق المرتبطة بالمرابطين والموحدين أكثر ندرة³¹¹.

بالعودة إلى المعطيات الواردة في الجدول رقم 03، نجد أنه خلال الفترة الموحدية مثلت الرسائل ذات الغرض التجاري 19% في حين استحوذت الرسائل المتعلقة بالسلم والتحالفات على نسبة 25 %³¹²، في حين تراجعت نسبة رسائل الاستغاثة إلى 6 % بعد أن كانت نسبتها 14% على عهد المرابطين، وهو الأمر الذي يُفسّر بتحول مصدر ورودها الأساسي من الأندلس التي أصبحت خاضعة لسلطة الموحدين إلى المشرق، حيث تحفظت كتب الإخباريين رسالتين أمر بكتابتها السلطان صلاح الدين الأيوبي لطلب دعم الأسطول البحري الموحد لمواجهة لقطع الطرق البحرية أمام الأساطيل الصليبية المتوجه لحصار عكا.

يفسر ارتفاع نسبة مؤشر الرسائل ذات الأغراض التجارية خلال الفترة الموحدية بالتطور الذي عرفته التجارة المتوسطية على يد تجار مختلف المدن الإيطالية، وسعيهم الحثيث للوصول إلى الأسواق المغربية بما فيها الأسواق الداخلية، الأمر الذي قادهم نحو عقد مجموعة من الإتفاقيات التجارية لحماية حقوق التجار الإيطاليين، ومنحهم امتيازات جمركية وأخرى تتعلق بتسهيل إقامتهم في المدن والمراسي الموحدية التي يقصدونها، بالإضافة إلى تأمين خطوط الملاحة البحرية، وهي اتفاقيات كانت المبادرة فيها دائماً للجمهوريات الإيطالية.

خلال الفترة المرينية، حفظت لنا بعض الأرشيفات الوطنية كالأرشيف الوطني لأراغون، العشرات من الرسائل الدبلوماسية المرينية، كما حفظ لنا بعض الإخباريين والمؤرخين المغاربة والأندلسيين

³¹¹التازي عبد الهادي، التاريخ الدبلوماسي، م.س.، م 7، ص 7.

³¹²كان الموحدون أمام تعاظم مشاكلهم بإفريقية والأندلس خلال الفترات المتأخرة من حكمهم يلجؤون إلى الهدنة كسياسة رسمية مع الإسبان، وإن كانوا يدعون الطرف الآخر هو الذي يلج عليهم؛ انظر أحمد عزاوي، م.س.، ج 2، ص 252.

والأجانب كابن الخطيب وابن خلدون وابن أبي زرع والقلقشندي والناصرى السلاوي ودي ماص لاتري عدداً كبيراً من الرسائل اجتمعت لدينا منها سبعون رسالة متعددة الأغراض.

تميزت هذه الفترة بهيمنة رسائل الإعتماد والصلاحيات ورسائل الصلح والتحالفات ورسائل الإخبار على مجموع الرسائل الدبلوماسية الصادرة عن ديوان الإنشاء المريني، مقابل تراجع الرسائل ذات الغرض التجاري إلى ما دون عتبة 10%، كما انخفضت نسبة رسائل الاستغاثة إلى 3 % وهي نسبة لا تعكس العدد الكبير من رسائل الاستغاثة التي توصل بها البلاط المريني من غرناطة.

ومن خلال تحليلنا للنسب المتحصل عليها، نخلص الى أن السياق السياسي الخارجي فرض نفسه بقوة على أغراض الرسائل الدبلوماسية المغربية الوسيطية، حيث أدى تعدد الكيانات السياسية بالجناح الغربي للبحر المتوسط، وانحسار القوة العسكرية والتأثير السياسي للمغرب مقارنة بالفترة المرابطية والموحدية، إلى سعي الحكام المرينيين إلى توظيف الدبلوماسية والآلة السفارية بشكل خاص لخدمة مصالحهم الاستراتيجية، عن طريق إيفاد عدد كبير من السفراء والرسل، وتكثيف التواصل مع الكيانات السياسية المجاورة وعقد عدة تحالفات سياسية وعسكرية، وهو الأمر الذي تؤكد النسبة المرتفعة لرسائل الاعتماد والصلاحيات 25% التي كانت تهتم بالجوانب القانونية والتقنية واللوجستية للبعثات السفارية.

وسنعمل فيما يلي على تسليط الضوء على عدة نماذج من أغراض الرسائل الدبلوماسية، خاصة رسائل الإستغاثة والإستنجد ورسائل التهديد والوعيد والاحتجاج، وذلك حتى نقف عن قرب على أغراض هذه الرسائل وخصوصياتها الشكلية واللغوية، ونود الإشارة إلى أننا سنستعرض بقية أغراض الرسائل الدبلوماسية في المباحث المقبلة، خاصة رسائل الاعتماد والصلاحيات التي سوف نعرض على خصائصها في سياق حديثنا عن الأمن الدبلوماسي والرسائل التجارية في الباب الثاني من هذا العمل.

1- الاستغاثة والاستنجاد

إن تعدد أغراض الرسائل الدبلوماسية الوسيطية وتفردتها عن غيرها من الرسائل الديوانية يُعد إحدى أبرز سماتها المميزة، وفي هذا السياق نورد أنموذج رسائل الاستغاثة والاستنجاد التي قلما وجهها المغرب، في حين استقبل العشرات منها سواء من الأندلس أو من المشرق.

خلال الفترة المرابطية تقاطرت الرسائل والسفارات الواردة على المرابطين والوافدة من ملوك الطوائف بالأندلس، تستغيث بهم وتدعوهم إلى الجواز إلى العدو الأندلسية بُغية مساعدتهم في رد الحملات العسكرية التي قادها الملك القشتالي ألفونسو السادس Alphonse VI، خاصة بعد سقوط طليطلة سنة 1085م - 478هـ؛ كما وُجّهت للغرض ذاته رسائل عدة خلال الفترة الموحدية من قبل صلاح الدين الأيوبي بعد حصار عكا من قبل الصليبيين؛ في حين سجلت كتب الإخباريين والمؤرخين عدداً من رسائل الاستغاثة والاستنجاد التي بعث بها بنو الأحمر بغرناطة وبنو حفص بإفريقية إلى ملوك بني مرين بفاس؛ وفي هذا السياق نورد ثلاثة نماذج من رسائل الاستغاثة، عبارة مقتطفات من رسائل وُجّهت للمرابطين والموحدين والمرينيين حتى نقف على مضامينها وخصائصها.

الرسالة الأولى : رسالة استغاثة واستنجاد بعث بها ملك إشبيلية المعتمد بن عباد (431-487هـ - 1040-1095م) إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

الرسالة الثانية : رسالة استغاثة من السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة الموحي يعقوب بن يوسف بن عبد المومن.³¹³

الرسالة الثالثة : رسالة استغاثة من السلطان النصري أبي عبد الله المخلوع للمرينيين من أجل استمداد عونهم والاعتذار عن تحالفه مع القشتاليين.

³¹³ استنجد صلاح الدين بالموحدين عقب حصار عكا (584هـ / 1189م) من قبل قوات الصليبيين بقيادة ريتشارد الأول بقلب الأسد (1189م-1199م) في الحملة الصليبية الثالثة؛ ذكر رسالة صلاح الدين الأيوبي للموحدين أبو شامة في الروضتين وابن خلكان في وفياته وابن واصل في مفرجه والقلقشندي في صبح الأعشى، كما أوردها من المغاربة صاحب الاستبصار وابن عذارى وابن خلدون؛ انظر أحمد موسى عز الدين عمر ، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، ط 1، بيروت، 1983، ص 34.

الرسالة الأولى :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الملك المؤيد بفضل الله أمير المسلمين، وناصر الدين، وزعيم المرابطين، أبي يعقوب
يوسف ابن تاشفين، نور الله به الآفاق، وجمع به الجيوش والرفاق من الملك المفضل بنعمة الله،
المستجير برحمة الله، المعتمد على الله، محمد بن عباد، سلام على حضرة تجرد أيمانها، واشتد
أمانها، أما بعد،

فإن الله سبحانه أيد دينه بالاتفاق والائتلاف، وحرم مسالك الشتات، ودواعي الاختلاف،
وأنعم على عباده بأمر جديد وقوم أولي بأس شديد، وتكفل علينا بمعلوم جدك ومشهور جدك
وقد جعلك، رحمة يحيى غيثها ربوع الشريعة، وخلقه مسلماً إلى الخير وذريعة، وقد لصل على
الإسلام حادث أنسى كل هم، وهمت النكبات بوقوعه وهم، وذلك عدو الصمعة في البلاد
شتات وبين، واختلاف سيخ لم تصرف له في الدعة عين، يقوى ونضعف، ويتفق ونختلف،
ونفام مطمئنين من آفات الزمان وتناسخ الأمان وقد جاءنا إبراقه وإرعاده، ووعدده وإيعاده،
لنسلم له المنابر والصوامع، والمحارب والجوامع، ليقم بها الصلبان ويستشيب بها الرهبان، ومما
يلصمه استمالته إيانا بالدعة، وإملاؤه في الرحب والسعة، استجرار لما أبصنه، وإهجاماً علينا ولصنه.

وقد ولصه الله لك ملك، شكر الله عليه جهادك وقيامك بحقه واجتهادك ولك من
نصر الله خير داعث، يبعثك إلى نصر مناره، واقتباس نوره وناره، وعندك من جنود الله من
يشترى الجنة بحياته، ويحضر الحرب بآلاته، فإن شئت الدنيا، فقصوف دانية، وجنات عالية،
وعيون آنية، وإن أردت الأخرى، فجهاد لا يفتن وجلاد يحزن الغلاصم ويتن هذه الجنة أخرها
الله لخلال سيوفكم، وإجمال معروفكم، نستعين بالله وملائكته، وبكم على الكافرين، كما

قال الله تعالى سبحانه، وهو أكرم القائلين " قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين"³¹⁴.

والله يجمعنا على كلمة التوحيد ننصرها، ونعمة الإسلام نستحث بها ونشرها، والسلام الموصول الجزيل على أمير المسلمين، وناصر الدين، ورحمة الله وبركاته³¹⁵.

تتسم هذه الرسالة الدبلوماسية بالإيجاز، عملاً بالأسلوب المعتمد في معظم رسائل الاستغاثة، كما تتميز بالتوظيف المعتدل للمحسنات البلاغية خاصة السجع، إلى جانب توظيفها لآلية التضمين حين أدرجت آية قرآنية لتعزيز غرض الرسالة.

من جهة أخرى، تنقسم الرسالة التي بعث بها المعتمد بن عباد من حيث الشكل إلى عدة أبواب، فأول ما استهلته به هو البسمة، وفي هذا الإطار نود الإشارة إلى أن عدداً كبيراً من الرسائل الدبلوماسية المتعلقة بالفترة المرابطية وردت إلينا مبتورة من دون تاريخ أو بسملة أو على شكل مقتطفات متضمنة في كتب الإخباريين والمؤرخين، الأمر الذي فوت علينا فرصة الإطلاع بشكل دقيق على خصائصها الشكلية، خاصة على مستوى الاستهلال والخاتمة التي لم يُعرها هؤلاء الإخباريون والمؤرخون الاهتمام نفسه الذي أُفرد للمتن.

وبالعودة إلى أبواب رسالة المعتمد بن عباد، نجد أنه إلى جانب البسملة حُصص الحيز الأكبر من الاستهلال للتعريف بالمرسل إليه والمرسل، وذلك جرياً على عادة دواوين الإنشاء في كتابة هذا النوع من الرسائل الدبلوماسية حيث يُقدم المرسل إليه على المرسل تعظيماً لقدره وتعزيزاً لشأنه، وهي قاعدة لا تنطبق على بقية الرسائل الدبلوماسية، إذ أن معظمها يُقدم المرسل ويؤخر المرسل إليه.

انتقل كاتب الرسالة بعد البسملة وتعريف المرسل إليه والمرسل إلى الثناء على المرسل إليه وعلى دولته وقومه عن طريق وصفهم بالبأس الشديد تارة، وتارة أخرى بالرحمة التي يحيى غيبتها ربوع الشريعة وذلك بُغية حظه على الإسراع في إجابة دعوة الإغاثة، لينتقل بعد ذلك الكاتب للحديث عن أحوال الأندلس وعن النكبات التي ألمت بها جراء استباحة الأعداء لأرجائها، ليعود بعد ذلك ليُدِّكر الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين بواجب الجهاد المقدس الذي هو فرض على كل مسلم، فيعمل تارةً على استمالاته بما

³¹⁴ سورة التوبة الآية 14.

³¹⁵ مجهول، م.س.، صص 48 – 46.

سيعود عليه وعلى قومه من خير الدنيا وتارة أخرى يذكره بأجر الآخرة، ولضمان إنفاذ الكاتب غرضه ضمن في ختام كتابه آية قرآنية كريمة تتحدث عن الجهاد والنصر الموعود.

الرسالة الثانية

"... فتم الله بحضرة سيدنا أمير المؤمنين، وسيد العالمين، وقسيم الدنيا والدين، أبواب الميامين، وأسباب المحاسن، وأجله من كفايته في الحرم الآمن، وأنجزه من نصرته الحق ما لله له ضامن، وأصلح به كل رأي عليه المور رائن، ومكن له في هذه البسيطة بسطة، وزاده بالعلم غبطة، حتى يكون للأنبياء بالعلم وللأرض بالعزم وارثاً، وحتى يشيد بحادث قديماً من مجده الذي لا يزال بعض الحديث حادثاً.

كان من أوائل عزمنا وفواتم رأينا عند ورودنا الديار المصرية مفاتحة دولة سيدنا، وأن نتيمن بمكاتبتها وتزيين بمخالصتها، وتنهض إليها أمثال الأصحاب، ونستقي معرفتها استقاء السحاب، ونتجمعها بالخواصر ونجعل الكتب رسلاً، وأيدي الرسل مبلها، ونمسك لصفاً من حبل الجهاد، يكون بيد حضرة سيدنا العالية لصفه، ونمسم غرق سبق وارثها ووارث نورها سلفه، وتجادب أعداء الله من الجانبين، لا سيما بعد أن نبنا عنه نيابتين في نوبتين : فالأولى تهمين الأرضين المصرية واليمينية من ضلالة أغضت عيون الأنام على قذاهها، وأنامت عيون الأنام بائعة يقصتها بكرها، ونياطة ثانية في تهمين بيت المقدس ممن كان يعارض برجسه تقديسه، وينعج ببناء ضلاله تأميسه، وما كان إلا جنة إسلام فخرج منها المسلمون خروج أبيهم آدم من الجنة، وأعقبهم فيها إبليس الكفر وما إجارته مما اللعنة، وما كانت لنا بذلك قوة بل الله القوة، ولا لنا على الخلق منة بل الله المنة.

لما مخض النصر زنده، وأعصى الرأي حقيقة ما عنده، لم نر لمكائنة البحر غلا بحرا من أساهيله المنصورة، فإن عددها واف وشعرها كاف، ويمكنه - أدام الله تمكينه - أن يمد الشام منه بعد كثيف وحده رهيف، ويعمد إلى واليه أن يقيم إلى يرتبع ويصيف، ويمكنه أن يكف شراً لأصول لصاغية صقلية، ليحص جناح قلوغه أن تهيئ، ويعقل عباب بحر أن يغش.

ويعتقله في جزيرته، ويجري إليه قبل جريته، فيذهب سيدنا وعقبه بشرف ذكر لا ترح به المحامد على عقبها، ويقوم على الكفرة قيامة يطلع بها شمس النصر من مغربها، فإذا نفذ لصريقه وعلم الناس بموفده، أوردوا وأصدروا في مورده، وشخص المسلم والكافر: هذا ينتصر بشرى البدار، وهذا يستسلم لمن تكون عقبى الدار وخاف ولصاة من يصل من رجال الماء من وصل من رجال النار، ولو برقت عليهم بازقة غريبة لأغرقهم لصفوانها، ولو لعلت عليهم جارية بحرية لنعتت فيهم بالشتات غربانها.

وما رأينا أهلاً لهذه العزلة إلا حضرة سيدنا أدام الله صدق محبة الخير فيه، إذ كان منحه عادة في الرضى به، وقدره على الإجابة ورغبة في الإنابة، ولاية لأمر المسلمين، ورئاسة للعالمين، وقياماً لسلطان التوحيد القائم بالموحدين، وغضباً لله ودينه، وبخلاً لمذخوره في الذب عنه دون ما عوده.³¹⁶

أكتفينا بإيراد هذا المقتطف من رسالة صلاح الدين الأيوبي، نظراً لطولها وكذلك لأننا وضعنا نسخة في ملحق الرسائل الدبلوماسية.

تقتسم هذه الرسالة الخصائص نفسها للرسالة السابقة التي بعث بها المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين، كاستهلالها بتعريف والمرسل إليه والمرسل، والإخبار بأحوال المسلمين بتلك البقاع، والتحريض على الجهاد عن طريق إضفاء أوصاف الشجاعة والإقدام وغيرها، مما يشبه الذي ورد في الرسالة الأندلسية ويفوقه من حيث توظيف الأساليب البلاغية والمحسنات البديعية من سجع واستعارة وجناس وطباق واقتباس وغيرها، وهو الأمر الذي امتد على صفحات طوال حاول من خلالها الكاتب استعراض مهارته اللغوية والأدبية وتوظيفها خدمة لأغراض الرسالة. جدير بالذكر، أن الرسائل الدبلوماسية خلال الفترة الموحدية اتسمت بكثرة توظيف المحسنات البديعية والاقتباسات والأساليب اللغوية الموهلة في التكلف وذلك خلافاً لما لمسناه خلال الفترة المرابطية.

³¹⁶ القلقشندي، م.س.، ج 6، صص 526 – 530: نقل عنه جمال الدين بن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، عصر صلاح الدين (589 – 569 هـ/ 1184م – 1193م)، تحقيق جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرة، 1957، ج 2، صص 496 – 500؛ انظر أيضاً، شهاب الشافعي الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل ابن إبراهيم المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، مطبعة وادي النيل، 1288هـ، القاهرة، ج 2، صص 174 – 176؛ وأيضاً عزاي، رسائل موحدية، م.س.، ج 1، صص 183 – 185.

من جهة أخرى أثارت الرسالة السالفة الذكر جدلاً كبيراً بخصوص المصطلحات المعتمدة في هذا النوع من المكاتبات الرسمية، خاصة مسألة خلع ألقاب الخلافة والسلطنة والمملك، حيث أدى وصف كاتب الرسالة للخليفة يعقوب بن يوسف بأمر المؤمنين، والإكثار من تعابير التعظيم والتبجيل للخليفة الموحي عن طريق وصفه بإسم " سيدنا " ووصف المرسل بـ " الخديم "، إلى اعتراض القاضي الفاضل أحد كتاب ومقربي السلطان صلاح الدين على هذا التوظيف الذي قد يُفهم - حسب رأيه - على أنه خلُع لبيعة للخليفة العباسي، وذلك في الوقت الذي ينازعهم فيه في الموحدون ثوب الخلافة³¹⁷، وقد ذكر صاحب كتاب الروضتين أنه وقف على كتاب فاضلي مطوّل للسلطان يُشعره من خلاله بأن الرسالة المغربية لم تكن برأيه ولا باختياره³¹⁸ نورد منه المقتطفات التالية :

".. والرسالة المغربية ليس المملوك مشير بتركها، ولا كارهها لسفر رسولها، ولا مستبعدا مصلحة قريبة الأمر منها لكن على وجهها، وقد نجرت الهدية المغربية على ما أمر به، وكُتب الكتاب على ما مثل، وفخم الخطاب والوصف فوق العادة، وبما لا يمكن مخالصة مخلوق بأكثر منه، وعند وصول الأمير نجم الدين من المخيم المنصور فواضه المملوك في أنه لا يمكن إلا التعريض لا التصريح بما وقع له، أنه لا تنجم الحاجة إلا به لفظة أمير المؤمنين، ولأن الذين أفاضوا في هذا الحديث وأشاروا به ما قالوه نقلاً ولا أحاطوا به قياساً، ولا عرفوا مكاتبة المصريين قديماً .. ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الإجماع، مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه، ولا يحل أتباعه، مرخصين الغالي منحلين عن العالي، شاقين عصا المسلمين، مفرقين كلمة المؤمنين، ملهيين لمن لا تحل

³¹⁷ باتخاذهم لقب الخليفة كان الموحدون يعتبرون أنفسهم أحق بالخلافة خصوصاً وأن العباسيين كانوا في مراحل ضعف وانحيار، وربما كان الأيوبيون يشعرون بأن الخطر الموحي يهددهم أكثر من غيرهم، وهو ما يفسر ردة فعل القاضي الفاضل، وفي رسالة صلاح الدين للمستضي العباسي تلميح لهذا الأمر : " إن بني عبد المؤمن قد اشتهر أن أمرهم قد أمر، وملكهم قد عمر، وجيوشهم لا تطاق، وأوامرهم لا تشاق "، والأهم من هذا ما ذكره المراكشي عما كان يصح به المنصور من نية الرحلة إلى المشرق، وتنديده بالمنكر والبدع في البلاد المصرية وأن تطهيرها سيكون على يد الموحدين، ويذكر ابن جبير في رحلته أن أهل مصر والحجاز كان لهم اعتقاد بقرب وصول الموحدين إلى بلادهم...، وهكذا لم يستجب المنصور لطلب صلاح الدين حول الدعم البحري ضد الصليبيين، وقد يرجع هذا إلى مشاكل افريقية الموحدية و تورط الأيوبيين فيها، وربما يرجع بالأساس أيضاً إلى حاجة الموحدين لقطع الأسطول لمواجهة الضغوط المستمرة من طرف نصارى الجزيرة الإيبيرية، بحيث لا يبدو أن الأسطول الموحي كان قادراً على العمل في جهتين؛ انظر عزواوي، رسائل موحدية، م. س، ج 2، صص 83-84.

³¹⁸ الشافعي، ج 2، م. س، ص 174.

لصاعته، متقلدين لمن لا تصم ولا يته، فيفسد عقود الإسلام، وينفتح باب يعجز وارده عن إصداره...³¹⁹.

عبر القاضي الفاضل من خلال رسالته لصالح الدين الأيوبي بشكل صريح عن عدم موافقته على مضامين ما أسماه بـ "الرسالة المغربية"، لأنها قد توظف لغير الغرض الذي أريد لها³²⁰، وقد أثار بذلك مسألة بالغة الأهمية في العمل الدبلوماسي الوسيط، هي توظيف الألقاب والمسميات التي قد يُسهم حسن توظيفها في قضاء أغراض السفارات والرسائل السفارية بشكل سلس وسريع، كما قد يُسفر إغفال أهميتها وسوء توظيفها عن إفشال مساعي السفارات والرسائل.

تعكس مسألة الألقاب مدى عمق الخلافات السياسية بين مراکش وبغداد، وهي الخلافات التي كان لها وقعها في كتابة الرسائل الدبلوماسية بعد أن أثارت جدلاً بين كُتّاب ديوان الإنشاء الأيوبي، وأسهمت بشكل مباشر في إفشال سفارة صلاح الدين³²¹؛ ففي الوقت الذي لم يجد فيه ابن منقذ حرجاً في خلع ألقاب الإمارة والخلافة على الموحدين رغبةً في استمالتهم لدعم الأيوبيين في حروبهم ضد الصليبيين، ارتأى القاضي الفاضل الذي بعث برسالة مطولة لصالح الدين لهذا الغرض³²² أنه لا يجوز توظيف ألقاب الخلافة في غير محلها ولا خلعها على من لا يستحقها. ولعل الخلاف بين ابن منقذ والقاضي الفاضل هو الذي كان وراء ورود رسالتين في كُتب الإخباريين والمؤرخين، إحداهما تصف الخليفة الموحيدي بأمير المؤمنين وتبالغ في مدحه، والأخرى اعتدل كاتبتها في اعتماد الألقاب ونأى بنفسه عن وصف الخليفة الموحيدي بأمير المؤمنين وإن استعمل بعض الصيغ مثل "معلي الموحدين على الملحين وسلطان الإسلام"³²³، فهل يتعلق الأمر هنا برسالتين منفصلتين أرسلهما صلاح الدين للغرض نفسه؟ أم أن الغاية من الرسالة الثانية هو تدارك سوء توظيف الألقاب الخليفية عملاً برأي القاضي الفاضل؟

³¹⁹ ابن واصل، ج 2، م.س.، صص 512-515؛ انظر أيضاً، الشافعي، ج 2، م.س.، ص 174.

³²⁰ أحمد موسى، م.س.، صص 32-35.

³²¹ "لم يحصل من جهة سلطان المغرب ما التمس منه من النجدة وبلغني أنه عز عليهم كونه لم يخاطب بأمير المؤمنين على جاري عاداتهم..".

الشافعي، ج 2، م.س.، ص 174.

³²² عزاي، رسائل موحدية، ج 2، م.س.، ص 64.

³²³ نفس المرجع والصفحة.

يرى الباحث أحمد عزاوي، أن معظم المصادر لا تذكر سوى رسالة وحيدة كتبت عن صلاح الدين إلى المنصور الموحي، فالمصادر المغربية تتحدث عن سفارة واحدة إلى البلاط الموحي، كما أن كتاب الروضتين يلمح إلى ذلك دون أن يتحدث عن سفارتين أو رسالتين منفصلتين، حيث قال :

".. غير أن العماد ذكر كتابا كتبه القاضي الفاضل إلى رسولهم بالمغرب يستنجز ما كان أرسل لأجله .. ثم أراني بعض الشيوخ الصلحاء الثقة بخطه ما كنت أرومه فنقلته على وجهه .. ونقلته من خطه لابن منقذ يأمره فيه بالسفر إلى المغرب بأمر الملك الناصر صلاح الدين .. يستنصر بملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المومن لما حضر الفرنج .."³²⁴

أرخ القلقشندي من جهته لرسالة صلاح الدين سنة 585هـ - 1189م ،³²⁵ وهي رسالة تتوقف أحداثها قبل الأحداث التي تنتهي عندها رسالة الروضتين³²⁶ التي أشارت إلى استنجاد سابق والتي تحمل تاريخ 28 شعبان 586هـ³²⁷ وهو التاريخ نفسه الذي ذكره صاحب الروضتين³²⁸.

وسواء تعلق الأمر برسالة أو رسالتين، فالمهم هو الاطلاع على أثر توظيف المصطلحات الواردة في المراسلات على العمل الدبلوماسي، ومدى وعي كتاب وسفراء العصر الوسيط بمدى أهميتها وبالأثار المترتبة عن حسن أو سوء توظيفها في الوثائق والمراسلات الدبلوماسية.

وخلال الفترة المرينية كانت أغلب رسائل الاستغاثة تفد من غرناطة³²⁹، متسمّة بالإطناب في وصف النكبات، والاسترسال في مدح المرسل إليه والرفع من قدره وشأنه والدعاء له لاستثارة عزمته، وتحريك

³²⁴ الشافعي، ج 2، م.س، ص 170.

³²⁵ .. ولما لم يحصل على المرغوب وجه إليه رسالة أخرى مؤرخة بشهر شعبان سنة 586هـ يحملها الأمير بن منقذ، ومن التعليمات التي أوصاها بها ليلبغها إلى المنصور إن سألته بشأن أعمال المملوكين قارقوش ويوزيا، أن يخبره أنهما ليسا من الأولياء وإنما كسدت سوقهما وتبعتهما ألفاف أمثالهما، ولا كان هذان ممن إذا غاب أحضر، ولا ممن إذا فقد افتقد .. ومعاذ الله أن نأمر مفسداً بأن يُفسد في الأرض". نُقل هذا المقتطف عن صبح الأعشى أحمد عزاوي ، رسائل موحدية، ج 2، م.س، ص 63.

³²⁶ عزاوي، م.س، ص 62.

³²⁷ الرسالة الواردة في الروضتين تُعَمِّم طلب الإمدادات البحرية، وتوجه السفير ابن مُنْقَذ لعدم حصر طلب المعونة في الأساطيل البحرية، حيث قال صلاح الدين لسفيره : "... فالمعونة ما طريقها واحدة، ولا سبيلها مسدودة ولا أنواعها محصورة، قد تكون تارة بالرجال وتارة بالمال هذا إذا تعذرت الإعانة بالأسطول"، أنظر عزاوي، رسائل موحدية، ج 2، م.س، ص 63.

³²⁸ أرخها شهاب الدين في شعبان 586هـ دون تحديد اليوم، في حين ذكر أن تاريخ كتابة رسالة الاعتماد التي سُلِّمَت للسفير شمس ابن منقذ بتاريخ 28 شعبان 586هـ؛ انظر الشافعي، ج 2، م.س، ص 170.

³²⁹ مع وجود بعض الاستثناءات كطلب الاستغاثة الذي تقدم به أبو بكر الحفصى للمرينين ضد بني عبد الواد؛ انظر ابن خلدون، العبر، في م.س، ص 1750.

نوازع الجهاد في نفسه³³⁰. وقد استرعى انتباهنا إحدى الرسائل المطولة التي أوردتها أحمد المقري التلمساني في مؤلفه "أزهار الرياض في أخبار عياض"³³¹ وجهها السلطان النصري أبو عبد الله المخلوع إلى لمينين من أجل استمداد عونهم والاعتذار عن تحالفه مع القشتالين، وهي الرسالة التي شدَّ فيها الكاتب عن عُرف معاصريه من الكتاب حين استهل رسالته بقصيدة مطولة مطلعها :

الرسالة الثالثة

مولى الملوك ملوك العرب والعجم	مرعباً لما مثله يُرعى من الذمير
بك اسجننا ونعم الجار أنت لمن	جار الزمان عليه جور منتهم
حنى غدا ملوكنا لغمر مُسئلاً	وأفزع الخطب ما يأتي على الرُغم
حكهم من الله حنرلاً من ذلك	وهل مر ذل حكر من منحنم ³³²

جاءت القصيدة متعددة الأغراض، منها الغرض الأساسي الذي هو الاستغاثة بالمرينيين ودعوتهم للجواز إلى العدو الأندلسية من أجل رد عدوان النصاري، الذي استباحوا مدن الأندلس وأحالوا مساجدها كنائساً وأذاقوا أهلها أفزع أنواع العذاب، والغرض الفرعي الذي هو الإعتذار عما بدر من بني الأحمر تجاه بني مرين ودعوتهم للصفح والتجاوز، حيث اجتهد الكاتب في مواضع عديدة من مقدمته الشعرية لاستدراار عطف بني مرين، معبراً عن ذلك بقوله :

لا تأخذنا بأقوال الوشاة ولم	نذنب ولو كشّت أقوال ذي الوهم
فما أطقنا دفاعاً للقضاء وما	أرادت أنفسنا ما حل من تقم ³³³

³³⁰ فلاح القيسي، م. س، ص 334.

³³¹ شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق الساقا مصطفى، الأبياري إبراهيم، شلي عبد الحفيظ، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات، مطبعة فضالة 1978، ج 2، صص 73 - 102.

³³² نفسه، ص 73.

³³³ نفسه، ص 74.

لينتقل بعد ذلك الكاتب موجهًا خطابه للسلطان، وخالعاً عليه وعلى بني مرين العديد من الألقاب والتشبيهات رغبةً في استدرار عطفهم وترجيح كفة الجهاد على كفة العتاب، أوردَ بعضاً منها في الأبيات التالية :

كُنْ كَالسَّمُولِ إِذَا سَارَ الْهُمَا مَرْلُهُ	فِي حِفْظِ كِسْوَادِ اللَّيْلِ مِنْ تَكْمِرِ
فَلَمْ يُبِحْ أَدْرَعَ الْكِنْدِيِّ وَهُوَ يَرِي	أَنْ إِنَّهُ الْبَرَقْدُ أَشْفَى عَلَى الرَّجْمِ
أَوْ كَالْمُعْلِيِّ مَعَ الضَّلِيلِ الْأَرْوَغِ إِذَا	أَجَارَهُ مِنْ أَعْيَارِيبٍ وَمِنْ عَجْمِ
وَصَارَ يَشْكُرُهُ شُكْرًا يُكَافِي مَا	أَسْدَى إِلَيْهِ مِنَ الْأَلَاءِ وَالنِّعَمِ
وَلَا تُعَاتِبْ عَلَى أَشْيَاءَ قَدْ قُدِّرَتْ	وَمِنْ مَسْطُورِهَا فِي اللَّوْحِ بِالْقَلَمِ
وَعَدَعَمَا مَضَى إِذْ لَا أَمْرَ جِئَاعٍ لَهُ	وَعَدَّ أَحْجَارَنَا فِي جُمْلَةِ الْخَدَمِ
إِيْمَ حَنَانِكَ يَا بَنِي الْأَكْرَمِينَ عَلَى	ضَيْفِ الْمَرْفَاسِ غَيْرِ مُحْشَمٍ ³³⁴

.....

سَأَلَتِ الْأُمَرَاءَ الْجِلَّةَ الْكُبْرَى	الْعَلِيَّةَ الظُّهْرَاءَ الْقَادَةَ الْبُهِمِ
بَنُو مَرِينٍ لِيُوثِّقُوا فِي عَرِينٍ أَدْوَى	مَرُوءًا قَرِينٍ لَهُمْ فِي الْبَاسِ وَالْكَرَمِ
النَّازِلِينَ مِنَ الْيَضَاءِ وَسَطَحِي	أَحْمَى مِنَ الْأَثْلَقِ السَّامِيِّ وَمِنْ إِمْرٍ
وَالْجَائِسِينَ بَدَهُمُ الْخَيْلُ كُلُّ ذَرَى	وَالدَّاعِسِينَ بِسَمْرِ الْخَطِّ كُلِّ كَمِي
يُرِيدُكَ فَارِسُهُمْ إِنْ هَزَعَا مَلَهُ	فِي مَا زَقَّ بِلَظِي الْهَيْجَاءِ مُضْطَرِمٍ ³³⁵
لَيْتَ عَلَى أَجْدَلِ عَامٍ مِنْ أَجْنَحَتِهِ	يَسْطُوبًا مَرَقَمًا لِدَاغٍ بَغِيرٍ فَمِرٍ
فِي اللَّيْلِ يَدْعُو مِنْ عَسَا لَهْ أَلْفَا	وَلَمْ يَجِدْ أَلْفَا أَصْلًا يُدْعِمُ غَمِرٍ
أَهْلُ الْحَفِظَةِ يَوْمَ الرِّقْعِ تَحْفَظُهُمْ	مِنْ عَصْمَةِ اللَّهِ مَا يُرْبِي عَلَى الْعَصْرِ

³³⁴ المقري، م.س.، ج 2، ص 74.

³³⁵ نفسه، ص 76.

بأس تطيرُ شرارٍ مِنْهُ مُحَرَّقَةٌ لِكُلِّ مُدْرِعٍ بِالْحَزْمِ مُحْتَرِمٍ
هُمِيطَاتُ الثَّلَاثِ قَدْ فَتَكُوا كَمَثَلِ مَا يَفْنَى السَّرْحَانِ بِالْغَنَمِ
وَإِنْ يُلْثَمُهُمْ يَوْمُ الرُّغَى رَهْجٌ أَنْسُوكَ مَا ذَكَرَ عَنْ ذَوِي الثُّمْرِ
تَضِيءُ أَرَاؤُهُمْ فِي كُلِّ مُعْضِلَةٍ إِضَاءَةُ السُّرُجِ فِي دَاخِلِ مِنَ الظُّلَمِ
هَذَا وَلَوْ مِنْ حَيٍّ ذَابَ مُحْنَشِمٍ لَذَابَ مِنْهُمْ حَيًّا كُلَّ مُحْنَشِمٍ
طَابَتْ مَدَائِحُهُمْ إِذَا طَابَتْ أَنْفُسُهُمْ فَاشْتَقَّتْ النِّسَمَاتُ اسْمًا مِنَ النُّسَمِ
لِلَّ ذَرَهُمُ وَالسُّحُبُ بِالْغَلَاةِ نَدَرَهُنَّ عَلَى الْأَنْعَامِ وَالنَّعَمِ³³⁶

واختتم الكاتب استهلاله الشعري بتضمينه مجموعة من الآيات القرآنية المرتبطة بحقل الاعتذار خدمة لغرض الرسالة :

" رَبَّنَا هَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَلَئِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ"³³⁷ " أَنْتَ وَلَيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ"³³⁸ " ذَلِكِ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَلَى الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ"³³⁹ " نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ"³⁴⁰ .

وبعد الاستهلال الشعري المطوّل، عمِلَ الكاتب على تجديد الاعتذار للمريّنين متعمداً تضمين رسالته مجموعة أخرى من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، بل بالغ الكاتب في توظيف صيغ الاعتذار والتوسل للمريّنين، وهو ما لم نعثر له على مثيل في الرسائل الدبلوماسية الوسيطية التي اجتمعت لدينا، وفي هذا السياق نورد المقتطف التالي :

³³⁶ المقري، م.س.، ج 2، ص 77.

³³⁷ سورة الأعراف، الآية 23.

³³⁸ سورة الأعراف، الآية 155.

³³⁹ سورة محمد، الآية 11.

³⁴⁰ سورة الأنفال، الآية 40.

".....على أني لا أنكر عيوي، فأنا معدن العيوب، ولا أجحد ذنوبي، فأنا³⁴¹ جبل الذنوب،

إلى الله أشكو عجزِي وبجري، ومصلحتي وغلصاتي نعم كل شيء ولا ما يقوله المتقول، المشنع المهور، الناصق بضم الشيطان المسؤول ومن أمثالهم : " مُبْنِي وَاصدقْ " ولا تقتروا تخلق، فمثلي كان يفعل أمثاله، ويحمل من الأوزار المضاعفة أحمالها، ويهلك نفسه ويحبك أعمالها، عياذا بالله من خسران الدين، وإيثار الجاحدين، والمعتمدين، قد ضللت إخن وما أنا من المهتمدين.....³⁴²

ليسترسل الكاتب بعد ذلك مورداً مجموعة من الاقتباسات القرآنية والحديثية، سيراً على نهج الكتاب الأندلسيين الذين كانوا يوردون الاقتباس على وجهين، أولاًهما إيراد الآيات والأحاديث الشريفة بصيغتها ولفظها وهو ما يصطلح عليه بالتضمنين، وثانيهما إيرادها دون النص عليها،³⁴³ ويبدو أن الوجه الأول هو الأكثر حضوراً في رسائل الاستغاثة والإستنجاد.

وأولى كاتب الرسالة أيضاً عناية خاصة بالشعر، كما وظف مجموعة من الأساليب اللغوية والمحسنات البديعية التي تعارف عليها الكتاب كالسجع والجناس والطباق وغيرها، الذين تعارفوا أيضاً على تضمين رسائلهم الأخبار والأمثال والحكم وأبياتاً شعرية، وذلك حسب ما يقتضيه غرض الرسالة وما يلائم سياقها، وكانوا يفعلون ذلك للتدليل على ما يسوقونه من معانٍ، أو للتأكيد على ما يبسطونه من أفكار³⁴⁴؛ وفي هذا السياق نورد هذا المقتطف من الرسالة ذاتها جمع صنوفاً من المحسنات البديعية والاقتباسات :

".....ولم نفرع إلى غير بابكم المنيع الجناز، المنفتح حين مدت الأبواب، ولم نلبس غير لباس نعائمكم حين خلعنا ما ألبسنا الملوك من الثواب، وإلى أمه يلجأ الحفل لجأ اللهمان وعند الشدائد تمتان السيوف من الأجفان³⁴⁵، ووجه الله تعالى يقين كل من عليها فان وإلى هنا ينتهي القائل ثم يقول: حسبي هذا وكفان ولا ريب من اشتمال العلم الكريم على ما تعارفته الملوك بينها في القديم والحديث، من الأخذ باليد عند زلة القدم، وقرع الأسنان وعض البنان

³⁴¹ المقري، م.س.، ج 2، ص 84.

³⁴² نفسه، ص 85.

³⁴³ فلاح القيسي، م.س.، ص 333.

³⁴⁴ نفسه، ص 322.

³⁴⁵ المقري، م.س.، ج 2، ص 91.

من النعم، حينما به تعينت حتى مع اختلاف الأديان وعادة الصّحرة فيهم على تعاقب
الأزمان والأحيان...."

ليعود الكاتب بعد أن استنفذ عبارات التوسل والاعتذار والاستغاثة إلى محاولة استثارة عزيمة
المريّنين للجهاد عبر إشهار ورقة الريح السياسي والمالي الذي سوف يعود عليهم إن هم قبلوا الإستجابة
لطلب الاستغاثة، وذلك قبل ختم رسالته بالدعاء والصلاة على النبي وآله وصحبه.

والجدير بالذكر أن الجمل الدعائية³⁴⁶ اعتمدت بكثرة في هذا النوع من الرسائل الدبلوماسية
وذلك وفق أسلوبين، إما أن ترد في خاتمة الرسالة أو على شكل جمل دعائية اعتراضية³⁴⁷؛ ويلاحظ
الباحث أن رسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين تزخر بالجمل الدعائية كدعوة الله أن يحفظ بلاد
المسلمين، وأن يصونها من الأعداء، وأن يُعيد ما اغتُصب منها، ويؤيد الله قادة الإسلام وينصرهم؛ كذلك
تزخر بالجمل الدعائية التي تدعو على العدو بالهزيمة، والفناء، ومن أمثلة ذلك رسالة أبي عبد الله بن
أيمن التي يستصرخ فيها يوسف بن تاشفين لإنقاذ الأندلس:

" ولما كان نور الهدى - أيك الله - دليلك، فقد كانت لهوائف العدو
المهيفة بها - أهلكهم الله - عند إفراجه تسليحها ولعتدائها، تلاصق بالاحتلال، ... ومن قبل هذا
ما كنت خالصتك، - أيك الله - بالنارلة في مدينة قورية - أعادها الله - وأنها مؤذنة الجريقة
بالخراب، ومن فيها من المسلمين بالجلء ثم ما زال ذلك التخاذل يتزايد، حتى حصلت في
يد العدو - قصمه الله - مدينة مرتقة"³⁴⁸.

³⁴⁶ هي جمل وعبارات تعبر عن التعظيم لله تعالى، أو المتضمنة دعاء للمرسل إليه بالعز والسيادة وامتداد السلطان وطول البقاء والتوفيق، أو
التي تدعو الله سبحانه وتعالى أن يحفظ المسلمين، ويصون معاقلمهم من الأعداء، أو تدعو على العدو بالهزيمة والفناء، وما إلى ذلك من
المعاني؛ أنظر فلاح القيسي، م. س.، ص 320.

³⁴⁷ يقصد بها تلك الجمل والعبارات التي ترد بين الكلام وغالبا ما تكون دعائية؛ نفس المرجع والصفحة.

³⁴⁸ نفسه، ص 322.

2- الشكر والتهنئة

تمحورت أغراض عدد كبير من الرسائل الوافدة من غرناطة على البلاط المريني حول الشكر والتهنئة ، وهي في أغلبها شفاهية، لأنه لم يصلنا منها سوى نزغ يسير³⁴⁹ مما دونه الإخباريون والمؤرخون الوسيطيون، كما هو الشأن بالنسبة للرسالة التي بعثها السلطان أبو الحجاج يوسف إلى الأمير أبي الحسن المريني بغرض الشكر والثناء، والتي من ضمن ما جاء فيها قول ابن الخطيب على لسان سلطانه :

".. فإننا ورح علينا كتابكم الذي موقعه عند العدو موقع الكتائب، وخصابكم المشتمل على المواعيد الصادقة، والعرائم المتلاحقة .. فكلما تدبرنا فصوله وتأملنا معانيه ... انفسم لنا في إنجاز تلك المواعيد ميدان المل، وراقنا تكافؤ النية في تلك المخالصة والعمل ... وألقى إلينا رسولكم .. ما قصرتموه على المشافهة من ألصاف البر ومكنون الوعد الكريم السن"³⁵⁰

وبخصوص غرض التهنئة، يحفل كتاب "ريحانة الكتاب" لابن الخطيب بالعديد من الرسائل التي اتخذت لها غرضاً تهنيئاً سلاطين بني مرين، كرسالة التهنئة التي أرسلت إلى السلطان أبي عنان المريني بعد توليه مقاليد الحكم³⁵¹، ورسالة تهنيئة السلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن للغرض ذاته³⁵²، وكذلك التهنئة بمناسبة الانتصار ضد بني عبد الواد حيث قال ابن الخطيب في هذا الصدد :

"صدر عني جواب للسلطان الشهير أبي عنان عن كتابه الذي وجهه إلى السلطان الأندلسي، أمير المسلمين أبي الحجاج بن نصر، يعرفه فيه بما أتاح الله له من الظهور على بني زيان ، واستيلائه على ملكهم بمدينة تلمسان ، وذلك وسط شهر ربيع الأول من عام اثنين وخمسين وسبعماية.." ³⁵³

ووردت عدة رسائل للتهنئة بمناسبة النجاة من كارثة أو الشفاء من مرض، كما أورد ذلك ابن الخطيب في كتابي "كناسة الدكان" و"الريحانة" : " ومن التهاني في الإبلال من المرض ، صدر عني مهنئاً أمير المسلمين أبا عنان.." ³⁵⁴. وفي هذا السياق نورد مقتطفاً من الرسالة التي استهلكت على النحو التالي :

³⁴⁹ المغراوي، م. س.

³⁵⁰ ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، م. س.، م 1، صص 129 - 130.

³⁵¹ نفسه، 273.

³⁵² نفسه، ص 308.

³⁵³ نفس المصدر والصفحة.

³⁵⁴ نفسه، ص 318.

"المقام الذي شفاؤك للإسلام شفا، وبرؤك نعمة عميمة ما بموقعها خفا، وشيمة فضل وعدل ووفاء. فالقلوب به ابتهاج، والصدور انشراح، والعيون اغفا، مقام محل أخينا الذي نقدر قدره، ونسل الله أن يحفظه من بادرة السرار مدره..³⁵⁵"

3- الإخبار

إلى جانب الشكر والتهنئة، كان الإخبار بالانتصارات والهزائم ومُستجدات المواجهات العسكرية بين غرناطة وبقية الممالك النصرانية الإيبيرية، أحد أبرز أغراض الرسائل الغرناطية الموجهة إلى فاس، ومن بين أبرز تلك الرسائل ما أورده ابن الخطيب في الريحانة عن سلاطين بني الأحمر حيث قال :

" وخرجنا نجد السنين.. واحتللنا رندة حرسها الله .. ثم انتقلنا بالمحلات المجتمعات، ضفة ولدي لكه، محلة الفتح الأول.. ومنها صبحنا أولئك الكافرين ، فشاحت وجوههم ، وأحاله بهم سوء كسبهم .. وقد كانوا في هذه المدة القرية أو سمعوه تحصينا، وناصحو عوراته وما وتسديدا، وتخلفوا المنازل مالية باك حم والأقوات، والأشعة والآلات .. وتحصنوا بالقصة، والسيوف تتخففهم ، والرماح تنوشهم ، والسهام تبعجهم .. ولملتصف اليوم بعده ألقوا بالإذعان إلى حكم المسلمين .. "³⁵⁶

كما نورد للمزيد من التوضيح، مقتطفاً مما جاء في الرسالة التي بعثها السلطان أبو الحجاج يخبر فيها سلطان المغرب، بما عزم عليه ملك قشتالة ألفونسو الحادي عشر (1331م - 1350م) لغزو مدينة رندة وجبلها، حيث ذكر ابن الخطيب على لسان سلطانه :

"... وبينما نحن من مقامكم الذي هو سلالة ذلك المجد.. إذ تعرفنا أن ملك قشتالة قد هجم في تلك البلاد المذكورة، بهلب عليها، وحشد قومه إليها، وأعلق بها أوصاعه ... والحركة إليها في أرضه قائمة، فإن من بها من الحماة وذوي المرتبات قد اختلفت أحوالهم ، بسبب ما تأخر

³⁵⁵ ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، م.س.، م 1، صص 129 - 130.

³⁵⁶ نفسه، صص 155 - 156.

من واجباتهم ، وتعذر في هذه المدة الصويلة من مرتباتهم ، فتبعد الكثير من عددهم ، وضياع ما توفر على الأيام من أسلحتهم وعددهم ، واشتد الإشفاق على تلك البلاد المسالمة ..³⁵⁷

وتضمنت الرسائل الوافدة على فاس أيضاً أخباراً عن الهزائم التي لحقت ببني الأحمر ، كالتى أوردها ابن الخطيب في الكتاب نفسه ، حيث قال نقلاً لسان سلطانه :

"..وقد تقرر لدى مقامكم الأسمى كانت الحال آلت إليه بهذا الصاغية - الملك ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة-، الذي غره الإهمال والإملاء، وأقدمه على الإسلام التمحيص المكتوب والابتلاء، وارتكب من قهر هذه الأمة المسلمة مكرها صريحا، وسام كلمة الإسلام بأسا وجرلا بكتائب بره، توهم الأرجاء له حنا وضربا، وكتائب بحرته تأخذ كل سفينة غصبا، والمخاوف قد تجاوزت شرقا وغربا، والقلوب قد بلغت الحناجر غما وكربا .."³⁵⁸

ونورد كذلك ما جاء في إحدى طلبات الاستغاثة المؤثرة على لسان ابن الخطيب :

"..وهو أن هذا القصر، الذي تعددت فيه المحارب والمناز، والراكم والساجد، والذاكر والعابد، والعالم واللفيف، والأرملة والضعيف ، قد انقصم عنه إرفاد الإسلام ، وفتحت الأيدي به منذ أعوام ، وسلم إلى عبدة الأصنام، وقوبلت ضرايرهم بالأعذار، والمواعيد المستغرقة للأعمال، وإن عرضت شواغل وفتن، وشواغب وإحن، فقد كانت بحيث لا يقصم السبب بجملته، ولا يذهب المعروف بكليته، ولا بد من شكون إلى ذي مروءة .."³⁵⁹

والجدير بالذكر أن كتب الإخبار الغرناطية غالباً ما كانت تُقرن بطلبات الاستغاثة، خاصة إذا تعلق الأمر بالإخبار عن هزيمة، ونورد في هذا السياق مقتطف لابن الخطيب :

³⁵⁷ ابن الخطيب، ربحانة الكتاب، م.س.، م 1، صص 362 - 363.

³⁵⁸ نفسه، ص 142.

³⁵⁹ نفسه، ص 377.

..فإننا قدمنا مخالصة مقامكم المؤمل في شأن هذه البلاد، التي عكمت فيها غربة الإسلام وانقصاعه ، وتوجهت إلى استئصال رمقها آمال الكفر والجماعه ، وتملى عليها الصليب فامتد ذراعها ، وتقدم باعه ..³⁶⁰

وفضلاً عما أسلفنا ذكره بخصوص الأغراض الأساسية للرسائل الدبلوماسية الغرناطية الموجهة إلى فاس، تجدر الإشارة إلى وجود أغراض أخرى شملت الرسائل النصيرية، كالتعزية والتوصية والشفاعة³⁶¹ وردت بشأنها مجموعة من الرسائل أورد عدداً منها ابن الخطيب في كتابيه "كناسة الدكان" و"الريحانة".

4 - أغراض التهديد والوعيد والاحتجاج

إلى جانب الأغراض السالفة الذكر تُعد أغراض التهديد والوعيد والاحتجاج من بين أهم الأغراض التي وظفت لأجلها الرسائل الدبلوماسية من قبل الدول المتعاقبة على حكم المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط، وهي رسائل اعتمدت زمن السلم وزمن الحرب، خلافاً لبقية الرسائل الدبلوماسية التي ارتبطت بتوظيفها بزمن السلم أو الفترات التي تسبقه.

إن السمة الغالبة على رسائل التهديد والاحتجاج والوعيد هي التحرر من قيود وضوابط الرسائل الدبلوماسية الوسيطة، حيث أن معظمها ورد موجزاً دون استهلال أو مقدمة، ودون توظيف للأساليب اللغوية المعقدة أو للمحسنات البديعية، وذلك خلافاً لما ذهب إليه الكاتب فلاح قيسي صاحب كتاب "أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري"، الذي اعتبر أن غرض التهديد غالباً ما يستدعي حشد كثير المعاني التي تقود إلى الإسهاب والإطناب،³⁶² وهو ما لم نقف عليه، إذ أن معظم رسائل التهديد الوسيطة التي توفرت لدينا كانت مقتضبة ومتحررة من الضوابط الشكلية واللغوية للرسائل الديوانية عامة والدبلوماسية خاصة، وفي هذا السياق نورد الرسالة التي بعث بها يوسف بن تاشفين إلى ألفونسو السادس Alphonse VI رداً على دعوته إياه للقتال.

³⁶⁰ ابن الخطيب، ربحانة الكتاب، م.س.، م 1، ص 367.

³⁶¹ نفسه، ص 254 وص 259.

³⁶² فلاح القيسي، م س، ص 335.

من أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، إلى ألفونس، أما بعد،
فإن الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه بأذنك، والسلام على من اتبع الهدى.
ولا كُتِبَ إلَّا المَشْرِفِيَّةُ والقَنَا ³⁶³ ولا رُسلَ إلَّا الخَمْسُ العَرَمَرَمُ

لم تتجاوز هذه الرسالة بضعة أسطر كُتبت على ظهر الرسالة التي وجهها ألفونسو السادس Alphonse VI إلى يوسف بن تاشفين، وهو عُرفَ تكرر في عدد من رسائل التهديد الوسيطية، حيث عمل الكاتب على النفاذ مباشرة إلى غرض الرسالة الذي هو إجابة دعوة القتال والتهديد بسوء المنقلب، وهو الأمر الذي استدعى أيضاً من الكاتب تضمين رسالته بيتاً شعرياً لأبي الطيب المتنبّي فيه تهديد صريح لألفونسو السادس وذلك خدمة للغرض الأساسي للرسالة.

وفي السياق ذاته نورد رسالة شبيهة إلى حد التطابق مع الرسالة التي بعث بها يوسف بن تاشفين إلى ألفونسو السادس، كتبها يعقوب بن يوسف بن عبد المومن (558-579هـ/1163م - 1184م) إلى ألفونسو الثامن (1214م - 1158م) Alphonse VIII على ظهر الرسالة التي أرسلها إليه يدعوه من خلالها إلى القتال، وهي أيضاً رسالة موجزة تتكون من سطرين فقط عبارة عن آية وبيت شعري، هو البيت الشعري نفسه الذي اقتبسه كاتب رسالة ابن تاشفين :

بسم الله الرحمن الرحيم

" ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ" ³⁶⁴
ولا كُتِبَ إلَّا المَشْرِفِيَّةُ عِنْدَهُ ³⁶⁵ ولا رُسلَ إلَّا الخَمْسُ العَرَمَرَمُ

تحررت هذه الرسالة من كل ضوابط الرسائل السفارية والديوانية الشكلية منها واللغوية، وهو تحرر مقصود لأن الغرض هو التهديد والوعيد، وهو أمر استنفذته الآية الكريمة والبيت الشعري، بالإضافة إلى أن اختصار الرسالة على سطرين فيه تقليل من شأن العدو، وتنبيهه إلى أن أبواب التواصل والتحادث والتفاوض قد غُلِّقت، وأنه لا صوت يعلو فوق صوت الصّوارم.

³⁶³ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، م.س.، ج 2، ص 389؛ انظر أيضاً مجهول، م.س.، صص 41 - 43.

³⁶⁴ سورة النمل، الآية 37.

³⁶⁵ تصرف كاتب الرسالة في البيت الشعري فأبدل القنا ب " عنده" والخميس ب "الخمس"؛ ابن أبي زرع، الأنيس، م.س.، ص 291.

نُورد في السياق ذاته مقتطفاً من رسالة الاحتجاج التي بعث بها والي سجلماسة أبي الربيع إلى ملك غانة للاحتجاج على سوء معاملة التجار المغاربة،³⁶⁶ وذلك في نهاية عهد المنصور (579- 595 هـ / 1184 - 1199 م) وبداية عهد الناصر الموحيدي (595- 690 هـ / 1199- 1213 م) :

"..نحن نتجاوز بالاحسان، ولن تخالفنا في الأديان، وتتفق على السيرة المرضية، وتتألف الفرق بالرعية، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السيادة الفاضلة، والجور تعانية إلى النفوس الشريفة الجاهلة، وقد بلغنا أحتباس مساكين التجار ومنعهم من الترف فيما هم بصدد، وتردد الجلابة إلى البلد مفيد لسكانها، ومعين على التمكن من امتيصالها، ولو شئنا لاحتبسنا من في جهاتنا من أهل تلك الناحية، لكننا لا نستوصب فعله، ولا ينبغي لنا أن ننهم عن خلق ونأتي مثله، والسلام.."³⁶⁷

وردت رسالة الاحتجاج السالفة الذكر على شكل مقتطف مبثور المقدمة والخاتمة، عمل من خلاله والي سجلماسة الموحيدي على تذكير ملك غانة بالمصالح التجارية المشتركة وما يقتضيه حفظها من عدلٍ وتجاوز وإحسان، معبراً في الآن ذاته عن رفضه لسجن عدد من التجار المغاربة لديه، ومطالباً بإطلاق سراحهم حتى لا يتعرض التجار الغانيون للمعاملة بالمثل. وهنا يكمن الفرق بين رسائل الاحتجاج ورسائل الوعيد والتهديد، حيث أن رسائل الاحتجاج غالباً ما ترد وقنوات التواصل لازالت قائمة، لذا يكون غرضها محددًا، كالدعوة لإطلاق سراح التجار المغاربة السجناء أو المطالبة باحترام بنود الاتفاقيات المبرمة كما ورد في الرسالة التي بين أيدينا، أو المطالبة بالتعويض عن أضرار ناجمة عن القرصنة، كالرسالة التي بعث بها سنة 596 هـ / 1200 م عبد الرحمان بن أبي الطاهر الناظر بديوان إفريقية إلى حكام بيزة للاحتجاج على اعتداء سفن بيزية على مرسى تونس والمطالبة بالعرض أو القصاص.³⁶⁸

³⁶⁶ من الصعب الحديث عن علاقة دبلوماسية مع السودان فلم نجد بين أيدينا غير مقتطف وحيد من رسالة فريدة عن والي سجلماسة إلى ملك غانة يعتبر عليه إعاقة عمله التجارية المغربية ببلاده؛ أحمد عزوي، رسائل موحدية، م. س.، ج 2، ص 251.

³⁶⁷ المقرئ أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب مي غصن الأندلس الرطيب، تحقيق أحسان عباس، دار صادر بيروت، الجزء الثالث، د ت، م 3، ج 3، ص 105.

³⁶⁸ أبرز الرسائل التي أوردها أحمد عزوي بخصوص رسائل الاحتجاج الموحدية هما رسالتان في موضوع شكاية من حكومة بيزة إلى الخليفة الموحيدي أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن (1184 م - 580 هـ - 559 هـ / 1163 م) حول انتهاك شروط المعاملة التجارية بين الدولتين في كل من طرابلس وبجاية، فيما بين سنتي 1180 م - 576 هـ و 1182 م - 578 هـ، وهما الرسالتان رقم 33 و 32، وثمانية رسائل بخصوص اعتداء البيزيون على إحدى السفن الموحدية بتونس وهي الرسائل رقم 36، 47، 46، 49، 51، 50، 52، 53. أوردها عزوي نقلاً عن مجموعة رسائل أماري. وفي هذا السياق، تجدر الإشارة أن هذه الرسالة تندرج ضمن مجموعة الرسائل السالفة الذكر، اتخذت الاحتجاج على الاعتداء والمطالبة بالتعويض عن الأضرار الناجمة عنه موضوعاً لها، ويتضح من خلال قراءتنا لمجموع هذه الرسائل أن السلطات الموحدية لم تتوقف

في هذا السياق نورد على سبيل الاستئناس والمقارنة مقتطفاً من رسائل التهديد المتبادلة بين ملك قشتالة وسلطان مصر، كما أوردها القلقشندي، وإن كانت لا تتعلق بالعمل الدبلوماسي المغربي إلا أننا ارتأينا أنها تضمنت أسلوباً فريداً قلما صادفنا مثله في الرسائل الدبلوماسية الوسيطية، ألا وهو اعتماد الرمز والتهديد المضمّر، وفي هذا السياق ذكر القلقشندي في كتابه صبح الأعشى :

" وكان الأذفونش ممن قوي طمعه في بلاد مصر والشام في أخرى ليالي الأيام الفاطمية، ثم قال ومكاتباته متواصلة، والرسل بيننا وبينه ما تنقطع على سوء مقاصده، وخبث سره وعلايته، أهدى مرة إلى السلطان سيفاً طويلاً وثوباً بُدقيّاً وطارقة طويلة دقيقة، تشبه النعش، وفي هذا لا يخفى من استفتاح باب الشر والتصريح المعروف بالكناية، فكان الجواب أن أرسل إليه حبل أسود وحجر، أي أنه كلب إن ربط بالحبل وإلا رمي بالحجر".³⁶⁹

قبل اختتام هذا المبحث، نود الإشارة إلى مسألة ترجمة نصوص المراسلات العربية إلى اللغة اللاتينية وغيرها من لغات البلدان التي كانت لها علاقات تجارية وسياسية مع الدولة المتعاقبة على حكم المغرب، فقد نبه عدد من المؤرخين والباحثين إلى مسألة عدم تطابق مضمون النصوص المترجمة مع النصوص الأصلية، وهو الأمر الذي يصعب التحقق منه بالنظر إلى ندرة الوثائق الدبلوماسية الواقعة في نسختين "أصلية ومترجمة"؛ وفي هذا السياق قام الباحث الإيطالي باسكال بوريصي Pascal BURESI بدراسة مقارنة لأحدى المراسلات الموحدية الموجهة إلى مدينة بيزة معتمداً على مرجعي أماري وأحمد عزراوي.³⁷⁰

وفي هذا الصدد أشار الباحث الإيطالي إلى أن معظم الوثائق الموحدية الأصلية المحفوظة في أرشيف مدينة بيزة الإيطالية تتقاسم نفس الخصائص الشكلية، حيث يتبدئ نص المراسلة من أعلى الصفحة مع ترك هامش على اليمين يتسع بشكل تدريجي نحو الأسفل يوظف لكتابة تنمة الرسالة، كما

فقط عند الاحتجاج بل قامت بمجموعة من الإجراءات لاستخلاص التعويضات لصالح المتضررين المسلمين كبيع مخزون القمح الذي يملكه التجار البيزيين في المراسي الموحدية، وصرف قيمته لتعويض المتضررين عملاً بمبدأ المسؤولية التضامنية للتجار البيزيين ريثما يتلقى هؤلاء تعويضاً يأخذونه من المعتدين بواسطة حكومتهم؛ وتفيد هذه الرسائل في معرفة بعض القائمين على شؤون المرسى : كالوالي وناظر الديوان والعدول والتراجمة والكتاب: أحمد عزراوي، م.س.، ج 1، صص 212 – 213.

³⁶⁹ القلقشندي، ج 8، م.س.، ص 35.

³⁷⁰ Pascal BURESI, À propos d'une correspondance entre l'Empire almohade et la cité de Pise (début XIIIe siècle), Les relations diplomatiques entre le monde musulman et l'Occident latin (XIIe-XVle siècle), 88/2, Oriente Moderno, Istituto per l'Oriente C.A. Nallino, 2008, pp.297- 309. Article mise en ligne le 20 Oct 2016, <https://hal.archives-ouvertes.fr/hal-01384598>, consulté le 09 - 12 - 2019.

كان يُعتمد إلى الكتابة على ظهر ورقة المراسلة، وهو ما يعكس في نظره حرص الكتاب الموحدين على حسن تدبير مساحة الورقة³⁷¹.

بخصوص المراسلة موضوع البحث فهي صادرة عن عبد الرحمان والي الموحدين على تونس سنة 596هـ / 1200م غرضها الاحتجاج على قيام سفن بيزية بمهاجمة مرفأ تونس، الأمر الذي خلف خسائر في الأرواح وخسائر مالية ومادية كبيرة، واعتمد المترجم البييزي في مستهل ترجمته أسلوباً مبنياً للمجهول، قبل أن يتحول إلى نهج صغية مباشرة لنقل مضمون المراسلة عبر اعتماد ضمير "نحن" للإشارة إلى والي الموحدين على تونس، كما عمل على تجاوز المقدمات والأدعية والألقاب التي عادة ما ترد في الرسائل الموحدية مصاحبة لذكر الرسول ﷺ والخليفة، حيث اكتفى بتشبيههم بالكهنة أو رجال الدين *pretres* - *sacerdos*، دون أن يضفي عليهم أي ألقاب إضافية، كما تجاهل الأدعية الموجهة للخليفة والعبارات الدالة على انتصاراته ومناقبه، باستثناء ذكر عبارة *Elmira Momini*، وكذلك الأدعية المتعلقة بحفظ المسلمين وتجارهم، أيضاً تجنب المترجم وصف التجار بالمسيحيين وهو ما اعتبره باسكال تجاوزاً مبرراً من المترجم على اعتبار أن المراسلة موجهة في الأصل إلى المسيحيين.

لقد تعمد المترجم تجريد المراسلة من خصائصها الإسلامية والعربية، ما عدا البسملة التي تظل صيغتها ومعانيها مقبولة من لدن المسيحيين واليهود، في حين تغاضى في عدة مواضع عن ترجمة بعض العبارات والمصطلحات التي تنهل من الحقل الديني الإسلامي، كالتصلية والمشيمة والأدعية، كما جرد الرسول ﷺ من صفة النبوة وتغافل عن عبارات مدحه، وتعمد تخفيف حدة العبارات المعتمدة لوصف الجناة ووصف أعمالهم، كما أضاف عبارات لم يتضمنها النص الأصلي، الغاية منها حسب الباحث الإيطالي تيسير فهم المراسلة من قبل البيزيين، كما تجاهل أيضاً ترجمة الصيغة النهائية التي تختتم بها الرسائل الموحدية التي تشمل مجموعة من الأدعية والتي يكون من ضمنها بعض الأدعية ذات الصيغة التهديدية.

الصيغة المعتمدة لترجمة المراسلة الموحدية توحى بأن المترجم لم يكن مسلماً، والراجح أنه كان مسيحياً أو يهودياً، حيث نحى إلى اختصار النص الأصلي، الأمر الذي أفضى إلى ترجمة مشوهة أسقطت من المراسلة مجموعة من المعاني التي تضمنتها؛ إلى جانب ذلك يوحى الأسلوب المعتمد من قبل المترجم بمعرفته الكبيرة بالسياق السياسي والديني الوسيط، وإطلاعه على خبايا العمل الدبلوماسي خلال هذه

³⁷¹ BURESI, op.cit.

الفترة. وفي هذا الصدد، قام الباحث الإيطالي بصياغة جدول للمقارنة بين النص الأصلي لإحدى المراسلات الموحدة وترجمتها إلى اللغة اللاتينية من أجل رصد الاختلافات بين النسختين³⁷².

خلاصة القول، اتسمت أغراض الرسائل الدبلوماسية المغربية خلال الفترة الوسيطية المتأخرة بالتعدد والتنوع، وهو الأمر الذي لمسناه عن قرب من خلال استعراضنا لنتائج العمليات الإحصائية التي قمنا بها، والتي مكنتنا من رصد دقيق للتغيرات التي تطرأ عليها بتغير السياق السياسي والتاريخي المزامن لها، كما مكنتنا عملية تحليل عدة نماذج لرسائل دبلوماسية مختلفة الأغراض من الوقوف على مدى تأثير الغرض في أسلوب وشكل الرسالة الدبلوماسية، وهو ما يؤكد أن لكل غرض أسلوبه وشكله الذي ينبغي للرسالة الدبلوماسية أن تنضبط له، كما تجدر الإشارة مرة أخرى إلى أننا تعمدنا عدم إدراج بقية الأغراض و تأجيل البث في الخصائص الشكلية والقانونية للمعاهدات والأوفاق إلى الفصول والمباحث التالية.

عملنا خلال الباب الأول من بحثنا المخصص لرصد تطور العمل الدبلوماسي المغربي خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط، على تسليط الضوء على مجموعة من المواضيع ذات الصلة بالعمل الدبلوماسي الوسيط، فكان التأصيل المفهومي أول ما استُهل به هذا العمل وذلك بغية رفع كل لبسٍ قد يطول اعتمادنا لمصطلح الدبلوماسية لتوصيف العمل السفاري خلال الفترة الوسيطية، حيث استعرضنا آراء عدد من المؤرخين المغاربة والأجانب الذين تحرروا من قيود المصطلح لصالح اعتماد المصطلحات المعاصرة والراهنة لدراسة التاريخ القديم والوسيط.

بعد ذلك انتقلنا إلى تتبع التطور التاريخي للعمل الدبلوماسي من العصر القديم إلى الزمнин المعاصر والراهن، وهو الأمر الذي مكنا من الوقوف على الجذور المفهومية واللغوية لمصطلح الدبلوماسية، بالإضافة إلى رسم خطاطة زمنية لفترات تداوله التي استمرت منذ العصر القديم إلى غاية الفترات المتقدمة من العصر الوسيط، حيث تراجع اعتماده لصالح مصطلحات أخرى، وهو النهج الذي استمر إلى نهاية العصر الحديث؛ وإن غاب استعمال مصطلح الدبلوماسية خلال العصر الوسيط إلا أن حضوره على المستوى المفهومي وكذلك على مستوى الآليات المعتمدة لتدبير العلاقات الخارجية ظلّ بادياً بشكلٍ جلي.

³⁷² انظر ملحق الرسائل، الفترة الموحدة.

وعملنا أيضاً خلال المبحث نفسه الكشف عن بعض المصطلحات المرتبطة بالعمل الدبلوماسي الوسيط كالسفارة والسفير، حيث أولينا عنايةً بالغة للتأصيل اللغوي والاصطلاحي، رغبةً في تمييزهما عن غيرهما من المصطلحات الرديفة والشبيهة، وهو أمرٌ نعتقد بوجوده لتلافي أي تضاربٍ في المعاني مما قد يخرج البحث عن سياقه المرغوب، وينأى بالقارئ إلى غير المعنى المراد.

خلال الفصل الثاني عملنا على رصد الخصائص الشكلية واللغوية للوثائق الدبلوماسية الوسيطة، خاصة الوثائق المغربية، وفي سبيل ذلك اعتمدنا نهج المقارنة الثلاثية بين الوثائق الدبلوماسية المغربية ونظيرتها في المشرق وفي أوروبا الغربية، بُغية الوقوف على أوجه التشابه ونقاط الاختلاف، وهو الأمر الذي أفضى بنا إلى الوقوف على خصائص أسلوب الكتابة الدبلوماسية المغربية المتفرد عن غيره من الأساليب المشرقية والشديد القرب من الأسلوب الأندلسي.

إلى جانب ذلك اعتمدنا مقارنة إحصائية تحليلية، اعتمدت تجميع المعطيات الواردة في أكثر من 117 رسالة دبلوماسية وسيطة اجتمعت لدينا، بعضها صادر عن المغرب وبعضها الآخر وارد عليه، وهو ما مكّننا من رصدٍ دقيق لتطور أغراضها وفق تسلسل كرونولوجي استعرضناه من خلال مجموعة من الجداول والرسوم البيانية، اعتمدنا عليها في الفصل الثالث من أجل حصر أغراض الرسائل الدبلوماسية الوسيطة التي استعرضنا منها عدة نماذج مرتبطة بأغراض الاستنجد والاستغاثة، والشكر والتهنئة والإخبار والوعيد والاحتجاج والتهديد، حيث وقفنا على خصوصيتها الشكلية واللغوية، وعملنا على تحليل مضامينها وسياقها السياسي والتاريخي، وهو ما سنحاول استكمالها في الباب الثاني، حيث سنتعرض بقية أغراض الرسائل الدبلوماسية خاصة المرتبطة بأغراض التجارة واعتماد السفراء والبعثات الدبلوماسية.

سنخصص الفصل الأول من الباب الثاني لدراسة معايير وشروط اختيار السفراء الوسيطين، بالإضافة إلى دراسة آليات عملهم وطرائق تمويلهم، ناهيك عن تخصيص مبحث لدراسة المنظومة القانونية المرتبطة بعملهم، خاصة نظام الامتيازات القانونية التي كانت تُمنح لهم خلال هذه الفترة، كما سنعمل على تجميع المعطيات المتعلقة بالبعثات السفارية وتحليلها واستنطاقها بالاعتماد على المنهج الإحصائي التحليلي، في حين سوف نُخصص الفصل الثاني لدراسة محددات العمل الدبلوماسي خاصة المحددات التجارية والدينية، وفي هذا السياق سنعمل على قراءة وتحليل عدد من المعاهدات والاتفاقيات التجارية التي جمعت عدداً من دول المغرب ببعض الدول والكيانات السياسية بغرب أوروبا خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط.

الباب الثاني : آليات ومحددات العمل الدبلوماسي الوسيط

بعد استعراضنا للتطور التاريخي والمفهومي للدبلوماسية المغربية، ودراستنا لأبرز الخصائص الشكلية والبلاغية للوثائق الدبلوماسية الوسيطة، سوف نعمل من خلال هذا الباب على تسليط الضوء على مختلف آليات ومحددات العمل الدبلوماسي في الغرب الإسلامي خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط، عبر دراسة أبرز معايير انتقاء المرشحين للسفارة، وذلك بالاعتماد على عدد من الكتب المصدرية والوثائق الدبلوماسية التي اطلعنا عليها، والتي زودتنا بمعطيات إحصائية مهمة جداً تتعلق بـ 270 بعثة سفارية و 434 مبعوث أوفدهم المغرب أو قدموا إليه خلال الفترة الزمنية موضوع البحث؛ وهي المعطيات التي وضعت في جدول جامع وفق تسلسل كرونولوجي مكنا من تحويلها إلى رسوم بيانية ساعدتنا بشكل كبير على وضع تصنيف للبعثات الدبلوماسية حسب أغراضها، وتوزيع المبعوثين الدبلوماسيين حسب انتمائهم الاجتماعي والديني ومستواهم الثقافي، كما مكنتنا من التعرف على أبرز المعايير المعتمدة لاختيار المرشحين لشغل مهام دبلوماسية خلال الفترة الوسيطة المتأخرة سواء في الغرب الإسلامي أو المسيحي.

وسنعمل أيضاً في هذا الباب على دراسة مجموعة من آليات العمل الدبلوماسي وأعرافه كالهدية والمراسيم الدبلوماسية، وسنفرد حيزاً مهماً لدراسة طرائق تنقل وتمويل البعثات السفارية، كما سنستعرض دور الدين والتجارة في توجيه دفة العمل الدبلوماسي الوسيط، في حين سنخصص الفصل الأخير من هذا العمل لدراسة العمل القنصلي ومؤسسة الفندق، وذلك رغبةً في تتبع مسار تطور هذه الوظيفة التي كان لها دورٌ كبير في انتقال العمل الدبلوماسي من "الهواية إلى الاحتراف".

الفصل الرابع : معايير انتقاء السفراء

يتناول هذا الفصل رصد أبرز معايير اختيار السفراء المغاربة ونظرائهم الأوروبيين، والباعث وراء تخصيص مبحث لدراسة معايير انتقاء السفراء في الغرب المسيحي خلال الفترة الوسيطية المتأخرة أمله طبيعة البحث في مجال الدبلوماسية التي لا يمكن دراستها بشكل معزول عن السياق الخارجي، كما لا يمكن الإحاطة بمختلف خصائص الدبلوماسية المغربية الوسيطية من دون تخصيص جزء من هذا العمل لدراسات مقارنة. ومن هذا المنطق عملنا خلال هذا الفصل على تخصيص مبحثه الأول لدراسة معايير انتقاء السفراء الغربيين بعدد من دول وممالك أوروبا كالبندقية وفلورنسا، ودوقية بورغون وفرنسا وإنجلترا، وفق منهج إحصائي تحليلي وهو المنهج ذاته الذي اعتمدناه لدراسة المعايير المعتمدة لاختيار المرشحين لشغل مهام دبلوماسية في المغرب. وتجدر الإشارة في هذا السياق أننا حاولنا رصد دراسات إسبانية تتعلق بالموضوع ذاته، غير أننا لم نعثر في حدود ما اطلعنا عليه على دراسات إحصائية متخصصة في آليات العمل الدبلوماسي الوسيط، في المقابل عثرنا على عدة أبحاث تضمنت إشارات إلى بعض معايير انتقاء السفراء لإسبانيا خلال هذه الفترة، كعمل الباحث الإسباني ميغيل أنجيل أوشوا³⁷³.

1 - معايير انتقاء السفراء في الغرب المسيحي

خضع اختيار السفراء والمبعوثين الرومان إبان الفترة الجمهورية إلى مجموعة من المعايير والشروط التي أولت أهمية كبرى للبعدين الوظيفي والاجتماعي، حيث اشترط في الدبلوماسي الروماني Legatus³⁷⁴ romain انتماءه إلى مجلس الشيوخ Le Sénat أو الانتماء وظيفياً لبعض المهن النبيلة كالقضاء، وهو الأمر الذي كان يُعد ضماناً لسعة اطلاعه على الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية، وتشعب مداركه الثقافية واللغوية والإدارية والقضائية التي كانت ضرورية لإنجاح المهمات التي يُنتدب لها، والتي غالباً ما كانت تتخذ طابعاً تفاوضياً بالنظر إلى اعتماد روما الكبير على الدبلوماسية لفض النزاعات بينها وبين الشعوب والقبائل الخاضعة لها³⁷⁵.

³⁷³ Miguel Angel OCHOA, Diplomacia y su historia, in Rev Boletín informativo, n°189, pp. 35 – 39.

³⁷⁴ Un légat باللغة الفرنسية، وباللغة اللاتينية legatus المشتق من فعل legare بمعنى انتدب، حمل وأرسل، وفي روما القديمة كان يطلق هذا اللقب الوظيفي على الأشخاص الذين يعهد لهم بمهمة خارج روما.

Michel CHRISTOL, *Essai sur l'évolution des carrières sénatoriales: Deuxième moitié du III^e siècle après j-c*, nouvelles éditions latines, 1986, p.354.

³⁷⁵ Ghislaine STOUDEUR, Des manuels de diplomatie à l'usage du légat romain, pp.11- 30, étude, Ambassadeurs et Ambassades au coeur des relations diplomatiques Rome – Occident Médiéval – Byzance (VIII s. avant j.-c. - XII s. après j.-c.), études réunies par Audrey

وعهد الرومان لمجلس الشيوخ Le Sénat بمهمة انتقاء السفراء والمبعوثين الذين كان عدد كبير منهم ينتمون إلى النخبة السيناتورية، وهو الانتماء الذي كان يمنحهم مكانةً وشرفاً واحتراماً داخل المجتمع الروماني، ويجعل منهم، إلى جانب القضاة، أبرز المرشحين لشغل المهام الدبلوماسية، مما يؤكد أن الرومان كانوا يولون أهمية كبيرة للمحددات الاجتماعية والوظيفية عند اختيارهم المرشحين للسفارة، وهما المحددان اللذان كان يلهمهما أهمية محدد الكفاءة والتمكن من تقنيات التواصل والخطابة والإقناع³⁷⁶.

ظلت شروط انتقاء السفراء الأوروبيين خلال الفترة الوسيطة وفيه للمعايير التي أقرها اليونانيون القدامى والرومان، خاصة تلك المرتبطة بالبعدين الوظيفي والاجتماعي، وهي المعايير التي كانت حاضرة بقوة عند اختيار المرشحين لشغل مهام دبلوماسية في عدد من دول وممالك الغرب المسيحي، وفي مقدمتها بعض المدن الإيطالية كالبندقية وفلورنسا خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط، وهي الفترة التي تعاظمت فيها حاجة هذه المدن إلى العمل الدبلوماسي لمواكبة توسع أنشطتها التجارية وتنظيم علاقاتها مع غيرها من المدن والكيانات السياسية في شبه الجزيرة الإيطالية أو في حوض البحر المتوسط.

1.1 المدن الإيطالية

على الرغم من تواتر اعتماد معياري الرفعة الاجتماعية والوظيفة شرطاً أساسياً لشغل المهام الدبلوماسية في روما وعدد من الممالك والدول المسيحية التي قامت على أنقاضها خلال الفترة الوسيطة، اقتضت مصلحة بعض المدن الإيطالية تقديم شرط الكفاءة على غيره من الشروط، وهو الأمر الذي سمح لبعض المرشحين المنحدرين من فئات اجتماعية "متواضعة" كالتجار والكتاب وغيرهم³⁷⁷ بشغل مهام دبلوماسية، والترقي اجتماعياً ووظيفياً عن طريق حصول أفرادها على صكوك النبالة التي يمنحها العمل الدبلوماسي³⁷⁸.

BECKER et Nicolas DROCOURT, Centre de recherche universitaire lorrain d'histoire universite de lorraine – site de metz, Metz, 2012, p. 14.

³⁷⁶ STOUDEUR, op.cit, p. 15.

³⁷⁷ TRAMPUS, Le diplomate vénitien entre les XVI et XVIII siècles : Statut, rôles et fonctions, pp. 119 -136, in Rev études de lettres, n° 3, 2010, p.121.

³⁷⁸ TRAMPUS, op.cit.

لقد فرضت طبيعة المهام المَنوطة بالمبعوثين الدبلوماسيين الإيطاليين التي كانت ترتبط في مجملها بحماية المصالح التجارية القيام بمجموعة من المهام الإدارية والقضائية المرتبطة بالتجارة والتجار، التي كانت تتطلب كفاءة علمية وعَمَلية يندر توفرها في الأشخاص المنتمين للفئات الأرستقراطية، وهو ما يفسر كون عدد كبير من المبعوثين الدبلوماسيين والقناصل البندقيين تجاراً، كما يفسر اشتراط بعض النصوص القانونية البندقية في المرشح لشغل مهام دبلوماسية التوفر على صفة تاجر، وهو ما تضمنته مجموعة من الوثائق المرتبطة بالعمل القنصلي البندقي في مدن كطرابزون وعكا وعدد من مدن أرمينيا وبعض الموانئ المتوسطية.³⁷⁹

واشترط البُنديون أيضاً في المرشحين لشغل مهام دبلوماسية توفرهم على المواطنة التي كانت تُكتسب بالمولد والنشأة، دون القطع مع إمكانية إسناد بعض المهام الدبلوماسية للأجانب متى اقتضت الضرورة ذلك³⁸⁰، ناهيك عن اشتراطهم توفر الكفاءات والمهارات اللغوية والخطابية في المرشحين لشغل هذه المهام، وهي المهارات التي تُصقل عبر تكوين مؤدى عنه يخضع له المرشحون لتطوير مهاراتهم وقدراتهم³⁸¹، خاصة تلك المرتبطة بكتابة التقارير والبرقيات الدبلوماسية³⁸²، رغبةً في ضمان تزويدٍ دائمٍ ومنتظمٍ للمدينة بالمعطيات التجارية والسياسية المحينة للمدن والكيانات السياسية المنافسة لهم، كما كان يطلب من المبعوثين الدبلوماسيين في بعض الأحيان كتابة تقارير سرية لم تكن تخضع لقنوات العمل الدبلوماسي الرسمية وشروطه المتعارف عليها، التي كانت تتطلب من كاتها قدرة كبيرة على حفظ الأسرار، وتمكناً من آليات الكتابة المشفرة³⁸³.

وبمجرد ورود التقارير الدبلوماسية على المدينة تُحال على مجلس الشيوخ لتتلى أمام أعضائه، حيث كانت توظف المعلومات والمعطيات الواردة فيها لصياغة التوجهات الخارجية للبندقية، بما يضمن

³⁷⁹ إلى حدود نهاية القرن 14م لم تكن لدى البندقية سوى تمثيليتين دبلوماسيتين قارتين بكل من روما والقسطنطينية؛

TRAMPUS, op.cit, p.121.

³⁸⁰ Ibidem.

³⁸¹ كان للجنويين مدرسة لتعلم اللغة العربية سنة 1207م حتى يتمكن التجار من التعامل والتخاطب مع تجار العرب؛ حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، ط 1، مصر، 1980، ص 288.

³⁸² Les dispacci « dépêches », les écrites envoyés par les diplomates au cours de leur mission ;

Les relazioni « rapports », le rapport, qui est le document final rédigé par l'ambassadeur à la fin de la mission ;

TRAMPUS, op.cit, p.122.

³⁸³ في النصف الثاني من القرن XV والقرن XVI انصرف اهتمام عدد كبير من الممالك والدول خاصة في أوروبا الوسطى لدواعي تتعلق بالشرف والمكانة لتشديد الجامعات التي أصبحت مشغولة لتطعيم أجهزة الدولة بالموظفين، خاصة القضاة والدبلوماسيين وخدام البلاط.

Jacques LE GOFF, Pour un autre Moyen Age, Temps, travail et culture en Occident, Gallimard, 1991, p.133.

مصالحها التجارية والسياسية. والجدير بالذكر أن البعثات السفارية والقنصليات كانت تتوفر على مجموعة من السجلات التي تدون فيها المعطيات المتعلقة بالبعثة، وكان يُعهد لمجلس الشيوخ بمراقبة الأنشطة الدبلوماسية بصفته المؤسسة الموجّهة لدفة السياسة الخارجية البندقية، كما كان يُعهد بمهام الرقابة أيضاً إلى قاضي الشؤون التجارية الذي كان يُراقب المبادلات التجارية البرية والبحرية والمراسلات المتعلقة بها³⁸⁴.

لدى انتهاء مهمة السفير أو المبعوث يتم استدعاؤه للمثول بين يدي مجلس الشيوخ، للقسم بكتمان أسرار الدولة وعدم الاحتفاظ بأي وثيقة دبلوماسية أو نسخة منها لها علاقة بمهمته السابقة؛ وكل امتناع أو مخالفة للتعليمات تعرضه لعقوبات قد تصل إلى حرمانه من تقلد أي وظيفة حكومية مستقبلاً، مع تقديمه لمفتشي الدولة من أجل متابعته بتهمة إفشاء أسرارها³⁸⁵.

وفي مدينة فلورنسا، كان اختيار السفراء والمبعوثين الدبلوماسيين يمر عبر مجلس المائة الذي يُعد أهم هيئة تنفيذية في المدينة³⁸⁶، وذلك وفق مساطر مؤسسية وقانونية مُعرّفة مسبقاً، تعتمد معايير مشابهة لتلك المعتمدة في مدينة البندقية، وذلك لأن الدبلوماسية الفلورنسية بدورها كانت دبلوماسية تجارية. وخلافاً للتعاظمي المحدود للأرستقراطية البندقية مع العمل الدبلوماسي، سعت بعض العائلات الأوليغارشية الفلورنسية إلى اقتحام هذا المجال رغبةً في حماية مصالحها التجارية في الخارج³⁸⁷.

ويجب التمييز في هذا السياق بين فئتين من المبعوثين الإيطاليين، legati cardinale و legati de latere، أي الموفدين من قبل مؤسسات مدنية والموفدين من قبل مؤسسات دينية، حيث كانت الصلاحيات تختلف من فئة لأخرى. فقد كانت صلاحيات مبعوثي البابوية، الذين كان يطلق عليهم أيضاً les légats pontificaux تفوق تلك الممنوحة لمبعوثي بقية المدن الإيطالية، حيث كان يُعهد لعدد منهم بمهام تفاوضية عكس المبعوثين المدنيين الذين كان يتوجب عليهم العودة إلى مدنها وإلى المجالس التي انتدبتهم من أجل التشاور قبل البت النهائي في أي معاهدة أو اتفاقية، وهو الأمر الذي يمكن أن نعتبره محدداً للتمييز بين

³⁸⁴ منذ 1505 م.

TRAMPUS, op.cit, p.122.

³⁸⁵ Ibidem.

³⁸⁶ Patrick GILLI, La fonction d'ambassadeurs dans les traités juridiques italiens du XVe siècle: l'impossible représentation, in Rev MEFRM – 121/1 – 2009, pp. 173 – 174.

³⁸⁷ Ibid, p. 174.

الدبلوماسية الكنسية والدبلوماسية التجارية خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط بشبه الجزيرة الإيطالية³⁸⁸.

وعرفت هذه الفترة تزايد اهتمام عددٍ من كتاب وفقهاء القانون في أوروبا الغربية بوضع إطار نظري وقانوني لمعايير اختيار السفراء وطرائق عملهم، حيث برزت عدة أسماء كان لها السبق في هذا المجال، كالفقيه القانوني والدبلوماسي الفرنسي برنار دو روزيه Bernard DE ROSIER مؤلف كتاب Ambaxiator سنة 1436م، الذي يُعد أول مؤلف مخصص بالكامل للعمل الدبلوماسي الوسيط³⁸⁹. كما برز إسم الكاتب الإيطالي مارتينو جراتي دا لودي Martino GARATI DA LODI الذي ألف سنة 1440م كتاباً ضم عدة فصول تتعلق بالعمل السفاري الأميري³⁹⁰. ونورد في السياق ذاته إسم الكاتب والسفير البندقي المقيم بروما إيرمولو بربارو Ermolao BARBARO³⁹¹ الذي ألف سنة 1489م كتاباً على شكل مذكرات استعرض من خلالها خلاصة تجربته الشخصية سفيراً للبندقية بروما، فكان أول من استعمل مصطلح السفير المقيم³⁹²، كما توقف عند المعايير والشروط الواجب توفرها في المبعوثين الدبلوماسيين، وفي مقدمتها الولاء للسلطة المعتمدة³⁹³ ودعا إلى عدم حصر السفارة زمنياً، وهي إشارة إلى التحول المفهومي الذي طرأ على العمل الدبلوماسي خلال هذا العصر بظهور "السفارة المقيمة - الدائمة" إلى جانب "سفارة المأمورية"، مخالفاً بذلك ما ذهب إليه مارتينو جراتي الذي تحدث في مؤلفه فقط عن السفارة المحددة زمنياً من دون الإشارة إلى السفارة الدائمة. وضمّن بربارو كتابه أيضاً مجموعة من النواهي والمحاذير التي يجب استحضارها من قبل المبعوث أثناء القيام بمهامه، كالجدل والتواضع المذل والتسول، أو التذاكي وتجاوز حدود صلاحياته أو نطاق المهام التي انتدب لأجلها، كما دعا إلى عدم الخلط بين الجاسوسية والدبلوماسية، وتحري الصدق والأمانة عند جمع المعطيات وكتابة التقارير والتحلي بالسرية التامة في جميع المعاملات.³⁹⁴

³⁸⁸ GILLI, op.cit, pp. 174 - 175.

³⁸⁹ Bernard DE ROSIER, Ambaxiator brevilogus, annalium ecclesiasticorum post illustriss et reverendiss dom caesarem baronium S.R.E cardinalem bibliothecarium, édition A.Bzovius, XV, cologne, A. Boetzer, 1622. Voir aussi, Patrick GILLI, op.cit. p. 181.

³⁹⁰ Martino GRATI DA LODI, Tractatus de principibus, con l'edizione critica della rubrica de principibus, istituto editoriale casalpino, 1968.

³⁹¹ Ermolao BARBARO, Epistalea, Orationes et carmina, éd , V. Branca, vol, Florance, 1943.

³⁹² عرفت روما ابتداء من القرن 15م تشكل أوائل السفارات المدنية المقيمة.

Françoise ARGOD-DUTRAD, Anne-Marie COCULA, La diplomatie au temps de Brantôme, cahiers brantôme, volume 3, presse universitaire de Bordeaux, 2007, p. 29.

³⁹³ GILLI, op.cit, p. 185.

³⁹⁴ Ibid, p. 186.

إلى جانب المعايير المرتبطة بالكفاءة والقدرات المعرفية والعملية، أولت عدة مدن وكيانات أوروبية الأولوية لمعايير أخرى في مقدمتها الرفعة الاجتماعية والوظيفة، كدوقية بورغون التي جعلت من هذا المعيار محددًا أساسياً لشغل المهام الدبلوماسية. فهل كان لشكل النظام السياسي ونوع المصالح الإستراتيجية دور في وضع تراتبية لمعايير انتقاء السفراء الوسيطين في غرب أوروبا خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط؟

2.1 دوقية بورغون

بخصوص معايير اختيار السفراء الفرنسيين والإنجليز خلال العصر الوسيط، ارتأينا التوقف عند دراستين قام بهما الباحثان الفرنسيان آن بريجيت سبيتزبارت Anne-Brigitte SPITZBARTH وشارل جري دولوازون Charles GIRY-DELOISON، نظراً لاعتمادهما نهجاً إحصائياً تحليلياً لدراسة معايير انتقاء السفراء الفرنسيين والإنجليز خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط، وهو النهج الذي عملنا وفقه أيضاً خلال هذا العمل بُغية تقديم دراسة مقارنة بين طرائق ومعايير انتقاء السفراء الوسيطين في الغرب الأوروبي ونظرائهم في الغرب الإسلامي.

وبالعودة إلى الدراسة التي قامت بها سبيتزبارت SPITZBARTH فإن الحدود الزمنية التي رسمتها الباحثة لدراستها تتقاطع مع الإطار الزمني لموضوع البحث، حيث عملت على دراسة معايير انتقاء سفراء وورسل بورغون Bourgogne بين 1419 م و 1467 م، على عهد فيليب لوبون Philippe LE BON ملك ودوق فالوا دو بورغون³⁹⁵ Valois de Bourgogne.

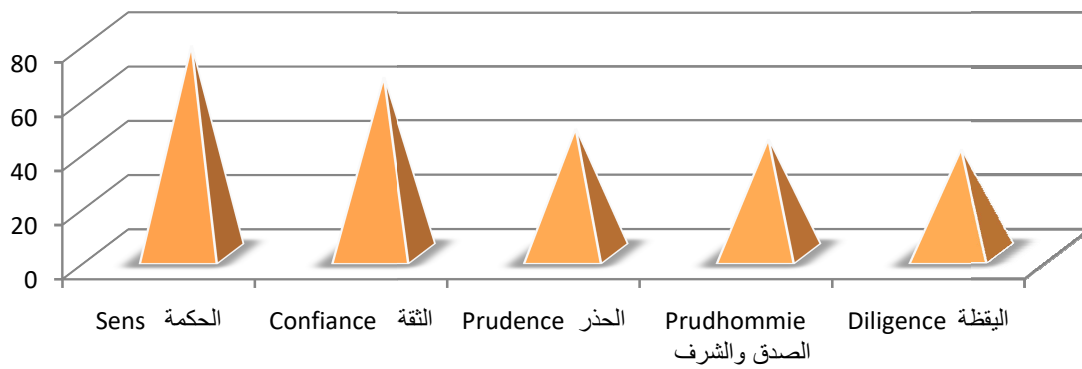
ضمت العينة التي شملتها دراسة الباحثة الفرنسية حوالي 2900 بعثة دبلوماسية تم إيفادها إلى مختلف أنحاء أوروبا، ترأسها أزيد من 1400 سفير أي بمعدل سفيرين كل شهر، وما بين 58 و 60 سفير كل

³⁹⁵ Principauté de Bourgnone.

سنة، منهم 233 سفير أوفدوا إلى إنجلترا³⁹⁶، وهي معطيات استقتها الباحثة من خلال دراسة محتوى عدد من رسائل الصلاحيات والاعتماد التي كان يُزود بها السفراء لدى توجهم إلى إحدى المهام السفارية³⁹⁷.

رسم بياني رقم: 05

المصطلحات المتعلقة بصفات السفراء والرسائل الواردة في رسائل الصلاحيات والاعتماد
الصادرة عن دوقية بورغون



تمكنت الباحثة الفرنسية من خلال المعطيات المستقاة من رسائل الاعتماد والصلاحيات التي اطلعت عليها، من رصد تواتر اعتماد مجموعة من المصطلحات المرتبطة ببعض الصفات الواجب توفرها في المرشح للسفارة، في مقدمتها مصطلح Sens الذي يحيل حسب الباحثة على ملكة الحكمة والتروي والنباهة، يليه مصطلحي الثقة Con fiance والحيلة Prudence، ومصطلحي Prudhomie الذي يحيل على الصدق والشرف ومصطلح اليقظة Diligence،³⁹⁸ كما تحدثت عن توظيف مصطلح الولاء بنسب متفاوتة، وهو المصطلح الذي كان يرد في سياق الحديث عن النبالة والفروسية والشرف، كما يحيل على العلاقات الشخصية بين التابع وسيده. وقد خلصت الباحثة إلى أنه على الرغم من ندرة تداول مصطلح الولاء في

³⁹⁶ رصد لهؤلاء السفراء ما يقارب أربعة في المائة من الميزانية العامة للدولة الأمر الذي يظهر وعياً بأهمية العمل الدبلوماسي لدى فيليب لوبون في زمن لم تتحول فيه بعد الدبلوماسية إلى وظيفة رسمية ولا العمل الدبلوماسي إلى عمل مؤسسي قار؛

Anne-Brigitte SPITZBARTH, Le choix des ambassadeurs bourguignons sous Philippe le Bon, troisième duc de Bourgogne (1419-1467) : La stratégie de la spécialisation, entre savoir-être et savoir-faire , Études de lettres, n° 3 | 2010 2016, URL : <http://edl.revues.org/251> ; DOI : 10.4000/edl.251, mis en ligne le 15 septembre 2013, consulté le 04 octobre 2018 .

³⁹⁷ عملت على تحويل المعطيات الرقمية الواردة في عمل الباحثين إلى رسوم بيانية.

³⁹⁸ SPITZBARTH, op.cit, p.4.

الوثائق الدبلوماسية التي اطلعت عليها إلا أنه من بين أهم المعايير المعتمدة لاختيار السفراء البورغونيين، وذلك بالنظر إلى طبيعة المهام المرتبطة بالعمل الدبلوماسي التي كانت تقتضي التحدث باسم الملك أو الأمير وتمثيله والدفاع عن مصالحه وحقوقه والسهرة على سلامة شرفه، وهي أمور تتطلب التيقن من ولاء المرشح قبل الاطلاع على توفره على بقية المعايير المشترطة لشغل المهام السفارية، والجدير بالذكر أن Philippe LE BON أولى أهمية كبرى لعملية انتقاء السفراء والرسول، حيث كان يعقد تحت إشرافه الفعلي مجلساً يُخصص للبث في عملية انتقائهم³⁹⁹.

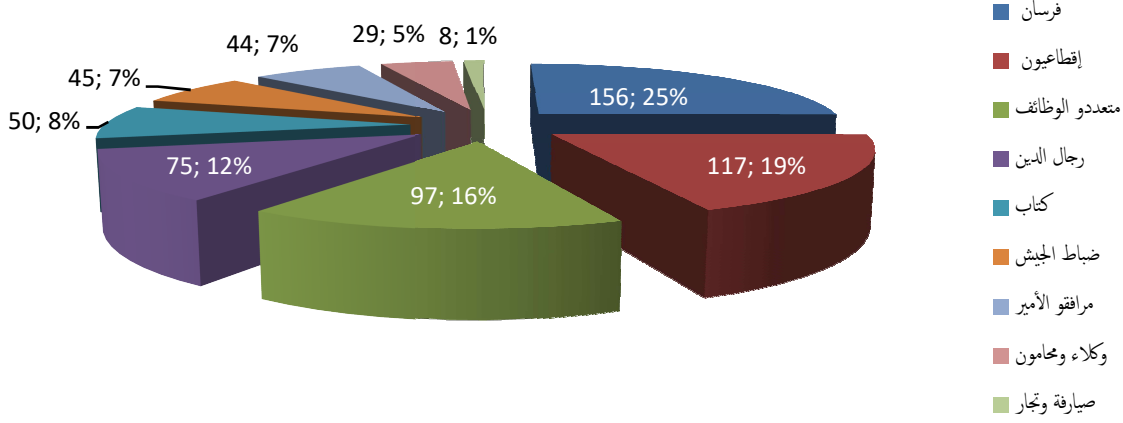
كانت علاقة الولاء بين الملك والمرشح للسفارة تعفيه من الخضوع لمراسيم أداء القسم، كذلك المعمول بها عند تعيين كبار موظفي الدولة. وهنا نتساءل، ألا يُعد استثناء المرشحين لشغل مهام سفارية من الخضوع لمراسيم تقديم الولاء إسوة ببقية وظائف البلاط إقرار صريح بأنها لم ترتق بعد خلال هذه الفترة لتصبح وظيفة تخضع للشروط ذاتها في التولية والإعفاء والمراقبة والتتبع ؟

الإجابة على هذا السؤال تحتمل فرضيتين، أولاً أن اعتبار العمل الدبلوماسي مهمة وليس وظيفة هو الباعث وراء استثناء المبعوثين الدبلوماسيين من أداء القسم؛ ثانياً، أنه بالنظر إلى كون معظم المرشحين للعمل الدبلوماسي ينحدرون من فئات اجتماعية رفيعة ويشغلون وظائف نبيلة يُشترط ولوجها الخضوع لمراسيم تأدية قسم الولاء للملك، وهو الأمر الذي يعفيهم من الخضوع للمراسيم نفسها مرة ثانية.

³⁹⁹ SPITZBARTH, op.cit, p.4.

رسم بياني رقم : 06

توزيع العاملين في الحقل الدبلوماسي بدوقية بورغون
حسب الإلتقاء الوظيفي



من خلال المعطيات الواردة في الجدول أعلاه⁴⁰⁰ والمتعلقة بعينة تشمل 621 مبعوثاً دبلوماسياً عملوا لدى بلاط فيليب لوبون خلال الفترة الممتدة بين 1419-1467م، يتضح هيمنة فئات معينة من الأشخاص ذوي الانتماء الوظيفي القريب من دائرة السلطة، كالفرسان، والإقطاعيين ورجال الدين؛ وأضافت الباحثة أن أكثر من 50 % من العينة موضوع البحث ارتبطت وظيفياً بالبلاط الدوقي l'Hôtel ducal، أي حوالي 317 سفير من أصل 621، 44 % منهم عملوا مستشارين للملك إلى جانب ممارسة وظائفهم الأصلية، وهو الأمر الذي يُبرز لنا مدى أهمية القرب من المحيط الملكي في عملية انتقاء المرشحين للسفارة بالنظر إلى ما يعنيه ذلك من ولاء وإخلاص للملك.

وفي السياق ذاته، تحدثت الباحثة الفرنسية عن الانتماء الاجتماعي كمحدد رئيسي إلى جانب المحدد الوظيفي لاختيار المرشحين لشغل مهام دبلوماسية، على اعتبار أن الانتماء إلى فئة اجتماعية كالنبلاء سواء نبلاء السلاح " الفرسان " أو نبلاء المال " الإقطاعيون"، يُعد بمثابة ضماناً لحسن تمثيل السفير لملكه لدى غيره من الملوك والأمراء. وهنا أشارت الباحثة إلى مسألة تَعَوُّد المنتميين إلى هذه الفئات الاجتماعية على مظاهر الترف والبذخ وعلى المراسيم الملوكية والأعراف البروتوكولية، وهي الأمور التي كانت تساعد على إنجاح المهام السفارية. وأضافت الباحثة أن تكرار استدعاء أفراد هذه الفئات لشغل مهام

⁴⁰⁰ أنجزت هذا الرسم البياني انطلاقاً من المعطيات الواردة في بحث Anne-Brigitte SPITZBARTH.

دبلوماسية أفضى في نهاية الأمر إلى تشكل "طبقة" من خبراء العمل الدبلوماسي،⁴⁰¹ غير أنه لم يفض إلى ظهور وظيفة دبلوماسية مستقلة، محددة المعالم ومعرفة الخصائص.

وتفيد الباحثة أن المستوى التعليمي والمعرفي كان له أيضاً دور أساسي في اختيار السفراء، حيث أدت قلة الحاصلين على الشهادات الجامعية من بين نبلاء السلاح إلى إعطاء الأولوية لنبلاء الإقطاع لدى فيليب لوبون⁴⁰². كما كان التمكن من آليات التواصل والخطابة والتحدث بعدة لغات من بين معايير الأساسية لانتقاء العاملين في الحقل الدبلوماسي، خاصة بالنسبة لدوقية بورغون التي كانت تحيط بها مجموعة من الكيانات السياسية ذات المرجعية الثقافية واللغوية المختلفة⁴⁰³.

3.1 فرنسا وإنجلترا

سلط الباحث الفرنسي Charles GIRY-DELOISON الضوء على جوانب لم تتعرض لها الباحثة SPITZBARTH، حيث قدم دراسة مقارنة بين معايير انتقاء السفراء والرسل في فرنسا وإنجلترا بين 1485 و1520م، وذلك من خلال دراسة عينة ضمت 57 بعثة إنجليزية مكونة من 56 مبعوثاً و58 بعثة فرنسية ضمت 54 مبعوثاً⁴⁰⁴، حيث أشار إلى أن العاملين في الحقلين الدبلوماسيين الفرنسي والإنجليزي انقسموا في نهاية القرن الخامس عشر إلى صنفين: السفراء المعتمدون والمزودون برسائل الصلاحيات التي كانت تمنحهم حق التفاوض، والرسل الذين يُعهد إليهم بنقل الرسائل المكتوبة أو الشفهية.

بخصوص المجموعة الفرنسية، خلص الباحث إلى أن 65,45 % من سفراء ورسل فرنسا الموفدين إلى إنجلترا كانوا من النبلاء، في حين أن 40 %⁴⁰⁵ منهم كانوا فرساناً أي 14 مبعوث، ثم مبعوثين اثنين كانا من مرافقي الفرسان، أي ما نسبته 5,45 %، في حين شكل المرتزقة أكثر من ربع العينة أي 25,46 دون أن يحدد لهم الباحث أي انتماء وظيفي؛ في حين ضمت العينة ذاتها 9,09 % من أصول اجتماعية مجهولة⁴⁰⁶.

⁴⁰¹ لاحظت الباحثة تركيز المهام الدبلوماسية بين يدي فئة ضيقة من الأشخاص، فمن بين 621 شخص، اثنان وعشرون منهم قاموا بأكثر من 20 مهمة دبلوماسية، حيث احتكرت هذه المجموعة من السفراء ما مجموعه 643 مهمة دبلوماسية، أي ما نسبته 22% من مجموع المهمات.

⁴⁰² SPITZBARTH, op.cit, p 6.

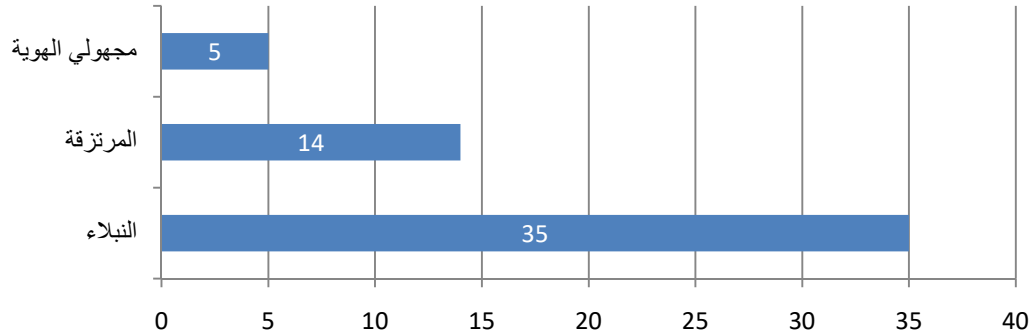
⁴⁰³ Ibid, p.7.

⁴⁰⁴ في الفترة الممتدة بين غشت 1485 و يونيو 1520م تم إحصاء ستين بعثة سفارية إنجليزية في اتجاه فرنسا واثنان وستون بعثة فرنسية باتجاه إنجلترا؛

GIRY-DELOISON, op.cit, p. 208.

⁴⁰⁵ Ibid, p. 209.

توزيع أفراد البعثات الدبلوماسية الفرنسية
حسب الخلفية الاجتماعية



فسّر الباحث الفرنسي اختلاف ارتفاع نسبة النبلاء مقارنة مع المرتزقة بالثقة التي كان يحظى بها هؤلاء لقربهم الشديد من المحيط الملكي، وكذلك نظير ولائهم المطلق، كما فسّر أيضاً هذا الارتفاع بسعي الملك في مراحل معينة إلى إبعاد بعض النبلاء والمقربين عن دائرة السلطة عن طريق إيفادهم في مهام دبلوماسية طويلة الأمد.⁴⁰⁷

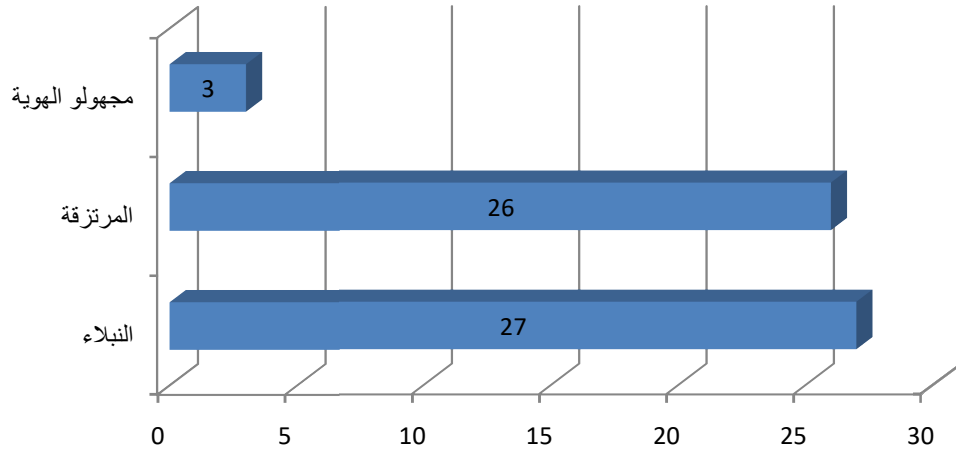
وبخصوص العينة الإنجليزية، لم تتجاوز نسبة النبلاء النصف أي % 48,15، منهم % 31,48 من النبلاء الكبار والبقية نبلاء متوسطون وصغار، في حين شكل المرتزقة نسبة % 46,29، ولم تتجاوز نسبة مجهولي الانتماء الإجتماعي % 5,56،⁴⁰⁸ وقد فسّر الباحث تراجع هيمنة النبالة مقارنة بفرنسا، بكونها أقل تجذراً في المجتمع الإنجليزي، كما أن الارتزاق لم يكن عائقاً أمام اختيار أشخاص لخدمة الملك والعمل في الحقل الدبلوماسي.⁴⁰⁹

⁴⁰⁷ GIRY-DELOISON, op.cit, p. 212.

⁴⁰⁸ Ibid, op.cit, p. 213.

⁴⁰⁹ Ibid, p. 214.

توزيع أفراد البعثة الدبلوماسية الإنجليزية حسب الخلفية الاجتماعية



وبخصوص حضور الأجانب في العمل الدبلوماسي، الجدير بالذكر أن أمراء وملوك فرنسا وإنجلترا استعانوا بعدد من الأجانب لهذا الغرض، أورد الباحث أسماء ستة مبعوثين منهم عملوا في البعثات الدبلوماسية الإنجليزية مع ذكر انتمائهم الجغرافي.

المبعوثون الأجانب المعتمدون من قبل إنجلترا

جدول رقم: 06

المبعوث	البلد الأصلي
T. BENOIT	la Marche de Calais
P. DE CHANDÉE	فرنسا - La France
J. DONNE	بورغون - La Bourgogne
P. FRANCESCO	جنوب غرب أوروبا - l'Europe du Sud-Ouest
E. FRYON	بورغون - La Bourguigone
R. MACHADO	البرتغال - le Portugale

وأضاف الباحث ذاته، أن السفراء الأجانب الواردة أسمائهم أعلاه كانوا من بين رفاق منفي الملك الإنجليزي هنري السابع Henry VII (1485-1509م) في منطقة Bretagne، حيث عمل بمجرد عودته على استخلاصهم للعمل الدبلوماسي، بالنظر إلى أنهم حازوا ثقته وكذلك لإتقانهم اللغة الفرنسية ومعرفتهم الدقيقة بأحوال فرنسا الاجتماعية والسياسية.⁴¹⁰ كان حضور الأجانب في البعثات الدبلوماسية الفرنسية لافتاً أيضاً، حيث أورد GIRY-DELOISON أسماء سبعة مبعوثين أجانب عملوا في خدمة البلاط الفرنسي، هم:

⁴¹⁰ GIRY-DELOISON, op.cit, p.217.

المبعوث	الإنتماء الجغرافي
François LE FORESTIER	اسكتلندا
Gabriel LE FORESTIER	اسكتلندا
Béraud STUART	اسكتلندا
Jean DE CARDONNE	إسبانيا
DE SALAZAR Tristan	إسبانيا
Pierre-Louis DE VALTAN	إسبانيا
Claude DE SEYSSEL	صافوى

وذكر الباحث أن السفراء الأسكتلنديين أقاموا بفرنسا سنوات عدة قبل استدعائهم للعمل الدبلوماسي، حيث كانوا يتقنون اللغة الفرنسية ومتعودون على العيش داخل المجتمع الفرنسي؛ كما تعرض الكاتب لأحد محددات انتقاء السفراء قلما انتبه إليه غيره من الباحثين، هو عامل القرب الجغرافي من المركز السياسي، حيث تحدث عن هيمنة ثلاث جهات فرنسية على % 67,57 من مجموع المبعوثين، كما أشار إلى وجود هوة بين الشمال والجنوب، حيث ينحدر 27 سفير من شمال منطقة اللوار وعشرة فقط من جنوبه⁴¹¹.

توزيع المبعوثين الدبلوماسيين الفرنسيين الموفدين
إلى إنجلترا بين 1485 - 1520 م حسب الانتماء الجهوي⁴¹²

عدد المبعوثين	الجهة	المناطق الخاضعة لها
12	Nord	Artois, Flandre, Picardie
7	Pays de Loire	Anjou, Orléanais, Poitou, Tourain
6	Normandie	—
4	Centre	Auvergne, Corrèze, Limousin
2	La Bourgogne	—
2	Paris et du Sud-Ouest	—
1	Sud-Est	—
1	l'Est	—

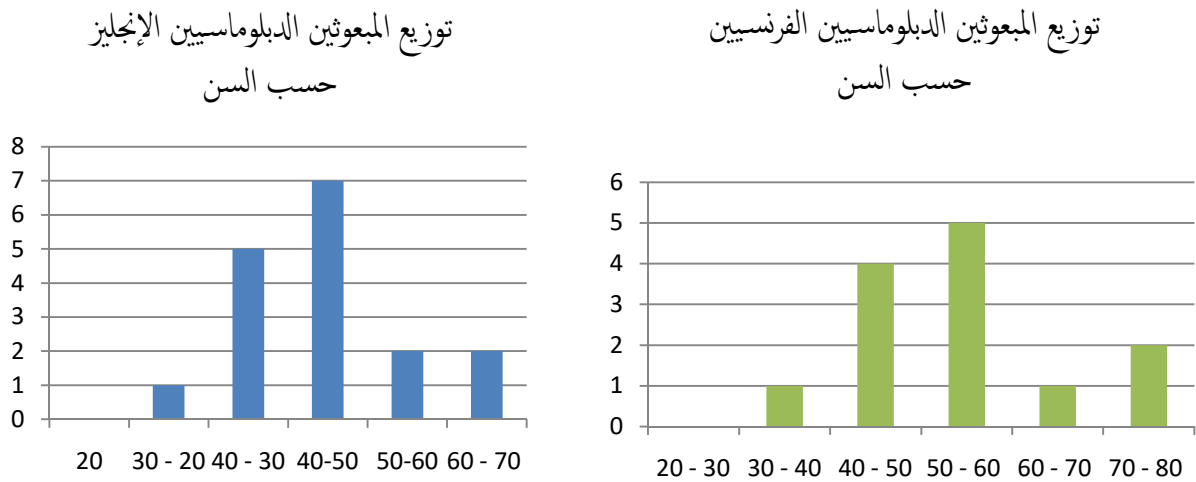
⁴¹²GIRY-DELOISON, op.cit,p. 217.

فسر الباحث المعطيات الواردة أعلاه بكون جزء كبير من الأشخاص الذين انتدبوا لمهام سفارية اشتغلوا بالإدارة المركزية، يعني أن القرب من المركز كان له دور أساسي في اختيارهم، كذلك الشأن بالنسبة لجهة اللوار التي كان الملك كثير الإقامة بها، ناهيك عن كونها مقر إقامة عدد كبير من الأمراء. أرجع الباحث أيضاً مسألة مركزية الشمال في عملية انتقاء المبعوثين الدبلوماسيين إلى عامل القرب من الجزر البريطانية، وكذلك إلى وجود أشخاص لديهم اطلاع كبير على مجريات الأحداث بإنجلترا والرغبة في خدمة ملكهم.⁴¹³

بخصوص أعمار السفراء عند أول اعتماد لهم في مهمة سفارية، أشار الباحث إلى ندرة المعطيات المتعلقة بها وعدم دقتها، وعلى رغم من ذلك تمكن من رصد أعمار ثمانية عشر فرداً من العينة الإنجليزية أي ما نسبته 33.33%، و ثلاثة عشر فرداً من العينة الفرنسية أي 23.64% من مجموع العينة موضوع البحث.

رسم بياني رقم : 10

رسم بياني رقم : 11



يتضح من خلال تحليل المعطيات الواردة في الرسمين البيانيين أعلاه أن متوسط أعمار المبعوثين الدبلوماسيين خلال هذه الفترة تراوح بين 40 و 60 سنة⁴¹⁴، وهو ما يفيد أن معيار السن كان محدداً أساسياً في عملية اختيار السفراء والرسول سواء في فرنسا أو إنجلترا، باعتبار أنه، حسب الاعتقاد السائد خلال هذه الفترة، مرادف للحكمة والنضج والتبصر والتجربة وحسن التصرف، فكان اختيار الملوك

⁴¹³ GIRY-DELOISON, op.cit,p. 218.

⁴¹⁴ Ibid, p.219.

والأمراء للسفراء يستند بشكل كبير إلى هذا التصور، في حين كان صغر السن مرادفاً للتهور وقلّة التجربة وخفة العقل.

سلط الباحث أيضاً الضوء على صنفين من المبعوثين، الصنف الأول يضم المبعوثين ذوا الخلفية الدينية، ويضم الثاني المبعوثين ذوي الخلفية المدنية، ففي إنجلترا كان 15 سفيراً من بين العينة المدروسة رجال دين أي 27,78%، الأمر الذي يوحي بالمكانة المهمة التي كان يتمتع بها هؤلاء داخل البلاط الإنجليزي،⁴¹⁵ فعلى سبيل المثال كان من بين 127 مستشاراً عينهم الملك الإنجليزي هنري السابع خلال مدة توليه العرش 61 رجل دين، من ضمنهم ثمانية في دائرة المستشارين الأربع والعشرون المقربون من الملك، ثلاثة منهم استسفرهم الملك لفرنسا، في مقدمتهم توماس روتال Thomas RUTHALL الذي قام بخمس مهمات سفارية بين 1497 و 1514 م.⁴¹⁶

وفي السياق ذاته حدد الباحث الفرنسي أسماء أحد عشر رجل دين إنجليزي أوفدوا في مهمات دبلوماسية مع ذكر درجاتهم العلمية وتخصصاتهم.

الدرجات العلمية لبعض المبعوثين الدبلوماسيين الإنجليز

جدول رقم : 09

أسماء المبعوثين	الدرجة العلمية والتخصص
Fox, Middleton, Ruthall, Young	دكتوراه في القوانين الكنسية
Aynesworth, West	دكتوراه في القوانين المدنية
Sante, Sellyng	دكتوراه في علم اللاهوت
Gunthorpe, King, Urswick	إجازة في القانون

ساهم التكوين القانوني الرفيع للسفراء الواردة أسماؤهم في الجدول أعلاه في تعزيز ترشيحهم لاختيارهم على رأس أو ضمن البعثات الدبلوماسية، وقد أشار الباحث إلى أن عدداً كبيراً منهم كانوا يتقلدون مناصب عليا داخل الهرم الوظيفي الكنسي، منهم أربعة أساقفة هم Fox, King, Ruthall, West

⁴¹⁵ GIRY-DELOISON, op.cit., p. 220.

⁴¹⁶ Ibidem.

ومقدمي أديرة هما Docwra, Kendall⁴¹⁷، مع التذكير أنه لم تكن بإنجلترا خلال هذه الفترة سوى - مطرانيتان Archevêchés وخمسة عشر أسقفية Evêchés⁴¹⁸.

لم تتجاوز نسبة رجال الدين المعتمدين لشغل مهام دبلوماسية في فرنسا 16,36%، أي تسعة مبعوثين فرنسيين⁴¹⁹، من بينهم مطران⁴²⁰ وثلاثة أساقفة⁴²¹ ومقدم دير،⁴²² شاركوا في تسعة سفارات أي 15,52% من مجموع البعثات،⁴²³ وهي نسب ضعيفة مقارنة مع إنجلترا، وهو ما أرجعه الباحث إلى ضعف التكوين القانوني لرجال الدين الفرنسيين مقارنة مع نظرائهم الإنجليز، حيث كان ضمن العينة الفرنسية شخصان فقط حاصلين على درجة الدكتوراه في القانون وشخصين آخرين حاصلين على الإجازة في التخصص ذاته، وبالتالي فإن اختيارهم للقيام بمهام دبلوماسية استند بالأساس إلى تجربتهم الوظيفية داخل الإدارة من خلال تقلدهم لمجموعة من المناصب العليا وكذلك للمكانة والمرتبة التي كانوا يحظون بها داخل التراتبية الكنسية الكاثوليكية.

الدرجات العلمية لبعض المبعوثين الدبلوماسيين الفرنسيين

جدول رقم 10:

الدرجة العلمية والتخصص	أسماء المبعوثين
دكتوراه في القانون	R. GAGUIN, et C. DE SEYSSE
إجازة في القانون	E. DE PONCHER et G. de SANDOUVILLE

كان العمل الدبلوماسي بالنسبة لكل أفراد العينة موضوع البحث عملاً ظرفياً ومؤقتاً، حيث كانت لهم وظائفهم الأصلية في الإدارة والبلاط والقضاء والجيش والبرلمان، باستثناء ثلاثة أفراد لم يتوصل الباحث إلى تحديد انتمائهم الوظيفي؛ وفي هذا الصدد أورد الباحث معطيات وظيفية بشأن عدد من أفراد البعثات الفرنسية الموفدة إلى إنجلترا، عشرة أفراد منهم شغلوا مناصب في البلاط، وسبعة آخرون شغلوا مناصب قيادية داخل الجيش، من بينهم قائد برتبة مارشال هو فيليب دو كريفكور Philippe DE

⁴¹⁷ Prieurs de l'Ordre de Saint-Jean de Jérusalem.

⁴¹⁸ GIRY-DELOISON, op.cit, p. 221.

⁴¹⁹ Ibid, pp. 229-230.

⁴²⁰ Tristan DE SALAZAR, archevêque.

⁴²¹ Etienne DE PONCHER, Guillaume MARAFIN et Pierre-Louis DE VALTAN.

⁴²² Robert GAGUIN, général de l'Ordre de la Sainte Trinité.

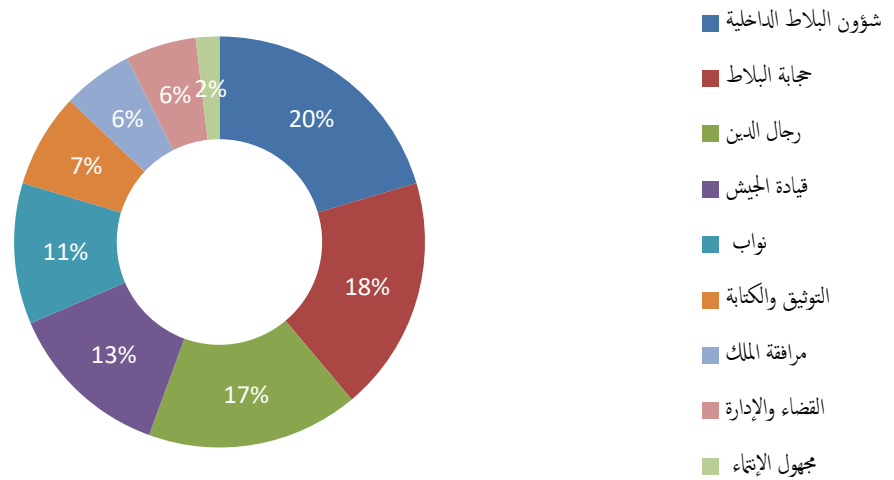
⁴²³ GIRY-DELOISON, op.cit, p. 222.

CRÈVECOEUR وقائد برتبة أميرال هو غيوم كوفيه Guillaume GOUFFIER،⁴²⁴ بالإضافة إلى جون دو طاييران Jean DE TALLEYRAN الذي شغل منصب حاكم مدينة La Réole (Gironde)،⁴²⁵ كما شغل أربعة أفراد مهام ترتبط بالتوثيق والكتابة،⁴²⁶ وثلاثة آخرون وظائف مرتبطة بالقضاء والإدارة⁴²⁷ وستة نواب برلمانيين،⁴²⁸ في حين عُد الثلاثة المتبقين ضمن حاشية "مرافقي" الملك.⁴²⁹

وأورد الباحث أيضاً معطيات تتعلق بـ 11 شخصاً ينتمون إلى لإدارة المكلفة بالشؤون الداخلية للبلاط La Maison du Roi تمثل 20 % من مجموع المبعوثين، وهي إدارة تهتم بأمن البلاط الملكي وتمويله وبرحلات الملك والأمراء وتنقلاتهم.⁴³⁰

رسم بياني رقم : 12

الانتماء الوظيفي لأفراد البعثات الفرنسية الموفدة إلى إنجلترا



⁴²⁴ GIRY-DELOISON, op.cit, p.224.

⁴²⁵ كانت الاستعانة تتم بالعسكريين في التمثيل الدبلوماسي خلال فترات الحرب بين فرنسا وإنجلترا. هؤلاء المبعوثين السبعة قاموا بثنائي عشرة مهمة دبلوماسية أي 20,69%، تسعة من المهمات الاثنني عشرة تمت بين 1489 و 1492م.

Ibid, p.225.

⁴²⁶ Thomas BOHIER, Jean CHARPENTIER, Jean GOBELIN et Nicolas DE NEUFVILLE.

⁴²⁷ Denis POILLOT conseiller au Grand Conseil, Nicolas DE MARIE, avocat du Roi à Boulogne, Jean DU VERGIER, président de la Cour des aides et finances de Normandie.

⁴²⁸ شاركوا في ثمانية بعثات فقط أي 13,79%.

Ibid, p. 229.

⁴²⁹ Jean D'AUFFAY, Olivier DE LA VERNADE et Guillaume DE SANDOUVILLE ; Ibid, p. 227.

⁴³⁰ GIRY-DELOISON, op.cit, p. 228.

ونستخلص من قراءتنا للتقسيم الوظيفي للمبعوثين الدبلوماسيين الفرنسيين أن عامل القرب الوظيفي من الملك كان محدداً أساسياً لترجيح كفة مرشح من دون غيره، وهو ما يفسر العدد الكبير للمبعوثين الدبلوماسيين العاملين في البلاط والإدارة، إلى جانب ذلك كان للتكوين القانوني أيضاً دور كبير في تقوية حظوظ المرشحين، كما كان العمل العسكري والبرلماني قيمةً مضافة عززت حظوظ المرشحين للاعتماد في إحدى المهمات الدبلوماسية، في حين لم يكن عامل إتقان اللغة الإنجليزية بالنسبة للمبعوثين الفرنسيين محدد رئيسياً، بالنظر إلى أن اللغتين المعتمدتين في العمل الدبلوماسي إلى حدود هذه الفترة كانتا: اللاتينية والفرنسية⁴³¹.

لم يكن تنظيم الدولة في إنجلترا متطوراً كما كان الحال عليه في فرنسا، حيث لم يكن هنالك فصل بين المؤسسات والوظائف، وبالتالي لم تكن هنالك تراتبية وظيفية مشابهة للهرم الوظيفي الفرنسي، وفي هذا الصدد أورد الباحث معطيات قليلة بهذا الخصوص مقارنة مع النموذج الفرنسي، حيث أشار إلى أن نسبة الوظائف المدنية أو العسكرية بالنسبة لمجموع وظائف المبعوثين الدبلوماسيين الإنجليز هي 53,70% أي 29 شخص⁴³² شاركوا في 41 بعثة دبلوماسية، أي 71,93% من مجموع البعثات⁴³³، كما أورد معطيات بخصوص عشرة مبعوثين ينتسبون إلى البلاط الملكي الإنجليزي King's Household أي 18,52% شاركوا في خمس وعشرين بعثة أي 43,86%، ثلاثة منهم فرسان، وثلاثة آخرون مرافقون للفرسان، وحاجب واحد Chambellan كانوا يقيمون بشكل دائم في البلاط الملكي،⁴³⁴ بالإضافة إلى عشرة من رجال الدين لا يشغلون وظائف داخل البلاط عدا المهام الاستشارية، أي 18,52% شاركوا في 26,32% من البعثات السفارية،⁴³⁵ بالإضافة إلى أربعة أفراد مدنيين لم يشغلوا عند تعيينهم للقيام بمهام دبلوماسية أي وظائف حكومية مركزية أو محلية وشاركوا في 7,02% من مجموع المهام الدبلوماسية.⁴³⁶

⁴³¹ GIRY-DELOISON, op.cit., p. 230.

Ibid, p. 232.

⁴³³ Ibid, p. 231.

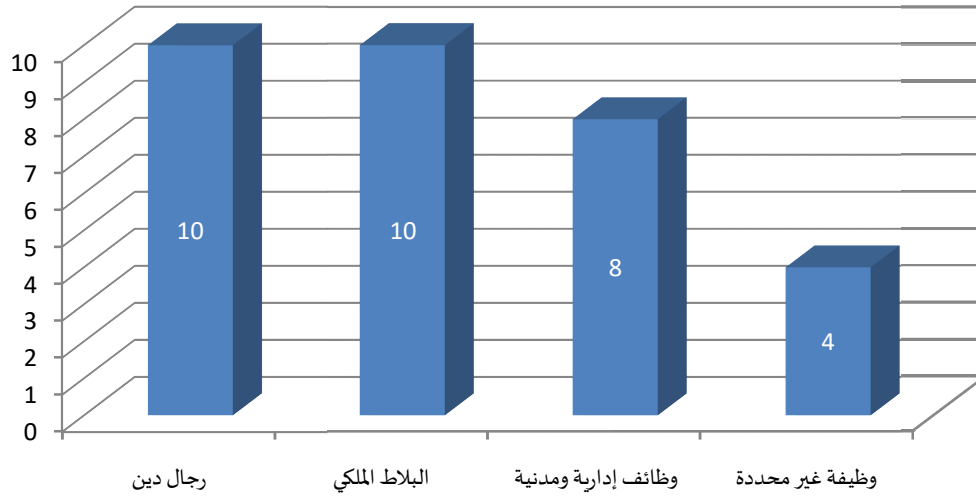
⁴³⁴ Ibid, p. 234.

⁴³⁵ Ibid, p. 236.

⁴³⁶ Ibid, p. 237.

⁴³² بينهم أعضاء في الحكومة وحكام « Gouverneurs » وضباط؛

الإتفاء الوظيفي لبعض أفراد البعثات الدبلوماسية الموفدة إلى فرنسا



يعكس هذا الرسم البياني عددا من الاختلافات الجوهرية بين العاملين في البعثات الدبلوماسية الفرنسية والإنجليزية أبرزها الحضور الضعيف للإدارة ضمن البعثات السفارة الإنجليزية وغياب نواب البرلمان عنها.⁴³⁷

نعود من جديد لطرح سؤال رافقنا طيلة البحث، وهو هل يمكن اعتبار العمل الدبلوماسي خلال هذه الفترة وانطلاقاً من المعطيات السالفة الذكر وظيفة أو مهنة قائمة الذات، شأنها في ذلك شأن بقية وظائف الدولة خلال الفترة الوسيطية ؟ الإجابة على هذا التساؤل تقودنا إلى طرح سؤال آخر مرتبط بتعريف الوظيفة، فهل العمل الدبلوماسي يتوفر على الشروط التي بموجبها يمكن تكييفه وظيفياً ؟

من أجل اعتبار العمل الدبلوماسي مهنة قائمة بذاتها يجب توفر مجموعة من الشروط، كأن تكون المهنة الرئيسة للمشتغل بها، والمصدر الرئيسي لمداخيله المالية، ناهيك عن وجود تنظيم وتراتبية وظيفية دبلوماسية، فهل توفرت هذه الشروط أواخر القرن الخامس عشر ؟

من خلال المعطيات التي اطلعنا عليها فإن أغلب الذين تم اختيارهم للعمل الدبلوماسي في وبورغون وفرنسا وإنجلترا، كانت لديهم مهن حرة أو كانوا يشتغلون في وظائف إدارية رفيعة أو لدى البلاط،

⁴³⁷ GIRY-DELOISON, op.cit, p. 231.

وهي الوظائف التي كانت محدداً رئيساً لاختيارهم لشغل مهام دبلوماسية⁴³⁸، كما لم يشكل العمل الدبلوماسي فرصة للتقدم الوظيفي لدى الأشخاص العاملين فيه، فأغلب ما كان يحصل عليه السفير هو الثناء والشكر وفي حالات عدة تعويض مالي عن المشاق التي تكبدها والمخاطر التي تجشمها للقيام بمهامه، كما لم يكن هذا العمل خلال الفترة الوسيطة المتأخرة المصدر الرئيسي والدائم لمداخيلهم المالية، لأن تقاضي التعويضات المالية كان مرتبطاً بالمهام الدبلوماسية وينقضي بانتهاء مهامها، لذلك لم تكن الاستفادة من مقابل مالي هو ما يغري الأشخاص للانخراط في هذا العمل، بقدر ما كان امتياز القرب من الملك أو الأمير وخدمته ونسج علاقات مباشرة مع أهل الحل والعقد هو الحافز وراء ترشحهم لشغل مهام دبلوماسية⁴³⁹.

وإلى جانب ذلك، الجدير بالذكر أن المهام الدبلوماسية لم تكن أداة حقيقية للتميز الاجتماعي⁴⁴⁰، حيث كان معظم السفراء يعرفون أنفسهم من خلال الوظائف التي كانوا يشغلونها في بلدانهم الأصلية، وبالتالي يمكن الجزم أنه خلال القرن الخامس عشر لم يكن للمسار المهني الدبلوماسي في غرب أوروبا وجود كما لم يكن للدبلوماسية جهاز مؤسسي داخل الدولة⁴⁴¹.

وبالاستناد إلى ما سبق ذكره، لم يكن بمقدور الدبلوماسية خلال هذه الفترة التحول إلى جهاز من أجهزة الدولة الكبرى، فلم يكن الدبلوماسيون يعتبرون موظفين لدى الملك أو لدى الدولة، لا على المستوى المالي أو القانوني، لقد كان عملهم مجرد مهمة ظرفية تنقضي آثارها بانقضائها، وهي الأمور التي لم تساعد الدبلوماسية لكي تتطور وظيفياً وتصبح جهازاً قائماً بذاته إلى جانب بقية مؤسسات الدولة.

من خلال مقارنة بين خصائص العمل الدبلوماسي في كل من إيطاليا وفرنسا وإنجلترا انطلاقاً من المعطيات التي اطلعنا عليها، انتهينا إلى وجود اختلافات جوهرية بين العمل الدبلوماسي الإيطالي ونظيره في

⁴³⁸ GIRY-DELOISON, op.cit, p. 240.

⁴³⁹ Ibid, p. 242.

⁴⁴⁰ ساد لفترات طويلة " خلال العصر الوسيط " الاعتقاد بأنه لا يمكن تمثيل الملك أو الأمير بشكل جيد إلا عن طريق الأشخاص المقربين الذين يحظون بثقته، أو من لدن أقربائه أو من قبل أشخاص ينتمون إلى طبقات عليا، وهو ما تؤكد المعطيات الرقمية المتعلقة بالسفراء الكارولينجيين " الدولة الكارولينجية XI-XII " Carolingienne. والجدير بالذكر أن ضرورة اختيار السفير من طبقة عليا أملت ضرورة توجيه شخص ذي مكانة ورفعة إلى الموفد إليه حتى لا ينظر إلى اختيار سفير من الفئات الدنيا أو المتوسطة انتقاصاً لقدرة أو إهانة لشخصه، وجرت العادة أن يصطحب السفير عدداً من المختصين الذين ينتهي أغلبهم لفئات متوسطة من أجل مساعدته على القيام بمهامه.

Jean-Marie MOEGLIN, La place des messagers et des ambassadeurs dans la diplomatie princière à la fin du Moyen Age, in Rev études de lettres, n°3, 2010, p. 6.

⁴⁴¹ GIRY-DELOISON, op.cit, p. 243.

فرنسا وإنجلترا، حيث يظهر بجلاء تأثير المصالح التجارية في منظومة العمل الدبلوماسية في كل من البندقية وفلورنسا حيث كانت تمنح الأفضلية للمرشحين ذوي الخبرة والكفاءة ممن يستطيعون حماية مصالحه التجارية، كما كان النظام السياسي لهذه المدن المعتمد على نظام المجالس الاستشارية والمجالس التنفيذية دور في تفضيل أصحاب الكفاءات على من سواهم من المقربين من الدوائر العليا للسلطة، وهو ما يفسر منح الأولوية في العمل الدبلوماسي الإيطالي للمرشحين التجار نظراً لاطلاعهم الواسع على المعطيات التجارية وخبرتهم الكبيرة في التواصل، وهو ما يمكن سحبه على مدينة مرسيليا التي على الرغم من وقوعها خارج نطاق شبه الجزيرة الإيطالية إلا أنها اعتمدت التوجهات الدبلوماسية نفسها. وفي المقابل، كان معيار القرب والولاء من دائرة السلطة محدداً رئيساً لتقلد المهام الدبلوماسية في دوقية بورغون وفرنسا وإنجلترا⁴⁴²، وهو أمر فرضته طبيعة الأنظمة السياسية الملكية التي عادة ما تولي اهتماماً كبيراً للولاء على حساب بقية الشروط والمعايير كالتمكن من فنون الخطابة واللغات والتكوين العلمي الرفيع، ناهيك على أن الغاية من الدبلوماسية في كل من فرنسا وإنجلترا تختلف اختلافاً كبيراً عن نظيرتها بشبه الجزيرة الإيطالية، فإذا كانت معظم الأغراض الدبلوماسية في كل من فرنسا وإنجلترا سياسية بالأساس، فإنها بالمقابل كانت في البندقية وفلورنسا تجارية.

بعد استعراضنا لأبرز المعايير المعتمدة لاختيار المرشحين لشغل مهام دبلوماسية في أوروبا الغربية خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط، وهو الزمن الذي حددناه لموضوع الأطروحتنا، فإننا سنتحول إلى دراسة معايير وشروط انتقاء المبعوثين الدبلوماسيين في الغرب الإسلامي خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط، حيث سنفرد حيزاً كبيراً للمقاربة الإحصائية التحليلية سعياً وراء الخروج بمعطيات ورغبةً في تسجيل خلاصات تمكنا من رسم أبرز معالم العمل الدبلوماسي المغربي.

⁴⁴² ذكر الباحث الإسباني ميغيل أنجيل أوشوا نفس الخلاصات التي توصل إليها الباحثان الفرنسيان بخصوص الفترة الوسيطة، مؤكداً على دور الرفعة الاجتماعية والوظيفية والقرب من الملك في الرفع من حظوظ المرشحين لشغل مهام دبلوماسية.

2 - معايير اختيار السفراء في الغرب الإسلامي

كما هو الشأن بالنسبة لمعايير انتقاء السفراء والرسل في الغرب الأوروبي، كان لسلطين وملوك وأمراء الدول المتعاقبة على حكم المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط معاييرهم وشروطهم الخاصة لانتقاء مبعوثيهم، منها ما يطابق معايير الغرب الأوروبي ومنها ما يخالفه، بالنظر إلى الخصوصيات السياسية والاجتماعية والثقافية للغرب الإسلامي، وهو ما سوف نستعرض فصوله خلال المحاور التالية التي خصصناها لدراسة المحددات الوظيفية والاجتماعية والثقافية لانتقاء السفراء والرسل المغربية خلال الفترة الوسيطة المتأخرة.

1.2 المحدد الاجتماعي والوظيفي

عرفت الفترات المتأخرة من العصر الوسيط تنامي الاهتمام بتأليف كتب الآداب السلطانية رغبة في توجيه وإرشاد السلاطين والملوك لحسن اختيار من يقوم بأعمال الوزارة والكتابة والحسبة والإدارة، وهي المؤلفات التي أفرد بعضها حيزاً للمعايير الواجب توفرها في المرشحين للعمل السفاري،⁴⁴³ أبرزها كتاب ابن حزم الأندلسي (384 - 456 هـ / 994 - 1064 م) "طوق الحمامة"⁴⁴⁴، ومصنف الحسين بن محمد القرطبي المعروف بابن الفراء (ق 4 هـ)⁴⁴⁵ "رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة"⁴⁴⁶، ومؤلفي ابن الحاج النميري (713 - 768 هـ / 1313 - 1367) "فيض العباب"⁴⁴⁷ وأبي العباس أحمد القلقشندي (756 - 821 هـ / 1355 - 1418 م) "صبح الأعشى" وهي المؤلفات التي تعرضت للعمل السفاري تارة بشكل عرضي كفيض العباب وطوق الحمامة، وتارة أخرى بشكل مباشر كصبح الأعشى و رسل الملوك. والجدير بالذكر، أن ابن الفراء قسم في كتابه رسل الملوك الصفات والمعايير الواجب توفرها في المبعوث الدبلوماسي إلى ثلاثة أقسام، يضم كل واحد منها يضم مجموعة من المعايير، القسم الأول يضم المعايير الاجتماعية والوظيفية، والقسم الثاني يضم المعايير العلمية، والقسم الثالث والأخير يضم المعايير الأخلاقية والخلقية، عكس من خلالها الآراء السائدة في عصره بخصوص معايير انتقاء السفراء والرسل،

⁴⁴³ انظر علي سبيل المثال كتاب أبي الحسن علي بن محمد الماوردي، الأحكام السلطانية، دار الفكر، بيروت، دت.

⁴⁴⁴ محمد علي بن أحمد ابن حزم، طوق الحمامة في الإلفة والألاف، ض.ن. طاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط 1، مصر، 1975.

⁴⁴⁵ ابن الفراء، م.س.

⁴⁴⁶ ذكر محقق كتاب "رسل الملوك" أن ابن الفراء عاش في القرن الرابع الهجري ورجح أنه أدرك أوائل الخامس.

⁴⁴⁷ النميري، م.س.

كما ضمن مؤلفه مجموعة من أقوال الفلاسفة والحكماء اليونانيين والهنود القدامى المتعلقة بهذا الموضوع.

ووضع ابن الفراء محدد الرفعة الاجتماعية على قمة هرم المعايير الواجب توفرها في المبعوثين الدبلوماسيين، فالانتماء إلى البيوتات الكبرى حسب قوله ضماناً لعلو الهمة⁴⁴⁸، والنسب الرفيع سبيل لنيل القبول والاحترام⁴⁴⁹، وأضاف، أن الرجل النبيل جُبِلَ على العمل والفعل الحسن لأن فعله مقبوس من أهله وراثياً⁴⁵⁰، وهي ضمانة أخرى لحسن التمثيل الدبلوماسي يقصر عن إدراكها المنحدرون من فئات متواضعة.

وتعد توجيهات ابن الفراء بخصوص معيار الرفعة الاجتماعية انعكاساً للآراء السائدة في عصره بخصوص ترابعية المعايير المعتمدة لاختيار السفراء والرسل الوسيطيين بما في ذلك المغرب والأندلس، حيث وقفنا على نماذج لسفراء ورسل مغاربة اعتمدوا لشغل مهام دبلوماسية بالاستناد إلى خلفيتهم الاجتماعية، كالقرب من السلطان أو الملك أو الانتماء لإحدى العائلات الكبرى القريبة من دوائر السلطة، وهو القرب الذي كان يعزز ثقة السلطان في سفيره ويضمن ولاءه المطلق، إلى جانب ذلك، كانت سعة اطلاع المنتمين إلى خلفية اجتماعية رفيعة على المراسيم الملوكية والأعراف البروتوكولية بحكم وسط عيشهم وتعودهم على مظاهر البذخ والترف عاملاً آخر يعزز حظوظ المرشحين المنتمين لهذه الفئات لشغل مهام دبلوماسية.

ونورد في هذا السياق أنموذج البعثة السفارية التي بعث بها بعض من ملوك الطوائف إلى يوسف ابن تاشفين من أجل طلب مساعدته في مواجهة التهديدات القشتالية سنة 474هـ / 1081م، وهي البعثة التي ضمت وزيراً ووالياً وثلاثة قضاة وكاتب⁴⁵¹، هم قاضي قرطبة أبي بكر عبيد الله وقاضي بطليوس أبي اسحاق بن ماقانا وقاضي غرناطة أبي جعفر القلبعي والوزير أبو بكر بن زيدون والكاتب أبو بكر بن القصيرة.

⁴⁴⁸ ابن الفراء، م.س.، ص 34.

⁴⁴⁹ نفسه، ص 35.

⁴⁵⁰ نفسه، صص 117-118.

⁴⁵¹ اختلفت الروايات بخصوص هذه السفارة، حيث تحدث عنها عبد الواحد المراكشي في المعجب وذكرها بن عذارى في البيان المغرب؛ عبد الهادي التازي، الوسيط، م.س.، م 1، ص 246.

إنه الأنموذج الذي يؤكد أن عوامل الرفعة الاجتماعية والدرجة الوظيفية والقرب من السلطة كانت محددات رئيسة لاختيار المبعوثين الدبلوماسيين، وهو الأمر الذي يمكن أن نعممه على الدول المتعاقبة على حكم المغرب خلال القرون الأربع الأخيرة من العصر الوسيط، حيث نجد أن أغلب السفراء الذين أوفدتهم هذه الدول كانوا إما أقارب للسلطان أو الملك أو الأمير، أو ينتمون إلى دوائر اجتماعية ووظيفية قريبة منهم، حيث رصدنا من المبعوثين الدبلوماسيين المغاربة وزراء وكتاباً وقضاة وفقهاء وكبار قادة الجيش، وهم المبعوثون الذين كانت تسعى هذه الدول لإظهار عظمتها ورقمها من خلالهم.

وكانت العبارات المعتمدة في الرسائل المتبادلة بين مختلف ملوك المغرب ونظرائهم المسلمين والمسيحيين لتوصيف الوفود الدبلوماسية والتوصية بها تعكس سعيهم لتوظيف الخلفية الاجتماعية الرفيعة لإنجاح أغراض السفارة، حيث تواتر في مجموعة من الرسائل اعتماد عبارة "وأوفدنا وفداً من وجوه أهل دولتنا" أو "أكابر أهل الأندلس" كما صادفنا عبارة "ووفد من خواص دولته" وهي العبارات التي قصد من خلالها السلاطين والملوك وكذلك المؤرخين والإخباريين الدلالة على رفعة أعضاء البعثات الدبلوماسية الموفدة ومكانتهم الخاصة في الدولة، الأمر الذي يؤكد أن العمل الدبلوماسي كان حكرًا على ذوي المكانة الاجتماعية الرفيعة، وهو معيار كان يتقاسمه المشرق مع المغرب، ونورد أيضاً في هذا السياق مقتطفاً من رسالة اعتماد الأمير شمس ابن منقذ سفيراً لصالح الدين الأيوبي لدى يعقوب المنصور الموحيدي جاء فيها:

".. وسُيِّلَ لحسن مجلسه الأضهر، وحله الأنور، الأمير المجاهد الأمين الأصيل شمس الدين، نفير الإسلام والمسلمين، سفير الملوك والسلاطين، أبو الحزم عبد الرحمن بن منقذ، كتب الله سلامته وأحسن صحابته، وما اختير للوفادة إلا من هو أهلها، ولا حمل للوديعة إلا من هو محلها، ولا بعث لنهم الصلة غلا من هو مفتاحها، ولأداء الأمانة من هو قفلها، ومهما استوضح منه وسئل عنه فإنه على نفسه بصيرق ومن البيان ذو ذخيرة وفي العربية ذو بيت وعشيرة، والمشاهدة له أوصف على أن تلك الجلالة ربما ذعرت البيان فأخلف، وما أجدره بأن يصادف بسطة على بساطه، ونهراً يأذن له في القول على اختصاره وتوصله وإفراجه، فكل هو به واف، وكل هو للفهم الكريم منه كاف، والله تعالى يجعل هذه العزمة منا في استنهاض العزمة منه بالغة ما بلغت يسر أهل دينه، ويوزعهم بها اقتضاء ديونه، من الذين اتخذوا إلهاً دونه .."⁴⁵²

⁴⁵² أحمد عزوي، م. س.، ج 1، صص 186 - 190.

كما نورد مقتطفاً من رسالة سلطان غرناطة يوسف الأول إلى السلطان المريني أبي عنان فارس ينوه فيها بالمكانة الاجتماعية الرفيعة للوفد الأندلسي حيث قال :

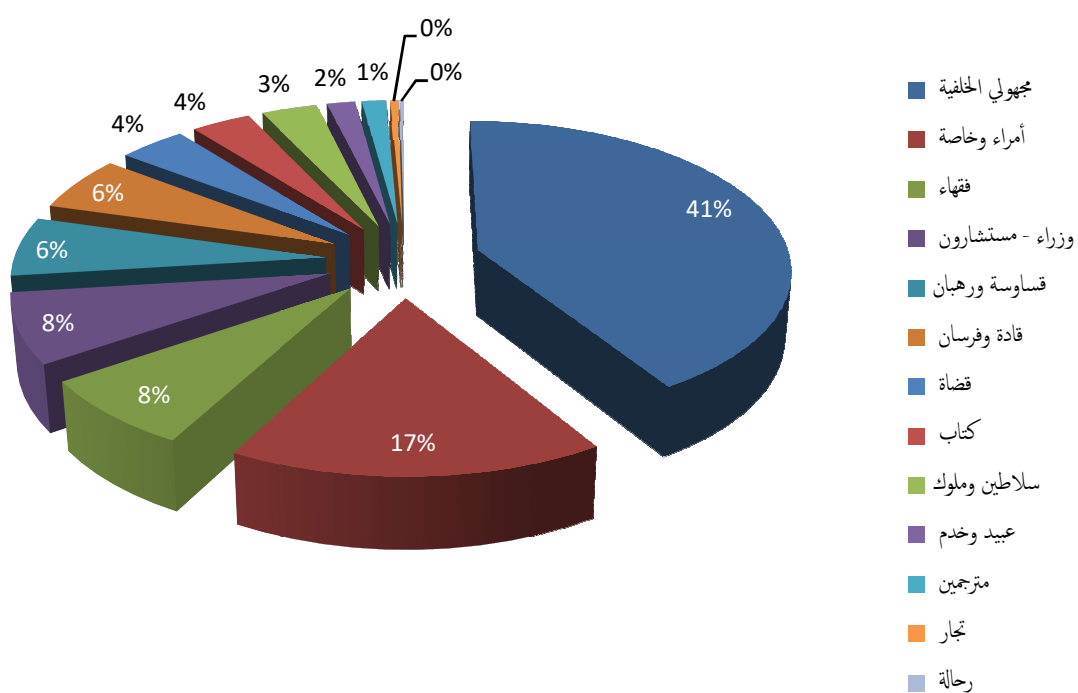
".. وأننا وجهنا كتابنا ليخُصّب في هذا المناء، بمبلغ الجهد ووسع الفناء، ولخترنا للوفادة به من ينوب عنا في هذا الغرض، ويقوم للوقت بواجب المفترض، وهم صدور إيلتنا، ودرر لباب عمالتنا، فلان وفلان وصل الله إعرانهم وكرامتهم ويمنّ لهمهم وإقامتهم، وأوفدناهم على بابكم المقصود، وشرعة ملككم المرحمة بالوفود، وهم يلقون إلى وداكم في تقرير وداونا، والتنبيه على مقدار اعتداونا، ما نعلم أن قواعده لكم غير مفتقرة للتقرير، بما عندكم من إشراف البصيرة وشفوف الضمين⁴⁵³."

وقد جرى العرف خلال الفترة الوسيطية المتأخرة أن تتضمن الرسائل الدبلوماسية فقرة يُعرف من خلالها السلطان أو الملك بمبعوثه ويبرز مكانته الاجتماعية ومدى قربه من موفده، كما يستوصي به خيراً، وفي هذا الصدد نشير إلى أننا وقفنا من خلال تجميعنا لعدد من المعطيات المتعلقة بالمحددات الاجتماعية والوظيفية لـ 270 سفارة أوفدت إلى المغرب ووفدت عليه خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط على دور هذا المحدد المحوري في اختيار السفراء، وهو ما ضمناه في الجداول الأربعة والرسوم البيانية الأربعة لتالية.

⁴⁵³ ابن الخطيب، كناسة الدكان، م.س.، ص 73.

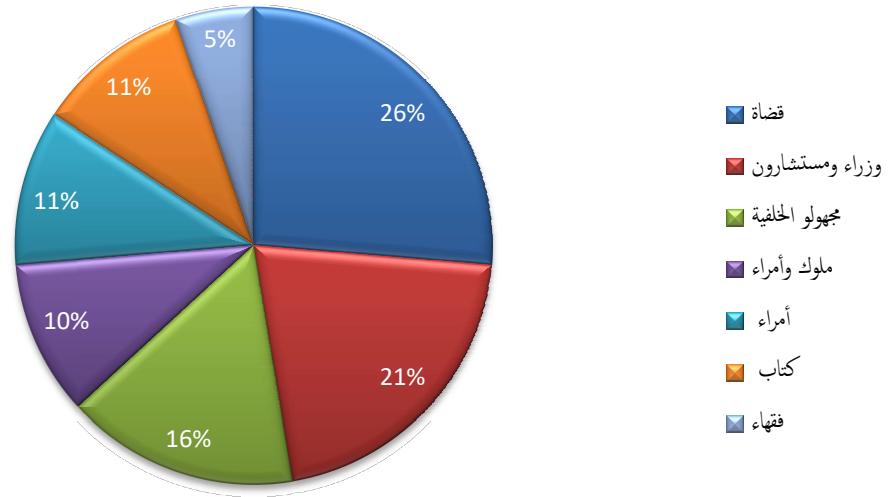
توزيع المبعوثين الدبلوماسيين الوافدين والموفدين على المغرب
حسب الخلفية الوظيفية فيما بين 474 - 869 هـ / 1081 - 1492 م

رسم بياني رقم : 14



توزيع المبعوثين الدبلوماسيين خلال الفترة المرباطية
حسب الوظيفة ما بين 474- 537 هـ / 1081 – 1143م⁴⁵⁴

رسم بياني رقم : 15



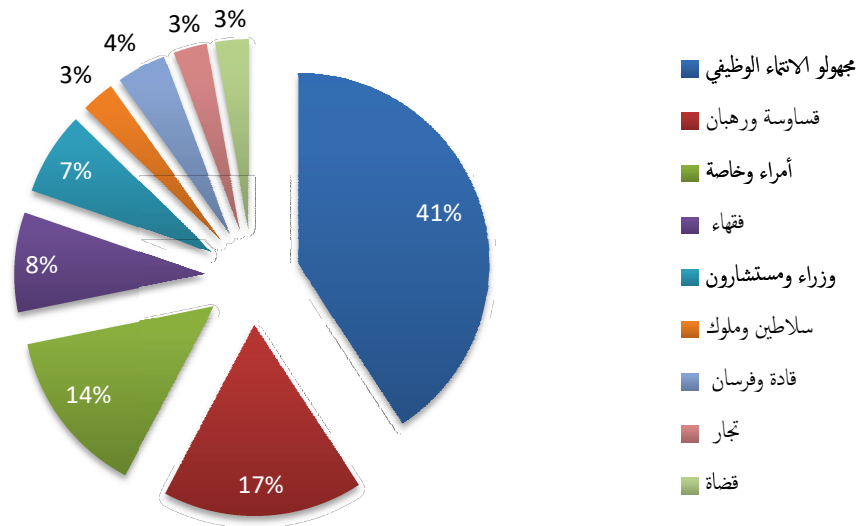
جدول رقم : 11

عدد	المهنة
5	قضاة
4	وزراء ومستشارون
3	مجهولو الهوية
2	سلاطين وملوك
2	كتاب
2	أمراء وخاصة
1	فقهاء
19	المجموع

⁴⁵⁴ تشمل الفترة الزمنية موضوع البحث تاريخ إيفاد أو استقبال أول وآخر سفارة.

رسم بياني رقم : 16

توزيع المبعوثين الدبلوماسيين خلال الفترة الموحدة
حسب الخلفية الوظيفية ما بين 545 - 648 هـ / 1151 - 1251 م⁴⁵⁵



جدول رقم : 12

المهنة	العدد
مجهولو الانتماء	29
قساوسة ورهبان	12
أمراء وخاصة ⁴⁵⁶	10
فقهاء	6
وزراء ومستشارون	5
قضاة	3
قادة وفرسان	3
سلاطين وملوك	2
تجار ⁴⁵⁷	2
المجموع	72

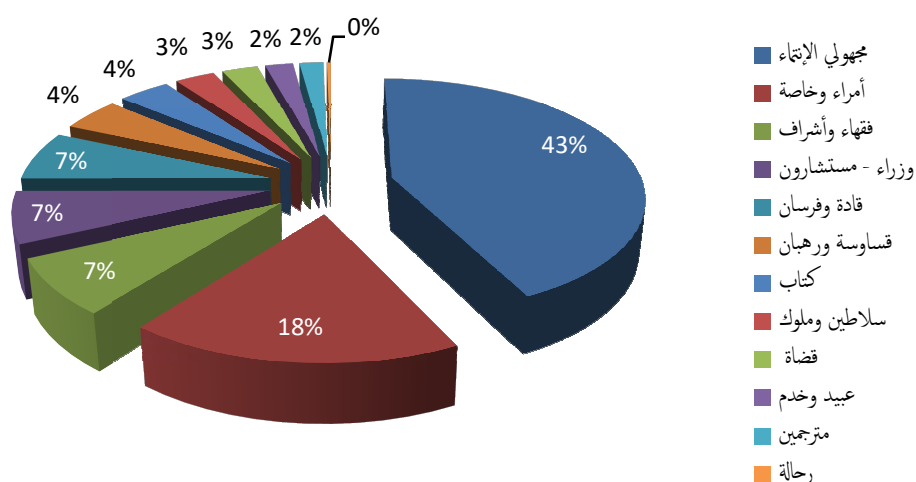
⁴⁵⁵ تشمل الفترة الزمنية موضوع البحث تاريخ إيفاد أو استقبال أول وآخر سفارة.

⁴⁵⁶ ضمهم خمسة نساء.

⁴⁵⁷ ضمهم قنصل واحد.

رسم بياني رقم : 17

توزيع المبعوثين الدبلوماسيين خلال الفترة المرينية
حسب الخلفية الوظيفية 658-897 هـ / 1260 - 1492 م⁴⁵⁸



جدول رقم : 13

المهنة	العدد
مجهولو الانتماء	142
أمراء وخاصة ⁴⁵⁹	59
فقهاء وأشراف	25
وزراء ومستشارون ⁴⁶⁰	23
قادة وفرسان	22
قساوسة ورهبان ⁴⁶¹	15
كتاب	13
سلاطين وملوك	10
قضاة	9
مترجمون	6
عبيد وخدم	7
رحالة	1
المجموع	332

⁴⁵⁸ تشمل الفترة الزمنية موضوع البحث تاريخ إيفاد أو استقبال أول وآخر سفارة.

⁴⁵⁹ ضمهم ثلاث أميرات اثنتان حفصيتان وواحدة مرينية .

⁴⁶⁰ ضمهم حجاب ومزوار.

⁴⁶¹ ضمهم بطارقة وشمامسة.

مجموع المعطيات الإحصائية المتعلقة بالسفارات الوافدة على المغرب والموفدة منه
خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط بين 474 - 897 هـ / 1081 - 1492 م

المجموع العام :

- مجموع المبعوثين الدبلوماسيين الوافدين والموفدين: 433 منهم ثمانية نساء.
- مجموع أغراض البعثات السفارية : 305.
- مجموع البعثات السفارية : 270.

الدولة المرابطية :

- مجموع عدد السفارات: 12.
- مجموع أغراض السفارات: 14.
- مجموع المبعوثين الدبلوماسيين : 19، منهم 16 مسلم والبقية مجهولوا لإنتماء الديني.

الدولة الموحدية :

- مجموع عدد السفارات: 45.
- مجموع أغراض السفارات: 49.
- مجموع المبعوثين الدبلوماسيين: 72.

الدولة المرينية :

- مجموع عدد السفارات : 213.
- مجموع أغراض السفارات : 242.
- مجموع المبعوثين الدبلوماسيين : 332.

استقينا المعطيات الإحصائية الواردة في الجداول والرسوم البيانية أعلاه من خلال دراسة عينة تتكون من 433 مبعوث دبلوماسي شاركوا في 286 بعثة وفدت أو أوفدت من الدول المتعاقبة على حكم المغرب ما بين 474 – 897 هـ / 1081 م و 1492 م.

ومن خلال تحليلنا للمعطيات المتعلقة بالخلفية الوظيفية لمجموع المبعوثين الدبلوماسيين استوقفتنا النسب المرتفعة للأشخاص القريبين من دوائر السلطة، فإلى جانب الأمراء وأقرباء السلاطين والملوك، شكل الأشخاص ذوو الخلفية الوظيفية الرفيعة كالحجابه والوزارة والاستشارة والكتابة وقيادة الجيش ومرافقي الملوك أغلب من اعتمدوا لشغل مهام دبلوماسية، حيث تجاوزت نسبتهم خلال الفترة المرابطية 55 % و 31% خلال الفترة الموحدية، كما ارتفعت نسبتهم إلى 46 % خلال الفترة المرينية، في حين كان متوسط النسبة العامة هو 38 %، وهي نسب مرتفعة جداً إذا أخذنا بعين الاعتبار أن متوسط نسبة مجهولي الانتماء هو 41 %، غير أنها تظل متوافقة مع خلاصات الباحثين الفرنسيين التي استعرضنا تفاصيلها في المبحث السابق، وكذلك مع ما ذهب إليه جمهور الفقهاء والمؤرخين المغاربة والأندلسيين بخصوص اعتماد معيار الرفعة الاجتماعية والوظيفية عند اختيار المرشحين للسفارة.

ونود الإشارة في هذا الصدد، إلى أن المعطيات المتعلقة بالخلفية الوظيفية لمجموع المبعوثين تشير إلى أن معظمهم تلقوا تكويناً جيداً وكان بعضهم ممن لديه سعة معرفية ومهارات تواصلية وخطابية أسهمت بشكل كبير في إنجاح عدد من المهمات الدبلوماسية التي اضطلعوا بها.

2.2 المحدد المعرفي والعلمي

إلى جانب المحدد الاجتماعي والوظيفي، كان المستوى المعرفي والعلمي للمرشح للسفارة محدداً يستند عليه في ترجيح كفة المرشح لشغل مهام دبلوماسية، وفي هذا الصدد، اشترط ابن الفراء في المرشح لشغل مهام سفارية سعة العلم والاطلاع، والسعة هنا لا تعني بالضرورة التدقيق في كل علم وإنما أن يكون

للمبعوث ثقافة عامة خاصة في العلوم الشرعية والسير واللغة والحساب وأصول الخراج⁴⁶²، تمكنه من حسن تمثيل موفده إذ دعي للمناظرة أثناء سفارته.⁴⁶³

واشترط ابن الفراء أيضاً في المرشح للسفارة التمكن من أدوات الخطابة والوعي بالسياق السياسي والاجتماعي والثقافي للبلد الموفد إليه وهو ما عبر عنه بمعرفة طبائع ولغة أهل البلد، وقد نقل ابن الفراء عن بعض حكماء الهند قولهم :

" إذا أرسلت رسولاً إلى الملك، فليكن فصيحاً بلغتك ولغته، فإن لم تجد من توثره في لغته فليكن فصيحاً في لغتك، ذا بيان وعارضة لسان قد سلم من عنجهية الصبي، وأحكمته التجارب، وحلب الدهر أشطره".⁴⁶⁴

وارتباطاً بالموضوع ذاته، تحدث القلقشندي في معرض حديثه عن شروط اختيار السفراء والرسول عن وجوب تمكن المرشح للسفارة من مخارج الكلام، وفنون البيان وأن يؤدي الألفاظ عن الملك بمعانيها دون زيادة أو نقصان⁴⁶⁵. ونستحضر هنا ما روي عن الرسول ﷺ في هذا الموضوع، فقد ذكر ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق قوله :

" أنه قال حدثني يزيد بن أبي حبيب المصري : أنه وجد كتاباً فيه ذكر من بعث رسول الله ﷺ إلى البلدان وملوك العرب والعجم، وما قال لأصحابه حين بعثهم، قال : فبعثت به إلى محمد بن شهاب الزهري فعرفه ؛ وفيه : أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه فقال لهم : إن الله بعثني رحمة وكافة، فأدوا عني يرحمكم الله، ولا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم؛ قالوا : وكيف يا رسول الله كان اختلافهم ؟ قال : دعاهم لمثل ما دعوتكم له، فأما من قرب به فأحب وسلم؛ وأما من بعد به فكره وأبى، فشكا ذلك عيسى منهم إلى الله، فأصبحوا وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين وجه إليهم".⁴⁶⁶

وبالإضافة إلى التمكن من اللغة والخطابة وأساليها يرى ابن الفراء أنه يجب قرن هذه الملكة بالقدرة على تطويع الكلام، والابتدار والقدرة على قلب الحقائق ونقض الخصم وإلباس الحق بالباطل

⁴⁶² ابن الفراء، م.س. ص 117.

⁴⁶³ نفسه، صص 116 - 117.

⁴⁶⁴ ابن الفراء، م.س.، ص 57.

⁴⁶⁵ القلقشندي، م.س.، ج 1، ص 116.

⁴⁶⁶ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1990، ج 4، ص 254.

والاحتياط في المحاورة إزاء الموفد إليهم، لأن ذلك حسب رأيه أقوم إلى الوصول إلى المطلوب وبلوغ المراد والهدف.⁴⁶⁷ وأضاف أنه ينبغي على المبعوث أن يكون فصيحاً طلق اللسان حتى يبلغ رسالته ويؤثر في سامعيه⁴⁶⁸، كما يجب أن يكون يقظاً فاهماً للإيماء مدرّكاً لحجج الموفد إليه قبل أن ينطق بها، وذلك من دون تكلف أو خطأ⁴⁶⁹.

والأصل في هذه التوجيهات التي قدمها ابن الفراء أنه من بين مهام السفراء والرسول التفاوض مع الموفدين إليهم والدفاع عن مصالح موفدهم وهو أمر يقتضي التحلي بالصفات السالفة الذكر. وفي هذا الصدد نورد مقتطفاً من رسالة والي اشبيلية إلى الخليفة الموحي أثنى خلالها على أحد السفراء عبر ذكر مجموعة من الصفات التي يتحلّى بها :

".. وقد تلقى العبد كتابها الكريم بواجبه من التعظيم والإجلال والسمع والطاعة والامتثال والاجتهاد في شكره والاحتفال، واللّه تعالى يعينه على تمشية أغراضها الكريمة على التمام والكمال، وتضمن، الكتاب الكريم أن يتفاوض العبد في تعيين من ينفذ إلى الجهات المذكورة مع الشيخ أبي عبد الله بن عبد الرحمن - أكرمه الله لما جرب من اجتهاده وسداد ارتياده، والله يشكر الحضرة الإمامية ويحل أسباب حرامتها، ويحفظ عليّ نصرها ونور..... فإن الذي عند المذكور في حق الأمر العالي - أدامه الله - من الجد والنصيحة، والخدمة الخالصة الصحيحة، وما يرجع إليه في ذاته من محمود الشيمة والخلقة، ومشكور السيرة والصرقة، والأعمال المستقيمة على الحقيقة، وسداد الروية في ما يقصده ويتحيه، وصدق النية فيما ينخر فيه، يقتضي الإغتياله بمذاكرته، ويستدعي الشاكر لمفاوضته، وما زال العبد لهذه الصفات التي ظهرت له من المذكور يفارقه، في الكليات والجزئيات من الأمور وبهذه الإشارة الإمامية الكريمة الواردة الآن بزاد العبد بمفاوضته اغتياله، وبحبل موافقته على المصالح ارتياله، والله يجازي الحضرة الإمامية على ما يؤثّر لنصاح خدامها وخلصان عبدانها من نبيه اللحن والرعاية، وكرم الالتفات وشرف العناية، .."⁴⁷⁰

⁴⁶⁷ ابن الفراء، م.س، ص 40.

⁴⁶⁸ نفسه، صص 114-115.

⁴⁶⁹ نفسه، ص 115.

⁴⁷⁰ أحمد عزوي، م.س، ج 1، ص 293.

والجدير بالذكر أن عددا من مبعوثي الغرب الإسلامي عرفوا بنبوغهم الفكري وثقافتهم الموسوعية وضبطهم لأساليب الخطابة والتواصل كجعفر ابن الزيات الذي خصه لسان الدين ابن الخطيب بالترجمة في مؤلفه "أوصاف الناس في التواريخ والصلات"، حيث قال في معرض الإشادة بمعارفه وعلمه :

" ودعي للسفارة في صلاح المؤمنين فأجاب، وسعى في إخماد الفتنة فأنجلى ليلها وانجاب... وفجر الله ينابيع البلاغة على لسانه، وجعل الفصاحة طوع لسانه، فدون بالنظم في شتى الفنون، وجلي المعارف محفوفة المطارف للعيون ..".

وأضاف ابن الخطيب أن ابن الزيات :

" كان يقعد بمسجدها الجامع (ببليش - الأندلس) فيدرس ويحلق، ويهذب ويخلق، ... ويتكلم في التفسير بغير يسير، ويلمح من التعليل لا بالقليل، ويشير إلى فريقه برموز طريفة"⁴⁷¹

وهي إشارة إلى أنه امتحن التدريس، كما أشار إل أن ابن الزيات استدعي للسفارة ولم يقترح نفسه لشغل هذه المهمة، التي كانت عبارة عن وساطة لإخماد الفتنة بين المؤمنين، فهل كانت هذه إحدى سفارات بني الأحمر للمرينيين؟ يظل السؤال معلقاً بالنظر إلى أن ابن الخطيب لم يزودنا بمعلومات تتعلق بالمهمة السفارية التي انتدب لها جعفر ابن الزيات⁴⁷².

وفي السياق ذاته، نورد أنموذج ذي الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب الذي عُرف عنه سفيراً تمكنه من أدوات الخطابة وأساليبها. وتحفظ لنا كتب عدد من الإخباريين والمؤرخين واقعة استدسفار ابن الخطيب إلى السلطان أبي عنان المريني من قبل السلطان النصري أبي عبد الله محمد الغني بالله سنة 755هـ/ 1354م على رأس وفد أندلسي للاستغاثة بالمرينيين، حيث برع ابن الخطيب في مخاطبة أبي عنان مستهلاً لقاءه به بقصيدة مطلعها :

خليفة الله ساعد القدر علاك ما لآج في الدُّجى قمرُ
ودافعت عنك كف قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشُ

⁴⁷¹ لسان الدين بن الخطيب، أوصاف الناس في التواريخ والصلات، تلمها الزواجر والعظات، تحقيق محمد كمال شبانة، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب. دت، صص 21-22.

⁴⁷² نفس المصدر والصفحة.

فما كان من السلطان المريني إلا أن أجاب طلبه قبل أن يُسلم عليه⁴⁷³.

وتحدثت عدة مصادر عن قاضي الجماعة يحيى الحسيني الذي اشتهر بالبلاغة والفصاحة والذي انتدبه السلطان أبو عنان للإشراف على اتفاقية الصلح مع مملكة أراغون سنة 758 هـ 1357 م⁴⁷⁴.

ونظراً لصعوبة اجتماع الصفات السالفة الذكر في شخص واحد، جرى العرف أن لا يرسل السفير فرداً وإنما يصحبه وفد يتكون من عدد من الأشخاص متعددي المهارات والمدارك، وذلك حتى إذا نقص شرط من الشروط في أحدهم يكون متوفراً في الآخر. وفي هذا الصدد دعا ابن الفراء إلى وجوب اشتمال الوفد السفاري على ثلاثة أفراد، الأول يكون من أصحاب السيف والثاني من أهل الشريعة والثالث من الكتاب حتى يحفظ قوانين السياسة ورسوم المكاتبات وآداب المخاطبات⁴⁷⁵.

ويمكن تسجيل استحضار معظم حكام الدول المتعاقبة على حكم المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط للمعايير السالفة الذكر عند اختيارهم المرشح للمهمة الدبلوماسية، خاصة معياري اللغة والخطابة، فكان معظم السفراء والرسل الذين أوفدوا خلال هذه الفترة وزراء وكتاباً وفقهاء وشيوخاً للزوايا وقادة للجيش، وقلة من التجار المقربين من السلطة الحاكمة⁴⁷⁶، كما كان حضور عناصر من الأقليات الدينية كالمسيحيين واليهود لافتاً خاصة بالنسبة للسفارات الموفدة إلى أوروبا التي تتطلب تمكناً من اللغات الأجنبية، وهو الأمر الذي لم يكن يتقنه عدد كبير من المبعوثين ويضطرهم غالباً للاستعانة بأفراد ينتمون إلى الأقليات الدينية لتقوم بمهام الترجمة، وفي بعض الأحيان حمل الرسائل دون التفاوض بشأنها، لأن هذا الأمر يبقى من اختصاص المبعوثين المسلمين. وعلى الرغم مما ورد الحديث بشأنه بخصوص معايير العلمية لانتقاء المرشحين للعمل السفاري، إلا أن كتب التاريخ تورد العديد من وقائع إفاد سفراء ورسل غير ملمين بلغات البلدان الموفدين إليها وجاهلين بآليات التفاوض وغيرها من أدوات العمل الدبلوماسي⁴⁷⁷.

⁴⁷³ على الماحي، المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1986، ص 120.

⁴⁷⁴ نفسه، صص 125-126؛ انظر أيضاً النميري، فيض العباب، م.س.، ص 100.

⁴⁷⁵ ابن الفراء، م.س.، صص 117-118.

⁴⁷⁶ علي المحمدي، م.س.، ص 285.

⁴⁷⁷ الأصل عند اختيار السفراء مراعاة تمكن السفير من لغة القوم المرسل إليهم، وهو الأمر الذي يتجاوز في بعض الأحيان بالنظر إلى عدد من الاعتبارات التي سوف نعرض على ذكرها خلال هذا البحث. وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن بعض الفقهاء يؤكدون على معيار التمكن من لغة القوم الموفد إليهم بالاستناد إلى الحديث المنسوب إلى رسول الله ﷺ، الذي خرج على أصحابه فقال لهم، إن الله بعثني رحمة وكافة، فأدوا عني يرحمكم الله، فأصبحوا وكل رجل منهم يتكلم لغة القوم الذي أرسل إليهم؛ ابن هشام، م.س.، ج 4، ص 71.

3.2 المحدد الأخلاقي والخلقي

اشترط في المبعوث الدبلوماسي مجموعة من الشروط الخُلقية استقينها أبرزها مما تواتر ذكره لدى مجموعة من مؤرخي وإخباري العصر الوسيط، في مقدمتها الأمانة والإقدام والجرأة⁴⁷⁸ والحصافة وحسن استنباط غوامض الأمور⁴⁷⁹، واليقظة والشجاعة، بالإضافة إلى الفطنة وحسن التدبير والحزم وإصابة الرأي والحذر والتميز، ناهيك عن الإبتدار والحلم وكظم الغيظ⁴⁸⁰ والتزام الصدق وحفظ الأسرار.⁴⁸¹ كما استحب في المبعوث التمتع بالوقار ورجاحة العقل والأمانة والصدق⁴⁸².

وبالموازاة مع ذلك حفلت كتب المؤرخين والإخباريين بمجموعة من النواهي والمحاذير التي ينبغي للمبعوث الدبلوماسي أخذها بعين الاعتبار، كالإسراف في الانقباض والتطير، وفي ذلك قال ابن الفراء نقلاً عن بعض الشعراء:

وَكُنْتُ إِذْ بَعَثْتُ رَسُولًا	بَدَانِي قَبْلَ أَنْ يَمْضِيَ يَأْسٌ
وَأَنْسَانِي وَمَا وَجَّهْتُ فِيهِ	عَلَى أَنْي دُكُورٍ غَيْرِ نَاسٍ
وَيَرْجِعُ - لَا عَازِي لَإِلَهِ - فِي	لِي بِخِيَتِهِ عَدَا حَنْبَاسٍ
يَرْدُنِي أَسْرًا أَدَا جَوَادِي	أَعَانِيهِ إِلَهُ غَيْرِ رَأْسٍ ⁴⁸³

كما دعي المرشحون للسفارة إلى تجنب شرب الخمر، لأنها تفضح شاربها وتُظهر أسرارها، وكذلك الابتعاد عن الميل إلى النساء، فضلاً عن تجنب التدخل في شؤون الموفدين إليهم⁴⁸⁴، كما حذروا من الخيانة والكذب⁴⁸⁵.

⁴⁷⁸ وربما لم يسعه إلا أن يصدع بالرسالة على ما فيها فمن لم يكن جريئاً حَزَفَهَا، وأخل بها وأفسد معانيها أنظر؛ ابن الفراء، م.س.، ص 36.

⁴⁷⁹ نفسه، ص 114.

⁴⁸⁰ "فإن الرسول ربما وُجه إلى سخيّف ودفع إلى طائش فبدرت إليه منه الكلمة البذية، فيلحقه من صورة الغضب، ويتملك عليه من سلطان الغيظ ما يتخون عزمه ورأيه ويقطعه عن استيفاء حججه وإيفاء كل ما في رسالته، وهو مع الحلم والكظم أخلق بالنجاح وبلوغ المراد"، نفسه، ص 40.

⁴⁸¹ نفسه، ص 40.

⁴⁸² نفسه، صص 115 - 116.

⁴⁸³ ابن الفراء، م.س.، صص 45 - 46.

⁴⁸⁴ نفسه، صص 116 - 117.

⁴⁸⁵ نفسه، ص 54.

وفي هذا الصدد يعدد ابن حزم الأندلسي مواصفات السفير وما يجب أن يتصف به حين يقول :

" .. ويجب تخيره وارتياحه، واستجادته واستفراجه، فهو دليل عقل المرء، وبيده حياته وموته، وستره وفضيحته بعد الله تعالى، فينبغي أن يكون الرسول ذا هيئة، حاذقاً يكتفي بالإشارة، ويطرئ عن الغائب ويحسن من ذات نفسه، ويستصنع من عقله ما أغفله باعته، ويؤدي إلى الذي أرسله كل ما يشاهد على وجهه كأنما كان للأسرار حافظاً، وللعهد وفيماً قنوعاً ناصحاً، ومن تعدى هذه الصفات كان ضرره على باعته بمقدار ما نقصه منها..⁴⁸⁶ .

رَسُولُكَ سَيْفُكَ فِي يَمِينِكَ فَاسْتَجِدْ حُجُومًا وَلَا تَضْرِبْ بِنَ قَبْلَ صَقْلِهِ
فَمَنْ يَكُ ذَا سَيْفٍ كَمَا مَرَضُهُ يَعُودُ عَلَى الْمَعْنَى مِنْهُ بِجَهْلِهِ
إِذَا كُنْتَ فِي حَاجَةٍ مُرْسَلًا فَارْسِلْ حَكِيمًا وَلَا تَوْصِلْ⁴⁸⁷

إلى جانب المحدد الخُلقي اشترط في المرشح للسفارة مجموعة من الشروط الخلقية كالوسامة، لأن السفير صورة موفده والناطق بلسانه لدى الموقد إليه، فكان من الضروري تخير الرجل الوسيم لشغل المهام الدبلوماسية، حتى إذا نُظر إليه لم يُحتقر فيحتقر موفده من خلاله، وفي هذا الصدد أورد ابن الفراء في حديث منسوب لرسول الله ﷺ أنه قال :

" إذا أبردتم إلي بريداً فليكن حسن الوجه حسن الاسم"⁴⁸⁸

كما نقل أيضاً عن بعض الحكماء قولهم :

" والرسول ثلاثة تدل على ثلاثة، الهدية على المهدي، والكتاب على الكاتب، على

المرسل"⁴⁸⁹

⁴⁸⁶ ابن حزم، م.س.، ص 85.

⁴⁸⁷ نفس المصدر والصفحة.

⁴⁸⁸ كان الرسول ﷺ يستحب أن يكون الرسول الذي يرسل إليه، حسن الوجه، حسن الاسم، وكان يقول " إذا أبردتم إلي بريداً فليكن حسن الوجه، حسن الاسم"، أبي العون محمد بن أحمد الحنبلي، شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد، تحقيق المزيدي أحمد وابن سعد عادل، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009، ج 2، ص 290.

⁴⁸⁹ ابن الفراء، م.س.، ص 38.

وأضاف أنه على الرسول أن يُحسن اختيار الألبسة والأزياء، فالعين ترمق الزي أكثر ما ترمق الكفاية والسداد⁴⁹⁰. وفي هذا السياق، وصف عبد الهادي التازي سفراء العصر الوسيط انطلاقاً من عدد من المصادر أن ألبستهم بيضاء رفيعة ومتحضرة، من الرأس إلى القدم، يلبسون لكل حال لبوسها⁴⁹¹، وهو الأمر الذي يُظهر أن من أوكلت إليهم مهمة اختيار السفراء كانوا حريصين على عامل الوسط الاجتماعي والتواصل البصري، بالنظر إلى أن الكثير من أحكام القيمة تصاغ انطلاقاً من الحكم على المظهر الخارجي للسفراء، وذلك قبل تجاذب أطراف الحديث أو بدء التفاوض، وهو ما قد يترك انطباعاً حسناً أو سيئاً قد يكون له وقع كبير على حظوظ السفارة في بلوغ أهدافها ومراميها.

واشترط أيضاً في المبعوث تمام القد وعبالة الجسم وجهورة الصوت، فلا يكون قميئاً أو ضئيلاً خافت الصوت، لأن الصورة حسب قول ابن الفراء تسبق اللسان، والجثمان يستر الجنان،⁴⁹² وفي حديث منسوب إلى الخليفة عمر ابن الخطاب أنه قال: "يؤذن لكم، فيقدم أحسنكم إسماً، فإذا دخلتم قدمنا أحسنكم وجهاً، فإذا نطقتم ميزتكم ألسنتكم .."،⁴⁹³ وكان السلاطين والملوك حسب ابن الفراء يوجبون هذه الشروط في رسلهم حتى لا ينقص اختيارهم حظاً من حظوظ الكمال، لذلك فإنهم اجتهدوا في أن يكون ذلك الواحد وسيماً جسيماً يملأ العيون المتشوفة إليه فلا تقتحمه ولا تستصغره، كما نقل ابن الفراء عن أفلاطون قوله حين سئل عن أي الرسل أنجح، قال الذي له جمال وعقل⁴⁹⁴.

من خلال ما ذهب إليه ابن الفراء وابن حزم والقلقشندي وغيرهم، ومن خلال الأحاديث النبوية الواردة بخصوص الشروط الأخلاقية والخلقية الواجب توفرها في المرشحين للسفارة، نخلص إلى الأهمية التي كان يحظى بها الجانب الأخلاقي كالأمانة والوفاء والإخلاص، وهي مفاهيم مرتبطة بالمرسل أكثر منها بالمرسل إليه، حيث سعى السلاطين والملوك إلى تحري توفر هذه الصفات في مبعوثهم، نظراً لخطورة المهام التي كانت تسند إليهم والتي لا يمكن أن يعهد بمثلها لمن يشك في أخلاقه.

ومن هذا المنطلق يمكننا أن نربط بين هذا المحدد وبين النسب المرتفعة للأمرء والوزراء والمقربين من دائرة السلطة الذين اعتمدوا مبعوثين دبلوماسيين، وذلك لتيقن توفر الشروط الأخلاقية فيهم نظراً

⁴⁹⁰ نفسه، ص 35.

⁴⁹¹ التازي، الوسيط، م 1، م.س.، ص 20.

⁴⁹² ابن الفراء، م.س.، ص 113.

⁴⁹³ نفسه، ص 47.

⁴⁹⁴ نفسه، ص 60.

لطول مخالطتهم السلطان وقرهم المكاني والزمني منه، وهو ما كان يجعلهم أكثر الأشخاص حظاً لشغل المهام الدبلوماسية عن سواهم.

إلى جانب ما أسلفنا ذكره بخصوص المحدد الأخلاقي أولى عدد من كتاب ومؤرخي الفترة الوسيطية المتأخرة اهتماماً بالغاً بالمعيار الخلقي، وهو ما يعكس وعياً مبكراً بما للصورة من تأثير في عملية التواصل ودور في إنجاح السفارة أو إفشالها، فكانت توجهاتهم بهذا الخصوص أن يُعتمد للسفارة الشخص الوسيم الجسيم، الحسن الملبس، وهو الأمر الذي يتفق مع ما سبق أن أورده المؤرخ المغربي عبد الهادي التازي بخصوص أوصاف بعض سفراء المغاربة خلال الفترة الوسيطية المتأخرة.

والجدير بالذكر أن عدداً من المرشحين للسفارة كانوا يخضعون لامتحان قبل اعتمادهم للسفارة، كأن يُرسل المرشح في مهمة إلى بعض خاصة السلطان أو الملك مع مراقبته، ويقول أبو بكر المرادي في هذا الصدد، أنه إذا نجح المرشح في الامتحان أوفد مرة أخرى على عدو للسلطان، مع إبقاء مراقبته فإن نجح وأظهر صدق لهجته، تزداد الثقة به ويمكن إذاك إرساله إلى غيره من الملوك والسلطين⁴⁹⁵.

و يضيف ابن الفراء :

" وإذا عملت على إرسال رسول فاختر فهمه وفطنته، واستبرء دينه وأمانته، وألزمه الوفاء والعفة، وجنبه الإكثار والخفة، وحذره أن يزيله عن جميل الصدق أو سبيل الحق عاجل بر وإكرام، وتبجيل وإعظام، فإن كذب الرسول يفوت المراد، ويولد الفساد، ويبطل الحزم وينقص العزم .. واعلم أنه أساس الملك وحراسه، فلا تغفل عن مراعاة أحوالهم، ولا تمهل مكافأة أفعالهم"⁴⁹⁶.

وإلى جانب توجهات أبي بكر المرادي المتعلقة بامتحان السفراء يقول ابن الفراء بهذا الخصوص أنه يتوجب :

" توجيه الرسول إلى بعض خاصة الملك و - من - قرار داره في رسائلها. ثم تقدم عينا لها عليه يحفظ رسالته ويكتبها على نص كلامه ومعانيه. فإذا رجع الرسول بالرسالة وجاء العين بما كتب من ألفاظه، قابل بها الملك ألفاظ الرسول، فإن اتفقت معانيها عرف بها الملك صحة عقله وصدق لهجته. ثم جعله الملك رسولا إلى عدو له، وجعل عليه عينا يحفظ ألفاظه ويكتبها، ثم يرفعها إلى الملك. فإن إتفق كلام الرسول وكلام عين الملك، علم أن رسوله قد صدقه عن عدوه، ولم

⁴⁹⁵ أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي القيرواني المرادي، الإشارة إلى أدب الإمارة، تحقيق رضوان السيد، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط 1، بيروت 1981، ص 221.

⁴⁹⁶ ابن الفراء، م.س.، ص 10.

يتزايد للعداوة التي بينهما. فإذا صح على الابتلاء والخبرة جعله الملك رسولا إلى ملوك الأمم المخالفة له ووثق به".⁴⁹⁷

وفي علاقة الموضوع ذاته يقول القلقشندي :

" لا يرسل للملوك الأجانب إلا من اختبر بتكرير الرسائل إلى نوابه وأهل مملكته"⁴⁹⁸

وأورد مجموعة من التوضيحات بخصوص طريقة اختيار السفير قائلا :

" فقد كان الملوك .. إذا آثرو إرسال شخص مهم، قدموا امتحانه بإرساله إلى بعض خواص الملك ممن في قرار داره في شيء من مهماته، ثم يجعل عليه عينا فيما يرسل به من حيث لا يشعر، فإذا أدى الرسول رسالته رجع بجوابها، وسأل الملك عينه، فإن طابق ما قاله الرسول ما يأتي به من هو عين عليه وتكرر ذلك منه، صارت له الميزة والتقدمة عند الملك ووجهه حينئذ في مهمات أموره"⁴⁹⁹

من خلال ما تقدم بخصوص مسألة امتحان السفراء، يتضح اتفاق المرادي وابن الفراء والقلقشندي على ضرورة اختبار السفير قبل اعتماده في مهام دبلوماسية رسمية، كما اجتمعوا أيضاً على طرائق امتحان المرشحين للسفارة، وهو ما يدل على أن ما تناقله الكتاب الثلاثة صادر عن مرجعية واحدة، كما يفيد بشيوع مسألة امتحان المرشحين للسفارة لدى الدوائر القريبة من السلطان بحكم عمل عدد منهم كتاباً في ديوان الإنشاء. غير أننا لم نعثر في حدود المصادر والمراجع التي اطلعنا عليها على دلائل مادية تؤكد خضوع بعض المرشحين للسفارة للامتحان، وهو ما جعلنا نتساءل حول مدى انضباط الملوك والسلطين للإطار النظري الذي وضعه هؤلاء الكتاب وغيرهم بخصوص مسألة معايير اعتماد المرشحين للسفارة وامتحانهم، وبالمقابل أصبح لدينا شبه يقين أن هذه المفاهيم والمبادئ كانت حاضرة بقوة في ذهنية الساسة والمقربين من دوائر السلطة خلال هذه الفترة وإن لم تكن تُعتمد بشكل كلي.

إذا كانت معايير الرفعة الاجتماعية والوظيفية وعامل القرب من السلطان محددات رئيسة للرفع من حظوظ المرشحين لشغل مهام دبلوماسية، فما هي المكانة التي رصدت في العمل الدبلوماسي الوسيط للفتات الاجتماعية الدنيا كالعبيد والخدم والأقليات الدينية ؟

⁴⁹⁷ نفسه، ص 51.

⁴⁹⁸ القلقشندي، م.س.، ج 1، ص 116.

⁴⁹⁹ نفس المصدر والصفحة.

سنحاول خلال الفقرة المقبلة تسليط الضوء على مكانة أفراد ينتمون إلى الأقليات الدينية، خاصة المسيحيين واليهود والأقليات الوظيفية كالعبيد والخدم في العمل الدبلوماسي، والمهام التي كانت تسند إليهم خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط.

3 - الأقليات الدينية والوظيفية في خدمة العمل الدبلوماسي

شغلت الأقليات الدينية والوظيفية دوراً مهماً في العمل الدبلوماسي الوسيط، حيث كانت في بعض الأحيان - خاصة زمن الحرب - أداة فعالة للتواصل بين الأطراف المتحاربة بالنظر إلى انتمائها الإثني أو الديني المحايد⁵⁰⁰، أو بالنظر إلى عاملي الثقة والولاء الوظيفي اللذان تميزا بهما واللذان يعتبران من بين المحددات الرئيسة لاختيار العاملين في الحقل الدبلوماسي خلال الفترة الوسيطة.

وسنحاول من خلال الفقرات المقبلة رصد خصوصية حضور هذه الأقليات في المشهد الدبلوماسي الوسيط في الغرب الإسلامي، والتعريف بالخصائص المميزة لكل فئة على حدة.

1.3 الأقليات الدينية

يرتبط عرض مسألة حضور الأقليات الدينية في العمل الدبلوماسي بالمجالات الجيوسياسية التي امتدت عليها الدول المتعاقبة على حكم المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط، والتي شملت أجزاء شاسعة من شمال إفريقيا وشبه الجزيرة الإيبيرية التي كانت تعيش فيها إلى جانب المسلمين عرباً وأمازيغ أقليات دينية كاليهود والمسيحيين، الذين تحفل كتب التاريخ المغربية بأخبار عدد من أعلامهم خاصة اليهود، ممن تقلدوا وظائف رفيعة داخل هرم السلطة ارتقت ببعضهم إلى مناصب الوزارة والسفارة، حيث استعان بهم في العمل الدبلوماسي خلال فترات متعدد من العصر الوسيط عدد من ملوك الأندلس وحكام المغرب على السواء، كما اعتمدوا عليهم ووظفهم أيضاً مترجمين لإبرام اتفاقيات تجارية أو معاهدات صلح، ونورد على سبيل المثال لا الحصر، أسماء عدد منهم كالتاجر إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي زمن الحكم المستنصر⁵⁰¹ والطبيب والأديب حسداي ابن سربوت (أو ابن شربوط) زمن عبد

⁵⁰⁰ أثبتت العلاقات الدبلوماسية مع الدول الإسلامية خاصة في إيبيريا أهميتها على نحو خاص وكثيراً ما كان اليهود يوظفون وسطاء؛ بلاك،

م.س.، ص 42.

⁵⁰¹ إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي يهودي من أهل طرطوشة عاش أواسط القرن الرابع الهجري العاشر ميلادي، وهو تاجر ممن كانوا يعملون في طلب الرقيق الأوروبي إلى الأندلس، ولهذا كان يقوم برحلات إلى ألمانيا وبلاد الصقالبة وشمالي أوروبا، وقد كتب رسالة إلى الحكم المستنصر

الرحمان الثالث⁵⁰²، وابن النغيلة⁵⁰³ الذي تقلد الوزارة بغرناطة وغيرهم ممن تواتر ذكرهم في المصادر المغربية والأندلسية.

ومن خلال تجميعنا للمعطيات المتعلقة بحضور الأقليات الدينية في العمل الدبلوماسي المغربي خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط، التي استقيناها من معطيات تتعلق بـ 270 سفارة وفدت وارداً على المغرب وصادرة عنه بين سنوات 474 - 897 هـ / 1081 - 1492 م، تمكنا من رصد النسب التالية:

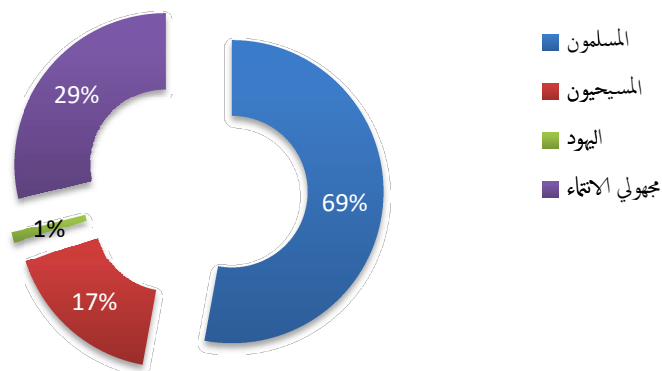
عن رحلة قام بها إلى ألمانيا أيام الإمبراطور أوتو الكبير على الأغلب، واحتفظ البكري بجانب كبير من هذه الرسالة، وقد عني بهذا الجزء نفر من المستشرقين مثل كويك وفيجيرسوجيور جياكوب، فنشروه وترجموه إلى الروسية والألمانية والهولندية، ومن الباحثين من استبعد أن يكون إبراهيم بن يعقوب أندلسياً، وغلب على رأيهم أنه من المغرب؛ أمينة سليمان البدوي، الأندلسيون والمغاربة ورحلاتهم، تقص وعرض (ق3هـ). مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، ع 2، م 41، 201، ص 400.

⁵⁰² حسداى ابن شبروط كبير أطباء وصيادلة الخليفة عبد الرحمن الناصر الثالث (300-350هـ) ولد سنة 297 هـ / 910 م، اتخذ أيضاً مشرفاً عن مراسم بلاطه وعلى خزائنه، ومترجم وثائقه، وسفيراً أوكل إليه العديد من المهام الدبلوماسية؛ خالد بن محمد بن مبارك القاسمي، العلاقات الخارجية في العصر الإسلامي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2008، ص 72؛ أنظر أيضاً رشدي محمود رشيد العاني، جهود الخزر وأدوارهم السياسية في التاريخ، العبيكان للنشر، ط 1، الرياض، 2018، صص 14-15.

⁵⁰³ إسماعيل بن يوسف الكاتب المعروف بابن النغيلة؛ ابن حزم الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصير وعبد الرحمن عمر، دار الجيل، ط 2، بيروت، 1996، ج 1، ص 225؛ تعرض ابن الخطيب لابن النغيلة في كتابيه الإحاطة وأعمال الأعلام، فذكره في الإحاطة في فصل بلقين ابن باديس بن حبوس بن ماكسين بن زيري بن مناد الصنهاجي سيف الدولة، كما أشار إليه ابن عذارى المراكشي في الفصل المعنون ببعض أخبار ابن باديس بن حبوس وقومه صنهاجة وانتزاهم على غرناطة ومهلك اليهودي ووزيره حيث قال " .. فأمضى باديس وزيراً له وكاتباً، وزير أبيه إسماعيل ابن نغيلة اليهودي، على وزارته وكتابته وسائر أعماله، ورفعته فوق كل منزلة، فاتخذ اليهودي عمالاً ومتصرفين في الأشغال، واكتسبوا الجاه والمال في أيامه واستطالوا على المسلمين، وكان هذا اليهودي من أهل الأدب والشعر فدام أمره كذلك إلى أن هلك وترك ابناً له اسمه يوسف .."، ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان وليفي بروفنصال، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج 3، ص 264.

النسب العامة لتوزيع المبعوثين الدبلوماسيين حسب الإلتقاء الديني
خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط

رسم بياني رقم : 18

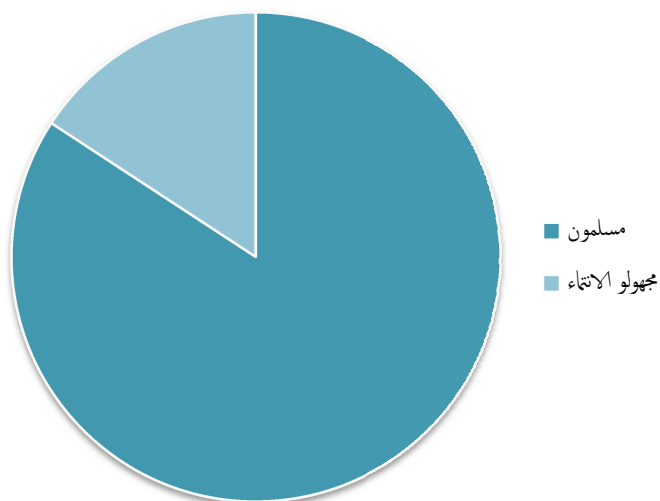


توزيع المبعوثين الدبلوماسيين حسب الإلتقاء الديني خلال الفترة المرباطية

474 - 537 هـ / 1081 - 1143

رسم بياني رقم : 19

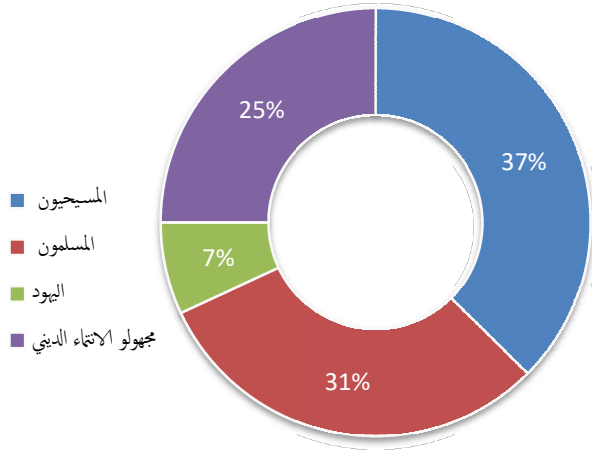
جدول رقم : 15



الديانة	العدد
المسلمون	16
المسيحيون	—
مجهولو الإلتقاء	3
اليهود	—
المجموع	19

رسم بياني رقم : 20

توزيع المبعوثين الدبلوماسيين حسب الإلتقاء الديني خلال الفترة الموحدة
545-648 هـ
1151 - 1251 م

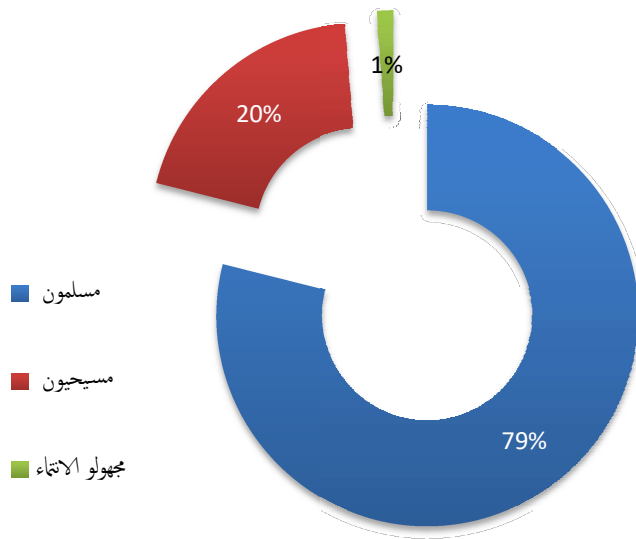


جدول رقم : 16

الديانة	العدد
المسيحيون	27
المسلمون	22
اليهود	5
مجهولو الإلتقاء	18
المجموع	72

رسم بياني رقم : 21

توزيع المبعوثين الدبلوماسيين حسب الإلتقاء الديني خلال الفترة المرينية
637-897 هـ
1240 - 1492 م



جدول رقم : 17

الديانة	العدد
المسلمون	3
المسيحيون	191
مجهولو الإلتقاء	48
اليهود	—
المجموع	239

انطلاقاً من المعطيات التي توفرت لدينا بخصوص حضور الأقليات الدينية في العمل الدبلوماسي الوسيطى فإننا سجلنا الغياب الكلي لهذا الحضور خلال الفترة المرباطية، فمن أصل 19 مبعوث دبلوماسي وفدوا على المغرب وصدروا عليه خلال هذه الفترة ، 16 منهم كانوا مسلمين والبقية مجهولي الانتماء الديني، وهو الأمر الذي نفسره بندرة المادة المصدريّة المرتبطة بالعمل الدبلوماسي وندرة الوثائق الدبلوماسية المتعلقة بهذه الفترة، حيث لم تتوفر لدينا معطيات بخصوص الانتماء الديني سوى ل 16 مبعوثاً وهو عدد قليل لا يكفي لإصدار حكم بغياب الأقليات الدينية عن العمل الدبلوماسي المرباطي.

وإذا كان من المقبول نظرياً غياب هذه الأقليات عن العمل الدبلوماسي المرباطي خلال فترات التأسيس الأولى بالنظر إلى أن أولويات المؤسسين كانت تنصرف صوب الشأن الداخلي قبل الالتفات للمصالح الخارجية، فإنه من غير المقبول تعميم الحكم نفسه على العمل الدبلوماسي المرباطي بعد ضم الأندلس، خاصة بعد انتقال عدد كبير من الكتاب للعمل في مختلف الدواوين المرباطية، وانتقال أنماط الكتابة الديوانية وطرائق تدبير السياسة الخارجية من مختلف ممالك الأندلس إلى المجالات التابعة للدولة المرباطية، ناهيك على أن التخوم السياسية للمرابطين لم تعد إسلامية خالصة بعد ضم الأندلس، حيث أصبح المرباطون يتاخمون القشتاليين والأرغونيين وغيرهم من نصارى شبه الجزيرة الإيطالية، كما أصبحت لهم مصالح تجارية معقدة مع عدد من المدن المتوسطية، جعلت من غير المعقول تدبير العلائق السياسية والتجارية البينية بين هذه الكيانات التي تختلف فيما بينها دينياً وثقافياً ولغوياً بالاعتماد فقط على مبعوثين مسلمين، وبالتالي فإن مسألة الغياب خلال الفترة المرباطية نرجعها إلى ندرة الوثائق الدبلوماسية المتعلقة بهذه الفترة كما أسلفنا، وهو الأمر الذي يدعونا لتعميق البحث في هذا الموضوع عن طريق البحث والتنقيب في الأرشيفات الرسمية لمختلف الكيانات السياسية التي كانت لها علاقة بالدولة المرباطية، خاصة بعض المدن الإيطالية كبيزة وجنوة والأرشييف الاسباني.

وخلال الفترة الموحدية، اجتمعت لدينا معطيات تتعلق ب 72 مبعوثاً وهو عدد مرتفع مقارنة مع الفترة المرباطية، مرده إلى توفر عدد من الوثائق الدبلوماسية الرسمية التي أوردها بعض المؤرخين الأجانب ك دي ماص لا تري وميشيل أماري، ناهيك عن إيراد عدد الكتاب المغاربة والأندلسيين لعدد من الرسائل المتعلقة بالعمل الدبلوماسي الموحدى، استطعنا من خلالها تحديد الانتماء الديني ل 54 مبعوثاً أي 75 % من مجموع العينة موضوع البحث خلال هذه الفترة، حيث شكل المبعوثون المسيحيون 37% والمسلمون 31% واليهود 7%.

وعلى الرغم من أنه لا يمكن اعتماد هذه المعطيات لإصدار أحكام تتعلق بحجم ونوعية حضور الأقليات الدينية في العمل الدبلوماسي، إلا أنه يمكن اعتمادها لرسم صورة تقريبية لهذا الحضور خلال هذه الفترة.

والجدير بالذكر أن مرد ارتفاع نسبة المبعوثين المسيحيين في اعتقادنا تعاضم العلاقات التجارية مع عدد من مدن شبه الجزيرة الإيطالية التي سعت لحماية مصالحها التجارية المشتركة مع الموحدون وتحصيل امتيازات جديدة، حيث بزت أسماء مجموعة من المبعوثين، وفي مقدمتهم القنصل البيزي كوكو جريفي Coco GRIFFI الذي أوفدته جمهورية بيزة إلى المغرب سنة 561 هـ 1166 م، والذي يرجح أنه شغل منصب قنصل مقيم خلال هذه الفترة للسهر على مصالح التجار البيزين⁵⁰⁴.

وارتباطاً بالموضوع ذاته نورد اسم المبعوث الموحد الميودي عمر بن أبي الجيد الإسرائيلي التونسي الذي أوفده الموحدون إلى بيزة من أجل التوصية بعدد من التجار اليهود، وهو يُعد من المبعوثين الموحدون القلائل الذين أوفدتهم الدولة الموحدية إلى بيزة⁵⁰⁵، بالنظر إلى أن المبادرة في هذا المجال كانت تعود في الأغلب للمدن الإيطالية، في حين كان الموحدون يكتفون بتزويد المبعوثين الإيطاليين برسائل جوابية، أو يخاطبون القناصل المقيمين بمختلف مراسي الدولة وذلك لعدة اعتبارات سنتولى تبينها في الفقرة المخصصة للتجارة محدداً للعمل الدبلوماسي الوسيط.

ويفسر أيضاً ارتفاع نسب المبعوثين المسيحيين خلال الفترة الموحدية بوجود أقلية دينية مسيحية بالمغرب نتيجة استجلاب الموحدون لعدد كبير من المرتزقة المسيحيين للعمل في الجيش الموحد، فتكونت نواة أقلية مسيحية، تراوح عددها حسب المصادر بين أربعة آلاف و إثني عشرة ألف، كانوا موضوع عدد من السفارات المتبادلة بين مراكش و طليطلة وكذلك بين عدد من الباباوات والخلفاء الموحدون.

وفي هذا الصدد سعت البابوية عبر إرسال مجموعة من السفارات للتوصية بالمسيحيين، كما تحينت الفرصة بعد تعاضم حاجة الموحدون إلى خدمات المرتزقة المسيحيين لترسيخ الوجود المسيحي بالمغرب عبر دعوة عدد من الخلفاء الموحدون لاعتناق المسيحية، وهو الأمر الذي كان موضوع عدد من السفارات التي تقاطرت على مراكش، والتي كان أبرزها السفارات التي قادها المبعوث البابوي الراهب

⁵⁰⁴ عبد الهادي التازي، الوسيط، م. س.، ج 2، ص 73.

⁵⁰⁵ Amari, op.cit, pp. 83 –85 .

الفرانسييسكاني فيرنانديز لوبي دي أيين Fernandez LOPE DE AYN، والذي نقل مجموعة من الرسائل بين البابوية والخلفاء الموحدين، كما تم اعتماده مطرانا بكنيسة مراكش ابتداء من 1446م⁵⁰⁶، وهي الكنسية التي يمكن اعتبارها بمثابة سفارة قائمة للبابوية في المغرب، بالنظر للدور التي كانت تضطلع به في تعزيز التواصل بين الموحدين والبابوية، وكذلك لدورها في تزويد مختلف الممالك النصرانية بمعطيات محينة عن مستجدات الأوضاع السياسية والاقتصادية، وهي أدوار تتجاوز في رأينا حدود الوظيفة الدينية للكنائس.

ومن جهة أخرى، اعتمدت مختلف الكيانات السياسية التي كانت على تواصل مع الموحدين على خدمات اليهود، فقد وقفنا على مجموعة من البعثات التي اعتمد لها سفراء يهود، أبرزها السفارات الواردة من قشتالة التي كان على رأسها الوزير اليهودي إبراهيم ابن الفخار، الذي أوفد إلى المغرب مراراً من أجل التباحث بخصوص مجموعة من القضايا السياسية والعسكرية⁵⁰⁷؛ ويبدو أن العمل الدبلوماسي اكتسب أهمية كبرى لدى الدولة الموحدية خاصة بعد هزيمة العقاب 609 هـ/1212م واستثناء مظاهر الضعف والتفكك، حيث سعى مختلف الخلفاء الموحدين المتأخرين إلى تكثيف الاعتماد على الآليات الدبلوماسية، رغبةً في إطالة عمر الدولة الموحدية عن طريق عقد مجموعة من الاتفاقيات مع مختلف القوى المسيحية، تارة من أجل السلم والهدنة، وتارة أخرى بُغية الاستجاشة بهم ضد ثوار الداخل، وهو العمل الذي اضطلعت فيه الأقليات الدينية بدور محوري.

وبالنسبة للدولة المرينية، تمكنا من رصد معطيات تتعلق بالانتماء الديني لـ 242 مبعوثاً دبلوماسياً أوفدوا من المغرب ووفدوا عليه في 211 سفارة، وهي معطيات مهمة مقارنة بما تحصلنا عليه بخصوص المبعوثين الدبلوماسيين خلال الفترتين المرابطية والموحدية، وسر ذلك هو توفر عدد لا بأس به من الكتابات والوثائق الدبلوماسية التي استقينا منها المعطيات السالفة الذكر.

سجلنا خلال الفترة المرينية ارتفاع نسبة المبعوثين المسلمين وتراجع نسبة المبعوثين المسيحيين، حيث ارتقت نسبة المسلمين من 31% خلال الفترة الموحدية إلى 79% مقابل تراجع نسبة المسيحيين من 37% خلال الفترة الموحدية إلى 20%، كما تراجعت نسبة مجهولي الانتماء إلى 1%، في حين لم نقف على

⁵⁰⁶ أمبروسو هويثي ميراندا، التاريخ السياسي للدولة الموحدية، ترجمة عبد الواحد اكيمير، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2004، ص 527.

⁵⁰⁷ عبد الهادي التازي، الوسيط، م. س.، ج 2، ص 39؛ أنظر أيضاً ميراندا، م. س.، ص 393.

سفارات قام بها يهود، وهي النسب التي نفسرها بالمكانة التي أضحت توليها الدولة المرينية للعلاقات الخارجية خاصة مع الكيانات الإسلامية التي قامت على أنقاض الدولة الموحدية في الأندلس وشمال إفريقيا، وهو المستجد الذي فرض على المرينيين إدراج توجهات جديدة لم تكن حاضرة في السياسة الخارجية المرابطية والموحدية، وذلك في إطار تدبير علاقاتهم مع هذه الدول الإسلامية المجاورة عن طريق اعتماد سفراء ورسلمسلمين، إذا لم يكن من الوارد أو المقبول إيفاد رسلٍ من الأقليات الدينية بين مختلف الملوك المسلمين، وذلك على الرغم من شغل عدد من المنتمين لهذه الأقليات لمناصب رفيعة خاصة في الدولة المرينية والدولة النصرانية خلال هذه الفترة. فقد اقتصر دور الأقليات الدينية على العلاقات الدبلوماسية بين المغرب والممالك النصرانية، وبرزت أسماء عدد من المبعوثين المزدوجين كالقائد الأراغوني برناط سيجي (أو سجين كما ورد في عدد من الرسائل الدبلوماسية المغربية) Bernard SEGUI الذي قلده السلطان المريني أبو يعقوب مجموعة من المهام الدبلوماسية، منها الوساطة من أجل إرساء الصلح بينه وبين جاك الثاني ملك أراغون سنة 702هـ / 1302م، في المقابل كان برنار سيجي يقوم لصالح ملك أراغون بمجموعة من المهام القنصلية، التي يندرج ضمنها مراقبة التجار وتنفيذ الأوامر الملكية والقضائية، والتفاوض بشأن الامتيازات التجارية أو الأسرى.

وبالنسبة للأقلية اليهودية، وعلى الرغم من عدم وقوفنا على معطيات مفصلة أو إشارات دقيقة تتعلق بسفارات ضمت مبعوثين يهود وافدين أو موفدين إلى الدولة المرينية، إلا أن كتب المؤرخين والإخباريين تورد مجموعة من المعطيات عن النفوذ الوظيفي لليهود خلال هذه الفترة، وهو النفوذ الذي تعاضم بشكل كبير بين القرنين 7 و 9هـ / 13 و 15م، ويرجع ذلك إلى تعاضم الحاجة إليهم للعمل في خدمة عدد من الملوك والسلطين، تارة مترجمين وأطباء، وتارة أخرى مستشارين وسفراء ورسلم، وهو النفوذ الذي عززه الثقل المالي والتجاري للأقلية اليهودية بالمغرب والأندلس، فأصبح تأثيرهم في سلاطين وملوك بني مرين وبني وطاس من بعدهم بادياً وجلياً، حيثوهو ما أكد عليه محمد المنوني عندما أشار إلى أن أمر الأقلية اليهودية تفاحش أوائل أيام السلطان أبي الحسن المريني،⁵⁰⁸ الذي أسقط عنهم عام 731هـ / 1330م الجزية، واتخذ منهم السلطان أبو يعقوب يوسف بن يعقوب (685 - 706هـ / 1286 - 1306م) حاجباً هو خليفة ابن رقاصة⁵⁰⁹، كما اعتمد السلطان أبو سعيد المريني اليهودي شمعون البرانسي⁵¹⁰ سفير له، وهو الذي كان

⁵⁰⁸ محمد المنوني، ورقات عن الحضارة المرينية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة بحوث ودراسات رقم 20، ط 3، 2000، الرباط، ص 154.

⁵⁰⁹ .. كان بنو رقاصة من يهود ملاح فاس، وكانوا مداخلين للسلطان يوسف من صغره إلى كبره. وكان خليفة بن حيون يعصر للسلطان الخمر ويجهز له الخلوة. فتقلدوا الوزارة وتعددت فيهم الرؤساء والقهارمة، فكان منهم خليفة بن رقاصة وأخوه إبراهيم، و صهره موسى بن

له تأثير ونفوذ قوي عليه⁵¹¹، في حين اتخذ السلطان عبد الحق بن أبي سعيد عثمان 823 - 869هـ/ 1421 - 1465 م آخر سلاطين بني مرين أبرهام بن بطاس وزيراً له، واليهوديان هارون رئيساً لبيت المال و شاول نائبا له، كما تمّ تعيين الحسين اليهودي قائداً للشرطة، علماً بأن هذا المنصب لا يسند في الدولة الإسلامية إلى غير المسلمين، كما استخدم الميريون المسيحيين في أغراض عسكرية محدودة⁵¹².

واتخذ عدد من ملوك الدول الإسلامية المجاورة للمريين والوطاسيين خلال هذه الفترة عدداً من السفراء اليهود كعبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة الذي اتخذ إسحاق بردونيل Ysaque PERDONIEL وصهره جودا Joda مستشارين خاصين له، عهد إليهما ببعض المهام السفارية⁵¹³.

وبرزت أيضاً أسماء عدد من المبعوثين الأندلسيين اليهود المهجرين خلال الفترات الأخيرة للدولة الميرية أوفدوا إلى قشتالة والبرتغال، وهو الأمر الذي استمر أيضاً على عهد الدولة الوطاسية حيث عُرفت مجموعة من العائلات اليهودية بقيامها بمهام السفارة، كعائلة أديب وابن زاميرو وروتو وروزاليس. وقد استفادت هذه العائلات من الامتيازات التي يمنحها العمل الدبلوماسي كحرية التنقل والحماية، لتقوم بمهام الوساطة بين المغاربة وغيرهم، خاصة بين الحكام البرتغاليين لأسفي ومازغان وملوك بني وطاس أو شيوخ القبائل المجاورة لهم، حيث كان يُعهد إليهم من قبل البرتغاليين بإبلاغ الرسائل وتقديم الهدايا⁵¹⁴، وفي بعض الأحيان فوضت لهم صلاحيات توقيع الهدن كما حدث في الهدنة الموقعة بين حامية أسفي البرتغالية وأحمد الأعرج الوطاسي أو الإشراف على مفاوضات السلم مع الملوك الوطاسيين بين سنوات 933 - 936هـ/ 1527 - 1530 م،⁵¹⁵ وتجدر الإشارة إلى أن هذه المعطيات تفند بشكل صريح ما ذهب إليه المؤرخ ميشال أبي طبول الذي اعتبر أن السفراء اليهود لم يكونوا سوى مبعوثين خرس، يكتفون بحمل الرسائل المتبادلة بين الدول والممالك المسيحية والإسلامية.

السبي وابن عمه خليفة الأصغر. واستمروا على ذلك مدة طويلة إلى أن استفاق السلطان و راجع بصيرته، وسّر في ذلك كاتبه والقائم بأمور دولته أبو محمد عبد الله بن أبي مدين، فاعتقلهم في شعبان من سنة 701 هـ/ 1301 م وقتل خليفة الأكبر وأخيه إبراهيم وموسى السبي وإخوته وأقاربهم ولم يبق السلطان إلا على خليفة الأصغر إحتقاراً.. "؛ الناصري، م 2، م.س.، ص 39.

⁵¹⁰ البرانسي: هو تحريف لكلمة الفالانسي - بلنسية - وكانت تطلق على الذين ينتسبون إلى بلنسية؛ فاطمة بوعمامة، اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجري الموافق 14 - 15 م، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2011، صص 234 - 233.

⁵¹¹ نفس المرجع والصفحات.

⁵¹² المنوني، م.س.، ص 154.

⁵¹³ Michel ABITBOL, Juifs d'Afrique du Nord et expulsés d'Espagne après 1492, in Rev de l'histoire des religions, 210-1, 1993, p.60.

⁵¹⁴ هدية عبارة عن ملابس قدمت من قبل الملك البرتغالي مانويل الأول إلى قائد جهة أزموور سنة 1514؛

ABITBOL, op.cit, p 76.

⁵¹⁵ Ibidem.

وتجدر الإشارة، أنه باعتبار أن الدراسات المغربية الحديثة درجت على اعتبار الفترة الوطاسية امتداداً للفترة المرينية، وعلى الرغم من عدم اقتناعنا بذلك، فإننا ارتأينا تمديد حديثنا عن توظيف الأقليات الدينية في العمل الدبلوماسي إلى الفترة الوطاسية لكونه يضمن استمرار الموضوع ووحدته.

وفي عهد الوطاسيين استمر عُرف تقليد اليهود بعض المهام الدبلوماسية، حيث برزت أسماء عدد ممن عملوا سفراء ورسلاً لبني وطاس، كيعقوب روزاليس وابن زاميرو⁵¹⁶ ويعقوب روتي ويعقوب أديب⁵¹⁷ وغيرهم، نظراً لإتقانهم اللغات الأجنبية خاصة الإسبانية والبرتغالية، وكذلك لسهولة تنقلهم، ومعرفتهم بالطرق وتمكنهم من آليات التواصل والإقناع نظراً لخلفيتهم الوظيفية تجاراً.

وفي هذا السياق نورد أنموذج السفير اليهودي يعقوب روزاليس⁵¹⁸ الذي أرسله سلطان فاس أبو العباس أحمد بن محمد سنة 936 هـ / 1530 م إلى جاك الثالث ملك البرتغال (927 - 964 هـ / 1521 - 1557 م) يشكره على الاستقبال الحافل الذي خص به حاشيته ويعتذر له على عدم إجابة إحدى طلباته⁵¹⁹.

وإلى جانب روزاليس، عهد أيضاً السلطان الوطاسي محمد أبو عبد الله (909 - 932 هـ / 1504 - 1526 م) لليهودي يعقوب روتي بمجموعة من المهام السفارية لدى البرتغاليين الذي كانت له معهم علاقة صداقة متينة تعود إلى سنة 929 هـ / 1523 م، حيث كان يشتغل مترجماً لدى برتغالي آسفي، وأُرسل سنة 943 هـ / 1537 م إلى أصيلة بغرض إقناع البرتغاليين بعدم توقيع الهدنة مع السعديين⁵²⁰؛ كما اعتمد روتي للتفاوض بخصوص معاهدة السلم بين الملك جون الثالث وسلطان فاس الوطاسي، وهي المعاهدة التي

⁵¹⁶ أبرهام بن زاميرو، ذوو أصول غرناطية استقر بآسفي، وكان تاجراً، عرف عنه الشعر، بالإضافة لكونه ربي Rabbin، ووسيط تجاري، وكان يحظى بمكانة رفيعة بين طائفته.

ABITBOL, op.cit, p. 70.

⁵¹⁷ في سنة 1514، أسندت ليعقوب أديب مهام دبلوماسية مماثلة في مدينة أزموور

Ibid, p. 71.

⁵¹⁸ يعقوب روزاليس Jacob ROZALES، تاجر يهودي، اهتمن التجارة البحرية بين شمال المغرب وقادس وجنوة. " في الآن ذاته شغل وظيفة سفير سلطان فاس الوطاسي لدى الملك جون الثالث الذي استقبله في مناسبتين على الأقل سنة 1530 و 1534؛

Ibid, p. 75.

⁵¹⁹ عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، م.س.، م 7، ص 252.

⁵²⁰ Ibid, p 77.

وقعت سنة 944 هـ / 1538م، وأُرسل سنة 945 هـ / 1539م إلى الملك جون الثالث من أجل التفاوض بشأن تحالف عسكري بين البرتغال ومملكة فاس⁵²¹.

وكما سبقت الإشارة فقد حظي السفراء والرسل اليهود بالامتيازات نفسها التي كانت تمنح لنظرائهم المسلمين، كالحماية وحرية التنقل، وكان خرقها يخلق احتجاجات قوية لدى مختلف سلاطين وملوك المغرب. وفي هذا الصدد، نورد حادثة إلقاء البرتغاليين القبض على السفير الوطاسي يعقوب روتي وأخيه موسى الذي كان يعمل تاجراً، بعد اتهامهما بالسعي إلى نشر تعاليم الدين اليهودي بين المسيحيين الجدد، وهو ما خلف احتجاجاً قوياً من سلطان فاس الذي اعتبره خرقاً لاتفاقية 844 هـ / 1538م، وهو الاحتجاج الذي عجل بالإفراج عنهما نزولاً عند رغبة مملكة فاس، ليستأنف بعد ذلك يعقوب روتي مهامه الدبلوماسية بعد أن استعاد كل امتيازاته، وفي مقدمتها حرية التنقل وضمان عدم تعرض محاكم التفتيش له، وفي صفر 952 هـ / ماي سنة 1545م عاد روتي إلى أصيلة من أجل التفاوض بشأن معاهدة جديدة بين سلطان فاس أحمد بن محمد وجون الثالث⁵²².

وتجدر الإشارة إلى أن السفراء والرسل اليهود كانوا ملزمين بتقديم تقاريرهم بشكل مباشر إلى الملوك، وعلى سبيل المثال كان سفير البرتغال أبراهام بن زاميرو يقدم تقاريره بشكل مباشر إلى الملك مانويل الأول 900-927 هـ / 1495-1521م، حيث كان يتضمن التقرير خلاصة المحادثات التي دارت بينه وبين زعماء القبائل المغربية المحلية، كما كان يتضمن تقريراً عن الحالة المعنوية للقبائل الحليفة.

خلاصة القول، لقد كان توظيف أفراد الأقليات الدينية على امتداد القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط قاعدة وليس استثناء، كما لم يشكل توظيفهم حرجاً بالنسبة لملوك وسلاطين المغرب الراغبين في الاستعانة بكفاءاتهم المعرفية وخبراتهم المهنية وشبكة علاقاتهم الواسعة لتحقيق أغراضهم السياسية والاقتصادية وفي بعض الأحيان أغراضهم الخاصة، وهي مقاربة براغماتية لم تلق معارضة كبيرة من لدن الفقهاء بالنظر إلى أن العمل الدبلوماسي كان مجرد مهمة ظرفية تنتهي بانقضاء غرضها، وليس وظيفة قائمة تكسب صاحبها سلطة على المسلمين. ففي الوقت الذي كان فيه جل الفقهاء يرفضون تولي عناصر الأقليات الدينية مناصب رفيعة داخل هرم السلطة، وهو ما سبقت الإشارة إليه في الفصل الأول

⁵²¹ ABITBOL, op.cit, p 78.

⁵²² معاهدة 844 هـ / 1538م نقضت من طرف البرتغاليين سنتين بعد إبرامها؛

Ibid, p.80.

من هذا العمل بخصوص تقلد وظيفة الكتابة، فإننا لم نقف على ما يفيد رفضهم تولي أفراداً من هذه الأقليات لمهام دبلوماسية.

2.3 الأقليات الوظيفية والعمل الدبلوماسي : أنموذج العبيد

يسعى هذا المبحث إلى الكشف عن خصائص حضور العبيد في العمل الدبلوماسي في الغرب الإسلامي خلال الفترة الوسيطة المتأخرة. وانطلاقاً من المعطيات التي توفرت لدينا بعد إخضاعنا 270 سفارة وافدة عليه المغرب وصادرة عنه لدراسة إحصائية؛ فإننا سجلنا ندرة حضور العبيد والخدم في العمل الدبلوماسي خلال الفترة موضوع البحث، إلى درجة الغياب عن المشهد الدبلوماسي بشكل كلي خلال الفترة المرابطية والموحدية، ولم يتجاوز حضورهم نسبة 2 % من مجموع المبعوثين الدبلوماسيين خلال الفترة المرينية، وهي نسبة ضعيفة جداً لا نعتقد أنها تعكس النسب الحقيقية لحضورهم في العمل الدبلوماسي، على اعتبار أنه لا يمكن تصور تنقل وفد دبلوماسي دون أن يصاحبه خدم وعبيد. لكن في غياب الوثائق المتعلقة بتمويل السفارات المغربية، وغياب تقارير السفراء المغربية، تصعب الإحاطة بخصائص هذا الحضور خاصة أن الرسائل الدبلوماسية وكتب الحوليات وغيرها غالباً ما تحجم عن ذكر حضور العبيد في البعثات السفارية، وتركز فقط على الأسماء البارزة من أمراء ووزراء وكتاب وغيرهم.

وعلى الرغم من ندرة المعطيات المتعلقة بالعبيد والخدم إلا أننا تمكنا التقاط بعض الإشارات بخصوص سفارات كان للعبيد فيها دور محوري، وأخرى أسندت قيادتها للعبيد، ونقف هنا عند الإشارة التي أوردها الأستاذ عبد الإله بنمليح بخصوص مرافقة أحد العبيد للبعثة الموفدة من قبل المعتمد ابن عباد إلى يوسف ابن تاشفين سنة 474هـ / 1081م بغرض الإستغاثة، وهي الإشارة التي لم تتكرر خلال العهد الموحيدي. في حين وقفنا على إشارات مماثلة خلال الفترة المرينية، حيث ذكرت بعض المصادر مشاركة عدد من العبيد في بعض البعثات الدبلوماسية أبرزهم عنبر الخصي الذي وردت بخصوصه إشارتين، الأولى في البعثة التي أوفدها السلطان أبو الحسن المريني لتعزية منسى سليمان سلطان مالي في وفاة أبيه منسى موسى وتهنئته بتولي الحكم سنة 737هـ/1337م⁵²³، والإشارة الثانية سنة 746هـ/1345م في السفارة الموفدة من قبل السلطان أبي الحسن المريني لخطبة الأميرة عزونة بنت السلطان الحفصي أبي بكر المتوكل على الله⁵²⁴. كما التقطنا إشارة أخرى بخصوص عبد مملوك اسمه غالب يرجح أنه قاد سفارة

⁵²³ الناصري، م. س.، 2، ص 46، انظر أيضاً المقري، نفح طيب، م. س.، ج 4، ص 402؛ و ابن خلدون، العبر، م. س.، ص 1968.

⁵²⁴ نفسه، م. س.، ج 2، ص 47؛ انظر أيضاً الزركشي، م. س.، ص 78.

السلطان الغرناطي أبي الحجاج يوسف الأول بغرض تهنئة السلطان المريني أبي عنان فارس سنة 752هـ / 1351م، وهي السفارة التي حفظ لنا لسان الدين ابن الخطيب نص رسالتها، وقد جاء فيها بخصوص المملوك غالب على لسان السلطان النصري :

" فبعثنا في هذا مولى نعمتنا "غالبا" وصل الله له - بالوجهة إلى بابكم أسباب الوجهة، وحفظ عليه لباس الخصوة والنباهة. وألقينا اليه في هذا المعنى ما يجري غايته...⁵²⁵

وهذا المقتطف من الرسالة يوضح أن غالباً كان يُعد من خاصة السلطان إلى درجة أنه تقلد مهام السفارة، وحظي بالذكر والتنويه في رسالة أبي الحجاج، وهو الأمر الذي لم نجد له نظيراً في بقية الرسائل، التي غالباً ما كانت تُحجم على ذكر العبيد والخدم مقابل الثناء والإطراء على حامل الرسالة الذي يكون ذي المكانة الاجتماعية الرفيعة.

وبموازاة ذلك، رصدنا إشارات أخرى بخصوص حضور العبيد في عدد من البعثات المتبادلة بين المغرب والأندلس خلال الفترة المرينية دون تخصيصهم بالاسم، حيث اكتفت بعض المصادر والرسائل الدبلوماسية بالإشارة إلى وظيفتهم، حيث وردت الإشارة في رسالة السلطان أبي الحجاج يوسف إلى أبي عنان المريني إلى مهنة البازاري " المكلف برعاية الصقور" وذلك في معرض حديثه عن مرافق هديته الموجهة لأبي عنان سنة 753هـ / 1352م، التي كانت عبارة عن باز بقوله :

" وأوفدنا بازريانا الخديم فلان".⁵²⁶

وفي سياق ذاته نشير إلى عدد من الزعانفة الذين قدموا مع سفارة عبد الله بن زمرك إلى فاس من أجل قتل لسان الدين ابن الخطيب سنة 776هـ / 1374م⁵²⁷.

وهكذا لم تخل البعثات الدبلوماسية من العبيد وهو الأمر الذي أكدته الإشارات السالفة الذكر، وهو حضور نوعي بالنظر إلى المهام التي كانت تسند إليهم والتي كانت تتمحور في الغالب حول تقديم بعض الخدمات لأفراد البعثة، والسهرة على سلامة الهدايا المرفقة بها خاصة الحيوانات التي تتطلب رعاية

⁵²⁵ ابن الخطيب، كناسة الدكان، م. س.، صص 74 - 77

⁵²⁶ نفسه، م. س.، صص 115 - 121.

⁵²⁷ النصري، ج 2، م. س.، ص 142.

خاصة، ولا يعدو تكليف المملوك غالب بمهمة دبلوماسية إلا استثناء لأن أدوار العبيد كانت محددة سلفاً ومتعارف عليها. ومن جهة أخرى، لا يجب أن نغفل أن عدداً من كبار رجال الدولة كانوا في الأصل خلال هذه الفترة عبيداً، والأكيد أن عدداً منهم تقلدوا مهام دبلوماسية من دون أن تتم الإشارة إلى ماضيهم الوظيفي، ولا يعني صمت الوثائق الدبلوماسية والكتب المصدرة عن ذكرهم أو ذكر حضور العبيد في العمل الدبلوماسي الوسيط غيابهم الكلي، بقدر ما يعكس الذهنية السائدة آنذاك لدى المملوك والسلطين والمؤرخين والإخباريين الذين تغاضوا عمداً عن ذكر حضور هذه الفئة في العمل الدبلوماسي وحجبوها وراء الحضور الطاعي لذوي المكانة الاجتماعية الرفيعة. والجدير بالذكر، أنه على الرغم من المكانة الدونية للعبيد والخدم فإنهم كانوا يحظون بالامتيازات نفسها التي تمنح عادة للسفير أو الرسول، كالحماية، وحرية التنقل وغيرها من الامتيازات التي سوف يرد ذكرها في المباحث اللاحقة.

وارتباطاً بالموضوع ذاته، راودتنا مجموعة من التساؤلات بخصوص حضور العبيد في المشهد السياسي الداخلي والخارجي في الغرب الإسلامي، فحاولنا الإجابة عنها عن طريق طرق أبواب مجموعة من المصادر والمراجع، أبرزها مؤلف الأستاذ عبد الإله بنمليح "الرق في المغرب والأندلس" الذي يعد أحد أهم المراجع التي تعرضت لهذا الموضوع خلال الفترة الوسيطية، وقد أفرد الأستاذ خلال عمله فصلاً كاملاً ومباحث عديدة للحضور السياسي للعبيد، رصد من خلالها أبرز هذا الحضور في الخطاب والممارسة السياسيتين وتعدد أدوارهم وتأثيرهم في النخب وفي صناعة القرار السياسي الداخلي والخارجي، وهو ما أسهم بشكل كبير في فهم طبيعة العلاقة بين السلطة والرق في الغرب الإسلامي الوسيط ودورهم في توجيه وتنفيذ السياسة الخارجية للدول المتعاقبة على حكم المغرب خلال الفترة الوسيطية، بالإضافة إلى إسهامه في توفير مادة مرجعية غنية يمكن الاعتماد عليها من قبل الباحثين للقيام بدراسة مقارنة بين علاقة السلطة بالعبيد في ضفتي المتوسط خلال الفترة الوسيطية، أي بين عالمين متجاورين شغل الرقيق فيهما دوراً محورياً في تأسيس كياناتها وازدهارها وأفول بعضها.

وانطلاقاً من هذا العمل رصدنا الوعي المبكر لدى مختلف الفاعلين السياسيين الوسيطين في الغرب الإسلامي بالأدوار التي يمكن للعبيد الاضطلاع بها سياسياً وإدارياً من أجل دعمهم في مواجهة خصومهم وتأسيس كياناتهم وتوطيد أركانها، وهو الوعي الذي كان وراء سعيهم الحثيث إلى توظيف الرقيق في روزناماتهم الخاصة من أجل بلوغ أهدافهم ومراميهم السياسية.

لقد سعى مختلف ملوك وسلاطين الدول المتعاقبة على حكم الغرب الإسلامي خلال الفترة الوسيطية إلى الرفع من عدد العبيد لديهم عن طريق السبي والشراء، كما سعوا إلى ضمان ولائهم عن طريق إغداق الامتيازات والأموال على فئة منهم، وهو ما يؤكد الخطاب السياسي الرسمي الذي يحفل بمجموعة من الخُطب التي عملت من خلالها السلطة تارة على تذكير نُخب الرقيق بالمنعم عليها بالمكانة الرفيعة التي يحظون بها بالقرب من كبار رجال الدولة، وتارة أخرى بتحذيرهم من مغبة الخيانة والانقلاب والتحالف مع قوى المعارضة. في حين سعت المعارضة والحركات المناوئة للسلطة من خلال خطابها السياسي إلى بث الفرقة والشقاق بين السلطة والرقيق، من خلال اعتماد مجموعة من المفاهيم المتعلقة بالتححرر والإعتاق من نير العبودية من أجل تحفيزهم على الانسلاخ عنها والثورة ضدها.

ولقد عملت السُّلطة بالغرب الإسلامي منذ عصر الولاة إلى حدود الدولة المرينية على اصطناع نُخبٍ موالية ومحيدة وغير مرتبطة بالعصبية ولا بالتيارات السياسية المنافسة لها. وإلى جانب ذلك، كانت رغبة مختلف الكيانات السياسية المتعاقبة على حكم الغرب الإسلامي الوسيط في ضبط إدارة الدولة، وتعزيز نفوذها ومواجهة خصوم الداخل والخارج، سبباً في سعيهم الصريح للاستفادة من القوة العددية والفعالية التنظيمية التي تميزت بها بعض مجموعات الرقيق، وذلك مقابل مجموعة من الامتيازات السياسية والمالية المجزية التي كان لها بالغ الأثر في تسريع وتيرة الترقى الاجتماعي لعدد من العبيد وصولاً إلى تقلد بعضهم لمناصب رفيعة في قمة هرم السُّلطة.

ومقابل الامتيازات والمكانة الرفيعة التي حصلت عليها بعض مجموعات الرقيق في الغرب الإسلامي "كالصقالبة"، انخرط الرقيق بقوة في إدارة الكيانات السياسية التي ينتمون إليها لإنتفاء الموانع الشرعية، إذ لم تشترط المنظومة الفقهية الحرية لتقلد المناصب الإدارية الهامة أو الوظائف الصغيرة والمتوسطة، وهو الأمر الذي حفز رجال الدولة على ضم المئات من العبيد لتعزيز إداراتهم ومؤسساتهم، حيث أصبح أمر اعتمادهم للتدبير الشؤون الإدارية والمالية⁵²⁸ متداولاً في المجال والزمان الوسيطيين؛ وفي هذا السياق، قدم الأستاذ عبد الإله بنمليح نماذج عديدة عن حضور الرقيق في الإدارة وعن المكانة الرفيعة التي ارتقى إليها عدد منهم، كبدر الصقلي 305 هـ / 918 م، الذي كان إلى جانب وظيفته الاستشارية يُشرف على البريد ويقود الحملات العسكرية⁵²⁹، كما قدم أمثلة عن توظيف الرقيق في الوظائف المتوسطة

⁵²⁸ تحدث الأستاذ عبد الإله بنمليح في عدد من أعماله عن إسناد أمور الجباية في الدولة المغربية الوسيطية ما قبل المرابطية لعبيد نصارى حيث تولوا الإشراف على أمور الخراج.

⁵²⁹ عبد الإله بنمليح، م.س.، ص 504.

والصغيرة كإقدام عبد الله بن محمد الكاتب عامل إفريقية من قبل يوسف بن زيري 372 - 373هـ / 983 - 984م على شراء عدد كبير من العبيد السود وتوظيفهم في الإدارة الزيرية.

والجدير بالذكر، أن معظم المناصب العليا التي شغلها الرقيق ارتبطت بالتدبير الإداري كالحجابة والإشراف على شؤون البلاط، فعلى سبيل المثال لا الحصر. وباستثناء اثنين من حجاب الخلفاء الموحدين، فإن بقية الحجاب كانوا عبيداً أو موالى، كما تقلد بعضهم منصب السفارة في الأندلس⁵³⁰، في حين تولى بعضهم الآخر الإشراف على ولاية العهد، كما حدث في دولة بني زيري في إفريقية حين تولى الأمير الحسن بن علي الزيري الحكم وعمره 12 سنة، فقام بأمره مولاة صندل ثم مولاة موفق⁵³¹.

وتحدث أيضاً الأستاذ عبد الإله بنمليح في سياق تتبعه للحضور السياسي للرقيق في الغرب الإسلامي الوسيط عن تقلد عدد من العبيد لمناصب الوزارة والولاية، مورداً مجموعة من الأمثلة على ذلك أبرزها عبد إسمه الناية، كان حاكماً لإشبيلية قبل أن يغدو منافساً للوزير اليهودي ابن النغيلة في غرناطة الزيرية⁵³².

وفي هذا الإطار، ارتأينا تجميع المعطيات المتعلقة بالوظائف الرسمية التي أسندت للرقيق من خلال مؤلف الأستاذ عبد الإله بنمليح " الرق في بلاد المغرب والأندلس " في جدول جامع، نظراً لأهميتها البالغة في تعميق فهم خصائص حضور العبيد في الإدارة الوسيطة.

⁵³⁰ عبد الإله بنمليح ، م.س.، ص 506.

⁵³¹ نفسه، ص 506.

⁵³² نفسه، ص 507.

جدول الوظائف الرسمية التي شغلها بعض الرقيق
في بلاد المغرب والأندلس في العصر الوسيط
من خلال كتاب " الرق في بلاد المغرب والأندلس "

الاسم	الأصل	الوظيفة	السلطة الحاكمة أو الفترة الزمنية	ملاحظات
1 تليد	—	والي برقة	الوالي الأموي على مصر عبد العزيز بن مروان	معارضة أهل المدينة توليته لأنه عبد
2 فتح	—	حاجب	إبراهيم بن احمد الأغلب	—
3 أبو سعيد بن عثمان بن سعيد السلجماسي	رومي	حاجب	الخليفة عبيد الله الفاطمي	—
4 أفلح	صقلي	صاحب الخيل	عبد الرحمان الناصر	—
5 الدري	صقلي	الرئيس الأعلى للشرطة	عبد الرحمان الناصر	—
6 طرفة	صقلي	صاحب المطبخ	عبد الرحمان الناصر	—
7 قند	صقلي	حاكم طليطلة	948 م	—
8 خلف الفتي الكبير	صقلي	مدير الطراز	925 م	—
9 أبي الفتح نصر الخصي	صقلي	• خلفية الأمير عبد الرحمان بن الحكم • مدير القصر	توفي سنة 851م	—
10 جعفر الصقلي الفتي الكبير	صقلي	حاجب	962م الحكم المستنصر	—
11 فائق النظامي	صقلي	صاحب البرد والطراز	الحكم المستنصر	—
12 جؤذر	صقلي	صاحب الصاغة والبيارزة	الحكم المستنصر	—
13 الميورقي	ميورقي	• كبير خدم المنصور • المشرف على أمر داره وخدمه	المنصور بن أبي عامر	—
14 سكر	—	المشرف على القصر	عينه الحاجب المصحفي	—
15 صابر الفتي	صقلي	عامل القيروان	الدولة الفاطمية	—
16 نسيم الفتي	صقلي	عامل القيروان	الدولة الفاطمية	—
17 ميسور الفتي	—	قائد عسكري	عبيد الله والخليفة القائم الفاطمي	—
18 جوهر الصقلي	رومي	قائد عسكري	الخليفة المنصور والخليفة المعز الفاطمي	—
19 صندل الفتي	صقلي	قائد عسكري	الدولة الفاطمية	—
20 نجاء الصقلي	صقلي	• قائد عسكري	الدولة الحمودية	—

				الإدريسة بداية القرن 15 م	• وزير • حاكم للثغر الأوسط في الأندلس
21	بدر الصقلي	صقلي	• صاحب السيف " وزير" • معلم للفروسية • صاحب البريد • المساعد الرئيسي للخليفة • قائد عسكري	عبد الرحمن الناصر	—
22	أبو محمد السنار	زنجي	حاجب	المهدي بن تومرت	عدد من الروايات لا تنص على كونه عبد
23	كافور	—	حاجب	يوسف بن عبد المومن	—
24	عنبر	صقلي	حاجب	يعقوب المنصور الموحدي	مولي خصي اختلف في أصله بين صقلي أو اسود
25	ريحان بينك	صقلي	حاجب	يعقوب المنصور الموحدي محمد الناصر	مولي خصي
26	فضيل	صقلي	حاجب	يعقوب المنصور الموحدي	مولي خصي اختلف في أصله بين صقلي اسود
27	مجهول الاسم	—	سفير	المعتمد بن عباد	ضم الوفد السفاري الذي توجه إلى يوسف بن تاشفين قضاة وعلماء
28	مبشر	يرجع انه كان اسود	حاجب	محمد الناصر الموحدي	خصي
29	فارح المكى بابي السرور	—	حاجب	يوسف الموحدي	—
30	الفتى عنبر	صقلي	حاجب	الرشيد الموحدي	—
31	صندل	—	الوصاية على ولي العهد	الأمير حسن بن علي الزيري	—
32	موفق	—	الوصاية على ولي العهد	الأمير حسن بن علي الزيري	—
33	الناية	—	حاكم اشبيلية	—	بعد اشبيلية انتقل إلى غرناطة
34	الناية	—	مُقرب من السلطان	أمير غرناطة الزيرية باديس	لم يكن له منصب رسمي غير أن مرتبته ضاهت مرتبة الوزير

35	ليبب الخصي	—	والي غرناطة	صالح بن زيري	—
36	ناصح	—	صاحب ديوان سبتة	الخليفة الموحي الناصر	—

انطلاقاً من الجدول أعلاه يتضح أن معظم المناصب الواردة فيه شغلها عبيد بيضُ البشرة وأوروبيو الأصل، وأن حضور العبيد سود البشرة في المناصب العليا قليلٌ ومختلف عليه، حيث تضاربت الآراء حول أصل ولون بشرة اثنين من العبيد الذين تقلدوا مناصب رفيعة، فيما اتفق على لون بشرة أبو محمد السنار السوداء واختُلف في كونه عبداً، الأمر الذي يوحي بأنه كان للأصل ولون البشرة دور مهم في ترقى العبد وشغله أعلى المناصب في الهرم الإداري والسياسي للدولة.

ومع ارتفاع أعداد العبيد⁵³³ وتعاضم حجم المهام المنوطة بهم وتراكم الامتيازات المالية والسياسية لدى فئة منهم، بالإضافة إلى تهافت معظم الفاعلين السياسيين على خدماتهم في ظل احتدام الصراع على السلطة، سعى عدد من العبيد إلى محاولة استغلال وزنهم السياسي للحصول على المزيد من الامتيازات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، عن طريق استغلال الصراع بين الفاعلين السياسيين الطامحين للسلطة والموجودين في قمة هرمها، وفي هذا الصدد ساق الأستاذ عبد الإله بنمليح أنموذج الرقيق الصقالبة في علاقتهم بالسلطة خلال الفترة الأموية، مبرزاً المكانة الرفيعة التي بلغوها خلال الفترات المتأخرة من الخلافة والفترة الانتقالية إلى دويلات الطوائف، والتأثير الذي أصبح لديهم بعد أن اشتد تهافت مختلف القوى السياسية عليهم، مذكراً في الآن ذاته بما ذهب إليه ابن خلدون من ربط استعانة السلطة بالعبيد بمراحل ضعف الدولة. غير أن ابن خلدون لا ينفي الاستعانة بهم في مراحل القوة، إذ يُفهم من كلامه أن الاستعانة بالعبيد في مراحل ضعف السلطة وتفرقها بين مختلف الفاعلين المتصارعين، يُفسح المجال لتعاظم تأثير العبيد في المشهد السياسي، وتوجيهه لخدمة مصالحهم وتطلعاتهم، وذلك بخلاف الاستعانة بهم زمن القوة حين تفرض الدولة سلطانها وهيبتها وتحدد صلاحيات العبيد بما لا يتجاوز إرادة الماسكين بزمامها.

⁵³³ ذكر الأستاذ عبد الإله بنمليح في كتاب الرق في بلاد المغرب والأندلس أنه في عهد الناصر كان في قرطبة لوحدها أكثر من 10 آلاف و 20 ألف صقلي، كان منهم الرئيس الأعلى الشرطة وحاكم طليطلة ومدير الطراز.

وبخصوص الإماء، فإنه على الرغم من توارى معظمهن وراء جدران القصور، إلا أن أخبار تأثيرهن في المشهد السياسي تسربت إلى كتب الإخباريين والمؤرخين، وهو الأمر الذي تتبعه بعناية ودقة الأستاذ بعبد الإله بنمليح حين تطرق لتأثير زوجات الخلفاء على قراراتهم السياسية وعلى اختيار خلفائهم، وقدم في هذا الإطار مجموعة من الأمثلة، كالـ دور الذي لعبته صُبح البشكنشية إحدى حظايا الخليفة المستنصر في ارتقاء محمد بن أبي عامر أعلى المراتب وفي تولية ابنها هشام منصب الخلافة، والدور الذي اضطلعت به قمر زوجة الخليفة الموحي علي بن يوسف في صرف ولاية العهد عن تاشفين بن علي بن إسحاق⁵³⁴، وكذلك الدور الذي لعبته حُبابة جارية المأمون الموحي وزوجته في توطيد الأمر لابنها الرشيد بعد وفاة الخليفة عن طريق كتمانها خبر وفاته وتواصلها مع كبار رجال الدولة وتنظيم عملية البيعة.

كما أشار الأستاذ بنمليح إلى التأثير الذي مارسته أمهات الخلفاء في القرارات الصادرة عنهم، مع التذكير أن معظمهن كن إماء وجواري في قصور الخلفاء والأمراء، ونبه إلى تأثير التنشئة بين الرقيق على شخصية عدد من رجال الدولة وعلى طريقة تديبرهم للحكم بعد تسلمهم مقاليد السُلطة، كصاحب طليطلة يحيى القادر ابن ذي النون، الذي تحدثت بعض المصادر عن نشأته بين العبيد الخصيان والغانيات، فشب ضعيف الشخصية، مسلوب الإرادة ومغلوباً على أمره من قبل عبيده.

خلاصة القول، أنه على الرغم من تغييب رسائل الملوك والسلطين وكتب المؤرخين والإخباريين لحضور العبيد في العمل الدبلوماسي إلا أن الإشارات القليلة الملتقطة مكنتنا من تكوين صورة عن طبيعة حضورهم وخصوصية أدوارهم في البعثات الدبلوماسية التي كانوا يرافقونها، ومقابل إحجام الكتب المصدريّة عن الحديث عن دور العبيد أحد أدوات العمل الدبلوماسي وجدنا أنها أفردت مساحات كبيرة للحديث عن دورهم في المشهد السياسي الداخلي خاصة أن عدداً منهم تقلدوا مناصب رفيعة في هرم السُلطة، فكان ذكرهم رهينا بالمكانة الاجتماعية التي ارتقوا إليها في حين طال النسيان بقية العبيد، شأنهم في ذلك شأن المهمشين الذين تغافلت عنهم كتب التاريخ.

⁵³⁴ عبد الإله بنمليح، م.س.، ص 493.

4- معطيات إحصائية عن العمل الدبلوماسي

قادنا المبحث السابق الذي خصصناه لدراسة المعايير المعتمدة لاختيار المبعوثين الدبلوماسيين خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط، وكذلك لدراسة خصائص حضور الأقليات الدينية والوظيفة في العمل الدبلوماسي ، إلى عرض المعطيات التي اجتمعت لدينا بخصوص 270 سفارة، ضمت 433 مبعوث، حاولنا ترتيبها في إطار جدول جامع مقسم إلى ثلاث فقرات وفق تسلسل كرونولوجي، ابتداء بالدولة المرابطية وانتهاء بالدولة المرينية، حيث عملنا على تضمين الجدول معلومات تتعلق بالبلد الموفد والبلد الموفد إليه، مع الإشارة إلى حكاهما وتاريخ توليهم الحكم وانقضائه، وتاريخ إيفاد السفارة وأعضائها، مع ذكر أسمائهم وخلفياتهم الوظيفية وانتمائهم الديني، بالإضافة إلى تحديد أغراض السفارة والهدايا المرافقة لها، كما خصصنا خانة لتدوين الملاحظات المتعلقة بالسفارة من دون أن نغفل الإشارة إلى المصادر التي استقينها منها المعلومات الواردة في الجدول.

جدول رقم : 19

المنطلق	الوجهة	التاريخ	أفراد البعثة	الغرض	الهدايا	ملاحظات	المصدر
1	الأندلس	الدولة المرابطية (يوسف بن تاشفين)	474 هـ ربيع الثاني سبتمبر 1081 م	سفارة شعبية وفدت عن أهل الأندلس أو وفد عن المعتمد "حسب ابن أبي زرع"	الإخبار بأحوال الأندلس والاستغاثة	—	وعد يوسف بن تاشفين الوفد الأندلسي بإجابة طلبهم بعد الاستيلاء على سبتة. ابن أبي زرع، الأنييس، م س، ص 181.
2	الأندلس ملوك الطوائف	الدولة المرابطية (يوسف بن تاشفين)	د ت	- الكاتب أبو بكر ابن القصيرة - قاضي قرطبة أبو بكر عبيد الله بن أدهم - قاضي بطليوس أبي اسحاق بن ماقانا - أبو جعفر القلعي قاضي غرناطة - الوزير أبو بكر بن زيدون	استغاثة	مجموعة هدايا لم تُعرف كما أو نوعاً.	أورد الناصري أن يوسف بن تاشفين لم يعي معنى الكتاب المرسل مع السفارة فتطلب الأمر ترجمة. بعض المعلومات التي أوردها عبد الهادي التازي لا تتضمن إحالات. الناصري، م س، م 1، ص 199 – 200. التازي، الوسيط، ج 1، ص 246.
3	الدولة المرابطية (يوسف بن تاشفين)	الأندلس (المعتمد بن عباد)	د ت	كاتب المعتمد بن عباد: أبو بكر ابن القصيرة	رسالة جوابية على رسالة الاستغاثة	عدة هدايا بينها درق لمط	وافق يوسف بن تاشفين على طلب المعتمد وقرن جوازه بتوحيد الصف الداخلي. الناصري، م س، م 1، ص 200.
4	الأندلس (المعتمد بن عباد)	الدولة المرابطية (يوسف بن تاشفين)	479 هـ ربيع الأول يونيو 1086 م	المعتمد بن عباد	استقبال ومرافقة يوسف بن تاشفين وإخباره بمستجدات الأندلس.	—	رجع المعتمد بن عباد وحيداً إلى الأندلس وتنازل عن الجزيرة الخضراء للمرابطين الناصري، م س، م 1، ص 198. المراكشي، المعجب، ص 116-117. ابن أبي زرع، الأنييس، م س، ص 183.

5	الأندلس	الدولة المرابطية (يوسف بن تاشفين)	479 هـ 1086 م	سفارة شعبية عبارة عن وفد من وجوه أهل الأندلس	- الإخبار بأحوال الأندلس - الاستغاثة	—	—	مجهول، م س، ص 37.
6	الدولة المرابطية (يوسف بن تاشفين)	مملكة قشتالة (ألفونسو السادس)	رجب 479 هـ أكتوبر 1086 م	لم يعرف	الدعوة إلى لإسلام أو دفع الجزية	—	—	ابن أبي زرع، الأنيس، م س، ص 185.
7	الدولة المرابطية (يوسف بن تاشفين)	دولة بنو زيري (الناصر لدين الله تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي 417- 501 هـ 1027- 1108 م)	رجب 479 هـ أكتوبر 1086 م	لم يعرف	الإخبار بالانتصار في معركة الزلاقة	—	—	نفسه، ص 189.
8	الأندلس (المعتمد بن عباد)	الدولة المرابطية (يوسف بن تاشفين)	د ت	المعتمد بن عباد	الاستغاثة	—	عقد لقاء قمة بالمعمورة قرب مصب نهر سبو .	نفسه، ص 192.
9	الأندلس (بنو هود المستعين بالله أبا جعفر بن محمد بن هود)	الدولة المرابطية (يوسف ابن تاشفين)	484 هـ 1091 م	- الأمير مروان عبد الملك بن هود - الوزير أبو الأصبغ الوزير أبو عامر	السلم والمهادنة	أربعة عشر ربعة من أنية الفضة مطرزة باسم ابن هود	أجاب يوسف بن تاشفين الطلب.	مجهول، م س، صص 74 – 75.
10	الدولة المرابطية (يوسف بن تاشفين)	الخلافة العباسية (أبو القاسم عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله المقتدى بأمر الله	482 هـ 1089 م	القاضي عتيق بن عمران بن محمد بن عبد الله السويدي من أهل سبتة.	—	—	أوردت الكاتبة دندش أن السفير المرابطي قدم بغداد وأقام بها سنين عدة، ولدى عودته حاملاً رسالة من ال خليفة العباسي قتله أمير الجيوش الفاطمية بدر الجمالي سنة 484 هـ / 1091 م بالإسكندرية.	دندش، م، س، ص 177.

						467 - 487 هـ (1095 - 1094 م)		
11	الخليفة العباسية بغداد (أحمد المتسظهر بالله العباسي 487 - 512 هـ - 1094 - 1118 م)	الدولة المرابطية (يوسف بن تاشفين)	491 هـ 1097 م تاريخ السفارة لا يتعلق بوصول البعثة إلى المغرب إنما بتاريخ كتابة الرسالة من قبل الوزير العباسي ابن جهيز.	-الشيخ الفقيه قاضي أبو محمد بن محمد المعروف بابن العربي. -أبو بكر ابن العربي.	إقرار وتفويض	—	لم نعث في المصادر التي توفرت لدينا على ما يؤكد أن الشيخ وابنه توجهوا إلى بغداد بطلب من يوسف ابن تاشفين، لذا لم ندرج مخاطبة الفقيه وابنه للخليفة العباسي في سياق العمل الدبلوماسي. بالمقابل أدرجنا نقلهما لرسالة المستظهر ووزيره لابن تاشفين في سياق العمل الدبلوماسي بالنظر إلى طبيعة المهمة التي عهد إليهما بها من قبل الخليفة العباسي. جدير بالذكر أن الكاتبة دندنش أشارت إلى خلاف ما أوردته في مستهل عملها، حيث تحدثت عن ترشيح الأمير المرابطي سير بن أبي بكر ابن العربي للسفارة للأمير يوسف بن تاشفين وهو الأمر الذي وافق عليه حسب قولها.	نفسه، صص 171 و 190 - 195.
12	مملكة بني هود	الدولة المرابطية (علي بن يوسف 1143 - 1106 م)	د ت عقب وفاة يوسف بن تاشفين	أمير من بني هود لم يعرف	تذكير بعهود الأمير يوسف بن تاشفين	—	—	التازي، الوسيط، م س، ج 1، ص 271.

13	الأندلس	الدولة الموحدية (عبد المومن بن علي 1163 – 1133م)	2 محرم 546 هـ 20 أبريل 1151م	سفارة شعبية ضمت خمسائة فارس، وعدداً من الخطباء والفقهاء والقضاة والأشياخ والقواد، منهم القاضي أبو القاسم محمد بن الحاج. ⁵³⁶	الأخبار بأحوال الأندلس والاستغاثة	—	تلقاهم الوزير أبو إبراهيم والوزير أبو حفص والفقهاء الكاتب الوزير احمد بن عطية ⁵³⁵ وأشياخ الموحدين بمدينة سلا .	ابن أبي زرع، الأنييس، م س، صص 248- 249.
14	جمهورية بيزة حكام بيزة	الدولة الموحدية (أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن 1138 – 1184م)	4 رجب 561 هـ 5 ماي 1166 م	القنصل كوكو كريفلي Coco Griffi	الحصول على امتيازات تجارية	—	الموافقة على منحهم عدد من الامتيازات التجارية منها إقامة فندق تجاري .	التازي، الوسيط، م س، ج 1، ص 73.
15	مملكة ليون (فرناندو الثاني Fernando II 1157 – 1188م)	الدولة الموحدية (أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن)	رمضان 563 هـ يونيو 1168م	فرناندو رودريكز دي كاسترو صهر ملك ليون وأخويه	اتفاق صلح وتحالف		قبول الخليفة بعقد الحلف، والقيام بحملات عسكرية ضد مملكة البرتغال وقشتالة. طلب السفير الإذن من والي اشبيلية في القدوم على الخليفة بمراكش، الذي بعث إليه برقااص يستأذنه في قدوم السفارة التي أقامت خمسة أشهر في دار خاصة اسمها " دار الكرامة".	ابن عذارى، البيان، قسم الموحدين، م س، 103- 104.

⁵³⁵ أحمد بن جعفر بن محمد ابن عطية القضاعي : أديب ووزير شهير من أهل مراكش ولد بها عام 517هـ، كتب دون العشرين في ديوان أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، ثم عمل في ديوان ابنه الأمير تاشفين، وخدم في ديوان الخليفة عبد المومن بن علي، وعين كاتباً ووزيراً ومستشاراً إلى أن تغير عليه وقتله بالقرب من حصن تاغمرت بين مراكش وتينمل يوم 29 صفر عام 553 هـ/ 1 أبريل سنة 1158: ابن أبي زرع، الأنييس، م س، ص 248.

⁵³⁶ محمد بن محمد ابن الحاج التجيبي القرطبي: كان من أهل العلم بالرأي والحفظ للمسائل ذاكرة للخلاف، ولم تكن له معرفة للحديث ولا اعتناء بصناعته، موقراً جليلاً ذا أهبة وشارة جميلة، ولي قضاء الجماعة ببلده وقتا، وكان من عادته أن يفد على أمير المؤمنين بين الحين والآخر في غرض التهئة وغيرها، كانت وفاته باشبيلية سنة 571هـ؛ نفسه، ص 249.

16	الدولة الموحدية (أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن)	مملكة ليون (فرناندو الثاني Fernando II 1157-1188م)	ربيع الأول 566 هـ 11 نوفمبر 1170م	أبو محمد سيداري / ابن وزير أبو العلاء عزون	تجديد الهدنة التي وقعت في رمضان 563م	_____	تأكيد ملك ليون تشبثه بمقتضيات المعاهدة	ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، م س، ص 315.
17	الدولة الموحدية (أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن)	مملكة ليون (فرناندو الثاني "الببوج ابن أذفونش") الملقب بالسليطين حسب ابن عذاري	570 هـ 1174 م	أبو محمد بن جامع ابن عزون أبو زكرياء الكومي	طلب الصلح والدعم العسكري في مواجهة صاحب طليطلة القمط نونة " الفونصو الثامن ملك قشتالة"	مال كثير منت منظوم بالجواهر	_____	ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، م س، صص 130 – 131.
18	مملكة صقلية (Guillaume Il le Bon غيوم الثاني 1166 – 1189م)	الدولة الموحدية (أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن)	يرجع 575 هـ 1179م	لم يُعرف	اتفاق صلح	أداء الجزية السنوية	تحدث المراكشي في المعجب عن مبدأ حسن معاملة الموحدين لمن يغلبونهم من الملوك.	المراكشي، المعجب، م س، ص 212.
19	جمهورية بيزة (حكام بيزة)	الدولة الموحدية (أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن)	7 ذو الحجة 576 هـ 23 أبريل 1181 م	لم يُعرف	إطلاق سراح بعض التجار البيزيين الذين جنحت سفينتهم بسواحل طرابلس .	_____	_____	Amari, op.cit, pp. 7-9 .
20	جمهورية بيزة (حكام بيزة)	الدولة الموحدية (أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن)	4 محرم 577 هـ 19 ماي 1181 م	لم يُعرف	اتفاق بخصوص بعض المسائل التجارية المتعلقة بتجارة الجلود المدبوعة بمدينة بجاية.	_____	_____	De Mas latri, T 1 op.cit, p.28

21	جمهورية بيزة (حكام بيزة)	الدولة الموحدية (أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن)	15 صفر 577 هـ 1 يوليو 1182 م	لم يعرف	طلب حصر الرسوم والضرائب المفروضة على التجار البيزيين في حدود العشر.	—	—	Amari, op.cit, pp. 11- 13 .
22	جمهورية بيزة (حكام بيزة)	الدولة الموحدية (أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور)	2 رمضان 582 هـ 15 نوفمبر 1186 م	أطروان بن تدسك وفد مرافق من الزعماء والأعيان	اتفاق سلم وتجارة	—	يعقوب المنصور أول من كتب العلامة بيده من الموحدين معتمداً العبارة التالية " الحمد لله وحده". ⁵³⁷	Amari, op.cit, pp. 22 – 17.
23	الدولة الأيوبية (صلاح الدين الأيوبي)	الدولة الموحدية (أبو يوسف يعقوب ابن يوسف المنصور)	شعبان 586 هـ سبتمبر 1190 م	الأمير شمس الدين عبد الرحمان بن منقذ ⁵⁴¹	طلب تدخل الأسطول الموحيدي لقطع الطريق على الإمداد البحري الصقلي للصليبيين المحاصرين لعكا.	مصحفين ثلاثمائة مثقال عنبر عشرة قلائد عشرة أمانان دهان بلسان قسي بأوتارها قوسان سروج نصول سيوف هندية نشاب ناسخ خاص مريش، صندوق خشب مجلدة سبع مائة سهم	تناقلت المصادر التي توفرت لدينا رسالتين نسبتا إلى سفارة بن منقذ، الرسالة الأولى لم تشر إلى ابن منقذ في حين ضمت الرسالة الثانية فقرة كاملة عرف من خلالها صلاح الدين به. الرسالة التي وجهها صلاح الدين الأيوبي من إنشاء مستشاره وكتابه الخاص القاضي الفاضل. "عاد بن منقذ سنة 577 بغير فائدة، وبعث معه هدية حقيرة، وأما بان منقذ فإنه أحسن إليه وأغناه، لا لأجل	المقري، نفع الطيب، م س، ج، 1، صص 444 - 44 5. Lévi PROVENÇAL , p.13. ⁵³⁸ ابن واصل، مفرج الكروب، صص 505 - 511، ج 2.

⁵³⁷ ابن أبي زرع، الأنيس، م س، ص 286.

⁵³⁸ LÉVI PROVENÇAL, Evariste - Un recueil de lettres officielles almohades: Hisperess, 1941, T. XXVIII, fascicule unique, 'Abd ar-Rah'im al-Baisànî, plus souvent désigné sous son surnom d'al-Qād'î alFād'i, p. 13.

⁵⁴¹ أبا الحرث عبد الرحمان بن منقذ من بيت بني منقذ ملوك شيزر من حصون الشام، الناصري، م 1، ص 301.

24	الدولة الأيوبية (صلاح الدين الأيوبي)	الدولة الموحدية (أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور)	586 هـ 1190 م	الأمير مرهف المنقذي	استعجال السفير بن منقذ في الإلحاح على الخليفة الموحي لإجابة طلبه.	—	—	التازي، الوسيط، م س، ج 2، ص 119 -
								القلقشندي، م س، ج 6، صص 527 - 530. وفي ذات السياق قال الناصري "وبعث صلاح الدين صريحة إلى المنصور سنة 585 هـ يطلب إعانته بالأساطيل" 539.173. ذكر ابن خلدون أن يعقوب المنصور رفض إجابة طلب صلاح الدين، غير أنه قال بعد ذلك "ويقال أنه جهز له بعد ذلك 180 أسطولاً ومنع النصاري من سواحل الشام". ابن خلدون، العبر، م س، ص 1680. المراكشي، البيان، قسم الموحيدين، م س، ص 209.

⁵³⁹الدمشقي أبي شامة، الروضتين، مطبعة وادي النيل، القاهرة، 1287 هـ، ج 2.

⁵⁴⁰المقري، نفح الطيب م س، م 1، ص 445.

120.								
25	مملكة قشتالة (ألفونسو الثامن Alphonse VIII 1158 - 1214 م)	الدولة الموحدية (أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور)	591 هـ 1194 م	لم يعرف	تهديد بالحرب	—	الناصرى، م س، م 1، صص 303 – 304. ابن أبي زرع الأنيس، م س، صص 290 – 291.	
26	الدولة الموحدية (أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور)	مملكة قشتالة (ألفونسو الثامن)	591 هـ 1194 م	لم يعرف	تهديد بالحرب	—	الناصرى، م س، م 1، صص 303 - 304. ابن أبي زرع الأنيس، م س، ص 290 – 291.	
27	مملكة قشتالة (ألفونسو الثامن)	الدولة الموحدية (أبو يوسف يعقوب بن عبد المومن المنصور)	591 هـ 1194 م	أم وزوجة وبنات ألفونسو الثامن.	طلب العفو والعودة عن حصار طليطلة	—	المقري، نفع الطيب، ج 1، صص 444 – 443. الناصرى، م س، م 1، ص 309.	
28	مملكة قشتالة (ألفونسو	الدولة الموحدية (أبو يوسف	593 هـ 1196 م	لم يعرف	طلب الصلح	—	نفسه، ص 308.	

	الثامن)	يعقوب بن يوسف (المنصور)					
29	مملكة قشتالة (ألفونسو الثامن)	الدولة الموحدية (أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور)	593 - 596 هـ 1197 - 1200 م	لم يعرف	تجديد الهدنة لعشرة سنوات	—	اختلف في تاريخ السفارة أضاف ابن خلدون في العبر "ورغب إليه ملوك النصرانية في السلم فيذله لهم". ص 1680 . ميراندا، م س، ص 393. ابن خلدون، العبر، م س، ص 1680 .
30	مملكة ليون (ألفونسو التاسع) (Alphonse IX -1188 - 1230 م	الدولة الموحدية (أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور)	رمضان 593 هـ غشت 1197 م	لم يعرف	طلب مساعدات عسكرية لمواجهة قشتالة وأراغون.	—	لم يجب يعقوب المنصور طلبه. ميراندا، م س، ص 370.

31	لاطران Latran /Lotario (البابا إينوصان الثالث) Innocent III) - 1198 (1216م)	الدولة الموحدية محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف 1199 - 1213 م	9 جمادى الأولى 595هـ 8 مارس 1199م	وفد يضم عددا من رجال الدين المسيحيين الذين ينتمون للمجمع الديني الثالوث المقدس	افتداء الأسرى التوصية بالمسيحيين المرتزقة العاملين في الجيش الموحد	—	استحدثت على عهد الناصر وظيفة يقوم صاحبها باستقبال وفود الملوك المسيحيين والسهير على إقامتهم والقيام بعملية الترجمة أثناء محادثتهم مع المسؤولين الموحدين وذكرت ميريندا، اسمين هما أبا أوبيل " نرجح أنه تحريف لأبو عبد الله " الذي عوض ابتداء من 1211م بأبي الجليس محارب.	ميراندا، م س، ص 393 Mas latri , T 1, op.cit, p 8 - 9. أوردت الباحثة ميلار Millard, ⁵⁴² p.430. المعلومات المتعلقة بهذه السفارة نقلاً عن وثيقة في الأرشيف السري للفاتيكان AVS. ⁵⁴³
32	الدولة الموحدية عبد الرحمن ابن أبي طاهر ناظر بديوان افريقية	جمهورية بيزة حكام بيزة	أواخر ذي القعدة 596 هـ شتنبر 1200 م	لم يعرف	الاحتجاج على مهاجمة سفن بيزية لمرسى تونس، وإخبارهم باحتجاز سفن بيزية وبيع وسقها على سبيل التعويض.			Amari, op.cit, pp.28 – 23.

⁵⁴² Clara MILLARD, Les papes et le Maghreb aux XIII et XIV siècles, études de lettres pontificales de 1199 à 1419, BREPOLs, Belgique, 2014.

⁵⁴³ ASV, Reg. Vat. 4, F. 148r°-v°.

33	الدولة الموحدية (عبد الرحمان بن أبي حفص صاحب ديوان تونس)	جمهورية بيزة حكام بيزة	ذي القعدة 596 هـ شتنبر 1200 م	لم يعرف	إخبار بتفاصيل حادثة هجوم مراكب بيزية على مرسى تونس .	—	—	Amari. op.cit, , pp. 33- 35 .
34	مملكة نافار (سانشو السابع Sanche VII 1170 – 1234م)	الدولة الموحدية محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف	596 هـ 1200م	سانشو السابع	طلب مساعدة عسكرية لمواجهة قشتالة	—	ذهب إلى الأندلس الموحدية ويرجع أنه ذهب إلى المغرب.	ميراندا، م س، ص 392.
35	مملكة قشتالة (ألفونسو الثامن)	الدولة الموحدية (محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف)	600 هـ 1204 م	الوزير اليهودي إبراهيم ابن الفخار	تجديد الهدنة	—	—	عبد الهادي التازي، الوسيط، م س، ج 2، ص 39. ميراندا، م س، ص 393
36	مملكة اراغون (بيدرو الثاني Pierre II 1196-1213 م)	الدولة الموحدية (محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف)	ربيع الثاني 596 هـ فبراير 1200م	ابن بنيشث Benist يهودي مستعرب مقرب من الملك	—	—	كان الملك الأراغوني بيدرو الثاني مديناً لشخص يدعى استيف ماريمون ب 5000 مصمودية عملة الموحدين، جزء منها ديون عالقة بذمة والده والجزء الآخر تكاليف السفارة التي كان ينوي القيام بها إلى مراكش بنيشث.	نفسه، ص 393.

37	الدولة الموحدية (ناصر بن عبد الله حاكم سبتة)	جمهورية بيزة حكام بيزة	9 جمادى الأولى 597 هـ 11 فبراير 1201 م	الشيخ أنج إسبنوله	طلب إرسال بعثة سفارية بيزية إلى مراكش للقاء الخليفة.	—	—	Amari, op.cit, pp. 36- 37 .
38	الدولة الموحدية (عبد الرحمان بن أبي طاهر الناظر بديوان تونس)	جمهورية بيزة (حكام بيزة)	25 شعبان 597 هـ 27 ماي 1201 م	لم يعرف	إخبار بتطورات حادثة هجوم سفن بيزية على مرسى تونس.	—	—	Amari, op.cit, pp. 38 – 42.
39	الدولة الموحدية (عبد الرحمان بن أبي طاهر الناظر بديوان تونس)	جمهورية بيزة (حكام بيزة)	مستهل رمضان 597 هـ 5 يونيو 1201 م	لم يعرف	إخبار بتطورات حادثة الهجوم على مرسى تونس من قبل سفن بيزية.	—	—	Ibid, pp. 45 -47.
40	الدولة الموحدية (عبد الرحمان تونس)	جمهورية بيزة (الشيخ جرارده الأسكنت حاكم بيزة)	598 هـ 1202 م	أبي الطيب	التوصية بالتجار	—	—	Ibid, pp. 65 68 –.
41	الدولة الموحدية (عبد الرحمان تونس)	جمهورية بيزة (الشيخ جرارده الأسكنت حاكم بيزة)	26 رجب 598 هـ 23 مارس 1202 م	لم يعرف	تجديد عهد الأمان للتجار البيزيين دعوة جمهورية بيزة لقطع العلاقات مع ثوار المهديّة بزعامة الثائر عبد الكريم .	—	—	Ibidem.
42	جمهورية بيزة (Goffredo De visconti)	الدولة الموحدية عبد الواحد الشيخ أبي حفص والي إفريقية	28 ربيع الأول 607 هـ 18 شتنبر 1210 م	جراردو	اتفاق لحماية المسافرين والتجار البيزيين المترددين على المرافئ والمراسي الموحدية .	—	—	أحمد عزاوي، م س، ج 1، صص 256- 255.

43	إنجلترا (الملك جوهن Jean sans terre fils de Henri II ⁵⁴⁸ 1167 - 1216م)	الدولة الموحدية (محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف 1199 – 1213م)	607 - 608 هـ 1211م	هاردينجون توماس T.HARDINGTON فيتز نيكولاس رالف Ralph FITZ NICHOLAS القسيس روبرت أوف لندن ROBERT OF LONDON	طلب الحماية والعون.	—	سجلت قصة هذه البعثة في أوراق دير " سانت ألبان أبي " وحررها كاتب حوليات الدير ماثيو باريس ونشرها فيما بعد أحد رهبان الدير والمدعو روجر أوف وندوفر؛ ذكر باريس أن الملك جون " أرسل عددا من المبعوثين السريين هو : الفارسان توماس هاردينجتون ⁵⁴⁴ ورالف فيتزنيكولاس ⁵⁴⁵ ، وروبرت أوف لندن ⁵⁴⁶ كاتبا للبعثة، ومعهم أوامره المقدسة إلى أمير المؤمنين الملك العظيم لإفريقيا والمغرب وأسبانيا ليبلغوه بأن ملكهم يسلم نفسه ومملكته إليه طواعية وأنه يريد أن يكون تابعا له وعلى استعداد فوق ذلك لترك المسيحية واعتناق الإسلام ⁵⁴⁷ .	عبد الهادي التازي، الوسيط، م س، م 2، صص 103 – 104. M.PAQUIS et M.DOCHEZ, Histoire de l'Espagne depuis l'an 1157 jusqu'à la mort de Charles III, édition Parent desbarres,
----	---	--	-----------------------	--	---------------------	---	--	--

⁵⁴⁴ Thomas DE HERDINGTON, porteur des lettres que le Roi Jean envoie au Miramolin, A. HUIILLARD-BRÉHOLLES, ibid, p.592.

⁵⁴⁵ Raoul FILS DE NICOLAS est un porteur des lettres envoyées par le Roi Jean au miramolin, A. HUIILLARD-BRÉHOLLES, ibid, p.566.

⁵⁴⁶ Robert DE LONDRES, clerc porteur des lettres envoyées par le Roi Jean au Miramolin A. HUIILLARD-BRÉHOLLES, ibid, p.579.

⁵⁴⁷ ب ج روجرز، م.س.، ص 33. انظر أيضاً النسخة الإنجليزية والفرنسية.

Rogers, P.G, History on anglo – Morrocaon relation to 1900, London Foreign and Commonwealth Office, 1978 . / A. HUIILLARD-BRÉHOLLES, Grande Chronique de Matthieu Pâris, présenté par le duc de Luynes, T1, Paulin libraire éditeur, Paris, 1840.

⁵⁴⁸ A. Huillard-Bréholles, ibid, p 546

Paris, T II, p. 79.								
Amari, op,cit, pp. 78- 80 .	إجابة طلب التوصية بالموافقة.	—	سفارة جوابية عن سفارة قام بها سفير يدعى جرارده لتوصية بتجار بيزة		28 ربيع الأول 607 هـ 09 سبتمبر 1211م	جمهورية بيزة (القنصر كدفري دسكونت)	الدولة الموحدية (عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص)	44
ابن أبي زرع، الأنيس، صص 309 - 311 ⁵⁴⁹ . حركات إبراهيم، ص 305 ⁵⁵⁰ .	—	كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الذي كتبه لهرقل محفوظاً مطيباً في حلة خضراء وسط صندوق من ذهب مملوء مسكاً.	طلب الصلح	سانشو السابع	18 ذو الحجة 607 هـ 1 يونيو 1211م	مملكة بنبلونة Royaume de Pampelun et Navare ملك بيونة أو بنبلونة ونافار Sanche VII le fort سانشو السابع الملقب بالقوي (1194 - 1234م)	الدولة الموحدية (محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن عبد المومن)	45
العزاوي، م س، ج 1، ص 291 ⁵⁵¹ . Charles- emmanuel dufourcq	توجهت سنة 1215 سفارة من الملك القشتالي "الطفل" Enrique I، حيث نزلت بمرسى سلا وعقدت معاهدة مع المخزن الموحدية وهي المعاهدة التي جددت سنة 1221م من طرف الملكة Beranguela التي خلفت أخيها الصغير	—	الإخبار بوصول الرسول التوصية بالوفد السفاري	الوزير أبو الحجاج بن مزاح الوزير أبي إسحاق بن أبي الحجاج ابن الفخار	د ت يرجح 610 - 611 هـ 1214- 1215م	الدواة الموحدية (إبراهيم بن عبد المومن والي الموحدين على اشبيلية)	مملكة قشتالة (الوصي على عرش قشتالة إربل بن القومط نونة Henri 1er	46

⁵⁴⁹ علي ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مراجعة عبد الوهاب بنمنصور، ط 2، المطبعة الملكية، 1999، الرباط.

⁵⁵⁰ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000، ج 1.

⁵⁵¹ أحمد عزاوي، رسائل موحدية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة نصوص ووثائق، رقم 2، ط 1، مطبعة النجاح الجديدة، 1995، ج 1، ص 291.

552.							1217-1214 م)	
47	مملكة قشتالة (Dona Beranguela 1217 (برنغويلا	الدولة الموحدية (يوسف المستنصر 1213 - 1224 م)	612 هـ 1215 م	الوزير إبراهيم ابن الفخار "يهودي"	اتفاق هدنة	_____	قبول الخليفة الموحي طلي الهدنة، وجه كتابين الى والي جيان ابي الربيع ووالي قرطبة الشيخ ابي العباس بن ابي حفص فوض لهما أمر التفاوض بشأن اتفاقية الهدنة مع قشتالة.	الوسيط، م 2، م س، ص 47. Charles-emmanuel dufourcq. ⁵⁵³
48	روما Rome (البابا هونوريوس الثالث Honorius III 1216 - 1227 م)	الدولة الموحدية (يوسف المستنصر)	جمادى الثانية 616 هـ سبتمبر 1219 م	لم يعرف	التوصية بالمسيحيين المقيمين بالمغرب	_____	عبر البابا من خلال هذه السفارة عن قلقه بخصوص أوضاع المسيحيين المقيمين بالمغرب " المرتزقة". وذكرت الباحثة ميلار أن قلق البابا المعبر عنه لا يتعلق بأوضاع الأسرى إنما بأشخاص أحرار يعملون لدى الخليفة الموحي، وأضافت أن الرسالة الموجهة للخليفة لم تتضمن أي عبارة تدعو الخليفة للتنصر.	Millard, op, cit, p. 59.
49	الدولة الموحدية (والي اشبيلية أبو العلاء إدريس)	مملكة قشتالة (فرديناند الثالث Ferdinand III 1217 – 1230 م)	624 هـ 1227 م	أبو القاسم	اتفاق هدنة	_____	قبول قشتالة طلب والي اشبيلية مقابل دفع 300 ألف دينار مرابطي	ابن أبي زرع، روض القرطاس، 181 – 180.

⁵⁵² Charles-emmanuel DUFOURCQ, Rapports entre l'afrique et l'espagne au XIII siècle, <https://revistes.uab.cat/article/download/v1-dufourcq/136-pdf-fr>, article en ligne consulté le 25-08-2019.

⁵⁵³ DUFOURCQ, Rapports entre l'afrique et l'Espagne, op.cit.

50	الدولة الموحدية (عمر ابن أبي بكر الصابوني)	جمهورية بيزة (البستات أبلد بسكونت صاحب بيزة)	20 شوال 624 هـ 3 أكتوبر 1227 م	عمر بن أبي الجيد الإسرائيلي التونسي	التوصية بأحد التجار اليهود المقيمين ببيزة المسمى " ابيدين اليهودي" وصهره "بيتورة المنتصر" وغيرهما، والتوسط لحل بعض المشاكل التجارية العالقة بينهم وبعض أعيان بيزة .	_____	بعض المراسلات المشرقية " المصرية" كانت ترد بها البسملة بعد استهلال يقدم من خلاله الملك والسلطان ثم البسملة ثم الإشارة إلى المرسل إليه بعبارات المدح والتبجيل قبل الوصول لغرض المراسلة – أنظر الرسالة السلطان أبو النصر قايتباي إلى حاكم فلورنسا 24 ذي الحجة 894 هـ. ⁵⁵⁴	Amari, pp. 85 – 83 .
51	الدولة الموحدية (إدريس بن يعقوب المنصور المأمون 1227 - 1232 م)	مملكة قشتالة (فرناندو الثالث (Fernando III	624 هـ 1228 م	لم يعرف	عقد اتفاق صلح وتحالف	_____	من بين أهم بنود الاتفاقية : وضع بضعة آلاف من الجنود والفرسان القشتاليين في خدمة الخليفة بمراكش " قدرته بعض المصادر ب 5 آلاف في حين تحدثت أخرى عن 12 ألف". تسليم عشرة حصون تختارها قشتالة بناء كنيسة بمراكش تضرب نواقيسها. وفي سنة 1228 عقد saint Ferdinand الملك III ابن الملكة القشتالية Berenguela معاهدة مع الخليفة المأمون 1227-1232 م، من بين بنودها إرسال فرق من المرتزقة 500 رجل إلى مراكش بقيادة القائد سانشو، ⁵⁵⁶	ابن أبي زرع ، الأنيس ، م س، ص 329. Millard, op.cit, 204. Dufourcq, p.74. ⁵⁵⁵ ابن خلدون، العبر، م س، ص 1684 .

⁵⁵⁴ Amari, op.cit, pp. 181 - 183.

⁵⁵⁵ Charles E. DUFOURCQ, La question de Ceuta au XIIIe siècle, in Rev hesperis, 1955, T XLII, 1 et 2 trimestre, pp. 67 – 128.

⁵⁵⁶ DUFOURCQ, Rapports entre l'afrique et l'Espagne, op.cit.

52	الدولة الموحدية (حاكم سبتة اليانشتي)	جمهورية جنوة	636 هـ 1235 م	Carbono Malocello تاجر	معاهدة صلح بعد مواجهات عسكرية. تعويض تجار جنوة المتضررين من أعمال التخريب التي اندلعت سنة 1234 م.	—	دفعت سبتة 400.000 دينار كتعويض للتجار الجنوبيين.	ابن عذاري، البيان، ص 350 . DUFOURCQ . La question de Ceuta, op.cit, pp. 100 – 101.
53	لاطران Latran (جريجوري التاسع Grégoire IX -1227 1241 م)	الدولة الموحدية (عبد الواحد الرشيد 1232-1242 م)	15 شعبان 630 هـ 26-27 ماي 1233 م	Agnellus Eveque de fes أسقف فاس عدد من الإخوة القاصرين Freres minuers	الدعوة للاعتناق المسيحية . الشكر على حسن استقبال البعثات البابوية. التهديد بالحرمان من الدعم البابوي في حال رفضه دعوة اعتناق المسيحية.	—	خلال نفس الفترة وجه البابا جرجوري التاسع عددا من السفارات إلى خليفة بغداد وعدد من الأمراء والملوك المسلمين، من بينهم الموحدين، يدعوهم من خلالها للاعتناق المسيحية. هل يمكن اعتبار كنيسة مراكش سفارة دائمة للبابوية في المغرب ؟	Millard, .op, cit, p. 434. ASV : Reg. Vat. ff. 36 v° - 37 r°, ep. 135.
54	(البابا اينوصان الرابع Innocent IV -1243 1254 م)	الدولة الموحدية (أبو الحسن السعيد بن المأمون 1242 - 1248 م)	د ت يرجع بين 1243-1248 م	الراهب الفرانسيסקاني لوبي فرناديث دي ايين Lope fernandez DE AYEN	تقديم رسالة اعتماد الراهب لوبي فيرنانديث مطرانا لكنيسة مراكش، وتهنئة الخليفة الموحيدي بانتصاره على الثوار واستعادة مكناس والتوصية بالمسيحيين المرتزقة وطلب تسليمهم بعض الحصون للاحتماء بها.	—	—	ميراندا، م س، ص 527.
55	(ليون الرابع Innocent IV -1243 م)	الدولة الموحدية أبو الحسن السعيد 1242 – 1248 م	19 جمادى الثانية 644 هـ 31 أكتوبر 1246 م	لم يعرف	شكر أبو الحسن نظير الامتيازات التي منحت للكنيسة في المناطق الخاضعة لسلطانه. التوصية بالأسقف الجديد.	—	—	Millard, op.cit, p. 441. ASV :

Reg.Vat.21,f. 342v°,ep.24 6.			دعوة لاعتناق المسيحية . طلب توفير مناطق آمن للمسيحيين العاملين لديه.				1254	
Ibid, p. 443. ميراندا، م س صص 527 - 528. TISSERANT, E et WIET, Gaston, pp. 27 – 54. ⁵⁵⁷ مجلة الوثائق، م س، ص 266	رد المرتضى برسالة رفض من خلالها دعوة البابا له اعتناق الدين المسيحي؛ الوثائق، م س، صص 267 – 270. وأضافت ميلار أن الخليفة أكد من خلال رسالته على وحدانية الله ورفضه للعقيدة المسيحية.	—	اعتماد قساوسة ورهبان للإشراف الديني على الجنود النصارى المرتزقة . التوصية بالمسيحيين المرتزقة؛ الدعوة لاعتناق المسيحية.	ذكر لقب البشب وهو الراهب الفرنسي سكاني الذي سبقت الإشارة إليه لوبي فرناديث دي ايبن Lopé fernandez DE AYN الذي اعتمد سنة 1246م مطراناً ⁵⁵⁸ مقيماً بمراكش من طرف البابا إينوصان الرابع على عهد السعيد بن المأمون	18 ربيع الأول 648 هـ 10 يونيو 1250 م	الدولة الموحدية (عمر المرتضى 1248 – 1266 م)	(البابا إينوصان الرابع)	56

⁵⁵⁷البشب مصطلح يطلق على الأسقف بالفرنسية Eveque و Episcopus بالاطالية و Obispo بالاسبانية، ونقل إلى العربية فقالو البشب، والبشب هنا هو الأسقف لوبو أو لوبي فرنانديث بعثه البابا إلى الخليفة السعيد، ومر في طريقه إلى المغرب بإسبانيا، حيث استقر في مراكش بداية عهد المرتضى، والظاهر أنه كان مكلفاً بشؤون المسيحيين الإسبان، خاصة المرتزقة، فهل أصبح شخصاً غير مرغوب فيه مادام المرتضى يوصي في رسالته إلى البابا بحسن اختيار من يسهر على مصالح النصارى، انظر:

TISSERANT E et WIET Gaston, Une lettre de l'almohade Murtada au Pape Innocent IV, in Rev Hesperis, 1926, T. VI, 1^{er} trimestre, librairie larose paris, p. 41.

⁵⁵⁸الراهب الفرنسي سكاني Lope fernandez DE AYN مطران مراكش منذ 1246 ولد بسرقسطة سنة 1190، عمل بالجيش ليلتحق بعد ذلك بدير Sanctueire de notre dame del pilar، عرف عنه التقوى وإتقان المهام الموكولة إليه، كان يقود الصلاة ب بأحد أديرة سرقسطة حين وصل أوائل الرهبان الفرنسيين إلى إسبانيا، وبمساعده استقرت مجموعة منهم بسرقسطة ابتداء من 1219م، أسندت لها بعد ذلك مجموعة المرتبطة بالوساطة والتفاوض بين مختلف الفرقاء المسيحيين، وعلى إثر ذلك استقبل من طرف البابا Gregorie IX، ليصبح بعد ذلك مستشاراً للبابا Innocent IV، حيث انتقل معه إلى مدينة ليون سنة 1244م ووجهه بعد ذلك سفيراً ومطراناً إلى مراكش سنة 1246م؛ TISSERANT, E et WIET, Gaston, Ibid, p.41 - 43.

57	(البابا إنوصان الرابع)	الدولة الموحدية (عمر المرتضى)	22-23 ذو الحجة 648 هـ 17-16- مارس 1251م	لم يعرف	طلب منح المسيحيين المرتزقة حصون أمنة على الساحل.	_____	_____	Millard, ibid, pp. 444. ASV :Reg.Vat .22,f.60r°,ep. 436
58	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق 1259-1286م)	مملكة قشتالة (ألفونسو العاشر Alphonse X le Sage 1252 – 1284م)	ذو الحجة 658 هـ نونبر 1260 م	أبو بكر بن يعلى	افتداء الأسرى	_____	أوفدت السفارة بعد جلاء القشتاليين عن مدينة سلا في شتنبر 1260م واصطحبهم عدد كبير من الأسرى المغاربة من بينهم القاضي ابن عشرة، 559.357	ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، م س، ص 559.357 Miranda, op.cit , pp. 41- 71 ⁵⁶⁰ التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج 7، م س، صص 56 - 57.

⁵⁵⁹ المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، ط 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.

⁵⁶⁰ Ambrosio Huici MIRANDA, la toma de sale por la escudra de Alfonso X, in Rev hesperis 1952 – XXXIX, pp. 41- 71.

59	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	الدولة الحفصية (المستنصر بالله ⁵⁶¹ 1277 - 1249م)	665 هـ 1266 م	عامر بن إدريس عبد الله بن كندوز محمد الكناني	_____	_____	_____	الحري، ص 212.
60	الدولة الحفصية (المستنصر بالله 1277 - 1249 م)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	667 هـ 1267 م	الأمير يعقوب بن عبد الحق كبير الموحدين يحيى بن صالح الهنتاتي وفد من مشيخة الموحدين	_____	هدية "عظمية"	_____	نفسه، ص 212.
61	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	الدولة الحفصية (المستنصر بالله)	667 هـ 1268 م	أخ السلطان المريني عامر بن إدريس بن عبد الحق وفد من وجهاء الدولة المرينية	الإخبار بالاستيلاء على مراكش	_____	_____	الناصري، م س، م 1، ص 382.
62	الدولة الحفصية (المستنصر بالله)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	667 هـ 1268 م	الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن الكناني جماعة من وجوه دولته	التهنئة بدخول المرينيين مراكش وطلب ذكر للمستنصر على المنابر.	الخيال السلح الثياب الرفيعة	إجابة طلب الوفد الحفصي.	نفسه، ص 382.
63	الدولة الحفصية (المستنصر بالله)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	667 هـ 1268 م	أبي العباس الغماري قاضي بجاية	_____	هدية "حافلة"	_____	نفسه، ص 382.
64	الدولة النصيرية (أبو عبد الله محمد الأول) 1238-1273م	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	669-670 هـ 1270 - 1271 م	لم يعرف	طلب استغاثة	_____	_____	ابن أبي زرع، الذخيرة، م س، ص 126.

⁵⁶¹ محمد بن زكرياء يحيى عبد الواحد بن أبي حفص الملقب بالمستنصر.

65	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الأول)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	670 هـ 1271 م	لم يعرف	استغاثة	_____	_____	ابن أبي زرع ، الأئيس ، م س، ص 408.
66	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	دولة بني عبد الواد (أبو يحيى يغمراسن بن زيان 1282-1235 م)	669-670 هـ 1270 - 1271 م	لم يعرف	طلب الصلح	_____	رفض طلب السلطان المريني .	ابن أبي زرع، الأئيس، م س، ص 438. الناصرى، م س، م 1، ص 358. ابن أبي زرع، الدخيرة، م س، ص 126 .
67	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الثاني " الفقيه" 1302 - 1273 م)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	جمادى الثانية 673 هـ يناير 1273 م	ابن الأمر وفد من أكابر الأندلس	استغاثة	_____	_____	عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، م س، ج 7، ص 59. الناصرى، م س، م 1، صص 389 - 390 .

68	الأندلس (بني أشقيلة أبو محمد عبد الله صاحب مالقة)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	673 هـ 1274 م	الأمير أبو سعيد أبو عبد الله بن منديل	التباحث بشأن بيعه بني أشقيلة للمرينين	_____	_____	ابن خلدون، العبر، م س، ص 1922.
69	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الثاني " الفقيه")	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	673 هـ 1274 م	الإخبار بأحوال الأندلس الاستغاثة	_____	_____	أرسل السلطان المريني خمسة آلاف مقاتل .	ابن أبي زرع، الذخيرة، م س، صص، 140 – 141.
70	دولة بني عبد الواد (أبو يحيى يغمراسن بن زيان)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	673 هـ 1274 م	وفد من مشيخة بني عبد الواد	اتفاق سلم	هدايا "سنية"	رد السلطان على هداياهم بمجموعة من الهدايا، منها فسطاط ملكي وثلاثين من المطايا الفاراهة.	عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، م س، ج 7، صص 10 - 11. ابن أبي زرع، الذخيرة، م س، ص 140.
71	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الثاني " الفقيه")	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	673 هـ 1274 م	لم يعرف	إخبار بأحوال الأندلس طلب الدعم العسكري	_____	أجاب السلطان طلب غرناطة	ابن أبي زرع الذخيرة، م س، صص 159 و 165 – 166. ابن أبي زرع، الأنيس، م

س، ص 408. الناصرى، م س، م 1، ص 358.								
De mas latri, TI, op.cit, pp. 286 - 285.	لقاء قمة في برشلونة وعد الملك الأراغوني تزويد السلطان المريني ب عشرة سفن وخمسمائة فارس لاستعادة سبتة.	—	اتفاق سلم وتجارة طلب مساعدة عسكرية من أجل استعادة سبتة.	السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق	6 جمادى الأولى 672هـ 18 نونبر 1274م	مملكة أراغون (الملك جاك الأول Jacques I ^{er} , le Conquérant (1213-1276م)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	72
عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، م 7، م س، ص 10. ابن أبي زرع، الذخيرة، م س، ص 145. ابن خلدون، العبر، ص 1919.	—	—	—	الأمير تاشفين بن عبد الواحد بن يعقوب	673 - 674 هـ 1275م	دولة بني عبد الواد (أبو يحيى يغمراسن بن زيان)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	73
عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي،	—	—	مرافقة السلطان المريني في عبوره لبحر الزقاق	الوزير بن هشام	صفر 674 هـ يوليوز 1275م	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الثاني " الفقيه")	74

								ج 7، م س، ص 60.
75	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الثاني " الفقيه") (بني أشقيولة الأمير محمد بن أشقيولة)	21 صفر 674هـ 15 غشت 1275م	أبو يعقوب يوسف الناصر	الوساطة بين بني الأحمر وبني أشقيولة	_____	نجحت الوساطة وأصلح السلطان بين غرناطة ومالقة.	ابن أبي زرع، الأنيس، م س، ص 411. ابن أبي زرع، الذخيرة، م س، ص 146.
76	مملكة قشتالة (ألفونسو العاشر " دون نونيو" Alphonse X le Sage (1252 - 1284 م)	الدولة المرينية أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق	جمادى 674 هـ دجنبر 1275م	رهبان وقساوسة	طلب هدنة	_____	رفض السلطان المريني طلبهم	نفسه، ص 159.
77	مملكة أراغون (بيدرو الثالث Pedro III, le grand (1276-1285 م)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	ربيع الثاني 675هـ أكتوبر 1276م	برنار بوتير Bernard Poter		_____	استقيت المعلومات المتعلقة بالسفارة من جواز سفر نشره دي ماص لاتري .	Mas latri, TII, op.cit, pp, 41 - 42.
78	مملكة قشتالة (ألفونسو العاشر)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	جمادى الاولى 676 هـ أكتوبر 1277	وفد مكون من قساوسة ورهبان	طلب الصلح	_____	رفض طلب السفارة في أول الأمر، ثم وجههم السلطان المريني لطلب الصلح من بني الأحمر الذين وافقوا، فانعقد اتفاق الصلح آخر شهر رمضان.	ابن أبي زرع، الأنيس، م س، ص 429. الناصر، م

							س، م 1، ص 396.
79	الأندلس (محمد بن بني اشقيولة)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	رمضان 676 هـ يناير 1278 م	الأمير محمد بن عبد الله	التنازل عن مالقة	_____	نفسه، ص 396. ابن خلدون، العبر، م س، ص 1922.
80	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الثاني " الفقيه")	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	677 هـ 1278 م	_____	اعتذار واستغاثة	_____	ابن أبي زرع، الذخيرة، م س، ص 163.
81	مملكة قشتالة (ألفونسو العاشر)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	678 هـ 1279 م	عدد من الأساقفة	طلب السلم والتحالف	_____	الناصر، م س، ج 1، ص 400. ابن خلدون، العبر، م س، ص 1225.
82	الدولة الحفصية (أبي زكرياء يحيى الوائقي)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	678 هـ 1279 م	أبو العباس الغماري	_____	هدية "سنية"	الناصر، م س، م 1، ص 400.
83	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الثاني "الفقيه")	678 هـ 1279 م	لم يعرف	طلب الصلح	_____	الناصر، م س، م 1، ص 400.
84	الدولة المرينية	دولة بنو عبد الواد	678 هـ	_____	طلب الصلح	_____	نفسه، ص

	(أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	(أبو يحيى يغمراسن بن زيان)	1279م				400. ابن خلدون، العبر، م س، ص 1226.
85	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	دولة بني عبد الواد (أبو يحيى يغمراسن بن زيان)	شوال 678 هـ فبراير 1280 م	_____	طلب الصلح "سفارة ثانية"	_____	ابن أبي زرع، الأنيس، م س، ص 439. الناصري، م س، م 1، ص 401. رفض أبو يحيى الصلح. استهل يعقوب رسالته الموجهة لأبي يحيى ب: يا مغرور إلى متى هذا الضلال والغرور؟ أما علمت أن السن قد انتهي وذهب الشباب وجاوزت معتك المنايا، فهلم إلى الصلح الذي جعله الله تعالى خيرا للعباد، واسلك منهج التقوى وبادر إلى التعاون على البر والتقوى والجهاد.
86	مملكة قشتالة (ألفونسو العاشر)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	2 محرم 681 هـ 11 أبريل 1282 م	وفد من البطارقة "رجال الدين"	طلب المساعدة على استرجاع عرشه.	_____	نفسه، صص 401 - 402. ابن أبي زرع، الأنيس، م س، صص 441. ابن خلدون، العبر، م س، صص 1226. إجابة طلب الملك المخلوع. ذكر ابن أبي زرع مقتطفات من رسالة الفونسو العاشر: "أيها الملك المنصور إن النصارى نقضوا عهدي، وثاروا علي مع ولدي، وقالوا شيخ كبير قد ذهب رأيه وفني عقله، فأعني عليهم، ويكون سيري معك إليهم،..."
87	مملكة قشتالة (ألفونسو)	الدولة المرينية (أبو يوسف)	ربيع الثاني 681 هـ	الملك ألفونسو العاشر	لقاء قمة	_____	عبد الهادي التازي، عقد لقاء على مقربة من رندة، رهن الملك القشتالي تاجه مقابل مائة ألف

التاريخ الدبلوماسي، م س، ج 7، صص 63 – 64. CHEVIN, pp. 84-85 ⁵⁶² ابن أبي زرع، الأئيس، م س، ص 442. المقري، أزهار الرياض، ص 61. الناصري، م س، م 1 ص 402.	دينار ودعم عسكري.				يوليوز - غشت 1282م	يعقوب بن عبد (الحق)	العاشر (	
Cenival, p. 459. ⁵⁶³ عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، م س، ج	—	—	طلب تقديم العون للملك القشتالي ألفونسو العاشر المخلوع من طرف ابنه سانشو.	لم يعرف	20 رجب 681 هـ 24 أكتوبر 1282م	مملكة فرنسا (فيليب الثالث Philippe III le HARDI 1270 - 1285م)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد (الحق)	88

⁵⁶² CHEVIN, op.cit, pp. 84-85.

⁵⁶³ DE CENIVAL Pierre, Les relations commerciales de Fance avec le Maroc, op.cit, p.459.

192، صص 190 – L. DE MAS LATRI, T 1, op.cit, p. 97.								
عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، م س، ج 7، ص 65. الناصري، م س، م 1، ص 403.	قبول السلطان تجديد الصلح والصفح عن بني الاحمر.	—	التوسط لدى السلطان أبو يوسف يعقوب للصفح عن بني الأحمر الذين تحالفوا مع قشتالة. تجديد الصلح.	لم يعرف	محرم 682هـ أبريل 1283 م	الدولة المرينية (ولي عهد السلطان أبو يعقوب يوسف)	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الثاني " الفقيه")	89
عبد الهادي التازي، الوسيط، م س، م 2، صص 245، 246. ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام، صص 112 -	وفدت هذه السفارة على المغرب بعد رفض ملك قشتالة استقبال الوفد السفاري المملوكي، لانشغاله في الحرب مع ابنه. استجاب السلطان لطلب الوساطة وبعث رسولا مع الوفد السفاري المملوكي.	—	طلب وساطة السلطان المريني بخصوص عدد من المسائل المرتبطة بالملاحة التجارية.	الأمير قلعج	682 هـ 1283 م	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	الدولة المملوكية (أبو المعالي، أبو الفتوح المنصور قلاوون 1279 - 1290 م)	90

564 114. حمادة، الوثائق السياسية، صص 449 - 550 565.								
التاريخي، الوسيط، س، ج 2، م ص 172.	_____	_____	تقديم العزاء والتهنئة بتولي الملك سانشو العرش .	لم يعرف	683 هـ 1284 م	مملكة قشتالة (سانشو الرابع Sancho IV 1284 – 1295 م)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب ابن عبد الحق)	91
ابن أبي زرع الأنيس، م س، ص 469 الناصر، م س، ج 1، ص 408 جوليان، م س، ج 2، ص 223.	رفض طلب قشتالة	_____	طلب السلم	وفد من رجال الدين " بطارقة وشمامسة"	684 هـ 1285 م	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	مملكة قشتالة (سانشو الرابع)	92

⁵⁶⁴ معي الدين ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل مراجعة محمد النجار، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، جمهورية مصر العربية، 1969.

⁵⁶⁵ حمادة أحمد ماهر، الوثائق السياسية في الأندلس وشمال إفريقيا، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1980.

93	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	مملكة قشتالة (سانشو بن ألفونسو العاشر)	684هـ 1285م	وفد برئاسة الترجمان عبد الحق	اتفاقية سلم عقد لقاء قمة	_____	قبول عقد اتفاقية السلم قبول طلب عقد لقاء قمة	ابن أبي زرع الأنيس، م س، صص 470 - 469 وصص 471- 475. الناصري، م س، ج 1، ص 408.
94	الدولة المرينية أبو يوسف (يعقوب بن عبد الحق 1259-1286م)	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الثاني " الفقيه" 1273 – 1302 م)	10 ربيع الأول 684هـ 15 ماي 1285م	_____	اتفاق صلح	_____	عقد اللقاء بظاهر مريالة، تنازل المرينيين عن الثغور الأندلسية ما عدا رندة والجزيرة الخضراء.	نفسه، صص 403 و 410. ابن خلدون، العبر، م س، ص 1927.
95	مملكة قشتالة (سانشو الرابع)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	20 شعبان 684 21 أكتوبر 1285	وفد بقيادة الملك سانشو	المصادقة على اتفاقية السلم	زوج من الخيول الوحشية المسماة ب" الفيل" حمارة من حمر الوحش إلى غير ذلك من الطرف. بعد عودة الملك سانشو أرسل هدية أخرى عبارة عن ثلاثة عشر حملا من الكتب فيها جملة من	عقد لقاء القمة بحصن الصخرات على مقربة من وادي لك بالأندلس.	الناصري، م س، ج 1 ، ص 408 . بن أبي زرع، الأنيس، م س، صص 470 – 475. ابن خلدون، العبر، م س، ص 1929.

		مصاحف القرآن وتفاسيره.						
96	دولة بني عبد الواد (أبو سعيد عثمان الأول ابن يغمراسن 1282-1303م)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	684 هـ 1285 م	الأمير أبو عبد الله بن يغمراسن	اتفاق سلم	_____	قبول السلطان المريني بالاتفاق.	التاريخ الدبلوماسي، م س، ج 7، ص 12.
97	دولة بنو عبد الواد (أبو سعيد عثمان الأول بن يغمراسن) 1286-1306م)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	685 – 686 هـ 1286-1287 م	الأمير محمد بن يغمراسن	اتفاق هدنة	_____	_____	الناصري، م س، م 1، ص 378.
98	دولة بني عبد الواد (عثمان بن يغمراسن)	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	687 هـ 1288 م	الأمير محمد بن يغمراسن	اتفاق سلم	_____	أجاب السلطان طلبهم.	نفسه، ص 412.
99	الدولة المرينية (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق)	دولة بني عبد (الواد عثمان بن يغمراسن)	688 هـ 1289 م	لم يعرف	المطالبة بتسليم الثائر عبد الله بن عطو "عامل مراكش".	_____	رفض طلب السلطان المريني. أغلظ الرسول المريني القول لعثمان بن يغمراسن، الأمر الذي أدى إلى اعتقاله، وهو ما أغضب السلطان المريني الذي خرج لغزو تلمسان سنة 689 هـ.	نفسه، ص، 412.
100	جمهورية جنوة	الدولة المرينية (أبو يعقوب)	691 هـ 1291 م	_____	_____	شجرة مموهة بالذهب عليها أطيّار تصوت	_____	ابن أبي زرع، الأنيس، م

		يوسف الناصر)				بحركات هندسية مثل التي صنعت للمتوكل العباسي.		س، ص 504.
101	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الثاني "الفقيه")	الدولة المرينية (أبو يعقوب يوسف الناصر)	10 رجب 692 هـ 15 يونيو 1293م	الأمير أبو سعيد فرج بن إسماعيل الوزير أبو سلطان عزيز الراضي الداني وفد من " أهل حضرته"	الاعتذار عن واقعة طريف، تجديد العهد وتأكيد المودة.	—	قبول طلب الوفد الغرناطي نزل الأسطول بمرسى غساسة.	الناصر، م س، م 1، صص 416 - 417. ابن أبي زرع، الأنيس ، م س، ص 505.
102	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الثاني "الفقيه")	الدولة المرينية (أبو يعقوب يوسف الناصر)	22 ذي القعدة 692 هـ 23 أكتوبر 1293م	أبو عبد الله محمد الثاني الوزير أبو سلطان عزيز الداني	تجديد الاعتذار عن واقعة طريف وطلب تجديد الصلح مع السلطان.	مصحف عثمان الموروث عن بني أمية.	عقد لقاء القمة بطنجة، حيث تم قبول طلب الصلح، كما تنازل السلطان المريني لبني الأحمر عن الجزيرة ورندة والعريسة وعشرين حصنا ، وارسل معه عددا من جنود وفرسان بني مرين.	ابن الخطيب، الإحاطة، م س، ج 4،صص 241 – 246 . جوليان م س،، ج 2، ص 225 . ابن أبي زرع الأنيس، م س، صص 505 – 506 . الناصر، م س، م 1، ص 422.

103	مملكة البرتغال (ولد الرنك Denis I ^{er} le Cultivateur -1279 1325 م)	الدولة المرينية (أبو يعقوب يوسف الناصر)	جمادى الأولى 692 هـ أبريل 1293 م	لم يعرف	_____	_____	_____	ابن أبي زرع، الأنيس، م س، ص 504.
104	مملكة بيونة أو (بنبلونة – نفار خاين الأول Jeanne I ^{re} de Navarre - 1274 1305 م)	الدولة المرينية (أبو يعقوب يوسف الناصر)	جمادى الأولى 692 هـ أبريل 1293 م	لم يعرف	_____	_____	_____	نفسه، ص 504.
105	مملكة بني عبد الواد (أبو سعيد عثمان الأول بن يغمراسن)	الدولة المرينية (أبو يعقوب يوسف الناصر)	جمادى الأولى 692 هـ 1293 م	لم يعرف	_____	_____	_____	ابن أبي زرع، الأنيس، م س، ص 504.
106	الدولة المرينية (يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر الأول)	الدولة النصرية (أبو يعقوب يوسف الناصر)	699 - 700 هـ 1300 - 1301 م	لم يعرف	تقديم مساعدات عسكرية	خيل عتاق مهندات مهاميز محكمة من خالص الذهب ذهب عبن	_____	ابن الخطيب، كناسة الدكان، صص 57 - 62.
107	الدولة النصرية (يوسف بن	الدولة المرينية أبو يعقوب يوسف	18 – 19 جمادى الأولى	لم يعرف	شكر على الهدية	_____	_____	نفسه، صص 57 – 62.

					700 هـ 27 - 28 فبراير 1301 م	(الناصر)	إسماعيل بن فرج بن نصر الأول	
Dufourcq, la question de ceuta, op.cit.	وصلت الى المغرب مساعدات عسكرية على شكل فرسان وجنود مرتزقة سنة 704 هـ / 1304 م، أشرف على العملية أخ مبعوث السلطان المريني Arnaud SEGUI	_____	طلب مساعدات عسكرية	برناط سيكي Bernat SEGUI	702 هـ 1302 م	مملكة أراغون	الجولة المرينية (أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن يوسف)	108
ابن الخطيب، الإحاطة، م س، ج 1، ص 548. ابن أبي زرع، الأنيس، م س، ص 387. ابن الخطيب، الكناسة، م س، صص 57 – 62.	طلب فاس من غرناطة دعمها بالمال والجند لحصار تلمسان وافقت غرناطة على الطلب.	_____	تجديد التحالف	الوزير أبو سلطان عزيز الداني الكاتب محمد بن الحكم الرندي	701 هـ 1302 هـ	الدولة المرينية (أبو يعقوب يوسف الناصر)	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الثالث المخلوع)	109
ابن أبي زرع الأنيس، م س، ص	بعث أبو يعقوب يوسف إلى السلطان الملك الناصر بأربعمائة من عتاق الخيال مجهزة برسم الجهاد وغيرها من	هدية "عظيمة"	_____	لم يعرف	701 هـ 1302 م	الدولة المرينية (أبو يعقوب يوسف الناصر)	الدولة المملوكية (الناصر محمد ابن قلاوون)	110

1299 – (1340 م)							النفائس والذخائر . 512.
111	الحجاز	الدولة المرينية (أبو يعقوب يوسف الناصر)	701 هـ 1302 م	وفود من أهل الحجاز	_____	_____	أمر السلطان المريني عدداً من صلحاء المغرب بالمسير إلى الحجاز، وبعث معهم مصحفاً مكللاً بالياقوت والجواهر وأموالاً كثيرة للتفرق على أهل مكة والمدينة.
112	الدولة الحفصية (أبو عبد الله محمد أبو عصيدة 1295 - 1309 م)	الدولة المرينية (أبو يعقوب يوسف الناصر)	701 هـ 1302 م	شيخ الموحدين أبو عبد الله ابن أكمارير	طلب الصلح	هدايا "جديدة"	نفسه، ص 512. ابن خلدون، العبر، م س، ص 1733.
113	الدولة (الحفصية أبو عبد الله محمد أبو عصيدة)	الدولة المرينية (أبو يعقوب يوسف الناصر)	703 هـ 1303 م	الشيخ أبو عبد الله بن أكمارير وزير الدولة أبو عبد الله بن برزكين .	_____	هدية "ضخمة" سرج وسيف، مهماز من ذهب مرصعة من صنعة الحلي الفاخر من حصباء الياقوت والجواهر.	رجع الوفد بهدية "ضخمة" من جملتها 300 بغل. نفسه، ص 1733.
114	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الثالث المخلوع 1302 - 1309 م)	الدولة المرينية (أبو يعقوب يوسف الناصر)	703 هـ 1303 م	الوزير أبو سلطان عبد عزيز الداني الكاتب محمد بن الحكيم اللخمي من مشايخ رندة وفد من أعيان بني الأحمر	تجديد عهد المودة	_____	عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، م س، ج 7، ص 74.

الناصرى، م س، م 1، ص 422.								
Archivo de Aragon, pp. 159 – 157.	_____	_____	دعم عسكري من أجل استرجاع سبتة	القائد برنات سجين ابى العباس الطرطوشي صهر الن الكماد	ذى القعدة 703 هـ 5 يوليوز 1304م	مملكة اراغون خاييى الثانى Jacques II 1291-1327م	الدولة المرينية (أبو يعقوب يوسف الناصر)	115
مجلة الوثائق، م س، صص 300 – 298.	_____	_____	طلب دعم عسكري بحري للاستيلاء على سبتة	القائد برنات سجين Bernard SIGUE أبى العباس الطرطوشي صهر ابن الكماد	عقب شهر ذى القعدة 703 هـ عقب يوليوز 1304 م	مملكة أراغون خاييى الثانى	الدولة المرينية (أبو يعقوب يوسف الناصر)	116
نفسه، صص 290 – 292. Archivo de Aragon, pp.155 – 154.	قبول السلطان المريني، بالمقابل حمل السفير الاراغونى رسالة القبول.	_____	اتفاق هدنة وتحالف ضد قشتالة وبنى نصر من أجل استعادة سبتة.	كاتب فرنسيس دسين / غريسيس لشبين Francis despin	شعبان 703هـ مارس 1304 م	الدولة المرينية (أبو يعقوب يوسف الناصر)	مملكة اراغون (خاييى الثانى)	117
الحريري، م س، ص 123.	_____	_____	_____	الحاجب أبو محمد الرخامي شيخ الموحدين عباد بن سعيد بن عثيمين	3 جمادى 704 هـ 1304م	الدولة المرينية أبو (يعقوب يوسف الناصر 1286-1306م)	صاحب بجاية (أبو البقاء خالد)	118
ابن الخطيب، نفح الطيب م س، ج 2،	_____	مصحف عظيم له غشاء مكلل بنفيس الدرر وشريف الياقوت بعث إلى الحرم المكي.	التوصية بركب الحجيج المغربي	القاضي محمد بن زغبوش الفقيه عبد الله القصار الفقيه عبد الله محمد ابن إبراهيم البقوري	703 هـ 1304م	الدولة المملوكية (الناصر محمد بن قلاوون)	الدولة المرينية (أبو يعقوب يوسف الناصر)	119

			السفارة بقيادة أبي زيد الغفاري حسب الناصري		خيل و أربعمائة من المطايا الفاراهة		ص 53. الناصرى، م س، ج 1، صص 423.
120	الدولة المرينية (أبو يعقوب يوسف الناصر)	الدولة المملوكية (الناصر محمد بن قلاوون)	704 هـ 1304 م	أي دوغدي / لقب الشهروزي	_____	_____	عبد الهادي التازي، الوسيط، م س، م 2، ص 248.
121	صاحب مكة	الدولة المرينية (أبو يعقوب يوسف الناصر)	ربيع الثاني 705 هـ أكتوبر 1305 م	الشريف لي ابن أبي نعي ووفد مرافق له	إخبار السلطان بمستجدات الوضع السياسي بالديار المقدسة بعد وفاة أبي نعي الأول، وواقعة القبض على ابنه حميضة ورميثة من طرف ملك مصر.	_____	الناصرى، م س، ج 1، ص 423. ابن الخطيب، نفح الطيب، م س، ج 1، ص 449 - 450.
122	الدولة المملوكية (الناصر محمد بن قلاوون)	الدولة المرينية (أبو يعقوب يوسف الناصر)	جمادى الثانية 706 هـ دجنبر 1306 م	أي دوغدي الخوارزمي أي دوغدي التليلي الشمسي	إخبار بتطور الأوضاع السياسية بمصر والمناطق الخاضعة لها	ثياب خيول فيل وزرافة عشرون كديشا من كدش التتار عشرون أسيرا مغولياً طائفة من طبولهم	القلقشندي، م س، ج 7، صص 47 - 48 و 55 - 54. الوسيط، م س، ج 2، صص 448-

249. الناصرى، م س، م 1، ص 424		وقسمهم.						
Archivo de Aragon, Ibid, pp. – 162 163. عبد الهادي التازي، الوسيط، م 2، م س، ص 205.	وصف السلطان المريفي برناط ب"خديمتنا".	_____	توجهت السفارة بطلب من ملك أراغون. إخبار بشؤون إحدى العمارات البحرية. إخبار بوضع بيبير شمانيس على رأس الجنود المرتزقة الأراغونيين.	برناط سجين Bernard SIGUE "الترجمان" أبو العباس ابن الكماد	20 ذو القعدة 707 هـ 13 ماي 1308م	مملكة أراغون (خاييم الثاني)	الدولة المرينية (أبو ثابت عامر بن أبي يعقوب 1307-1308م)	123
نفسه، ص 206. ابن أبي زرع، الأنيس، ص 518.	_____	_____	المطالبة باستعادة سبتة بالطرق السلمية	الشيخ يحيى ابن أبي الصبر	708 هـ 1308م	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الثالث)	الدولة المرينية (أبو ثابت عامر بن عبد الحق)	124
Archivo de Aragon, op. cit, pp. 165 – 169 .	_____	_____	اتفاق تجاري عسكري	جزبرت	1309 هـ	الدولة المرينية (أبو الربيع سليمان 1310- 1308م)	مملكة أراغون (خاييم الثاني)	125
Archivo de Aragon, op.cit, pp. 169 – 165.	حينما تكون مهمة المبعوث نقل الرسالة لا يذكر في الغالب اسمه، فمهمات الرسالة قد ينتدب لها أشخاص عاديون .	_____	احتجاج على سوء تصرف السفير جزبرت	_____	2 ربيع الثاني 709 هـ 1 أكتوبر 1309م	مملكة أراغون (خاييم الثاني)	الدولة المرينية (أبو الربيع سليمان)	126

127	مملكة أراغون (جالك الثاني)	الدولة المرينية (أبو الربيع سليمان)	22 ذي القعدة 708 هـ 3 ماي 1309 هـ	المستشار Don Jaçpert viçconde de Castelnou	اتفاق تحالف عسكري ضد النصريين، وتعهد بمساعدة المرينيين على استعادة سبتة والتحالف ضد قشتالة، وطلب تعويض مالي نظير حصار أراغون لسبتة	_____	وردت الإشارة في الرسالة التي حملها المبعوث الأراغوني إلى كمبعوث للمرينيين تحت أسم Bernardo Seguin توجه السفير إلى المغرب رفقة أسطول بحري وفوضه الملك لتوقيع التحالف.	De MAS LATRI, op.cit, T 1, pp. 298 - 299 عبد الهادي التازي، الوسيط، م س، ج 2، ص 206. عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، م س، ج 7، صص، 128- 129.
128	الدولة النصرية (أبو الجيوش نصر 1309 - 1314 م)	الدولة المرينية (أبو الربيع سليمان 1308 - 1310 م)	ذو القعدة 708 هـ ماي 1309 م	عثمان بن عيسى اليرناني أخ الوزير إبراهيم بن عيسى	طلب صلح	خيول مال	قبول طلب الصلح مقابل التنازل عن الجزيرة الخضراء ورندة وحصونها، صاهر أبو الجيوش السلطان المريني عبر الزواج بأخته.	ابن الخطيب، ابن أبي زرع، م س، الذخيرة، ص 393. الناصر، م س، م 2، ص 6.

129	الدولة النصرية (أبو الجيوش نصر)	الدولة المرينية (أبو الربيع سليمان)	710 هـ 1310 م	الشيخ يحيى بن أبي الصبر	اتفاق الصلح	_____	_____	الناصرى، م س، م 2، ص 6.
130	أبو سعيد (عثمان بن يعقوب 1310-1331 م)	دولة بني عبد الواد (أبو حمو موسى الأول بن عثمان الأول 1307-1318 م)	يرجع 714 هـ 1314 م	لم يعرف	طلب الصلح وتسليم بعض الثوار	_____	انعقد السلم ورُفض طلب تسليم الثوار	ابن خلدون، العبر، م س، ص 1861.
131	الدولة النصرية (أبو الوليد إسماعيل الأول 1314 - 1325 م)	الدولة المرينية (أبو سعيد عثمان بن يعقوب 1310-1331 م)	718 هـ 1318 م	الشيخ أبو عبد الله الطنجالي الشيخ ابن الزيات البلشي الشيخ أبو إسحاق ابن أبي العاص وغيرهم.	طلب الدعم العسكري لصد هجوم القشتاليين على غرناطة	_____	طلب منهم السلطان أبو سعيد تمكينه من الأمير الثائر عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الحق فاستصعب الأمر عليهم.	الناصرى، م س، م 2، ص ابن خلدون، العبر، م س، ص 1956. عبد الهادي التازي، الوسيط، م س، ج 2، ص 180.
132	الدولة المرينية (أبو سعيد عثمان) Jacques II le juste (1291 – 1327 م)	مملكة أراغون (خايم الثاني 1327 – 1291 م)	5 ربيع الأول 723 م 14 مارس 1323 م	_____	طلب عون عسكري وإرسال عدد من المرتزقة الأراغونيين لدعم ملك أراغون في سعيه للاستيلاء على سردينيا.	_____	_____	Archivo de Aragon, op.cit, pp. 169-170 .
133	مملكة أراغون	الدولة المرينية	ربيع الثاني	رومان قبريرة	طلب قرض مالي والتذكير بضرورة	_____	الاستجابة لطلب الملك الأراغوني	De Mas

	خايي الثاني	(أبو سعيد عثمان)	723 م 1 ماي 1323 م	Romain de Corbière	الوفاء بالالتزامات المتفق عليها تجديد اتفاق السلم والصداقة،		وتحميل السفير رسالة شفوية.	Latri, op.cit, T 1, pp. 315 - 318. عبد الهادي التازي، الوسيط، م س، م 2، صص 207 - 208.
134	الدولة الحفصية (أبو بكر الثاني المتوكل على الله - 1318 1346م)	الدولة المرينية (أبو سعيد عثمان)	729 هـ 1328 م	الأمير أبو زكرياء ووزيره أبو محمد بن عبد الله ابن تافراجين	استغاثة واستنجد ضد تلمسان	_____	إجابة طلب السفارة توجهت السفارة عبر البحر ونزلت بمرسى غساسة.	القلقشندي، م س، ج 7، ص 398. الناصر، م س، ج 2، ص 18. القلقشندي، م س، ج 8، ص 92.
135	الدولة المرينية (أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق)	مملكة أراغون (خاييم الثاني)	26 جمادى الثانية 724 هـ 16 يونيو 1324		افتداء الأسرى	_____	_____	Archivo de Aragon, op.cit, pp. 175-174 .
136	الدولة المرينية (أبو سعيد)	الدولة الحفصية (أبو بكر الثاني)	731 هـ 1331 م	إبراهيم بن أبي حاتم العزفي. قاضي حضرة فاس أبي عبد	خطبة ابنة سلطان تونس الأميرة فاطمة لولي عهد السلطان أبي	_____	إجابة طلب الوفد المغربي انطلقت السفارة من غساسة.	الناصر، م س، م 1،

	عثمان بن يعقوب (بن عبد الحق)	المتوكل على الله (1318 – 1348 م)		الله بن عبد الرزاق.	سعيد الأمير علي ابن عثمان " أبو الحسن".		صص 18 - 19. الزركشي، ص 68 ⁵⁶⁶ .
137	الدولة الحفصية (أبو بكر الثاني المتوكل على الله)	الدولة المرينية (أبو سعيد عثمان بن يعقوب ابن عبد الحق)	731 هـ 1331 م	الأمير أبي زكرياء الأميرة فاطمة كبير مشيخة الموحدين أبو القاسم بن عتو	_____	_____	، ص 18. الزركشي، م س، ص 68.
138	الدولة النصرية أبو عبد الله محمد الرابع (1325 - 1333 م)	الدولة المرينية أبو الحسن علي بن عثمان (1331-1348 م)	732 هـ 1332 م	أبو عبد الله محمد الرابع	إحكام عقد المودة الإخبار بمستجدات الأندلس طلب العون العسكري	_____	الناصر، م س، م 2، ص 22.
139	الدولة المرينية (أبو الحسن علي ابن عثمان) (1331-1348 م)	الدولة المملوكية (الناصر محمد بن قلاوون)	د ت	فارس بن ميمون بن وردار	الإخبار بالاستيلاء على تلمسان وارتفاع عوائق الحج	_____	ابن خلدون، العبر، م س، ص 1967.
140	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	الدولة المملوكية (الناصر محمد بن قلاوون)	د ت	الشيخ أبي عبد الله محمد بن الجراح	الإخبار بمستجدات المغرب	_____	القلقشندي، ج 8، م س، ص 89 – 90.
141	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	الدولة المملوكية (محمد بن قلاوون)	د ت	_____	الإخبار بالمستجدات السياسية الإخبار بوفاة والدة السلطان	_____	القلقشندي ج 8، م س ص 87-99

⁵⁶⁶ محمد بن إبراهيم بن للؤلؤ الزركشي، ولد في أوائل القرن التاسع الهجري عاصر دولة بني مرين والوطاسيين في المغرب والحفصيين في تونس، والكتاب عبارة عن تاريخ موجز للمغرب من القرن السادس هجري إلى التاسع، حيث شهد المؤلف مجموعة من الأحداث التي ضمنها في مؤلفه؛ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعلق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، ط 2، تونس، 1966.

142	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	الدولة المملوكية (الناصر محمد بن قلاوون)	د ت	الشيخ الخطيب الفقيه المدرس أبو اسحاق بن أبي زيد عبد الرحمان ابن أبي يحيى. الحاجب أبو زيان عريف بن أبي زكري. الكاتب أبو الفضل بن أبي عبد الله بن أبي مدين. وفد من الخاصة والزعماء والفرسان.	التوصية بركب الحجيج	_____	حمل الوفد المغربي في رحلة عودته مجموعة من الهدايا، ذكر منها القلقشندي العقود المنظمة، والبرود المسهمة والمطارف المعلمة والصنائع المحكمة، والخيول المسومة بالأهلة مسرجة، وأكفال مسلمة من الحرير.	القلقشندي م س، ج 7، صص 391 - 393.
143	الدولة الحفصية (أبو بكر الثاني المتوكل على الله - 1318 1348م)	الدولة المرينية (أبو الحسن علي ابن عثمان)	735هـ 1334م	لم يُعرف	الاستغاثة بالمرينين ضد بني عبد الواد.	_____	إجابة طلب الاستغاثة.	ابن خلدون، العبر، م س، 1961.
144	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	دولة بني عبد الواد (أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو موسى الأول 1318 - 1337م)	735هـ 1334م	وفد عن السلطان	طلب عدم مهاجمة تونس	_____	رفض الطلب المريني وإهانة البعثة السفارية المرينية.	عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، م س، ج 7، صص 13 - 14. ابن خلدون، العبر، م س،

ص 1961.								
الدولة المملوكية (الناصر محمد بن قلاوون)	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	737 هـ 1337 م	الشيخ أبي محمد عبد الله بن صالح الشيخ محمد بن أبي اللمحان	الإخبار بمستجدات الأوضاع بمصر وبلاد الشام التوصية بمصحفين وقفين	إجابة طلب أبو الحسن	_____	القلقشندي، م س، ج 7، صص، 391 - 393.	145
الدولة الحفصية (أبو بكر الثاني المتوكل على الله) ج	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	737 م 1337 م	الوزير أبو محمد عبد الله بن تافراكين	التهنئة بالاستيلاء على تلمسان	_____	_____	ابن خلدون، العبر، م س، ص 1962. الزركشي، م س، ص 73.	146
الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	الدولة المملوكية (الناصر محمد بن قلاوون)	دت	لم يعرف	الإخبار بفتح بجاية وتلمسان	_____	_____	القلقشندي، م س، ج 7، صص 395 - 407.	147
السودان الغربي - مالي (منسى موسى)	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	رمضان 737 هـ ماي 1337 م	مجموعة من الأعيان "فراقيس" ترأسهم أحد رجال البلاط المالي وترجمان اسمه الصنهاجي	التهنئة باستعادة تلمسان	_____	توجه الوفد المغربي إلى السودان الغربي رفقة الوفد السوداني ومعهم عدد من الهدايا. ذكر ابن خلدون في العبر " فأوفد عليه فرانقين من أهل دولته مع ترجمان من المثلثين من صنهاجة".	الناصر، م س، م 2، ص 46. المقري، نفح طيب، م س، ج 4، ص 402. ابن خلدون، العبر، م س، ص 1968.	148
الدولة المرينية (أبو الحسن)	السودان الغربي - مالي	737 هـ 1337 م	كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبي مدين	تعزية وتهنئة منسى سليمان بتولي الملك بعد وفاة منسى موسى .	الهدية " طرف من متاع المغرب وماعونه	_____	الناصر، م س، م 2، ص	149

علي بن عثمان)	(منسى موسى بن أبي بكر - منسى سليمان)		عنبر الخصي "عبد" وفد من كبار أعراب بني معقل تحت إمرة علي بن غانم أمير أولاد جرار		وشيئا من ذخيرة داره".	46. المقري، نفح طيب، ج 4، م س، ص 402. ابن خلدون، العبر، م س، ص 1968.
150	السودان الغربي - مالي (منسى سليمان)	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	737 هـ 1337 م	الحاج موسى الونجراتي	_____	عاد الوفد المالي رفقة الوفد المغربي الناصري، م س، م 2، ص 46. المقري، نفح طيب، م س، ج 4، ص 402.
151	الدولة المملوكية (الناصر محمد بن قلاوون)	الدولة المرينية (أبو الحسن علي ابن عثمان)	د ت	الوزير محمد ابن الجراح	تجديد المودة والصداقة	عبد الهادي التازي، الوسيط، م س، م 2، ص 251.
152	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	الدولة المملوكية (الناصر محمد بن قلاوون)	737 هـ 1337 م	الوزير أبي زيان بن ميمون بن ودرار وظف الناصري مصطلح "السفير"	تجديد الود والصداقة. الإخبار بمستجدات الوضع السياسي بالمغرب وتونس والأندلس.	توجه الوفد المغربي رفقة الوفد المصري الذي كان في مهمة سفارية في المغرب. عاد السفير المغربي برسالة جوابية. الناصري، م س، م 1، ص 26 -

27.								
153	الدولة الحفصية (أبو بكر الثاني المتوكل على الله)	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	738 م 1338 م	الوزير أبو محمد عبد الله بن تافراكين	التحضير لعقد لقاء قمة بين السلطانين.	_____	انتظر السلطان أبو الحسن سلطان تونس بمتيجة بالمغرب الأوسط، وتقاعس سلطان تونس عن الحضور فطال مقام أبو الحسن ومرض وهو بمقامه، الأمر الذي أغضبه.	ابن خلدون، العبر، م س، صص 1963 – 1962.
154	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	الدولة المملوكية (الناصر محمد بن قلاوون)	رمضان 738 هـ مارس 1338 م	وفد من خواص الدولة الأميرة الحرة مريم الشيخ أبي إسحاق إبراهيم الحاجب أبي زيان السويدي عريف بن يحيى أمير بني زغبة عطية بن مهلهل بن يحيى من عرب الخلط الكاتب أبو الفضل ابن أبي عبد ابن أبي مدين عريف الوزعة الشيخ أبو محمد بن قاسم المزوار	التوصية بوفد الحجيج المغربي شراء ضياع بالمشرق لتكون وقفا على القراء في المصحف المريني تأكيد وصول سفارة بن صالح وبن أبي اللمхан.	قدّرت قيمة الهدايا بمئة ألف دينار ذهبي. هدية سلطان مصر : خمس مئة من الخيول المحلاة بالسروج المذهبة والمفضضة، واللجم المغشاة. خمس مئة من متاع المغرب وأسلحته، ومن نسيج الصوف المحكم ثيابا، وأكسية وبرانس وعمام وأزر معلمة وغير معلمة، ونسيج الحرير الفائق المعلم بالذهب الصافي والملون الساذج، والمنمق ومن الدرق الملوبة من بلاد الصحراء المحكمة	الرسالة الجوابية تضمنت تقريراً عن ظروف إقامة الوفود المغربية بالديار المصرية وعن التدابير المتخذة لتيسير أداء مناسك الحج. الهدية المرافقة للرسالة الجوابية عبارة عن ثياب إسكندرية مرقومة بالذهب، وخيمنتان شاميتان على شكل قصر فخم به مسجد بمحاربه ومئذنته. وصف السلطان المريني أعضاء الوفد السفاري المغربي بـ ".... أصحابناها من حور دولتنا وأحظيائنا، ووجوه دعوتنا العلية وأوليائنا، من اخترنا لهذه الوجهة الحميد من أعيان بني مرين ... وأولاد المشايخ وكل من له أثر مشهور وشهرة بالمزايا الراجحة والسجايا الصالحة مأثورة..."	القلقشلي ، م س، ج 8، ص 102. الناصر، م س، م 1 ، صص 27 - 30. ابن خلدون، العبر، م س، ص 1968.

		الدبغ المنسوبة إلى اللمط. مكايل من أصلي الجواهر والياقوت . <u>هدية الحرم:</u> مصحف بخط السلطان مذهب له ظرف من الأبنوس والعاج والصندل بفائق الصنعة، وغشي بصفائح الذهب ورصع بالجواهر والياقوت.						
De Mas LATRI, op.cit, T 1, pp. 192- 195.	_____	_____	اتفاق سلم وتجارة	Amalric de Narbonne Dalmaou Thaleyra, Dalmaou de Castelnau Uguet de Totzo	5 شوال 739 هـ 15 أبريل 1339 م	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	مملكة أراغون (جاك الثاني (Jacques II	155
التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج 7، م س، ص 14.	_____	_____	المصادقة على اتفاقية نيابة عن ملك ميورقة وسيد مونبوليه وروسيون.	_____	4 شوال 739 م 15 أبريل 1339 م	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	فرنسا Languedoc	156
ابن خلدون، العبر، م س، ص 1966.	قبول طلب السلطان الحفصي.	_____	الشفاعة في أبي العلاء شيخ الغزاة بالأندلس.	الوزير أبو محمد بن تافراكين	742 هـ 1341 م	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	الدولة الحفصية (أبو بكر الثاني المتوكل على الله)	157

158	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	الدولة النصرية (أبو يحيى ابن أبي الوليد بن نصر يوسف الأول 1333 – 1354 م)	9 جمادى الثانية 745 هـ 18 أكتوبر 1344م	_____	اتفاق سلم سلطان المغرب يستلم مراسلات بشأن مشروع اتفاق للسلم عقد بين أبو حجاج يوسف بن أبو الوليد إسماعيل ملك غرناطة من جهة، ومن جهة أخرى الجنوبيين والقششاليين من جهة أخرى، وافق أبو الحسن على شروط الاتفاق وأبلغ ملك غرناطة بأن الجنوبيين والقششاليين موافقون، ويريدون قدومه شخصياً للمصادقة على الاتفاق مع ملك قشتالة.	_____	_____	Archivo de Aragon, op.cit, pp.186 - 188. DE MAS LATRI, op.cit, T2pp. 65 – 64.
159	الدولة النصرية (أبو يحيى بن أبي الوليد ابن نصر يوسف الأول)	مملكة اراغون (بيدرو الرابع Pierre IV le Cérémonieux 1336 – 1387 م)	شعبان 745 هـ 17 دجنبر 1344م	القائد الغرناطي أبو القاسم بن كماشة	رسالة اعتماد وتفويض لابن كماشة لينوب عن السلطان أبي الحسن المريني لإبرام اتفاق الصلح مع مملكة أراغون. تفويض أبو الحجاج يوسف سلطان غرناطة، من قبل السلطان أبو الحسن علي سلطان المغرب لعقد اتفاق السلم بين مملكة غرناطة و Pierre IV ملك أراغون والجنوبيين، وتفويض الصلاحيات لكتابه للمصادقة على الاتفاق.	_____	استقبل السفير من قبل الملك الأراغوني بمدينة Perpignon	MAS LATRI, T2, op.cit, pp. 65 – 66.
160	الدولة المملوكية	الدولة المرينية	6 رمضان	الكاتب أبو الفضل بن أبي	_____	_____	ديج الرسالة الكاتب صلاح الدين	المقري، نفح

	(أبو الفداء اسماعيل بن قلاوون)	(أبو الحسن علي بن عثمان)	745هـ 10 يناير 1345	مدين ووزير		خليل بن أيبك الصفدي.	الطيب، م س، ج 4، ص 386 - 394.
161	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	الدولة الحفصية (أبو بكر الثاني المتوكل على الله)	746 هـ 1345 م	الأمير عريف بن يحيى قائد عرب بني سويد بني زغبة الهلاليين. كاتب الجباية والعسكر، أبو الفصل محمد بن أبي مدين فقيه الفتوى بمجلس السلطان أبو عبد الله محمد بن سليمان السطحي عنبر خصي "عبد"	خطبة الأميرة عزرونة بنت أبي بكر	مكث الوفد شهرا إلى حين تجهيز العروس.	الناصر، ج 2، م س، ص 47. ابن خلدون، العبر، م س، ص 1968 . الزركشي، م س، ص 78.
162	الدولة الحفصية (أبو بكر الثاني المتوكل على الله)	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	747 هـ 1346 م	الأميرة عزونة بنت أبي بكر الأمير أبي العباس الفضل بن أبي بكر صاحب بونة جماعة من مشايخ الموحدين	مرافقة عروس الأمير المريني أبو سعيد بن أبي الحسن	ذكر الزركشي " وفي شهر ربيع الأول من سنة 747هـ كتب صداق الحرة عزونة بنت السلطان أبي يحيى أبي بكر على السلطان أبو الحسن المريني بصداق جملته خمسة عشر ألف دينار ذهباً ومائتا خادم وتوجهت إلى المغرب في البر في شهر جمادى الثانية من السنة صحبة أخيها الأمير الفضل صاحب بونة.	الناصر، م س، ج 2، ص 47. ابن خلدون، العبر، م س، ص 1968 . الزركشي، م س، ص 79.
163	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	مملكة قشتالة (Alphonse XI le Juste)	748 هـ 1347 م	الفقيه شمس الدين بن مرزوق	الإخبار بضم إفريقية اتفاقية صلح فك أسر الأمير تاشفين	عاد السفير بعدد من الهدايا النفيسة	عبد الهادي التازي، التاريخ

الدبلوماسي، م س، ج 7، ص 84.						1312 – 1350 م		
الحري، م س، ص 209.	رفض الطلب المريفي.	_____	طلب القبض على الوزير الحفصي الفار عقب ضم إفريقية بن تافراجين وتسليمه.	لم يعرف	د ت	الدولة المملوكية (الناصر حسن بن محمد بن المنصور قلاوون 1348 – 1351 م)	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	164
الناصر، م س، ج 2، ص 48.	وافق السلطان المريفي على تولي أبو العباس العهد، وكتب ذلك على حاشية الرسالة التي حملها السفير بخط يده.	_____	غرض خاص الاطلاع على كتاب ولاية العهد ليوافق عليه	الحاجب أبو القاسم بن عتو	750 هـ 1349 - 1350 م	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	الدولة الحفصية (أبو العباس الفضل 1350 - 1349 م) عزل في نفس العام	165
ريحانة الكتاب، م س، م 1، صص 254 - 258.	_____	_____	التهنئة بنجاة أبو الحسن من هول البحر والتعزية بهلاك جماعة من خاصته.	لم يعرف	د ت	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول 1333 - 1354 م)	166
نفسه، صص 262-264.	_____	_____	اتفاق سلم	رسولين	د ت	مملكة قشتالة	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	167

168	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	دت	رسولين	الإخبار بكائنة الجزائر مستجدات اتفاق السلم مع قشتالة .	_____	_____	نفسه، صص 263 – 264
169	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو الحسن علي بن عثمان)	دت	رسولين	رسالة جوابية على سفارة الإخبار بكائنة الجزائر .	_____	هما نفس الرسولين اللذين أرسلنا من قبل السلطان المريني أبو الحسن إلى قشتالة، وقد أثنى عليهما أبو الحجاج قائلاً " وأوزعنا الله شكراً، يكون لما أولى من كليهما كفاء، ووهبنا قياماً بحقهما ووفاء، فإنهما نعمٌ أذهلت العقول، واستصغرت المستعار من الألفاظ والمنقول، فنحن نهنئكم بهذين الصنعين الذين هما من آثار نيتكم، وطوبيتكم، وكأن بمواهب الله قد اتسقت، وأفنان اليمن قد بسقت، ..."	نفسه، صص 259-264.
170	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي 1358-1348م)	13 محرم 750 هـ 2 أبريل 1349م	لم يعرف	الإخبار بتطورات الأوضاع العسكرية والاستنجد	_____	_____	ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، م 1، نفسه، صص 359 - 364.
171	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)		لم يعرف	الإخبار بمستجدات العلاقات الغرناطية القشتالية	_____	_____	ابن الخطيب، الكناسة، م س، صص

103 – 105.								
Archivo de Aragon, op.cit, pp. 208.	_____	_____	اتفاق سلم	جيل ألبرط	751 هـ أواسط سنة 1350م	الدولة المرينية (أبو عنان فارس ابن علي)	مملكة أراغون بيدرو الرابع Pedro IV	172
Ibid, pp. 208.	_____	_____	الإخبار بوصول السفير وعقد اتفاق السلم	لم يعرف	11 ربيع الثاني 751 هـ 18 يونيو 1350م	مملكة أراغون بيدرو الرابع	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	173
Ibid pp. 216.	_____	_____	اتفاق سلم وتجارة أهم بنوده : المهادنة والأمان الصالح الشامل حرية إبحار السفن حماية الملاحة التجارية لمدة 14 شهر	فرانسييسكو بورتيل Francisco portelle	25 رمضان 751 هـ 26 نوفمبر 1350م	مملكة أراغون (بيدرو الرابع)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	174
ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، م 1، م س صص 371.	_____	_____	الاستغاثة	قاضي غرناطة وخطيب جامعها قائد	10 ربيع الثاني 750 هـ 13 يونيو 1349م	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	175
نفسه، صص 108 – 107.	_____	_____	تهنئة لأبي عنان عقب إبلاله من المرض.	قائد	دت	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	176

178	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	آخر رجب 750 هـ أكتوبر 1349م	لم يعرف	الشفاعة في الشيخ أبي سعيد عثمان.	_____	_____	نفسه، صص 348 – 350.
179	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	3 محرم 751 هـ 13 مارس 1350 م	لم يعرف	الإخبار بفك الحصار عن الجزيرة الخضراء.	_____	_____	عبد الهادي النازي، التاريخ الدبلوماسي، 7، م س، صص 88 – 87.
180	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	د ت	الوزير أبو علي بن الوزير أبي عبد الله ابن محلى عبد الله بن الشيخ العارف أبي عبد الله الفشتالي	رد على إحدى سفارات السلطان أبو عنان.	_____	_____	نفسه، ص 88.
181	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	د ت	القائد محمد بن أبي الفتح	_____	_____	_____	نفس المرجع والصفحة.
182	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	د ت	الشيخ أبو مهدي عيسى بن الحسن	الإخبار بشأن التطورات العسكرية بالأندلس خاصة التطورات بجبل الفتح.	_____	وصف السلطان الغرناطي السفير ب " الولي في الله الشيخ الأجل المرفع الأرضي المجاهد الأفضل الأمضى ..."	ابن الخطيب، ريحانة الكتاب ، م س، م 1، ص 273 - 280.
183	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	د ت	أبو جعفر بن الرئيس أبي الحسن بن نصر	التعزية والتهنئة بالتولي	_____	وصف سلطان غرناطة سفيره ب " قربنا الرئيس الأجلأبو جعفر بن	نفسه، صص 337 -

	يوسف الأول)	(بن علي)					الرئيس أبي الحسن بن نصر..".	241.
184	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	دت	_____	التهنئة بالاستقلال بدولته	_____		نفسه، صص 273 – 281.
185	الدولة النصرية أبو الحجاج يوسف الأول	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	د ت	وفد مكون من شخصين	التهنئة باستقلال سلطان المغرب بوطنه.	_____	لم يذكر ابن الخطيب أسماء السلطين وهو أمر تكرر في عدة رسائل. جاء في الرسالة التي أوردها ابن الخطيب أن هذه السفارة جاءت رداً على سفارة سابقة بخصوص ذات الموضوع، حيث تحدث عن وفد مغربي حمل معه مجموعة من الهدايا.	نفسه، صص 240 - 243.
186	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	د ت	القائد أبو مهدي ابن الزرقا رفقة وفد	الإخبار بأحوال المغرب	_____	رسالة شفهية	ابن الخطيب، ريحانة الكتاب م س، ج 1، ص 130.
187	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	دت	القائد أبو مهدي	الإخبار بالمستجدات العسكرية والسياسية بالأندلس	_____	حمل السفير رسالة جوابية.	نفسه، صص 33 -1 127.
188	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	751 هـ 1350 م	_____	التهنئة ببيعة مراكش وسجلماسة	_____	_____	نفسه، ص 281 – 285.
189	الدولة النصرية (أبو الحجاج	الدولة المرينية (الأمير ناصر بن	د ت	_____	تهنئة الأمير ناصر بن أبي الحسن.	_____	_____	نفسه، صص 286 -

289						أبي الحسن)	يوسف الأول)	
190	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	3 محرم 751 10 مارس 1350م	القائد أبو الحسن عبادا	الإخبار بمستجدات المواجهات العسكرية مع قشتالة .	_____	_____	نفسه، ص 146.
191	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	مملكة أراغون (بيدرو الرابع)	11 ربيع الثاني 751 هـ 17 يونيو 1350م	جيل البيريبي	رسالة جوابية على طلب الصلح	_____	_____	النميري، فيض العباب، م س، ص 100.
192	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	مملكة أراغون (بيدرو الرابع)	7 شوال 751 هـ 8 دجنبر 1350م	_____	إخبار بإتمام عقد السلم	_____	رد على سفارة Francisco PORTELLE	Archivo de Aragon, op.cit, pp. 212 – 213
193	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	751 هـ 1351م	_____	شكر على المساعدات العسكرية			ابن الخطيب، كناسة الدكان، م س، صص 110 – 111.
194	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	الدولة النصرية أبو الحجاج يوسف الأول	ربيع الأول 752 هـ ماي 1351 م		الإخبار بالنصر على بني زيان والاستيلاء على تلمسان			ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، م س، ج 1، ص 216.
195	الدولة النصرية (أبو الحجاج	الدولة المرينية (أبو عنان فارس	15 ربيع الاول 752	وفد	التهنئة باسترداد تلمسان	ذكرت الهدايا دون تخصيص نوعها أو	قال السلطان الغرناطي في وصف وفده السفاري " .. واخترنا للوفادة به	ابن الخطيب،

	يوسف الأول)	ابن علي)	أول ماي 1351م			كمها.	من ينوب عنا في هذا الغرض، ويقوم للوقت بواجب المفترض، وهم صدور إيالتنا، ودرر لباب عمالتنا، فلان وفلان...". لم يذكر ابن الخطيب اسم السفير ووضع مكانه في الكناسة مصطلح " واوفدنا فلان" وفي الريحانة كتب " واخترنا للوفادة من ينوب عنا في هذا الغرض، وهم صدور إيالتنا، ...، فلان وفلان ..".	كناسة الدكان، م س، صص 64 – 73.
196	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	752 هـ أواسط 1351م	لم يعرف	التهنئة بالانتصارات في المغرب الأوسط			ابن الخطيب، كناسة الدكان، م س، صص 84 – 86.
197	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	مملكة أراغون (بيدرو الرابع)	28 رجب 752 هـ 20 شتنبر 1351م	لم يعرف	المطالبة بعقاب من خرق الصلح عقب قرصنة الشياطي المرينية. رسالة إخبارية بخصوص المحادثات التي جرت بين أبي عنان والسفير الأراغوني جيل البيريطي.	_____	حمل السفير رسالة إخبارية بخصوص حادثة استيلاء بعض التجار الإسبان على قرقرورة وما تلى ذلك من مناقشات وخصومات مع بعض الجنود المغاربة، مع تأكيد استمرار الصلح بين البلدين والدعوة لإعادة القرقرورة ⁵⁶⁷ مقابل تحرير شيطي ⁵⁶⁸ إسباني حبسه أمير	Archivo de Aragon, op.cit, p. 210 – 209. النميري، فيض العباب، م

⁵⁶⁷ القرقورة السفينة العظيمة التي تحمل الزاد والمتاع للأسطول " سفن التموين " الماحي، م س، ص 163.

⁵⁶⁸ الشيطي نوع من المراكب الحربية الصغيرة تستخدم لكشف الموانئ " سفن استكشاف وتجسس، ولا يجب خلط هذا المركب مع مركب آخر هو الشيني الذي يعد أهم قطع الأسطول البحري حيث تمتاز بمتاز بالطول ومزود بآبراج وقلاع للدفاع والهجوم، الماحي، م س، صص 163 – 164.

							البحر الميريبي. وفي هذا السياق تحدث أبو عنان فارس عند أحد مبادئ العمل الدبلوماسي وهو المعاملة بالمثل حيث قال في رسالته : " وذكرت عما يلزمك من النظر في مصالح رعاياك، واعلم وفقك الله انه كما يلزمك النظر في مصالح رعاياك فكذلك يلزمنا أن ننظر في صلاح رعايانا باحسن النظر ". قبول طلب الصلح وتعيين مبعوثين للإشراف على صياغة الاتفاق هما : منصور بن علي إبراهيم بن محفوظ	س، ص ص 100- 101. أنظر الماحي، م س، ص 124.
198	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	ملك أراغون (بيدرو الرابع)	4 شعبان 752 هـ 25 سبتمبر 1351 م	إبراهيم بن محفوظ	رسالة جوابية واخبارية بخصوص وضع بعض التجار الاراغونيين المتجزين في المغرب على خلفية حادثة القرقورة.	_____	الشمري، قيض العباب، م س، ص 102. الماحي، م س، 225.	
199	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس ابن علي)	شوال 752 هـ دجنبر 1351 م	غالب "مملوك"	تهنئة بالفتح	ذكرت الهدية دون تحديد نوعها أو كمها	ابن هل كان دور المملوك مرافقة الهدية فقط أم اعتمد كرسول لغرناطة، وفي هذا الصدد قال أبو الحجاج "... فبعثنا في هذا مولى نعمتنا "غالبا" وصل الله له – بالوجهة الى بابكم – أسباب الوجهة، وحفظ عليه لباس الحظوة والنباهة. وألقينا إليه في هذا	

							المعنى ما يجري غايته القصوى".	
200	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	يرجح 1351	لم يعرف	إخبار بالنصر	_____	الرسالة الجوابية تضمنت إشارات عديدة عن رسول مريني حمل أخبار عن نصر مريني إلى غرناطة.	نفسه، صص 86 – 84.
201	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	مملكة أراغون (بيدرو الرابع)	7 شوال 751م 7 دجنبر 1351م	لم يعرف	رسالة إخبارية بخصوص الموافقة على شروط اتفاقية الصلح والتوقيع عليها وإشاعة الخبر في أنحاء البلاد.	_____	_____	النميري، فيض العباب، م س، ص 569. 102.
202	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	751 – 752 هـ يرجح أواخر عام 1351 بداية 1352	لم يعرف	الإخبار بوضع التحصينات الساحلية	_____	_____	ابن الخطيب، كناسة الدكان، م س، صص 98 – 99.
203	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	752 هـ بداية عام 1352م	لم يعرف	الإخبار بمستجدات الأوضاع السياسية والعسكرية بالأندلس.	_____	_____	نفسه، صص 94 - 96.
204	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	752 هـ 1352م	لم يعرف	تهنئة أبو عنان بمناسبة النصر على بني زيان بمدينة تلمسان.	_____	_____	نفسه، صص 244 - 247.
205	(الدولة النصرية أبو الحجاج	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	752 هـ 1352 م	لم يعرف	إخبار بمستجدات العلاقات بين غرناطة وقشتالة.	هدية دون تحديدها	_____	نفسه، صص 113 - 114.

⁵⁶⁹ ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى القسطنطينية والزاب، تحقيق محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.

	يوسف الأول)						
206	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	محرم 752هـ 28 فبراير 1352 م	لسان الدين بن الخطيب ووفد من وزراء الأندلس وفقائها	رسالة تعزية في وفاة السلطان أبي الحسن وتهنئة أبو عنان بمناسبة تولييه مقاليد الحكم. طلب العون العسكري	_____	_____
207	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	محرم 752هـ 27-28 فبراير 1352 م	لم يعرف	شكر على المساعدة العسكرية وعلى الهدية التي كانت عبارة عن خيل عتاق ومهندات ومهاميز محكمة من الذهب.	_____	_____
208	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	السودان الغربي - مالي (منسى سليمان)	محرم 753 هـ فبراير 1352 م	محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة.	مباحثات بشأن تجارة العبيد والذهب.	_____	مكث ابن بطوطة ثمانية أشهر قبل أن يجتمع بالملك السوداني، وهو ما اعتُبر احتجاج غير مباشر لمنسى سليمان على تعامل أبو عنان مع والده حسب ما أورده التازي.
209	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	753هـ يرجع 1352	بازاري	إخبار بمستجدات العلاقات بين غرناطة وقشتالة	بزاة = صقر	قال أبو الحجاج في وصف رسوله " وأوفدنا بازريارنا الخديم فلان " مربي الباز".

⁵⁷⁰ شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني المقرئ، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري عبد الحفيظ شلي، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات، مطبعة فضالة 1978، ج 1.

س، صص 115 - 121.								
نفسه، صص 120 - - 121.	_____	"الهدية السنوية"	شكرا على هدية "خيول مجهزة" وإخبار بمستجدات العلاقة مع قشتالة.	_____	753هـ يرجع 1352م	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	210
نفسه، صص، 140 - 143 و صص 133 - 135.	_____	_____	المراجعة في مسألة أخ السلطان أبي عنان الفضل ابن أبي الحسن اللاجئ لدى غرناطة.	قائد	752هـ 1352م	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	211
ابن الخطيب، كناسة الدكان، م س، صص 87 - 93.	قال السلطان أبو الحجاج في وصف سفيره " ... وبادرنا بتوجيه من يؤدي عنا حق الهناء بهذه الآلاء، ويسلك في توفية ما عندنا من السرور بها على سبيل السواء، فاخترنا لذلك فلانا، وصل الله سلامته، ويمن ظعنه واقمته، وحملناه من تقرير ما لدينا - من الود الذي صدق إنتاجه وقطع المعاند احتجاجه، وراق على أعطاف الخلوص ديباجه - ما نرجو أن يقوم بما أمكن من حقه، ويسلك في تبليغه لاحب طرقه. وفضلكم كفيل بالإصغاء لما يلقيهن والقبول على ما يؤديه..".	_____	التهنئة بالاستيلاء على بجاية	_____	12 ربيع الأول 754 هـ 17 مارس 1353م	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	212

213	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	12 ربيع الأول 754 هـ 16 أبريل 1353 م	أحد أقرباء السلطان	تهنئة بالانتصار على الأمير أبي ثابت الزياني صاحب بجاية والمراجعة في أمره.	_____	قال السلطان الغرناطي في وصف سفيره " .. ووجهنا من ينوب عنا في هناكم وهو قريبنا الكذا فلان أبو فلان .. "	ابن الخطيب، كناسة الدكان، م س، صص 82 – 78.
214	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	الدولة الحفصية (أبو إسحاق إبراهيم الثاني)	754 هـ 1353 م	الفقيه أبو مرزوق التلمساني	خطبة ابنة السلطان الحفصي أبي يحيى	_____	رفضت ابنة السلطان الحفصي الزواج بالسلطان المغربي معللة ذلك بأن فيه قلقاً يمنع عشرته. اعتقل السفير بعد أن فشل في سفارته.	بن القنفذ، الفارسية في تاريخ الدولة الحفصية، ص 174 - 173 ⁵⁷¹ .
215	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	24 رجب 754 هـ 19 يوليوز 1353 م	لم يعرف	رسالة شفاعة بخصوص الفقيه أبي مرزق التلمساني المعتقل بفاس	_____	_____	ابن الخطيب، كناسة الدكان، صص 123 - 125.
216	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	754 – 755 هـ أواخر 1353 بداية 1354	لم يعرف	شكر على الهدية " خيول "	_____	_____	نفسه، م س، صص 127 – 128.
217	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	د ت	القائد أبو الحسن عبادا	الإخبار بموت ملك قشتالة وفك الحصار عن جبل الفتح.	_____	_____	القلقشندي، م س، ج 7، ص 40 – 44.

⁵⁷¹ ابن القنفذ، الفارسية في تاريخ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النبقي وعبد الحميد الشكري، تونس، 1968.

218	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	أواخر عهد الحجاج	سفارة خاصة	شكر على الهدية " خيل مهندات ومهاميز ومال عين " .	_____	قال ابن الخطيب في وصف الرسالة التي وجهت للسلطان المريني " .. وكتبنا إليكم هذا الكتاب، فلولا أن حمرة مثله معتادة – حسبما اقتضاه عرف وعادة – لقلنا خجل من تقصيره فعلته حمرة الخجل لما ضاق عن مراده ذرع المروي والمرجل " .	ابن الخطيب، كناسة الدكان، م س، صص 150 - 152.
219	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	دت	لم يعرف	شفاعة في والي مربة الشيخ أبي زكرياء البرقاجي .	_____	_____	ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، م س، صص 245 – 348 .
220	الدولة النصرية (أبو الحجاج يوسف الأول)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	دت	لم يعرف	التهنئة للإبلال من المرض	_____	قسّم ابن الخطيب في الريحانة السفارات والرسائل حسب الأغراض .	نفسه، صص - 321 - 318
221	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الغني بالله " محمد الخامس " - 1354 م) 1369 (الفترة الأولى)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	28 ذي القعدة 755م 13 دجنبر 1354م	لسان الدين ابن الخطيب القاضي أبو القاسم الشريف	الاستغاثة وطلب الدعم العسكري في مواجهة قشتالة .	_____	أجاب السلطان المريني طلب سلطان غرناطة . كان في استقبال ابن الخطيب أبو عبد الله ابن مرزوق التلمساني .	ابن الخطيب، الإحاطة، م س، ج 2، ص 13 – 91 . الناصري، م س، م 2، ص 78 – 84 .

222	مملكة أراغون (بيدرو الرابع)	الدولة المرينية (الأمير عبد الرحمان بن أبي الحسن)	2 ذي الحجة 755 18 دجنبر 1354	غيوم ماريني Guillem Mariner	التوصية بالتجار الأراغونيين حرية التنقل والتجارة. حماية التجار.	_____	أجاب السلطان المريني طلبهم.	Archivo d'Aragon, op.cit, pp. 201–202 .
223	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	مملكة أراغون (بيدرو الرابع)	ذو الحجة 755هـ دجنبر 1354	لم يعرف	رسالة جوابية على طلب السماح للتجار الأراغونيين بمزاولة نشاطهم في المغرب وإطلاق سراح بعض الأسرى.	_____	وافق السلطان أبو عنان فارس على طلبات ملك أراغون بيدرو الرابع	النميري، ص 100. Archivo d'Aragon, op.cit, pp. 201 – 202.
224	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	الدولة المملوكية (أبو المحاسن الناصر بن الناصر محمد بن قلاوون 1354 – 1361 م)	د ت	القاضي محمد الغاني البرجي الغرناطي	الإخبار بمستجدات الأوضاع السياسية بالمغرب والأندلس والتوصية بالوفد المتوجه إلى الديار المقدسة، واقتناء مجموعة من طرف الشرق وتحفه ومتاعه.	_____	_____	ابن الخطيب، الإحاطة، م 2، م س، ص 293. التايزي ، الوسيط م 2، م س، ص 258.
225	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الغني بالله محمد الخامس)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	26 ذي الحجة 756 هـ 31 دجنبر 1356 م	لم يعرف	المراجعة في أمر الثائر بجبل الفتح عيسى بن الحسن بن أبي منديل الذي تم تسليمه للمغرب.	_____	_____	ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، نفسه، صص 235 - 238.

226	البرتغال (ألفونسو الرابع Alphonse IV le Brave (1325-1357م)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	757هـ 1356م	ملك البرتغال رفقة بعثة برتغالية لم يعرف أفرادها.	اتفاق صلح سلم	بغال	المرجح أن اللقاء تم بإحدى المناطق الخاضعة لسلطة المرينيين في الأندلس.	النميري، فيض العباب، م س، ص 100.
227	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الغني بالله " محمد الخامس "	جمادى الثانية 757 هـ ماي 1356 م	الشيخ محمد بن محمد القرشي المقري	_____	_____	استقر بمالقة ولم يعد إلى المغرب بعد السفارة التي اعتمد لها ، الأمر الذي أغضب السلطان أبو عنان الذي توعده بالعقاب.	ابن الخطيب، كناسة الدكان، م س، صص - 153 – 157.
228	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الغني بالله " محمد الخامس ")	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	11 جمادى الثانية 757 هـ 22 يونيو 1355م ذكر ابن الخطيب في ريحانة الكتاب تاريخ 21 جمادى الثانية 755	قاضي الجماعة أبي القاسم الحسي السبتي الشيخ الخطيب أبو البركات بن الحاج البلفيقي	الشفاعة في الشيخ محمد بن محمد بن أبي بكر القرشي المقري	_____	رسالة شفعية قبل أبو عنان شفاعة غرناطة	نفسه، ص. 153 ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، م س، صص 353 - 357.
229	(الدولة النصرية أبو عبد الله محمد	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	د ت	_____	الشفاعة في الشيخ محمد بن محمد بن أبي بكر القرشي المقري	_____	تحدثت رسالة محمد الخامس عن توافد مجموعة من رسل أبو عنان بخصوص مسألة الشيخ اللاجن .	ابن الخطيب، كناسة

الدكان، م س، صص 159 – 160.							الغني بالله " محمد الخامس "	
التميري فيض العباب، م س، ص 100 و صص 43 – 44. الملاح، م س، ص صص 125 - 126.	عهد للسفير بالتفاوض، كما أنه قابل زوجة ملك أراغون التي طلبت منه إبلاغ السلطان أبي عنان رغبة ملك صقلية في عقد اتفاق صلح وهو الطلب الذي وافق عليه.	بغال لم يحدد عددها	عقد الصلح	أبو يحيى علي بن يحيى الحسيني	758 هـ 1357 م	مملكة أراغون (بيدرو الرابع)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	230
عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي م س، ج 7 ، ص 145 DE MAS LATRI, op.cit, T1, pp. 325 - 326 - .	شهود الاتفاقية حسب دي ماس لاتري هم مستشار للملك وأربعة نبلاء : Don Enrich, conte Trastamara, Don Lop conte de Luna, Don Bernat de Cabrera, Don Pero Ferrandez Dijar, Don Alvaro Perez de Guzman, consellers del dito senyor rey.	_____	اتفاق صلح وتحالف ضد قشتالة	القاضي بيير بوال Pierre Boil	758 هـ 1357 م	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	مملكة أراغون (بيدرو الرابع)	231
التميري، فيض العباب، م س، ص 102. Archivo de	الموافقة على طلبه الملكة ليونور.	_____	الرد على طلب الملكة ليونو عقد الصلح لأخيهام ملك صقلية.	أبو يحيى علي بن يحيى الحسيني	4 صفر 759 هـ 15 – 16 يناير 1358 م	مملكة أراغون مملكة صقلية الملكة ليونور Dona Leonor زوجة ملك أراغون	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	232

Aragon, op.cit, pp. 218 – 216 et pp. 221 - 218.						بيدرو الرابع وأخت ملك صقلية فلودريج Frédéric III (1377 – 1355م)		
النميري، فيض العباب، م س، صص 102 – 103.	_____	_____	رسالة إخبارية، تأكيد الصلح مع ملك صقلية. قضاء بعض الأغراض الخاصة.	أبو يحيى علي بن يحيى الحسيني	11 صفر 759هـ 23 يناير 1358م	مملكة أراغون (بيدرو الرابع) (الملكة ليونور)	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	233
عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، م س، ج 7، ص 15.	إجابة طلب السفارة.	_____	طلب الإفراج عن إحدى السفن الميورقية " البشيل" الجانحة بسواحل المغرب الأوسط قرب الجزائر وإطلاق سراح البحارة والتجار.	لم يعرف	20 صفر 759هـ فبراير 1358م	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	حاكم ميورقة	234
DE MAS LARTI, op.cit, T1, pp. 69 - 66.	_____	_____	اتفاق سلم وتجارة	Pierre DE LA BARBE	28 ربيع الأول 759هـ 7 أبريل 1358م	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	جمهورية بيزة	235
التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج 7، م س، ص 147.	_____	_____	طلب قطع المساعدات المالية لقشتالة	ماتيو ميرسي أرنو دو فرانس بيرتان دو بينو B. DE PINOS M. MERCER A. DE FRANCE	22 جمادى 759هـ فاتح يونيو 1358م	الدولة المرينية (أبو عنان فارس بن علي)	مملكة أراغون (بيدرو الرابع)	236

237	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الخامس)	الدولة المرينية (أبو زيان محمد ابن فارس 1358 م)	د ت	القائدين الحاجين فلانا وفلانا	التهنئة بالاستيلاء على مراكش.		لا يوجد تسلسل كرونولوجي في كتاب الريحانة.	ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، م س، صص 304 – 307.
238	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الخامس)	الدولة المرينية (أبو بكر ابن أبي عنان فارس السعيد 1359-1358 م)	أوائل محرم 760 م أواخر 1358 م	أبو البركات محمد بن الحاج البلفيقي	تعزية بوفاة أبي عنان والتهنئة بتوليته الحكم.			عبد الهادي النازي، التاريخ الدبلوماسي، ج 7، م س، ص 99.
239	الدولة النصرية (أبو الوليد إسماعيل الثاني - 1359 1360 م)	الدولة المرينية (أبو بكر بن أبي عنان فارس)	د ت	قائد	شكر وإقرار مودة .	_____	_____	ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، م س، م 1، صص 480 – 483.
240	الدولة المرينية (أبو سالم إبراهيم)	الدولة النصرية (أبي الوليد إسماعيل بن يوسف)	760 هـ 1359 م	لم يعرف	الإخبار بتولي أبي سالم الحكم.	_____	_____	نفسه، ص 293 294.
241	الدولة النصرية (أبي الوليد إسماعيل بن	الدولة المرينية (أبو سالم إبراهيم)	760 هـ 1359 م	لم يعرف	التهنئة بتولي الحكم	_____	_____	ابن الخطيب، ريحانة

	يوسف)						الكتاب، م س، ص 289.
242	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الخامس" الغني بالله")	الدولة المرينية (أبو سالم إبراهيم)	محرم 761هـ نونبر 1359 م	الغني بالله لسان الدين ابن الخطيب	طلب اللجوء	_____	المقري، نفع الطيب، م س، ج 5، ص 85. الناصري، م س، م 2، ص 95 – 96. المقري، أزهار الرياض، م س، م 1، ص 196.
243	الدولة المرينية (أبو سالم ابراهيم - 1359 1361م)	الدولة النصرية (أبي الوليد إسماعيل بن يوسف 1359 – 1360 م)	6 محرم 761هـ 23 نونبر 1359 م	أبو القاسم الشريف	طلب إرسال السلطان النصري المخلوع الغني بالله ووزيره لسان الدين بن الخطيب والشاعر بن زمرك .	_____	الناصري، م س، م 2، ص 95 – 96. المقري، أزهار الرياض، م س، م 1، ص 203
244	الدولة المرينية (أبو سالم إبراهيم)	الدولة النصرية (إسماعيل بن أبي الحجاج)	761 هـ 1359 م	أبو القاسم التلمساني	الشفاعة في ابن الخطيب	_____	نفسه، صص 207 - 208 .

245	الدولة المرينية (أبو سالم إبراهيم)	الدولة النصرية (أبو الوليد إسماعيل الثاني) (1359 – 1360 م)	24 رجب 761هـ 10 يونيو 1360م	أبو البقاء بن تاشكورت أبو زكرياء بن فرقاجة	استرجاع متاع ابن الخطيب واصطحاب أهله.	_____	أجاب السلطان طلبهما	الناصرى، م س، م 2، ص 116.
246	الدولة المرينية (أبو سالم إبراهيم)	مملكة اراغون (بيدرو الرابع)	10 شعبان 761هـ 27 يونيو 1360م	يعقوب الرقاني	_____	_____	_____	عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، م س، ج 7، ص 149.
247	السودان الغربي (منسى ماري زاطة)	الدولة المرينية (أبو سالم إبراهيم)	محرم - صفر 762هـ دجنبر - يناير 1360 - 1361م	لم يعرف	_____	زرافة	_____	الناصرى، م س، م 2، صص 119 - 120. عبد الهادي التازي، ندوة ابن خلدون، ص 368 ⁵⁷² . المقري، أزهار الرياض، م س، ص ص 171 - 173. ابن خلدون، العبر، م س،

⁵⁷² عبد الهادي التازي، ابن خلدون سفيرا، أعمال ندوة ابن خلدون بمناسبة مرور ستمائة سنة على تحرير ابن خلدون للمقدمة، من 14 – 17 فبراير 1979 منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط مطبعة النجاح الجديدة 1981، صص 365 – 386.

ص 1995 .								
248	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الخامس)	الدولة المرينية (أبو سالم إبراهيم بن علي)	763 هـ 1361 م	عمر بن عبد الله	استقدام ابن الخطيب من المغرب		إجابة طلب السلطان الغرناطي.	الناصرى، م س، م 2، ص 138.
249	الدولة المرينية (أبو عمر تاشفين بن علي 1361 م)	الدولة القشتالية (بيدرو الأول Pierre I ^{er} le Cruel 1350-1369 م)	صفر 763 هـ دجنبر 1361 م	عبد الله الياباني	المطالبة إرسال الأمير الاجي أبو زيان المتوكل على الله محمد بن أبي عبد الرحمان يعقوب بن أبي الحسن		أجابت قشتالة طلب السفارة.	عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، م س، ج 7، ص 121.
250	ملك اراغون (بيدرو الرابع)	الدولة المرينية (أبو عمر تاشفين بن علي)	19 صفر 763 هـ 17 دجنبر 1361 م	مستشاره وسفيره الفارس برنار قبريرة Bernard de Cabrera	رسالة توجيه واعتماد لسفارة موفدة إلى المغرب من أجل إتمام اتفاق سلم.	_____	_____	DE MAS LATRI, op.cit, T 1, pp. 329 - 330.
251	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الخامس)	الدولة المرينية (أبي عبد الرحمان بن الحسن 1362 - 1366 م)	د ت	لم يعرف	تسليم ابن الخطيب لينفذ فيه حد الزندقة .	_____	رفض وزير أبو زيان وأغلظ القول لرسل غرناطة .	الناصرى، م س، ج 2 ، ص 142.
252	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الخامس 1362 - 1391 م)	الدولة المرينية (عبد العزيز بن أبي الحسن أبو فارس 1366-1372 م)	رمضان 768 هـ 30 أبريل 1367	لم يعرف	الإخبار بمستجدات العسكرية بالأندلس عقب استرجاع حصن أشهر.	_____	_____	ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، م س، م 1 ،

	(الفترة الثانية)							صص 159 - 152.
253	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الخامس)	الدولة المرينية (عبد العزيز بن أبي الحسن أبو فارس)	دت	أبو الحسن بن الحسن، قاضي الجماعة وخطيب فقيه	التهنئة بالاستيلاء على الحكم	_____	أغلب الرسائل لا يوجد بها تاريخ في الريحانة	نفسه صص 213 – 308.
254	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الخامس)	الدولة المرينية (عبد العزيز ابن أبي الحسن أبو فارس)	أواخر محرم 769هـ سبتمبر 1367م	_____	الإخبار بفتح جيان	_____	_____	نفسه، صص 160 – 170.
255	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الخامس)	الدولة المرينية (عبد العزيز بن أبي الحسن أبو فارس)	دت	_____	تهنئة	_____	_____	نفسه، صص 317 – 313.
256	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الخامس)	الدولة المرينية (عبد العزيز بن أبي الحسن أبو فارس)	ربيع الأول 769 أكتوبر 1367م	_____	الإخبار بفتح أبذة وطلب الدعم العسكري	_____	_____	ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، م س، م 1، ص 172.
257	الدولة المرينية (عبد العزيز بن أبي الحسن أبو فارس)	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الخامس)	769 – 770 هـ 1367م	الشيخ الفقيه أبو يحيى بن أبي مدين الحاج أبو محمد بن عبد الواحد	_____	هدية	حمل نفس الرسل رسالة شكر جوابية.	نفسه، صص 418 - 443.
258	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الخامس)	الدولة المرينية (عبد العزيز بن أبي الحسن أبو فارس)	محرم 770 هـ غشت 1368م	الشيخ الفقيه أبو يحيى بن أبي مدين الحاج أبو محمد ابن عبد الواحد	شكر على الهدية	_____	معظم الرسائل الموجهة للمغرب خاصة في غرض الشكر – الشفاعة - والاستنجد تُقدم ذكر السلطان المغربي عن الأندلسي.	نفسه، صص 443 – 418.

259	الدولة المرينية (عبد العزيز بن أبي الحسن أبو فارس)	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الخامس)	773 هـ 1371 م	كاتب السلطان	طلب ترحيل أهل وولد لسان الدين بن الخطيب للمغرب	_____	إجابة الطلب	المقري، أزهار الرياض، م س، م 1، ص 212.
260	الدولة المرينية (عبد العزيز بن أبي الحسن أبو فارس)	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الخامس)	773 هـ 1371 م	_____	طلب القبض على بن يفلوسن ابن السلطان أبي شيخ الغزاة بالأندلس.	_____	_____	نفسه، ص 210.
261	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الخامس)	الدولة المرينية (عبد العزيز بن أبي الحسن أبو فارس)	د ت	_____	تسليم لسان الدين ابن الخطيب لإقامة حد الزندقة عليه وقوفاً عند حكم القاضي الغرناطي أبي الحسن النيهاني.	مجموعة من الهدايا من متاع الأندلس وماعونها وبغالها الفارحة ومعلوجي السبي وجواريه	رفض إجابة طلبهم	المقري، أزهار الرياض، م س، م 1، ص 226. الناصري، ج 2، م س، ص 141.
262	الدولة النصرية (أبو عبد الله محمد الخامس)	الدولة المرينية (أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن أبي العباس)	776 هـ 1374 م	الوزير عبد الله بن زمرك زعانقة جاؤوا مع الوفد	تسليم ابن الخطيب لينفذ فيه حد الزندقة	_____	قبول طلب غرناطة وقتله بفاس قال الزركشي أن ابن الخطيب قتل "خنقاً بمحبسه"	الناصري، م س، ج 2، ص 142. الزركشي، م س، ص 108.
263	مملكة اراغون (خايمي الأول Jean I ^{er} 1387-1396 م)	الدولة المرينية (أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن أبي)	29 شعبان 790 هـ 1 شتنبر 1388 م	Gilabert Rovira de Tortose	طلب الموافقة على السفير الأراغوني إلى فاس مع خمسين جندي وعشرة نساء "عموميات" لخدمتهم.	_____	_____	MAS LATRIE, op.cit, T 1, P. 69.

						العباس 1387-1393م (الفترة الثانية)		
264	الدولة المرينية (أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن أبي العباس)	الدولة المملوكية (الظاهر أبو سعيد برقوق 1390 - 1399 م)	1391 هـ 793 م	الشيخ يوسف بن علي بن غانم شيخ عرب معقل. انضم إلى الوفد المريني ابن خلدون الذي كان يقيم بمصر.	_____	خمس وثلاثين من عتاق الخيل بالسروج واللجم الذهبية والسيوف المحلاة خمسة وثلاثين حمل من أقمشة الحرير والكتان والصوف والجلد.	التقى ابن خلدون بيوسف بن غانم شيخ الأعراب عام 793 هـ / 1391 م ويسر أمر لقائه بالسلطان وأطلعته على مكانته بين قومه، فأكرم لقائه وحمله بعد قضاء حجه هدية إلى صاحب المغرب فيها النسيج والقسي والطيب وطلب منه أن ينتقي له خيلا من قصور المغرب. ⁵⁷³ وجه ابن خلدون تقريراً إلى السلطان أبي سعيد عقب اتصاله بتميمور لنك، يخبره بما استجد في المشرق ويعرف بتاريخ التتر، ويبدو أن التقرير جاء جواباً على إحدى رسائل السلطان	عبد الهادي التازي، الوسيط، م س، م 2، ص 260. الناصر، م س، م 2، ص 152.
265	الدولة المرينية (عثمان بن أبي سالم أبا السعيد)	الدولة المملوكية (فرج بن أبي سعيد بن برقوق 1399 - 1405 م)	شعبان 804 هـ مارس 1402 م	لم يعرف	الإخبار باستعداد المغرب لتقديم مساعداً عسكرية لمواجهة التتار.	_____	_____	القلقشندي م س، ج 8، صص 103 - 108.
266	الدولة المرينية (عثمان الثاني المريني 1398 - 1420 م)	الدولة المملوكية (الناصر فرج بن برقوق 1399 - 1405 م)	د ت	لم يعرف	_____	_____	_____	نفسه، ج 7، م س، صص، 407 - 408.

⁵⁷³ التازي، ابن خلدون سفيرا، م س، صص 377 - 378.

267	الدولة المرينية (عثمان بن أحمد ابن أبي سالم 1398 - 1420م)	الدولة المملوكية (الناصر فرج بن برقوق 1399 - 1405 م)	بداية القرن التاسع هجري الخامس عشر ميلادي	الشيخ أبو عبد الله محمد الجواد بن محمد الهادي ابن نفيس الحسيني العراقي الكربلائي جد الأشراف العراقيين بالمغرب	تهنئة الملك الناصر بوقف زحف التتر في الشام	_____	رسالة جوابية من الملك الناصر فرج ابن برقوق من إنشاء القلقشندي تضمنت أخبار مصر والشام، وإخبار بوصول الوفد السفاري المغربي.	القلقشندي، ج 8 ، م س، ص 103. التازي الوسيط م2، م س، ص 262.
268	الدولة المملوكية (الناصر فرج بن برقوق)	الدولة المرينية (عثمان الثاني)	د ت	لم يعرف	الإخبار بمستجدات الحرب على تيمورلنك	_____	_____	نفسه، ج 7 ، ص 407 - 411.
269	فرنسا (شارل السابع Charles VII 1422 – 1461م)	الدولة المرينية (عبد الحق بن عثمان بن أحمد 1420 – 1465م)	680 هـ 1456 م	برنار دوفو Bernard de Veaux	عقد اتفاق تجاري استقبال وحماية السفن الفرنسية الوافدة على المراسي والموانئ المغربية	_____	استقل السفير الفرنسي سفينة Notre dame et saint jaques من ميناء أيك مورط في نيم Aigues mortes Nîmes	عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، م س، ج 7، ص 193. نقلا عن CANIVAL, op.cit, pp. 453-454.
270	الدولة النصرية (عبد الله الصغير)	الدولة الوطاسية محمد الشيخ	897 هـ 1492 م	الوزير أبي عبد الله محمد العربي العقيلي	طلب اللجوء	_____	إجابة الطلب	الناصر، م س، ج 2، ص 188 – 189.

الفصل الخامس :

آليات العمل الدبلوماسي القانونية والعرفية ومحدداته التجارية والدينية

نروم في هذا الفصل دراسة بعض آليات العمل الدبلوماسي الوسيط القانوني والعرفية، من خلال رصد مختلف المؤثرات التي أسهمت في تأسيس منظومة الأمن السفاري في العصر الوسيط، مع تخصيص غرب المتوسط بهذا البحث بالنظر لانتماء المغرب لهذا الحيز الجغرافي، والتفاعل الكبير الذي طبع علاقاته بالكيانات السياسية التي جاورته، وارتأينا أيضاً تخصيص حيز مهم من هذا الفصل لتسليط الضوء على عدد من أعراف العمل الدبلوماسي المرتبطة بالمراسيم البروتوكولية وتمويل البعثات وتنقلها، في حين خصصنا المبحث الأخير لدراسة المحددات التجارية والدينية التي كان له أثر كبير في تطور العمل الدبلوماسي في الغرب الإسلامي دون أن نغفل الحديث عن دور مؤسسة الفندق والعمل القنصلي في تسريع وتيرة انتقال هذا العمل من الهواية إلى الإحتراف.

1- مبادئ العمل الدبلوماسي : أنموذجاً الأمن والحصانة

على الرغم من التطور الكبير الذي عرفه العمل الدبلوماسي على مرّ العصور وصولاً إلى الزمن الراهن، فإنه ما يزال موسوماً بالطابع العُرفي، وهي أعرافٌ يعود بعضها إلى العصور القديمة والوسيطية، خاصة تلك المتعلقة بأمن البعثات الدبلوماسية والامتيازات التي كان يحصل عليها السفراء والرسل وأعضاء البعثات الدبلوماسية نظير العمل الذي يقومون به.

1.1 البعد العرفي والتعاقد

أولت الأعرافُ الدبلوماسية الوسيطية اهتماماً بالغاً للبُعد الأمني للبعثات السفارية، حيث نجد أنه على الرغم من عدم إشارة المعاهدات الوسيطية بشكل كافٍ للإمتيازات والضمانات الأمنية التي كانت تتمتع بها هذه البعثات، إلا أنها كانت حاضرة على مستوى الممارسة كأعراف تستمد شرعيتها من التاريخ ومن تواتر الممارسة. فحُسن الاستقبال، وإسقاط المتابعة القضائية والإعفاء الضريبي، كانت امتيازات عُرفية لم تأت على ذكرها نصوص المعاهدات الوسيطية إلا فيما ندر، ليس تنقيصاً من قيمتها، ولكن لما كان يتمتع به العُرف من سُمُو يتجاوز في أحيان كثيرة القيمة القانونية للنصوص التعاقدية والتشريعية.

لن نعمل في هذا المبحث على تعداد الأعراف الدبلوماسية الوسيطة وتعريفها، بقدر ما سوف نعمل على رصد ما يتعلق منها بأمن البعثات السفارية، رغبةً في تقريب القارئ من العمل الدبلوماسي الوسيطي والوسائل المعتمدة لتأمينه، مع التأصيل لها من خلال التطرق لمختلف العوامل المؤثرة فيها والمؤسسة لمفاهيم الأمان والحماية والحصانة؛ غير أنه قبل تسليط أضواء البحث على أمن البعثات السفارية، يجدر بنا بسط أهم المخاطر التي كانت تهدد السفراء والرسل أثناء تأدية مهامهم والتي كان جزء منها مرتبط بوسائل النقل المعتمدة في هذا العصر.

خلافًا لما هو متعارف عليه من كون دبلوماسية الزمن الراهن شرف وامتيازات بلا مخاطر، فإن الممارسة الدبلوماسية الوسيطة كانت محفوفة بالمخاطر والأهوال، إلى درجة أن عدداً من أفراد البعثات السفارية خطوا وصاياهم قبل بداية مهمتهم⁵⁷⁴، فبالإضافة إلى الأخطار البشرية التي كانت تحدد بهم كالقتل والاختطاف، كانت أخطار الطبيعة والأمراض والأوبئة تترصد بهم، ناهيك عن مشاق الطريق والبعد الجغرافي؛ لقد دأبت البعثات السفارية على سلك الطرق البرية المتعارف عليها في غرب المتوسط، التي كان جزءٌ منها يعود إلى لفترة الرومانية، حيث كانت بعض مقاطعها ما تزال مُرصّفة وبها قناطر وقلاع أمنت عبوراً آمناً وسريعاً للبعثات وقدمت لهم العون عند الخطر⁵⁷⁵، الأمر الذي مكّن بعض البعثات السفارية الأوروبية في فترات السلم من قطع ما يربو عن 25 كيلومتر في اليوم، بل كانت تصل إلى 50 كيلومتر إذا تعلق الأمر بالرسائل المستعجلة⁵⁷⁶.

إلى جانب النقل البري، اعتمدت البعثات السفارية في الغرب المسيحي على الملاحة النهرية من أجل التنقل، حيث سمح عمق الأنهار وانتظام جريانها ووجود الحراس على امتدادها بالملاحة عبر سفن وقوارب نهرية كانت من بين الوسائل الأكثر أماناً⁵⁷⁷، وذلك خلافاً للملاحة البحرية التي كانت مرادفاً للمخاطر والمهالك، بالرغم من التطور الذي عرفته أنظمتها وتقنياتها بعد تأسيس المدن التجارية المتوسطية والممالك الصليبية بالشرق، وهو ما دفع إلى اعتماد مجموعة من التقنيات الملاحية رغبة في تقليص المخاطر، كالمساحلة ونظام القوافل البحرية التي كانت ترافقها في بعض الأحيان سفنٌ تجارية وعسكرية تسلك

⁵⁷⁴ MOELING et PEQUIGNOT, op.cit, p.111.

⁵⁷⁵ Ibid, p.102.

⁵⁷⁶ Ibid, p.110.

⁵⁷⁷ Ibid, p.103.

ممرات بحرية متعارف عليها⁵⁷⁸، وفي هذا الإطار تحدث دي ماص لاتري DE MAS LATRI عن قدوم قافلة بحرية مغربية سنة 527هـ / 1133م، تضمّ سفينتين رستا بمرفأ مدينة بيزا الإيطالي، على متنها مبعوثين أرسلهم صاحب بجاية يحيى بن عبد العزيز الحمادي، وقعوا معاهدة سلم يوم 26 يونيو مع جمهورية بيزا⁵⁷⁹.

وبخصوص البعد العرفي للأمن السفاري، فالجدير بالذكر أن العُرف يُعد من أبرز مصادر العمل الدبلوماسي الوسيط، بل إنه سما على بعض النصوص التعاقدية التي كانت تستند إليه أثناء صياغتها، ومن بين أهم الأعراف المتداولة آنذاك، نجد الأمن الشخصي لأفراد البعثة، الذي كان يتطلب تفعيله إثبات الصفة الدبلوماسية لأفراد البعثات السفارية عن طريق الرسائل المختومة ورسائل الاعتماد وغيرها من الوسائل التي سوف نعرض لها خلال هذا المحور.

تُعتبر الرسائل المختومة من أهم أدوات تأمين البعثات السفارية، حيث لا يقتصر دورها على التعريف بالمبعوث فقط، بل تقوم بدور أساسي في منحه مجموعة من الضمانات الأمنية والامتيازات القانونية تسهلاً لمهمته، حيث أضحت الرسائل المختومة ورسائل الاعتماد المختومة مع مرور الزمن وتعاقب العصور عرفاً أصيلاً لا يستقيم العمل الدبلوماسي من دونه؛ وبخصوص محدداتها الشكلية فلقد سبق وأن أشرنا لذلك في الباب الأول من هذا العمل في سياق حديثنا عن خصائص الوثائق الدبلوماسية الوسيطة،

والجدير بالذكر، أن دول الغرب الإسلامي الوسيط تبنت معظم الأعراف والقوانين الدبلوماسية السائدة في عصرها، بما في ذلك الرسائل المختومة ورسائل الاعتماد، مستندة في ذلك إلى ما ذهب إليه المنظومة الفقهية من شرعية هذه الأعراف التي ورد ذكرها في مجموعة من النصوص القرآنية والحديثية. فعن قتادة عن أنس قال لما أراد رسول الله ﷺ أن يكتب إلى الروم، فقلت له :

"إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً، قال فأخذ رسول الله ﷺ خاتماً من فضة، كأني أنظر إلى بياضه في يد رسول الله، نَقَشَهُ محمد رسول الله".

⁵⁷⁸ MOELING et PEQUIGNOT, op.cit, p.106.

تحدث دي ماص لاتري عن يحيى بن عبد العزيز المرابطي.

⁵⁷⁹ DE MAS LATRIE, T1, op.cit, p.37.

وبإسناد آخر إلى قتادة عن أنس أن النبي ﷺ أراد أن يكتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي ف قيل :

" إنهم لا يقبلون كتاباً إلا بخاتم فصاغ رسول الله خاتماً، حلقة فضة، ونُقش فيه مجد رسول الله⁵⁸⁰؛

لا يدع الحديث النبوي مجالاً للشك في أن دول الغرب الإسلامي استعارت الأعراف المتداولة في العصر الوسيط، والمتوارثة عن الإغريق والرومان، والخاضعة لعدد من المؤثرات الدينية والثقافية، فهي لم تسع إلى تغييرها بل تبنتها ووظفتها لخلق تواصل مع الكيانات المجاورة وحفظ مصالحها السياسية والاقتصادية. من جهة أخرى، يؤكد الحديث النبوي مسألة تداول عرف ختم الرسائل الدبلوماسية، تأكيداً لمصدرها وطبيعتها وصفة حاملها، وهو الأمر الذي كان من شأنه تأمين المبعوث وتقليص المخاطر التي تهدده مقارنةً مع بقية التجار والمسافرين⁵⁸¹ ومنحه صفةً رسميةً ومجموعة من الامتيازات الميسرة لأداء مهمته.

وفي هذا السياق، وكما سبقت الإشارة إلى ذلك في الباب الأول من هذا العمل أورد جمهرة من إخباري العصر الوسيط كالقلقشندي وابن الخطيب عدداً من المراسلات المرابطية والموحدية والمرينية التي كانت تحمل أختام مختلفة الأشكال والزخارف، لم يكن دورها تزيين الرسائل بقدر ما كان له دور تأكيد على مصدر الرسالة وصفة حاملها، كما كان لها دور أساسي في تأمينه وتميزه عن بقية المسافرين والتجار والمغامرين، بل أوردت بعض المصادر أن السلطان أبا الحسن المريني كان يتوفر بالإضافة إلى العلامة المعروفة التي كان يستخدمها بنو مرين، على طابع خاص كان يضعه أسفل المراسلات والمعاهدات عبارة عن قطعة من الجلد شبه دائرية مثبتة بأربعة خيوط⁵⁸².

إلى جانب عملية ختم المراسلة، كان يُعمد في مرات عديدة، خاصة إذا تعلق الأمر بالرسائل الشفوية، إلى تزويد الرسول أو السفير بخاتم من ذهب أو فضة، يحمل نقوشاً وكتابات تدل على مصدره وصفة حامله، تأكيداً لاعتماده مبعوثاً من قبل السلطات الموفدة له.

⁵⁸⁰ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير الشافعي، جامع الأسانيد والسنن، مسند أنس بن مالك، القسم الثاني، خرجه عبد المعطي أمين فلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ج 22، صص 349-350.

⁵⁸¹ MOELING et PEQUIGNOT, op.cit, p.424.

⁵⁸² DE MAS LATRIE, op.cit, T1,p. 192-195

وارتباطاً بذات الموضوع، أورد عدد من المؤرخين الأوروبيين كميثيل أماري ودي ماص لاتري عدداً من رسائل الاعتماد المنفصلة عن المراسلات الدبلوماسية الرسمية، بالمقابل تلقى بعض هؤلاء رسائل جوابية ثنى عليهم وتؤكد قيامهم على أحسن وجه بمهامهم، كما تشير إلى حفاوة استقبالهم وحسن مقامهم، وكان لها الأثر نفسه للرسائل المختومة ورسائل الاعتماد المنفصلة من حيث تأمين البعثة السفارية في طريق عودتها وخلال عبورها للمجال الترابي للدولة الموفدة إليها.

وفي هذا الصدد نورد مقتطفاً من الرسالة الجوابية التي بعثها عبد الله سليمان المريني إلى الملك الأراغوني الدون خايي، والتي جاء في إحدى فقراتها:

" .. نعرّفكم بأنه قد وصل إلينا رسولكم جزيرت، وقرّين وُدكم ومرضى قصدكم ما أوجب لكم زيادة الشكر والثناء، وضاعفنا لكم بحسبه جميل الاحتفاء⁵⁸³

كما نورد مقتطفاً آخر من الرسالة الجوابية للسلطان عثمان بن يعقوب المريني إلى الدون خايي الثاني ملك أراغون:

" .. فإنه وصلنا كتابكم صحة رسولكم رامون قنبرية، فوقفنا عليه وعلمنا ما لديه⁵⁸⁴

وهو النهج نفسه الذي سار عليه السلطان عثمان بن يعقوب المريني حين أرسل رسالة جوابية إلى الأمير الدون الفونس بن خايي الثاني ملك أراغون:

" .. وإلى هذا أرشدكم الله فإننا نعرّفكم بوصول كتابكم صحة رسولكم رامون قنبرية، ووقفنا عليه، وعلمنا ما تضمنه وألقى إلينا رسولكم المذكور ما ألقىتم إليه، واحتلم في تبليغه عليه وحملناه في ذلك على التصديق، وقد تلقى منا ما يُلقيه إليكم بالمشافهة، وهو المصدق فيما ينقله إليكم ويقصه بحول الله وقوته⁵⁸⁵.

⁵⁸³ الوثائق الملكية، م.س، م 1، صص 306-305.

⁵⁸⁴ نفسه، صص 318-317.

⁵⁸⁵ نفسه، صص 320-321.

جرى العرف أيضاً بأن تتضمن المراسلات الدبلوماسية ذكراً لحامل الرسالة وصفته، وفي أحيان كثيرة تحديداً لمهامه، وهي المهام التي كانت تُحدد أيضاً برسائل مُنفصلة عُرفت في الغرب المسيحي بإسم *Lettre de conduite* أي رسائل التوجيه، وفي بعض الحالات كان يُزود المبعوث برسالة تأمين خاصة عُرفت بـ *Letterea securitati*⁵⁸⁶، كما عُرفت عند بعض الإخباريين اللاتينيين بأمر الحماية *Tractoriae*⁵⁸⁷؛ كما تضمنت بعض هذه الرسائل أوامر بتأمين النقل والمؤونة خلال عبور البعثة للمجال الترابي للدولة الموفدة⁵⁸⁸، وهي جزء من الامتيازات التي كان يتمتع بها كل أفراد البعثة السفارية.

كان الخاتم والرسائل المختومة ورسائل الاعتماد المُنفصلة من أهم وسائل تأمين البعثات السفارية، في زمن كانت السفارة مهمة محفوفة بالمخاطر الطبيعية والبشرية نظراً لارتباطها بالتنقل الدائم بين الدول والمدن، واستعمالها لكل وسائل النقل المتاحة، الأمر الذي استوجب إقامة نظام حماية خاص وامتيازات متفردة من أجل تحفيز أفراد البعثات على القيام بمهامهم وتسييرها، والحفاظ على السفارة كآلية فعالة لفض النزاعات وحفظ المصالح السياسية والتجارية زمن السلم وزمن الحرب⁵⁸⁹.

امتد مفهوم الحماية والأمان ليشمل إلى جانب الأمن الشخصي لأفراد البعثات السفارية مقرات إقامتهم، بما في ذلك الفنادق التي كانت تستقبل من حين لآخر بعثات دبلوماسية، كما كانت تضطلع في بعض الأحيان بمهام التمثيل الدبلوماسي للدول المالكة لها.

وبالنظر لأهمية الفنادق في العمل الدبلوماسي، فقد كانت موضوع عدد من المعاهدات بين الدول المتعاقبة على حكم المغرب الوسيط وعدد من الممالك المسيحية⁵⁹⁰، حيث سعت مختلف القوى الأوروبية للحصول على امتيازات قانونية وقضائية وجبائية لهذه المؤسسة التي كان على رأسها قُنصل تُعينه الدول الموفدة أو يُنتخب من بين التجار، ومقابل الامتيازات التي حصلت عليها القوى الأوروبية بموجب المعاهدات السالفة الذكر، تشددت في الرد على أي اعتداء أو خرق للحصانة التي أضحت تتمتع بها هذه المؤسسات مع مرور الزمن، وهي ردود وصلت إلى إعلان الحرب، كما حدث حين تعرض الحي الفندقي

⁵⁸⁶ MOELING et PEQUIGNOT, op.cit, p.383.

⁵⁸⁷ Ibid, p.81.

⁵⁸⁸ Ibid, p.381.

⁵⁸⁹ BECKER et DROCOURT, op.cit, p.01.

⁵⁹⁰ فاوضت معظم المدن التجارية ودول جنوب أوروبا من أجل معاهدات مستقلة وذات امتيازات مع الإسلامية في مصر وشمال إفريقيا الأندلس؛ أوليفيا ريمي كونستابل، إسكان الغرب في العالم المتوسطي، السكن والتجارة والرحلة أواخر العصر القديم والوسيط، تعريب تقديم محمد الطاهر المنصوري، المدار الإسلامي، دار الكتاب الجديد، لبنان، 2013، ص 172.

الجنوي بمدينة سبتة "الشبه مستقلة آنذاك" لهجوم القبائل المجاورة سنة 1234م⁵⁹¹، الأمر الذي دفع جنوة سنة 1235م إلى إرسال سفيرها Carbono MALOCELLO⁵⁹² من أجل الاحتجاج على الاعتداء والمطالبة بالقصاص وتعويض الخسائر الناجمة عن الهجوم، وهي المطالب التي رفضتها مدينة سبتة مما أدى إلى قطع المفاوضات وإعلان الحرب⁵⁹³، حيث أرسل الجنويون أسطولاً حربياً على رأسه الأميرال Ugone LECARIO والسفير Suizio PEVERE.

أمام جدية التهديد الجنوي قبلت سبتة بعد مفاوضات طويلة بتوقيع معاهدة سلم سنة 1236م، جاءت بنودها كالتالي :

- تأدية 400.000 دينار لتكلف جنوة بتوزيعها على التجار المتضررين من أحداث 1234م؛
- عودة التمثيلية القنصلية والتجار الجنويين إلى سبتة؛
- بقاء مجموعة من القطع الحربية بمرافق سبتة من أجل حماية التجار الجنويين.

لقد كانت المفاوضات التي تتم بين السفراء ونظرائهم تفضي في أحيان كثيرة إلى قبول الأطراف المتفاوضة توقيع معاهدة تترجم إرادتهم في انعقاد السلم وحفظ المصالح، وهو الأمر الذي كان يتطلب في بعض الحالات عقد لقاء بين ملوك وأمراء الدول المعنية بالمعاهدة من أجل التوقيع عليها أو من أجل الاستمرار في التفاوض إلى حين إيجاد صيغة نهائية، وهو الاجتماع الذي يعرف ب"اللقاء الحدودي".

كان الملك أو الأمير هو من يترأس البعثة الدبلوماسية المتوجهة إلى اللقاء الحدودي، وقد حفظ لنا بعض إخباري العصر الوسيط مجموعة من الأمثلة عن لقاءات عُقدت بين مجموعة من ملوك وأمراء أوروبا الغربية، وعن التدابير الاحترازية والأمنية التي رافقت انعقاد هذه اللقاءات، رغبةً في عدم تحولها إلى صدام دامي بين البعثتين، خاصة أن هناك عدد من اللقاءات المماثلة التي انتهت بأعمال عنف، كما تؤكد ذلك حوليات سان بيرتان Saint BERTIN التي تحدثت عن لقاء صلح جرى سنة 856م في منطقة Orbe - Jura بفرنسا، بين ثلاثة من أبناء الملك لوثر Lothaire هم Charles – louis II- Lothaire II، تحول إلى صدام مسلح بين الأشقاء⁵⁹⁴؛ كما تحدثت بعض المصادر المسيحية عن أطوار اللقاء الذي جرى بين الإمبراطور

⁵⁹¹ كونستابل، م.س.، ص 33.

⁵⁹² Carbono MALOCELLO تاجر وسفير بمدينة سبتة؛ نفسه، ص 33.

⁵⁹³ Ibid, p.101.

⁵⁹⁴ MOELING et PEQUIGNOT, op.cit, p.184.

الجرماني Henri III وملك فرنسا Henri I في 27 ماي 1056م في منطقة Lvois، تحول بدوره إلى مواجهات دامية
فر على إثرها الملك الفرنسي⁵⁹⁵.

وجعل تواتر الأحداث الدامية الساهرين على تنظيم هذا النوع من اللقاءات يحرصون على أن لا
تتحول مناسبة التفاوض وإقرار السلام إلى صدام ومواجهة، من خلال فرض مجموعة من التدابير
الاحترازية المشددة، التي كانت بدورها سبباً في إفشال عدد من اللقاءات الحدودية، نظراً لرفض بعض
الملوك والأمراء الذين كانوا يصطحبون جيوشاً كاملة العدة والعدد الانضباط لها⁵⁹⁶، كما حدث حين رفض
الإمبراطور فريدريك الثاني عقد لقاء مع الملك الفرنسي سان لوي سنة 1238م بمنطقة Vaucouleurs بعد
أن هاله حجم الجيش الفرنسي المرافق للملك الذي لم ينضبط لعرف تحديد عدد المرافقين⁵⁹⁷.

ومن أجل تجاوز مسألة انعدام الثقة، وتقديم مزيد من الضمانات للأطراف المعنية باللقاء
الحدودي، جرت الأعراف أن تنعقد هذه اللقاءات على ضفاف الأنهار، حيث يقوم كل طرف بإقامة
مُعسكره على إحدى ضفتي النهر حيث يتقابل الأطراف، وفي حالة رفض أحدهم الضمانات الأمنية لانعقاد
اللقاء المباشر، يتم اللقاء فوق قنطرة أو فوق جزيرة نهرية أو على متن قاربين وسط النهر، وهي أعراف
قديمة تستمد أصولها وشرعيتها من التقاليد الدبلوماسية الرومانية، حيث سبق للإمبراطور الروماني
Valans والزعيم القوطي Athanaric Goth أن التقيا في لقاء حدودي فوق قارب نهر، بعد أن تمسك الزعيم
القوطي بعدم دخول الأراضي الرومانية واعتبار الإمبراطور الروماني دخول الأراضي القوطية إهانةً ومسّ
بهيئته⁵⁹⁸، وهو العرف نفسه الذي اعتمده في يناير 1199م الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد حين إلتقى
بالمملك الفرنسي فيليب أوغست، بعد أن عبر إلى الضفة المقابلة لنهر السين Seine على متن قارب نهر،
حيث إلتقى بالمملك الفرنسي الذي كان بدوره على متن قارب نهر آخر، وتمت المفاوضات على هذا
النحو⁵⁹⁹.

⁵⁹⁵ MOELING et PEQUIGNOT, op.cit, p.184.

⁵⁹⁶ Ibid, p.185.

⁵⁹⁷ Ibidem.

⁵⁹⁸ MOELING et PEQUIGNOT, op.cit, p.186.

⁵⁹⁹ Ibid, p.187.

وقاد هاجس حفظ أمن الملوك والأمراء والبعثات الدبلوماسية المرافقة لهم خلال اللقاءات الحدودية، الساهرين على تنظيمها إلى وضع مجموعة من الضوابط والتدابير العرفية الرامية إلى تعزيز أمن وسلامة البعثات السفارية الوسيطة، نجملها في النقاط التالية :

- تحديد عدد أفراد الوفد المرافق للملك أو الأمير؛
- تحديد أنواع الأسلحة المسموح بحملها أثناء انعقاد اللقاء؛
- تحديد المواصفات التقنية للبناء الخشي فوق القنطرة؛
- تحديد مواصفات الحاجز المعدني الفاصل بين الطرفين فوق القنطرة؛⁶⁰⁰
- تحديد معايير انتقاء لجنة التنظيم؛⁶⁰¹
- تحديد مسافة بُعد الجيوش والفرق العسكرية المرافقة عن مكان انعقاد اللقاء؛
- تحديد عدد أعضاء لجنة مراقبة التزام الأطراف بتطبيق التدابير الاحترازية ؛
- إخضاع النسخ الأصلية للمعاهدات للتدقيق من قبل المستشارين قبل المصادقة عليها.⁶⁰²

وبالمقابل، كانت اللقاءات التي تجمع بين السلاطين والملوك في الغرب الإسلامي تتسم بامتزاج الهاجس الأمني بالبُعد البروتوكولي، بُغية استعراض القوة ومظاهر الثراء والتحضر وتقديم اللقاء في صورة نصر للمسلمين، وهي التدابير التي سوف نتحدث عنها بالتفصيل في الفقرة المخصصة للمراسيم الدبلوماسية.

2.1 الحصانة الدبلوماسية

كما سبقت الإشارة، تضمنت معظم المعاهدات التي وقعتها الدول المتعاقبة على حكم المغرب خلال العصر الوسيط مع ممالك ومدن أوروبا الغربية، مجموعة من الحقوق والامتيازات لصالح رعايا الطرفين، خاصة التجار وأفراد البعثات الدبلوماسية والقناصل، كضمان حرية التنقل والتجارة وحماية الأفراد والممتلكات والمراسلات⁶⁰³ وامتياز إنشاء الكنائس وحرمة دور العبادة، وحق امتلاك المراكز

⁶⁰⁰ MOELING et PEQUIGNOT, op.cit., pp.189-188.

⁶⁰¹ Ibid, p.189.

⁶⁰² Ibidem.

⁶⁰³ تضمنت معاهدة السلم الموقعة في فاتح يونيو 1181م بين سفير جمهورية جنوة رضوان دي مورو Rodoan DE MORO وإسحاق بن غانية بميورقة بنداً خاصاً بحماية المراسلات.

التجارية والفنادق وتجريم القرصنة⁶⁰⁴ وتقديم الإغاثة للسفن الجانحة وحماية البضائع المنقولة على متنها، عملاً بمبدأ الرأية تحي التجارة، بالإضافة إلى عدد من الامتيازات التي تتعلق بحماية التركة والذمة المالية للأجانب المتوفين بالمغرب⁶⁰⁵، كما تضمنت بنوداً تتعلق بمحاربة التهريب الضريبي والتملص من أداء واجبات المراسي، وهي الحقوق الامتيازات التي كان تُصاغ وفق قاعدة المعاملة بالمثل⁶⁰⁶ مع تحديد المدة الزمنية والحيز الجغرافي المشمول بأثرها، وهو ما كان يُعرف بالشرط المكاني والزمني، وعلى سبيل المثال، أعطى الخليفة عبد المؤمن الموحي لولائه أمراً بموجب المعاهدة الجنوبية الموحدية للملاحة البحرية والتجارة، من أجل تطبيق بنودها على مجموع البلاد الخاضعة لسلطته⁶⁰⁷.

إلى جانب البنود المتعلقة بالتجارة وحماية الرسل والمراسلات، تضمنت بعض هذه المعاهدات بنوداً تتعلق بالحماية الشخصية والامتيازات القانونية والمالية والاحتكارات التجارية الممنوحة للقناصل، باعتبارهم يمارسون عملاً دبلوماسياً يستوجب توفير حماية خاصة وامتيازات تحفيزية من أجل تسهيل قيامهم بمهامهم التمثيلية. وفي هذا السياق، حصل سفير وقنصل دوقية البندقية جون بارباديغو Jean BARBADIGO بدمشق سنتا 1373-1374م على مجموعة من الامتيازات الأمنية والقضائية والمالية بموجب اتفاقية وقعت لهذا الغرض.⁶⁰⁸

إجمالاً، تضمنت المعاهدات الموقعة بين الممالك والمدن المسيحية والدول المتعاقبة على حكم المغرب في الفترة الوسيطة مجموعة من الضمانات والامتيازات والحقوق والواجبات التي كانت تتكرر بشكل دوري، والتي نجملها في النقاط التالية:

- ضمانات حماية الأشخاص والممتلكات المسيحية؛
- حرية المعاملات التجارية؛
- الامتيازات القضائية للقناصل؛

⁶⁰⁴ محمد لماني علوي، الإطار العام للعلاقات المغربية مع الجمهوريات الإيطالية البحر في تاريخ المغرب، ندوة تاريخ المغرب والبحر، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، أيام 24-25-26 أكتوبر 1996، تنسيق رقية بالمقدم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، سلسلة ندوات رقم 07، ص 212؛ أنظر أيضاً، أوليفيا ريمي كونستابل، مرجع سابق، ص 195.

⁶⁰⁵ التنازي، الوسيط، م.س.، م 1، ص 218.

⁶⁰⁶ نفسه، ص 13.

⁶⁰⁷ لماني علوي، م.س.، ص 215.

⁶⁰⁸ DE MAS LATRIE, T 2, op.cit, pp.93-94.

- ملكية الفنادق والكنائس والمقابر؛
- المسؤولية الشخصية للمسيحيين المقيمين فوق التراب المغاربي؛
- تحديد مسؤولية القناصل والمسيحيين المقيمين بدار الإسلام عن ديون وتصرفات الغير من مواطنهم؛
- تجريم القرصنة؛
- إغاثة وحماية السفن الجانحة؛
- حق الحطام؛
- وضعية السفن الأجنبية الحليفة؛
- ضمانات نقل وحراسة وبيع وأداء أئمة البضائع.

والجدير بالذكر أن العُرف جرى بأن يتم التفاوض بشأن المعاهدات وحسم مضامينها وبُنودها بشكل شفوي، حيث أنه بمجرد التوصل إلى توافق الإرادة بين الأطراف يتم رفع اليد أو القسم، بعد ذلك تُسلم رسالة للسفراء تتضمن موافقة الطرفين على مضامين المعاهدة وعلى صيغتها النهائية⁶⁰⁹، مع ذكر الضمانات الأساسية الممنوحة للمسيحيين والمسلمين خاصة تلك المتعلقة بأمن الأشخاص المعبر عنه لدى المسلمين بالأمان ولدى المسيحيين ب *Sauvegarde*⁶¹⁰.

وبقدر ما تعكس البنود السالفة الذكر مجالات التوافق بين المسلمين والمسيحيين، إلا أنها تعكس في الآن ذاته مخاوف الطرفين، وأبرز المخاطر التي كانت تهدد أمن السفراء والتجار والمسافرين المسيحيين والمسلمين على السواء في الفترة الوسيطية⁶¹¹.

كان حضور أمن السفراء والرسل في التشريع المسيحي كما في الفقه الإسلامي لافتاً من خلال مجموعة من القواعد التي استندت في صياغتها إلى النصوص الدينية، تعزيزاً لضمانات الحماية الشخصية والمالية لأفراد البعثة الدبلوماسية، ورغبةً في الارتقاء إلى مستوى الحصانة المقدسة المُعاقب على خرقها بأشد العقوبات.

لقد اعتبرت النصوص المسيحية حماية أفراد البعثات السفارية واجباً مقدساً، بالنظر إلى طبيعة المهام التي يضطلعون بها، التي تشبه إلى حد كبير مهام الأنبياء والرسل⁶¹²، وذلك من خلال سن مجموعة

⁶¹⁰ L DE MAS LATRIE, T 1, op.cit, p.41.

⁶¹¹ Ibid, pp. 84-85.

من القوانين الكنسية Droit Canonique، كمرسوم كراتيان Décret de Gratien الذي صنف Les légats أي السفراء والرسول ضمن خانة المحميين الذين يحرم الاعتداء عليهم أو على ممتلكاتهم، واعتبار ذلك اعتداءً على الأمة المسيحية؛ وعملاً بهذه القاعدة القانونية الصريحة، هدد البابا بونيفاس VIII (نهاية القرن XIII) كل من اعتدى أو عرقل عمل مبعوث أو رسول أو وافد على البابوية ب L'excommunication⁶¹³ أي الطرد من الكنيسة، و يندرج في هذا السياق قرار البابوية إعدام المتهمين باختطاف مبعوث الملك الإنجليزي إدوارد الثالث ملك فرنسا Clement VI سنة 1340م، وهو القرار الذي جاء بعد احتجاج الملك الإنجليزي على الحادثة وإنكار الملك الفرنسي لأي صلة له بالجناة؛ وعلى إثر هذه الواقعة تقدم الملك إدوارد للبابوية وفرنسا سنة 1343م بمقترح لتعزيز الضمانات الأمنية الممنوحة للبعثات الدبلوماسية الإنجليزية، عن طريق ضمانات كتابية بعدم التعرض قضائياً لمبعوثيه⁶¹⁴.

والجدير بالذكر، أن تشدد الكنيسة في حماية البعثات السفارية شبيه بتشدد القوانين الرومانية كقانون الأشخاص Jus Gentium في الفقرة المخصصة لحقوق البعثات Jus Legationis، الذي كان له تأثير في القوانين الكنسية والأعراف الدبلوماسية الوسيطة فيما يتعلق بتحسين البعثات الدبلوماسية ضد الاعتداءات، واعتبار الحقوق والامتيازات الممنوحة لها مقدسة وغير قابلة للانتهاك Sanctitas Legator، وهي المبادئ التي استمر العمل بها في الإمبراطورية الرومانية الشرقية، التي كانت تولي اهتماماً بالغاً للمراسم وإجراءات الحماية والحصانة وحسن الاستقبال، وهو الإرث الذي تبنته معظم الكيانات السياسية في الغرب المسيحي خلال الفترة الوسيطة⁶¹⁵، أملاً في ضمان حد أدنى من التواصل بينها⁶¹⁶، وكبح مطامع الدول والمدن الراغبة في التوسع والتمدد، وتوفير آلية لحفظ المصالح السياسية والتجارية، إذ لا يعقل أن تستمر الحرب إلى مالا نهاية دون أن تكون هناك وسيلة للتفاوض والمصالحة⁶¹⁷.

⁶¹² L'injonction biblique : « Béni soit celui qui vient au nom du seigneur » ; Verset de la bible, Psaumes, 117-26. ; Rodolphe DREILLARD, « Fidélité et protection, le traitement des ambassadeurs dans le Royaume de Francs et sur ses marges à l'époque Carolingienne VIII – IX siècles, dans la mobilité des personnes en méditerranée et de l'atlantique à l'époque moderne, procédure de contrôle et d'identification », Claudia Moatti, Ed EFR, Rome 2004, pp. 591-614.

⁶¹³ MOELING et PEQUIGNOT, op.cit, p.421.

⁶¹⁴ Ibid, p.424.

⁶¹⁵ علي رشدان ومحمد خليل الموسى ، م.س، ص 40.

⁶¹⁶ نفسه، ص 31.

⁶¹⁷ MOELING et PEQUIGNOT, op.cit, p.421.

وعلى غرار ما ذهب إليه القانون الكنسي، صاغ الفقه الإسلامي الوسيط مجموعة من القواعد الفقهية الرامية إلى حماية السفراء والرسول وتسهيل مهامهم، وهي قواعدٌ كان لها بالغ الأثر في العمل الدبلوماسي في الغرب الإسلامي، وذلك على الرغم من تقسيم العالم حسب المفهوم الفقهي إلى دار إسلام ودار حرب، وتصنيف الأشخاص إلى مسلم وذمي ومعاهد ومحارب ومستأمن⁶¹⁸، إلا أن مختلف المدارس الفقهية أولت اهتماماً بالغاً لمسألة الأمن السفاري، كما سمحت بإقامة علاقات سياسية وتجارية مع مختلف الممالك المسيحية، وفق القواعد المنصوص عليها في عدد من النصوص القرآنية⁶¹⁹ والحديثية والفقهية المتعلقة بصياغة المعاهدات والأوفاق مع دار الحرب.

وهكذا أوجبت المنظومة الفقهية مجموعة من الامتيازات والضمانات للبعثات السفارية، في مقدمتها حق الأمان لأعضاء البعثات الدبلوماسية وإن كانوا غير معاهدين⁶²⁰، عملاً بقوله تعالى "وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم بلغه مأمناً"⁶²¹، واستناداً إلى قوله صلى الله عليه وسلم "إني لا أخيس العهد ولا أحبس البرد"⁶²² أي لا أنقض العهد ولا أمنع الرسل من العودة لبلادهم، وكذلك قوله ﷺ لرسولي مسيلمة الموفدين إليه من أجل التفاوض بشأن تقاسم النبوة معه⁶²³ "لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكم"⁶²⁴؛ كل ذلك يؤكد أن صفة السفارة حسب النصوص القرآنية والحديثية تؤمن حاملها دون الحاجة إلى عهد، وفي هذا السياق قال ابن كثير "والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة، أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة، أو حمل رسالة أو نحو ذلك من

⁶¹⁸ محمد بن أحمد السرخسي، شرح كتاب السير الكبير محمد بن الحسن الشيباني، تحقيق صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، 1972، ج 4، ص 1245.

⁶¹⁹ مثال ذلك قوله تعالى "لا ينهاكم الله على الذين لم يقاتلوكم في دينكم ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين"؛ سورة الممتحنة، الآية 8.

⁶²⁰ ابن الفراء، م.س.، ص 22.

⁶²¹ سورة التوبة الآية 6.

⁶²² محمد بن علي بن عبد الله الصنعاني الشوكاني، نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار للإمام مجد الدين بن تيمية، إصدارات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية د ت، ج 8، ص 182.

⁶²³ نفسه، ص 181.

⁶²⁴ عن عبد الله بن مسعود حيث قال: "جاء ابن النواحة وابن أثال رسولاً مسيلمة إلى النبي ﷺ، قالوا نشهد أن مسيلمة رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام، آمنت بالله ورسوله، لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما"؛ أبو محمد عبد الله بن بهرام الدرامي، سنن الدرامي، كتاب السير، باب النبي عن قتل الأسير، طبعة دار الفكر، بيروت، د ت، ص 36.

الأسباب وطلب من الإمام أو نائبه أماناً متردداً في دار الإسلام وحتى يرجع إلى داره ومأمنه فله ذلك".⁶²⁵ وهو ما نعتبره قبولاً فقهياً صريحاً بمبدأ الأمان غير المقيد بالخلفية الدينية أو الإطار التعاقدية⁶²⁶.

واستناداً لما سبق، فإن حق الأمان ملازم لصفة السفير والرسول لا يستوجب التعاقد بشأنه، شرط التعريف بنفسه وتقديم كتاب اعتماده ومراعاة واجباته والامتناع عن القيام بالأفعال المحرمة والممنوعة كالتجسس وشراء الأسلحة بقصد نقلها إلى دار الحرب فإنها تسقط الأمان عنه⁶²⁷، وفي هذا الإطار يقول أبو يوسف :

" إن الولاة إذا ما لاقوا رسولاً، يسألونه عن اسمه فإن قال : أنا رسول الملك بعثني إلى ملك المسلمين وهذا كتاب معي، فإنه يُصَدَّق ولا سبيل عليه، ولا يتعرض له ".⁶²⁸

تعاملت المنظومة الإسلامية الفقهية أيضاً بنوع من المرونة مع مسألة خضوع أعضاء البعثات الدبلوماسية للقضاء، فمنحتهم حصانة إزاء المتابعة بجرائم حقوق الجماعة، في حين أبقت على المتابعة إذا تعلق الأمر بحقوق الأفراد، عملاً بالقواعد الفقهية المؤطرة لمعاملة المستأمنين⁶²⁹، فكانت حصانة السفير رهن بنوع الجريمة التي ارتكبها، فإن كانت جريمة تتعلق بحق من حقوق الله كشرب الخمر والزنا تم التجاوز عنه، وإذا ارتكب جريمة تتعلق بحق من حقوق الأفراد كالقتل والسرقة تسقط عنه الحصانة ويتابع قضائياً ولا يعفى عنه إلا بعفو من صاحب الحق المضار⁶³⁰.

وإلى جانب البُعد الشخصي والقضائي للحماية، انصرف اهتمام الفقه الإسلامي في الفترة الوسيطة إلى تأمين المصالح المالية لأفراد البعثة الدبلوماسية، خاصة أنه خلال فترة غيابهم قد تتعرض مصالحهم التجارية أو العقارية للتعطيل والضرر، لذا جاءت الامتيازات لتحفظ لهم أمنهم المالي إلى حين

⁶²⁵ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، دار الشعب، القاهرة، ج 2، د.ت. ص 3.

⁶²⁶ المستأمنون الأشخاص الذين يدخلون الديار الإسلامية لمدة محدودة وليس بنيتهم الإقامة الدائمة، فإن طالبت مدة إقامتهم عوملوا معاملة أهل الذمة.

⁶²⁷ "إن الولاة إذا ما لقوا رسولاً يسألونه عن اسمه، فإن عرف بنفسه وقدم كتابه المختوم لا سبيل عليه ولا يتعرض له، ولو، المسلمين أسروا مركباً في البحر وقال نفر من ركبها نحن رسل بعثنا ملكنا فلا يتعرض لهم. وإذا وُجد الحربي في دار الإسلام فقال أنا رسول، فإن أخرج كتاباً عرف أنه كتاب ملكهم كان آمناً حتى يبلغ رسالته ويرجع: السرخسي، م.س.، ص 66 – 67.

⁶²⁸ أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، طبعة مطبعة دار المعرفة، بيروت، د.ت، ص 188.

⁶²⁹ عبد القادر عودة ، لتشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، الجزء الأول، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، ص 324.

⁶³⁰ الشافعي، محمد بن إدريس، كتاب الأم، تحقيق محمد زهري النجار، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان، 1973، ج 7، ص 385.

عودتهم؛ لقد تم إعفاء أفراد البعثات السفارية من أداء الضرائب والمكوس،⁶³¹ فكان لا يؤخذ منهم رسوم، إلا ما كان معهم من متاع التجارة⁶³²، كما منحوا حرية التنقل في دار الإسلام مع اشتراط عدم حملهم للسلاح أو البضائع التي من شأنها أن تُضر بالمسلمين،⁶³³ وفي حالة وفاة أحدهم أثناء تأدية مهامه، مُنح الورثة حق دخول دار الإسلام دون من عهد من أجل استعادة المال الذي خلفه الهالك، سواء كان وديعة أو ديناً أو غيره⁶³⁴، لأن هذا العذر يؤمنهم مثل قصد السفارة⁶³⁵.

إن التغير الذي طال السياق السياسي وتوازن القوى جعل فقهاء السياسة المسلمين يوسعون مفهوم دار الكفر إلى دار العهد؛ وهكذا كانت السلطات الإسلامية تمنح "العهد" أو "الأمان" لغير المسلمين خاصة المسيحيين منهم الذين يسافرون إلى دار الإسلام، مما أدى إلى تسهيل وتطور العلاقات التجارية والدبلوماسية ما بين الدول الإسلامية والدول المسيحية، وشجع على استقرار المسيحيين بالعالم الإسلامي لما كانوا يتمتعون به من حماية باعتبارهم "معاهدين".

3.1 الحوادث الدبلوماسية

على الرغم من ضمانات الأمان العرفية والتشريعية والتعاقدية التي كانت تُمنح للبعثات السفارية، إلا أن كتب المؤرخين والإخباريين، تُعجّ بقصص اغتيال وقتل السفراء والرسل والتنكيل بهم، تارةً، إثر اتهامهم بالتجسس، وتارةً أخرى، لتجاوزهم حدود اللياقة والأدب في مخاطبة السلاطين والملوك والأمراء، وهو الأمر الذي كانت بعض الدول الموفدة للسفراء تحاول تجنبه من خلال تدريبهم القبلي على الخطابة وتزويدهم في بعض الأحيان بمجموعة من الردود المعدة مسبقاً عن أسئلة مُفترضة قد توجه إليهم، كالردود التي صاغها القسيس L'éveque Guide ferrare المتعلقة بعدد من المسائل السياسية والدينية والتي زود بها السفراء الموفدين من قبل البابا Gregorie VII (1073-1085م) إلى الإمبراطور Ottonien henri (1056-1105م)⁶³⁶.

⁶³¹ عبد القادر عودة، م.س.، ص 224.

⁶³² ابن قدامة، م.س.، ج 10، ص 597.

⁶³³ عبد القادر عودة، م.س.، ص 204.

⁶³⁴ ابن قدامة، م.س.، ص 483.

⁶³⁵ ابن الفراء، م.س.، ص 141.

⁶³⁶ MOELING et PEQUIGNOT, op.cit, p.382.

إذا استشعرت الدولة الموفدة تعاظم الأخطار المحدقة بأفراد بعثاتها السّفارية واحتمال عدم احترام عُرف الأمان قد يتخذ قرار إلغاء السفارة، ولنا في ذلك شواهد عدة، من بينها قرار مجلس شيوخ البندقية في 24 سبتمبر 1332م القاضي بإلغاء السفارة المتوجهة إلى تونس، معللاً قراره كالتالي "بالنظر لاستمرار الخلافات مع ملك تونس، يرى المجلس أنه من الخطير في الوقت الراهن إرسال سفير إلى إفريقيا، كما أنه لا طائل من إيفاده لأنه لن يحرر الأسرى ولن يسترجع المبالغ المالية المحتجزة، كما أن سلامته الشخصية ستكون معرضة لمخاطر جدية"⁶³⁷

على الرغم من الاحتياطات والتدابير التي كانت تواكب البعثات السّفارية رغبةً في التقليل من المخاطر المحدقة بهم، وتلافي آثار الحوادث الدبلوماسية على أمنهم الشخصي، إلا أننا وقفنا على مجموعة من الحوادث التي خُرق فيها مبدأ السلامة الجسدية وأسقطت الحصانة خلالها عن المبعوثين السّفاريين.

لم تكن البعثات السّفارية دوماً محط ترحاب من لدن الدولة الموفدة إليها، حيث نجد أن تاريخ المغرب الوسيط مليء بالحوادث الدبلوماسية التي انتهت إلى قتل أعضاء البعثات السّفارية أو سجنهم وتعذيبهم، وفي هذا السياق نستحضر حادثة مقتل البعثة السّفارية المرابطية على يد البرغواطيين، والتي كان الغرض منها إقامة الحجة على من يعتبرهم المرابطون أهل ضلال ودعوتهم إلى الهداية والتخلي عن معتقداتهم والدخول تحت سلطة مراكش، وهو الأمر الذي رفضه البرغواطيون الذين استفزهم ودفعهم إلى الإجهاز عليهم دونما اعتبار للأعراف الدبلوماسية التي تحرم المساس بسلامتهم الجسدية، وهو الاعتداء الذي اعتبر بمثابة إعلان للحرب⁶³⁸.

ونورد كذلك خبر خروج السفير القشتالي ابن شاليب الموفد إلى المعتمد بن عباد سنة 1082 - 1083م عن حدود اللياقة والأدب، ورفع صوته بالاحتجاج على وزيره ابن زيدون بعد اتهامه بتقديم عيار زائفاً للذهب والتماطل في تسليمه، بالإضافة إلى تقديمه مجموعة من المطالب التي أغضبت المعتمد الذي أسقط عنه الأمان وأمر بقتله وصلبه، وسجن الفرسان القشتاليين المرافقين له، وهو الأمر الذي أعلن على إثره الملك القشتالي ألفونسو السادس الحرب على إشبيلية؛ بعد الواقعة، استشار المعتمد بن عباد الفقهاء في واقعة إسقاط الأمان وقتل السفير، فأجابه الفقيه محمد ابن الطلاع بجواز قتله لتجاوزه حدود الرسالة التي عُهد إليه بإبلاغها⁶³⁹.

⁶³⁷ DE MAS LATRIE, T 1, op.cit, p.31.

⁶³⁸ الناصري، م.س.، م 1، ص 165.

⁶³⁹ نفسه، م 2، ص 201.

وفي المغرب المريني أدى تطبيق حد شارب الخمر على أحد سفراء بني الأحمر الوفدين على فاس، والمعروف عليه إدمان اللهو وتعاطي الخمر جهراً إلى غضب الوزير عبد الرحمان يعقوب الوطاسي، الذي تعقب القاضي أبو الحسن الصغير من أجل الانتقام منه، الأمر الذي دفع القاضي الفاسي إلى الاستغاثة بالعامّة والاعتصام بالمسجد الجامع، فكادت أن تتحول الأمور إلى فوضى واضطرابات بالمدينة وصل خبرها إلى السلطان أبي الربيع سليمان، فتدخل شخصياً لفض النزاع⁶⁴⁰.

وخلال الفترة الوطاسية أدى اعتقال السفير الوطاسي اليهودي يعقوب روتي وأخيه موسى، من قبل البرتغاليين، بعد اتهامهم بالسعي لنشر تعاليم الدين اليهودي بين المسيحيين الجدد، إلى احتجاج قوي من لدن سلطان فاس الوطاسي، الذي اعتبره خرقاً لمعاهدة 1538 م⁶⁴¹، والمطالبة بالإفراج عنهم فوراً وتعزيز ضمانات الحصانة، وهو الأمر الذي استجاب له البرتغاليون، ليستأنف بعد ذلك يعقوب روتي مهامه الدبلوماسية كسفير لمملكة فاس، بعد أن استعاد كل امتيازاته وفي مقدمتها حرية التنقل وضمان عدم تعرض محاكم التفتيش له⁶⁴².

عرف العمل الدبلوماسي خلال الفترة الوسيطية تطوراً مهماً على مستوى الممارسة وكذلك على مستوى الأعراف والتشريعات، وهو الأمر الذي ارتقى به من مجرد عمل ظرفي ومؤقت إلى عمل مؤسسي قار ظهرت أولى بوادره في الفترات المتأخرة من العصر الوسيط، وهي الأرضية التي اتخذت فيما بعد كمنطلق لتأسيس الدبلوماسية الحديثة والمعاصرة والراهنّة التي اعتمدت الأعراف الوسيطية بشكل رسمي عن طريق التنصيب عليها في مجموعة من المعاهدات والاتفاقيات كاتفاقية ويستفاليا 1648 واتفاقيات فيينا 1815 و1963 و1967.

⁶⁴⁰ الناصري، م.س.، م 2، ص 365.

⁶⁴¹ ABITBOL, op.cit, p.78.

⁶⁴² Ibid, p.80.

2- آليات ومراسم العمل الدبلوماسي

تُعتبر الهدية إحدى أبرز آليات العمل الدبلوماسي الوسيط شأنها في ذلك شأن الوثيقة الدبلوماسية والمبعوث، حيث تواتر توظيفها لتوطيد العلاقات بين مختلف دول الجناح الغربي لحوض البحر المتوسط، وكذلك لتمكين السفارات من قضاء أغراضها، وهو الأمر الذي كان أيضاً رهيناً بتوفير التمويل اللازم لها وتمكينها من وسائل النقل الآمنة حتى تصل مقصدها؛ كما لا يغيب عنا في هذا السياق أن نشير إلى الدور المهم لمراسم⁶⁴³ البروتوكولية في إنجاح المهمات السفارية، وهو ما سوف نعمل على رصد خصائصه ومميزاته من خلال هذا المبحث.

1.2 الهدية الدبلوماسية

شكلت الهدية إحدى أبرز عوامل نجاح البعثات الدبلوماسية في قضاء أغراضها، كما أسهمت إلى حد كبير في تجاوز الخلافات التي كانت تنشأ من حين لآخر بين عدد من البلدان؛ وبالنظر لأهميتها خصصنا هذه الفقرة لدراسة خصائص الهدية الدبلوماسية الوسيطة سعياً منا لتعميق فهم طبيعة العمل الدبلوماسي الوسيط بالغرب الإسلامي وآليات اشتغاله، والإحاطة بمختلف جوانبه وبنياته، وذلك عن طريق القيام برصد إحصائي لحضورها خلال الفترة موضوع البحث، لأنه في حدود علمنا لا توجد دراسة إحصائية اهتمت بهذا الموضوع خلال العصر الوسيط، لذا حاولنا في حدود المعطيات التي توفرت لدينا بخصوص 270 بعثة دبلوماسية وفدت على المغرب أو غادرته أن نضع جدولاً عملنا على بسط معطياته من خلال رسم بياني لتقريب القارئ من حضور الهدية في العمل الدبلوماسي كما ونوعاً.

قبل أن نسلط الضوء على موضوع الهدية خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط ببلاد الغرب الإسلامي، يجدر بنا التعميد المفهومي لها، فمنذ نشوء العلاقات بين مختلف التجمعات البشرية، كان للهدية دور محوري في توطيد العلاقات الدبلوماسية بينها، فإلى جانب قيمتها المادية كان لها بعد رمزي سعت من خلاله الممالك والدول لإبراز قوتها واثرائها وامتداد سطوتها، وهو ما أسهم في تحولها إلى إحدى أبرز أدوات العمل الدبلوماسي، فكان تقديم الهدية طقساً متعارفاً عليه يرافق المرور من الحرب إلى السلم، ويوظف للطلب التحالف أو الدعم، كما كان يعتمد لتحفيز التفاوض وتيسيره، في حين كان لرفض الهدية دلالات سلبية قد تفضي إلى الحرب، كما كان قبولها بمثابة التزام ضمني متبادل بين الأطراف.

⁶⁴³ يجب التمييز بين مصطلح مرسوم، جمع مراسيم وهي النصوص القانونية التي تصدرها السلطة التنفيذية الوزارية، ومصطلح مراسم الذي يفيد الترتيبات البروتوكولية المرتبطة بالعمل الدبلوماسي.

والجدير بالذكر، أن موضوع الهدية لم ينل اهتماماً كبيراً من لدن الباحثين والمؤرخين، وقلة منهم من تعرضوا لهذا الموضوع أبرزهم السوسيولوجي الشهير مارسيل موس Marcel MAUSSE، الذي اهتم بمكانة الهدية داخل المجتمعات الإنسانية على اعتبار أنها تمثل ترابطاً للالتزامات ثلاثة، هي العطاء والقبول والرد، لأن الأفراد والجماعات ملزمون بإعطاء الهدية وقبولها والرد عليها سواء بإعادة الغرض ذاته أو ما يوازيه أو ما هو أضمن منه، وهذه الالتزامات المتحدة تدفع الهدية، أجلاً أو عاجلاً إلى العودة إلى نقطة انطلاقها⁶⁴⁴. إنه الأمر الذي لمسناه عن قرب خلال الفترة الوسيطية حيث غالباً ما كانت السفارات التي تفد محملة بالهدايا إلى المغرب تعود محملة بهدايا أخرى تفوقها قيمة، وهو ما أشارت إليه مجموعة من الكتب المصدرة التي اطلعنا عليها، نورد منها ما ذكره ابن أبي زرع بخصوص الهدية التي رد بها السلطان المريني أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق سنة 673 هـ / 1274 م على هدية السلطان الزياني أبو يحيى يغمراسن ابن زيان حيث قال :

".. رد السلطان على هداياهم بمجموعة من الهدايا، منها فسطاط ملكي وثلاثين من المطايا الفارهة .."⁶⁴⁵

ويظهر من خلال الهدية التي خص بها السلطان المريني الوفد الزياني حرصه على إبهار السفير وإبراز قدره ومكانته وسلطانه وثرائه⁶⁴⁶، ونورد كذلك نقلاً عن المؤرخ ذاته قوله بخصوص رد السلطان المريني أبي يعقوب يوسف الناصر سنة 701 هـ / 1302 م على هدية سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون :

".. بعث أبو يعقوب يوسف إلى السلطان الملك الناصر بأربعمئة من عتاق الخيل مجهزة برسم الجهاد وغيرها من النفائس والذخائر.." ⁶⁴⁷

وفي المقابل رد عدد من السلاطين والملوك المسلمين على هدايا المغرب بهدايا مماثلة، وهو ما أورده عدد من المؤرخين كابن خلدون الذي ذكر خبر الهدية التي رد بها السلطان الحفصي أبي عبد الله محمد أبو عصيدة على هدية السلطان المريني أبو يعقوب يوسف الناصر سنة 702 هـ / 1303 م حيث قال :

⁶⁴⁴ خليل السعداني، الهدايا في السياسة الاستعمارية الفرنسية بلويزيانا خلال القرن الثامن عشر، الولاء والدبلوماسية نموذج العلاقات بين اليابان وهولندا في القرن 17، قضايا المصطلح والمنهج، تنسيق عبد المجيد القدوري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 105، مطبعة النجاح الجديدة، ط 3، الدار البيضاء، 2003، ص 176.

⁶⁴⁵ ابن أبي زرع، الذخيرة، م. س.، ص 140؛ أنظر أيضاً التازي، التاريخ الدبلوماسي، م. س.، ج 7، صص 10-11.

⁶⁴⁶ MOEGLIN, op. cit., p. 4.

⁶⁴⁷ ابن أبي زرع الأنيس، م. س.، ص 512.

" .. رجع الوفد بهدية ضخمة من جملتها 300 بغل.."⁶⁴⁸.

وذكر القلقشندي في الصدد نفسه خبر رد السلطان المصري الناصر محمد بن قلاوون على هدية السلطان المريني أبي الحسن علي بن عثمان، حين تحدث عن عودة الوفد المغربي محملاً بمجموعة من الهدايا، ذكر منها العقود المنظمة، والبرود المسهمة والمطارف المعلمة والصنائع المحكمة، والخيول المسرجة، وأكفال الحرير.⁶⁴⁹

ولم يكن عرف رد الهدية متداولاً بين الملوك المسلمين فقط ، بل تعددت الأمثلة بخصوص رسل مغاربة أوفدوا إلى ملوك مسيحيين رفقة هدايا قيمة وبعد انقضاء مهمتهم حُمِلوا مجموعة من الهدايا ليقدموها إلى سلاطينهم، كالسفير المغربي شمس الدين ابن مرزوق الذي أوفده السلطان المريني أبو الحسن علي ابن عثمان سنة 748 هـ / 1347 م إلى الملك القشتالي ألفونسو التاسع Alphonse XI في بعثة سفارية عاد بعد انقضاءها محملاً بعدد من الهدايا النفيسة.⁶⁵⁰

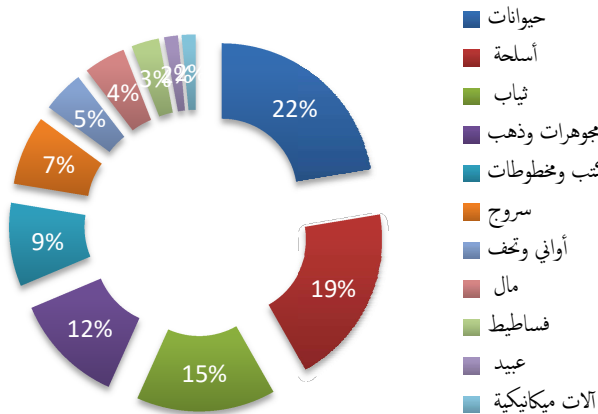
الجدول رقم : 20

جدول البعثات الدبلوماسية
المرفقة بهدايا

هدية لم تُعرف	هدية مُعرّفة	المجموع
13	26	39

رسم بياني رقم: 22

توزيع الهدايا حسب النوع



من خلال المعطيات التي توفرت لدينا عن الهدايا المتبادلة بين المغرب ومختلف الدول والممالك التي كانت تربطه بهم علاقة دبلوماسية، سجلنا أنها كانت متنوعة جداً ، فعلاوة على ما كان يتوفر عليه

⁶⁴⁸ ابن خلدون العبر، م.س. ص 1733.

⁶⁴⁹ القلقشندي ، م.س.، ج 7، صص 391-393.

⁶⁵⁰ عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، م.س.، ج 7، ص 84.

المغرب من تحف ومصنوعات تقليدية⁶⁵¹ وأسلحة ومواد خام يختص بها، كان الملوك والسلاطين المغاربة يهدون الحيوانات خاصة الخيول والبغال وما يصحبها من سروج وزينة، ومن جهة أخرى كانوا يتلقون أيضاً الحيوانات من خيول وبغال، كما تلقوا عدداً من الحيوانات الغريبة كالزرافات والفيلة والصقور؛ إلى جانب ذلك أهدي إليهم أيضاً، العبيد والآلات الميكانيكية⁶⁵² والكتب والعطور والأثواب والألبسة والفساطيط الفخمة؛ كما شكل المال العين والجواهر نسبة مهمة من الهدايا المتبادلة. وفي هذا السياق عدّد لسان الدين ابن الخطيب في إحدى رسائله بعضاً من الهدايا التي توصل بها بنو نصر في غرناطة من السلطان أبي عنان فارس المريني حيث قال :

" .. راجعت السلطان الكبير أبا عنان - رحمه الله - عن هدية بعث بها إلى الأندلس ، تشتمل على خيول ، ومهندات محلات ، ومهاميز محكمة، ودنانير من الذهب العين .."⁶⁵³؛

مقابل حضور الهدايا ذات القيمة المادية المرتفعة سجلنا حضور عدد من الهدايا ذات القيمة الرمزية والقدسية كالمصاحف التي دأب عدد من السلاطين المرينيين على إهدائها إلى بعض سلاطين المشرق، أو التي أهديت لهم كمصحف عثمان الموروث عن بني أمية الذي أهده السلطان النصري أبو عبد الله محمد الثاني إلى السلطان المريني أبو يعقوب يوسف الناصر سنة 692هـ / 1293-1294م.⁶⁵⁴

لقد كانت لحظة وصول الهدايا، خاصة إذا كانت تتضمن حيوانات غريبة مما لم يعتده أهل البلد، مناسبة تقام لأجلها الاحتفالات ويخرج الأهالي لمشاهدتها وهي تتجول بين أزقة وحواري المدينة قبل أن تصل إلى إسطبلات السلطان ومخازنه، كما كانت مناسبة يحرص خلالها بعض حكام المغرب على المبالغة في الاحتفال، سعياً منهم لإظهار مدى امتداد سلطانهم إلى الآفاق البعيدة النائية. وفي هذا الصدد وصف ابن خلدون في العبر وصول بعثة سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون سنة 706هـ / 1304م رفقة هدية عظيمة عبر البحر إلى المنصورة من ضمنها فيل وزرافة حيث قال :

⁶⁵¹ كانت ترد على المغرب مجموعة من الهدايا الغريبة، كالهديّة التي قدمت من قبل الملك الإسباني سانشو إلى السلطان المغربي يعقوب بن عبد الحق وهي عبارة عن فيلين عظيمين كانا محل انشغال من قبل ساكنة المغرب.

⁶⁵² كالهديّة التي أهدتها جمهورية جنوة سنة 691هـ / 1291م إلى السلطان المريني أبو يعقوب يوسف الناصر والتي كانت عبارة عن شجرة مموهة بالذهب عليها أطيّار تصوت بحركات هندسية مثل التي صنعت للمتوكل العباسي؛ ابن أبي زرع، الأنيس، م. س.، ص 504.

⁶⁵³ ابن الخطيب، ربحانة الكتاب، م. س.، ج 1، ص 388.

⁶⁵⁴ ابن الخطيب، الإحاطة، م. س.، ج 4، صص 241 – 246 .

" .. واهتز السلطان لقدميهما واستركب الناس للقائهما،...وبر وفادتهم واستبلغ في تكرمهم نزلا وقرى. وبعثهم الى المغرب على العادة في مبرة آمالهم، هدية .." ⁶⁵⁵؛

وهي الأجواء والترتيبات نفسها التي رافقت استقبال وفد سلطان مالي منسى ماري زاطة الذي اصطحب معه زرافة ⁶⁵⁶ كهدية لسلطان المغرب أبي سالم إبراهيم سنة 762هـ - 1360م ⁶⁵⁷، وهو الوفد الذي استقبله ابن خلدون في يوم حافل بمدينة فاس، حيث خرج أهالي المدينة لمشاهدة هذا الحيوان الغريب ⁶⁵⁸ ونُظمت الأشعار بأمر من السلطان لتخليد هذه المناسبة العظيمة، فأنشد ابن خلدون :

ورقيمةُ الأعطافِ جالِسةٌ موشيةُ بوشائعِ البُردِ
ومخشيةُ الأنسابِ ما أنست في موحش اليلاءِ بالقودِ
تسمو بخيلٍ بالغِ صعدا شرف الصروعِ بغير ما جهدِ
طالت رؤوس الشاحات به ولربما قصرت عن الوهدِ
قطعت إليك تناثراً وصلت إسألها بالنص والوحدِ
خذي على اسنعاها ذلاً وتيت طوع القن والقندِ
يسعودك الأثني ضمن لنا طول الحياة بعيشة مرغدِ
جاءت في وفد الأحباش لا يرجون غيرك مكرم الوفدِ ⁶⁵⁹

كما نظم الكاتب الأندلسي عبد الله بن زمرك الذي كان حاضراً بفاس الأبيات التالية اغتباطاً بهذه المناسبة :

ومغربةٌ قطعت إليك على الونى يدا تيدنها هموم الساري

⁶⁵⁵ ابن خلدون، العبر، م.س.، ص 1942.

⁶⁵⁶ الزرافة " من ضمن الهدايا التي اعتاد عظماء إفريقيا أن يتحفوا بها أصدقاءهم في الشمال منذ حكم بني أمية بالأندلس؛ التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج 7، م.س.، ص 41.

⁶⁵⁷ المقرئ، أزهار الرياض، م.س.، صص 171 - 173، أنظر أيضاً الناصري، م 2، م.س.، صص 120 - 119، وابن خلدون، العبر، م.س.، ص 1995.

⁶⁵⁸ عبد الهادي التازي، ابن خلدون سفيراً، م.س.، ص 368.

⁶⁵⁹ عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب م 7، م.س.، ص 42.

تنسيه طينه التي قد امها والركب فيها ميت الاخبار
يقتادها من كل مشتمل الدجا فكانما عينا جذوة نار
تشد خمد المستعين جداولها ينخللوا نيس على الاكوار
إن مسهر لفتح الهجير ألدلهم منه نسيم ثنائك المعطار
مخاضواها لجج الفلا فخلصت منهم مخلص البدر بعد سار
سلمت. سعدك من غوائل مثلها وكفى. سعدك حامي لذار
وأنتك يا ملك الزمان غريته قيد النواظر نزهة الأنصار⁶⁶⁰

لم تشد ممالك أوروبا الغربية ومدنها خلال العصر الوسيط عن عرف⁶⁶¹ تبادل الهدايا الدبلوماسية، بل اعتمدتها إحدى أهم آليات العمل الدبلوماسي، وهو ما تؤكد عدد من المصادر التي تحفل بذكر الهدايا التي كانت يتم تبادلها بين مختلف ملوك وأمراء حوض البحر المتوسط المسلمين والمسيحيين، حيث كان السفراء يُصحبون بالهدايا التي كانت في أحيان كثيرة عبارة عن تحف فنية نادرة⁶⁶² أو حيوانات غريبة exotiques⁶⁶³، ووظفت هذه الأداة في التواصل الدبلوماسي بين المسلمين والبيزنطيين، كما حدث حين أرسل خليفة بغداد هارون الرشيد (170 - 193 هـ / 787 - 809 م) فيلاً وزرافة إلى شارلمان (184- 199 هـ / 800 - 814 م) وعدداً من صناديق من العاج، والطاووس الأبيض الذي أهده السلطان المصري الكامل (576 - 635 هـ / 1218 - 1238 م) للإمبراطور فريديريك الثاني (616 - 674 هـ / 1198

⁶⁶⁰ نفسه، صص 43 - 44.

⁶⁶¹ يقصد بالعرف الدبلوماسي مجموع القواعد والسوابق المتكررة التي استقرت في العلاقات الدبلوماسية بين الدول والتي لم يتم الاعتراض على تطبيقها من أي جهة دولية مع أنها لم تكن قائمة في صورة قانون أو معاهدة؛ الألوسي، م.س.، ص 32.

⁶⁶² OCHOA, op.cit, p.36.

⁶⁶³ اعتمد مصطلح exotique في المراجع الغربية للتعبير عن الحيوانات الغريبة كما أنه اعتمد بكثرة لتوصيف الأشخاص والألبسة والأماكن والحيوانات، وكان يستعاض به في العصر الوسيط من أجل التوصيف بمصطلح animaux exotiques، وهو مشتق من الكلمة اليونانية exotikos التي تعني أجنبي وخارجي، وأول من اعتمد هذا المصطلح لتوصيف الحيوانات هو الكاتب الفرنسي François RABELAIS سنة 1552 م في كتابه Le Quart livre، حيث اعتمد مصطلح exoticus وهو المصطلح نفس الذي اعتمده الطبيب الفلاماني المهتم بالطبوعات Jules Charles DE L'ÉCLUSE في كتابه الصادر باللغة اللاتينية سنة 1601 م:

"Exoticorum libri decem Quibus animalium, plantarum, aromatorum, aliorumque peregrinorum fructuum historiae describuntur"

ونورد في هذا السياق مثال توصيف الراهب البينديكتي Mathieu PARIS للحيوانات المهداة من قبل السلطان المصري الكامل للإمبراطور فريديريك II سنة 1228 م "bestiis mirabilis, quas Occidens non vidit aut cognovit" ما معناه الدواب العجيبة والغير معروفة في أوروبا. Mathieu Paris, Historia anglorum in Ex rerum Anglicarum scriptoribus saec. XIII, (éd. par F. Liebermann), coll. Monumenta Germaniae historica, Scriptores, vol. 28, Hannover, 1888, p. 402.

– 1250م) الذي أهدى بدوره دُباً قطبياً سنة 1233-1234م لسلطان دمشق أخ السلطان الكامل⁶⁶⁴، وكان الملوك والسلطين يهدفون عبر تبادل الحيوانات الغربية وغير المألوفة المستقدمة من أماكن بعيدة إلى الإشارة إلى عظمة ملكهم وامتداده المجالي، خاصة أن معظم هذه الحيوانات كانت تُستجلب من المناطق المدارية والاستوائية ومن المناطق الجبلية الصعبة الوصول بل ومن القطب الشمالي.⁶⁶⁵

وإلى جانب الهدايا العينية والحيوانية، جرى العرف خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط بعدد من الممالك الأوروبية الغربية أن تُصحب الهدية بأقمشة مطرزة بشعار الدولة أو المملكة التي أرسلتها والتي كانت عبارة عن رسوم أو عبارات مكتوبة تنقش فوق أقمشة ذهبية يتم تبادلها بين الأمراء والملوك، دليلاً على الرغبة في توطيد العلاقات بينهم، وذلك لما يعينه إهداؤها من تقدير وتشريف للمهداة إليه، ومن إعلان صريح عن الرغبة في التحالف، وكان فليب لو هاردي Philippe le Hardi المعروف بـ Philippe II de Bourgogne (1342-1404م) من أوائل الذين قدموا هدايا دبلوماسية تحمل شعار المهدي إليه، فقد أهدى في سنة 1368م لدوق Bourbon قطعة قماش مطرزة بالذهب تحمل شعار دولته توضع فوق الزي العسكري لتمييزه، وسرعان ما تواتر استعمال هذه الطريقة للتهادي بين مختلف ملوك وأمراء فرنسا في العصر الوسيط حسب ما تؤكد بعض المصادر والمراجع الفرنسية⁶⁶⁶؛ وفي سنة 1392م أهدى دوق Bourgogne إلى لويس دوق أورليان Louis d'Orléans (1392 – 1407م) ألبسة مطرزة بشعاره "الأرليط".⁶⁶⁷ وكان هذا النوع من الهدايا وسيلة أيضاً لإشهار التحالف القائم بين المهدي والمهدي له. والجدير بالذكر، أننا لم نعثر في حدود المصادر أو المراجع التي اطلعنا عليها على معطيات تتعلق بهدايا مماثلة تم تبادلها بين السلطين والملوك والأمراء المغاربة ونظرائهم في الغرب الإسلامي والمسيحي خلال الفترة موضوع البحث، الأمر الذي يفيد أن هذا العرف ظل متداولاً في نطاق ضيق بين عدد من ملوك الغرب المسيحي فقط.

وفي سياق آخر تجدر الإشارة إلى أنه في الوقت الذي كان العرف الدبلوماسي يقتضي في عدد من بلدان الغرب المتوسطي بما فيها المغرب أن يخص أعضاء الوفد السفاري بعدد من الهدايا بعد انقضاء مهمتهم

⁶⁶⁴ N. Drocourt, Les animaux comme cadeaux d'ambassade entre Byzance et ses voisins (VII-XII siècles), dans B. Doumerc et C. Picard, Byzance et ses peripheries (Monde grec, balkanique et musulman), coll Meridiennes, Toulouse, 2004, pp. 67-93.

⁶⁶⁵ Thierry Buquet. Les animaux exotiques dans les ménageries médiévales. Jacques Toussaint. Fabuleuses histoires des bêtes et des hommes, Trema - Société archéologique de Namur, pp.97-121, 2013. Article en ligne <https://halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-00905429>, consulté le 26/07/2019.

⁶⁶⁶ Laurent HABLO, Les signes de l'entente, le rôle des devises et des ordres dans les relations diplomatiques entre les ducs de bourgogne et les princes étrangers de 1380 à 1477, pp. 319 - 341, in Rev du Nord, n°2, 2002, p. 321

⁶⁶⁷ Ibid, p. 322.

السفارية، لم يكن يسمح لسفراء عدد من المدن الإيطالية كالبندقين بتلقي الهدايا من ملوك أو رعايا الدولة الموفدين إليها، وفي حالة قبولهم بها ترسل الهدية بمجرد عودتهم إلى مقر حكومة البندقية، وهو النهي الذي كان يأتي في سياق التعليمات والتوجيهات التي كانت تزود بها البعثات البندقية من قبل مجلس المدينة قبيل رحيلها، والتي كانت تتضمن أيضاً تذكيراً بالأهداف المراد تحقيقها من وراء البعثة السفارية⁶⁶⁸.

2.2 تنقل البعثات السفارية

يحيلنا الحديث عن الهدايا الدبلوماسية على مسألة أخرى شديدة الأهمية، هي مسألة نقلها خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط، وهو موضوع لم يحظ كذلك باهتمام الباحثين ولم ترد بشأنه سوى إشارات قليلة في عدد من المصادر والوثائق الدبلوماسية.

وفي هذا السياق استوقفنا تكرار ذكر مدينة سبتة ومرسى غساسة في شمال المغرب كمنفذين بحريين رئيسيين، كانت تفد عبرهما كل السفارات القادمة من الأندلس أو المتوجهة من المغرب نحوها، وهو ما يعزز فرضية هيمنة النقل البحري على تنقلات السفراء والرسل المغاربة، كما تجدر الإشارة إلى أن عدداً من المصادر السالفة الذكر تحدثت عن منافذ أخرى في المغرب الأوسط والأدنى كبجاية والمنصورة (المغرب لأوسط) وتونس (المغرب الأدنى) التي كانت تفد إليها البعثات القادمة من شبه الجزيرة الإيطالية والمشرق نحو المغرب والتي كانت بدورها منطلقاً للسفراء والرسل المغاربة نحو هذه البلدان، في حين كان التواصل يتم في الفترة المرينية برأى بين دول المغرب مع تسجيل بعض الاستثناءات في فترات الحرب مع بني زيان، حيث كان يتم التواصل بين المغرب الأقصى والأدنى عبر البحر، كما حدث حين أوفد السلطان الحفصي أبي بكر الثاني المتوكل على الله رسله إلى السلطان المريني أبي سعيد عثمان بن يعقوب ابن عبد الحق انطلاقاً من مرسى بجاية ووصولاً إلى مرسى غساسة بشمال المغرب سنة 731هـ - 1331م⁶⁶⁹.

وقد رصدنا من خلال المعطيات التي توفرت لدينا اعتماد عدد من السفارات المغربية المتجهة إلى المشرق خاصة في الفترات التي ضعف فيها التهديد الزياني طريقاً برياً ووصولاً إلى تونس، لتأخذ بعدها طريقاً بحرياً إلى الإسكندرية، وهو الطريق نفسه الذي كانت تعتمد البعثات المصرية الموفدة إلى المغرب. وقد أورد

⁶⁶⁸ Les istruzioni (« instructions ») ou commissioni ; TRAMPUS, op.cit, p122.

⁶⁶⁹ الناصري، م 1، م.س.، ص 18: انظر أيضاً الزركشي، م.س.، ص 68.

ابن خلدون في هذا الصدد، أن السفارة المرينية التي توجهت رفقة ركب الحجيج المغربي سنة 704هـ إلى ملك مصر الناصر محمد بن قلاوون استقلت السفن، كما أن هدية سلطان مصر التي ضمت "الفيل والزرافة" أرسلت عبر البحر، ووصلت سنة 706هـ إلى المغرب.⁶⁷⁰

وفي هذا السياق وضعنا جدولاً ضمناه مجموعة من المعطيات الرقمية المتعلقة بعدد السفارات ووجهاتها، وهي المعطيات التي اعتمدنا عليها لرسم خريطة لأهم الطرق البحرية والبرية التي مرت بها البعثات الدبلوماسية الوافدة والموفدة إلى المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط.

الجدول رقم: 21

التوزيع الجغرافي للبعثات الدبلوماسية الوافدة والموفدة
إلى المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط

قشتالة	ليون	أراغون	البرتغال	بيزة	جنوة	انجلترا	فرنسا	صقلية	روما	نقار
23	5	32	2	16	2	1	3	3	6	3

الأندلس	الحجاز	مصر والشام	المغرب الأدنى	المغرب الأوسط	السودان الغربي	العراق
109	2	24	19	13	5	2

⁶⁷⁰ ابن خلدون، العبر، م.س.، ص 1942.

خريطة رقم: 1 خريطة الطرق البرية والبحرية المعتمدة من قبل البعثات الدبلوماسية الوافدة والموفدة على الدول المتعاقبة على حكم المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط



والجدير بالذكر أن مسألة النقل عبر البحر أثارت جدلاً كبيراً بين عدد من فقهاء العصر الوسيط كما يتجلى ذلك من كثرة الفتاوى التي صيغت عنها، ويفهم من مختلف الأسئلة والأجوبة التي كانت تطرح أو تقدم في الموضوع أن مسألة ركوب البحر أصبحت مسألة مألوفة خلال هذه الفترات المتأخرة من العصر الوسيط كما تدل على ذلك العبارة التي أوردها الونشريسي في المعيار:

".. جرت العادة عندنا بالسفر في البحر في مراكب النصارى ويكرونها للمسلمين من إفريقية إلى الإسكندرية إلى ناحية المغرب..⁶⁷¹

ومن تم طرحت مسألة ركوب المسلمين البحر في سفن النصارى وتعرض النفس للمخاطر والمهالك، فجاءت بعض ردود الفقهاء إيجابية، حيث تساهلوا مع ركوب المسلمين في سفن النصارى خاصة الحجيج مشرطين لذلك أن لا تجري عليهم أحكام النصارى خلال الرحلة.⁶⁷² وهناك من الفقهاء من أجرى مسألة الركوب على مسألة التجارة إلى أرض الحرب، ومشهور المذهب فيها هو الكراهة التي هي من قبيل الجائز، ومنهم من استشهد بركوب أهل الفضل والعلم الذين استخفوا بالكراهة مقابل تحصيل الواجب، وهو الحج، وقد أفتى بذلك القَبَّاب أحد فقهاء فاس، وابن إدريس أحد فقهاء بجاية؛ أخيراً هناك من أفتى بجواز الركوب إذا كان الحاكم المسلم قوياً يخاف النصارى منه إذا غدروا أو أساءوا العشرة كفتوى الفقيه عبد الله ابن عرفة.⁶⁷³

كانت معظم السفن التي تقوم بمهمة نقل الحجاج والتجار والمسافرين في الفترات المتأخرة من العصر الوسيط بيد الدول المسيحية، خاصة الدويلات الإيطالية كجنوة والبندقية، وذلك على الرغم من توفر الدول المغربية على أساطيل بحرية، غير أنها كانت موجهة بالأساس إلى الخدمة العسكرية، كأسطول أبي يعقوب المنصور الموحيدي (1163-1184م) الذي كان يتوفر على 400 قطعة بحرية عبارة عن قطع عسكرية، في حين لم يكن للأسطول التجاري الذي كان يمكن أن يقوم بمهام النقل أي وجود، وهو أمر مرده إلى اكتفاء المغرب تقوم دور الوساطة في ميدان المبادلات التجارية، دون التفكير في الاتصال بالأسواق الخارجية عن طريق البحر.⁶⁷⁴

ومقابل غياب البحرية التجارية المغربية، كانت البحرية المسيحية في الجناح الغربي للبحر المتوسط آخذة في التطور والنمو، وذلك منذ القرن الحادي عشر الميلادي بعد سقوط كل الجزر المتوسطية الكبرى عدا البليار، في يد المسيحيين، حيث أخذت زمام المبادرة مدن كجنوة وبيزة

⁶⁷¹ محمد الأمين البزاز، حول نقل البحرية المسيحية لحجاج الغرب الإسلامي : تأملات في رحلة ابن جبير، أعمال ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، تنسيق محمد احمام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 48، ط 1، 1995، ص 83، انظر أيضاً، أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المغرب، وزارة الأوقاف الشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1981، ج 1، ص 433.

⁶⁷² محمد الأمين البزاز، م.س.، ص 84.

⁶⁷³ أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، م.س.، ص 434.

⁶⁷⁴ محمد الأمين البزاز، م.س.، ص 85.

والبندقية⁶⁷⁵، وأضحت تهيمن وتحتكر التجارة والمواصلات البحرية بين سواحل المتوسط، بما فيها الإشراف على نقل الحجاج.

بعد تسليط الضوء على عدد من خصائص الهدية الدبلوماسية ووسائل النقل الدبلوماسية خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط، سنعمل خلال الفقرة المقبلة على إثارة بعض جوانب تمويل البعثات السفارية الوسيطة.

3.2 تمويل البعثات السفارية

لم تتعرض معظم المصادر والرسائل الدبلوماسية المغربية التي اطلعنا عليها إلى مسألة تمويل البعثات الدبلوماسية إلا عرضاً، وهو الأمر الذي يجعل من الصعب تتبع مصادر تمويل السفارات ورصدها، غير أنه من خلال الإشارات القليلة التي وقفنا عليها، خلصنا إلى أن تمويل السفارات في الغالب كان يستقطع من مخصصات بيت المال، حيث جرى العرف أن تستدعى البعثة للمثول بين يدي الملك أو السلطان لتسلم الرسالة الكتابية أو الشفوية التي سوف تنقلها، وتلقي التعليمات الواجب التقيد بها، وكذلك استلام الأموال المخصصة لتمويل الرحلة ذهاباً وإياباً، كالبعثة التي أوفدها المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين سنة 474هـ / 1081م، والتي أكدت بعض المصادر أنها مثلت بين يدي ابن عباد قبل مغادرتها، حيث سلمها الرسالة الكتابية، ووجه لها مجموعة من التعليمات، وأمر لها بالمال⁶⁷⁶. وغالب الظن أن هذا العرف كان سائداً بالغرب الإسلامي خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط، كما نورد في السياق نفسه، مخصصات المالية التي أمر بها للسفارة المرينية الموفدة إلى سلطان مصر الناصر ابن قلاوون وركب الحجيج المرافق لها، حيث خصص لكل من :

- للأمير الحرة مريم : ثلاثة آلاف وستمئة دينار ذهبي؛
- قاضي ركب الحج : ثلاثمائة دينار ذهبي وكسوة؛
- قائد الركب : أربعمئة دينار ذهبي؛
- الرسول المعين للهدية : ألف دينار ذهبي؛

⁶⁷⁵ محمد الأمين البزاز، م.س.، ص 83.

⁶⁷⁶ الناصري، م.س.، م 1، ص 202.

• شيخ الركب أحمد بن يوسف بن محمد صالح خمسمائة دينار ذهبي.⁶⁷⁷

وأغلب الظن أنه لم تكن للسفراء المغاربة رواتب قارة⁶⁷⁸، غير أنه تعددت الإشارات بخصوص هدايا مالية وعينية وامتيازات كان يستفيد منها أعضاء البعثة السفارية، لدى مقابلتهم السلطان أو الملك المفودين إليه⁶⁷⁹ أو عند انقضاء مهمتهم وعودتهم إلى بلدهم. ونورد في هذا الصدد خبر إقطاع السلطان النصري الغني بالله لابن خلدون مجموعة من الضياع⁶⁸⁰ بعد نجاح سفارته لدى ملك قشتالة بيدرو الأول نهاية سنة 765 – 1364 م⁶⁸¹.

مقابل ندرة الوثائق المتعلقة بتمويل السفارات في الغرب الإسلامي، توفرت لدينا معطيات دقيقة عن تمويل البعثات الدبلوماسية في الغرب المسيحي خاصة سفارات المدن الإيطالية، وهي الوثائق التي تفيد أن السفراء الإيطاليين لم تكن لديهم رواتب قارة⁶⁸²، فأغلب ما كان يحصل عليه المبعوث هو الثناء والشكر وفي حالات عدة تعويض مالي عن المشاق التي تكبدها والمخاطر التي تجشمها للقيام بمهامه. وهو ما يؤكد أن العمل الدبلوماسي لم يكن خلال هذه الفترة المصدر الرئيسي والدائم للمداخيل المالية للسفراء وأعضاء البعثات السفارية، فعلى سبيل المثال كان كل ما يحصل عليه السفراء البندقيون هو شرف تمثيل الدولة والقرب من السلطة، وهو الأمر الذي جعل العمل الدبلوماسي في متناول العائلات الأرستقراطية البندقية الغنية، غير أنها انصرفت عنه ولم توله اهتماماً كبيراً، الأمر الذي دفع مجلس البندقية إلى قبول مرشحين من الأهالي والأجانب، الباحثين عن الترقى الاجتماعي أكثر من الاغتناء⁶⁸³، والذين كانت تمنح لهم تعويضات على شكل نسب على الرسوم التي تؤدي عن السلع والسفن التي تصل إلى المكان الذي يقيمون فيه، يطلق عليها Cottimo⁶⁸⁴، ولم يكن يسمح لهم باصطحاب زوجاتهم وأسرهم، غير

⁶⁷⁷ التازي، الوسيط، م.س.، م 2، ص 254.

⁶⁷⁸ وقد أورد القلقشندي معلومات بخصوص رواتب الكتاب خلال الفترة المرينية، حيث كان يخصص لكتاب السر " المريني " له في اليوم مثقالان من الذهب وله محبران يعني ' قريتين ' يتحصل له منهما متحصل جيد، مع رسوم كثيرة له على البلاد ومنافع وإرفاقات، وله في كل سنة بغلة بسرجها ولجامها، وسبينة قماش برسم كسوته؛ القلقشندي، م.س.، ج 5، 205 ص.

⁶⁷⁹ حين عودته زود الملك القشتالي ابن خلدون بمجموعة من الهدايا من بينها مطية فارهة بمركب ثقيل ولجام ذهب قدمها؛ التازي، ابن خلدون سفيراً، م.س.، ص 373.

⁶⁸⁰ نفسه، ص 376.

⁶⁸¹ نفسه، ص 373.

⁶⁸² ابتداء من سنة 1561 م أصبح للسفير راتب قار حيث خصص للسفير 1000 دوقية ذهبية في البداية و200 دوقية ذهبية في الشهر؛

TRAMPUS, op.cit, p.122.

⁶⁸³ Ibidem.

⁶⁸⁴ TRAMPUS, op.cit,, p.121.

أنهم بالمقابل كان يصطحبون الطباخين⁶⁸⁵ والكتاب ورجال الدين والمترجمين، وكان التمويل يستخدم إلى جانب تغطية نفقات البعثة في شراء الهدايا وخلق شبكة من الصداقات داخل البلاط من أجل تسهيل مأمورياتهم وقضاء حوائجهم.⁶⁸⁶

لقد كان تقاضي التعويضات المالية مرتبطاً بالمهام الدبلوماسية ويتوقف بانقضائها، وهو المقابل المالي الذي كان يخضع لمجموعة من المراجعات وعمليات الضبط والتدقيق، وذلك من أجل تمكين المبعوث من تغطية تكاليف النقل والإقامة والمراسلات والمرافقين، وفي أغلب الحالات بالكاد كانت الميزانية المرسودة تغطي تكاليف الرحلة السفارية، وهو الأمر الذي لم يكن يسمح للسفراء بتحقيق فائض مالي، وفي حالات عدة كان السفير يغطي عجز الميزانية المرسودة من ماله الخاص⁶⁸⁷. وفي هذا الإطار يربط عدد من المؤرخين بين مسألة الرفعة الاجتماعية والوظيفية التي سبقت الإشارة إليها وبين قدرة المرشحين لشغل مهام دبلوماسية على تحمل جانب من تكاليف السفارة المالية⁶⁸⁸.

حاولت معظم المدن الإيطالية ضبط العمل الدبلوماسي قانونياً وتنظيمياً ومالياً، حيث وضعت مجموعة من القوانين التنظيمية للبعثات السفارية حدد بموجبها عدد الأخصنة والألبسة والمؤنة وعدد الأشخاص المرافقين للسفير، وهو الأمر الذي كان يعهد لممثلين عن المدينة توفيره للبعثة وتسلمه عند انقضائها، وفي بعض الحالات كان يؤدي السفير مبلغ ضمانته مقابل الأخصنة والمعدات التي تسلمها تعاد إليه حين عودته، وهو ما نصت عليه مجموعة من قوانين مدينة فلورنسا سنة 1415م. كما نص القانون ذاته على ضرورة توفر المبعوثين على رسائل الاعتماد المصادق عليها من المؤسسات التشريعية والتنفيذية المحلية، ونصّت القوانين نفسها أيضاً، في سياق ضبط المصاريف المالية، على أنه لا يمكن للبعثات الدبلوماسية المكلفة بمهام قريبة، أن تتجاوز مدة إقامتها 30 يوماً خارج المدينة، كما منعت تقليد الأشخاص الذين قاموا بمهام دبلوماسية لصالح المدينة مهام جديدة في السنتين التاليتين تحت طائلة الغرامة الثقيلة، ومن أجل ضبط المدة الزمنية الفاصلة بين المهمتين وضع سجل لتدوين تاريخ خروج البعثات وعودتها.⁶⁸⁹ وقد فسر الباحث بيير جيلي Pierre GILLI هذا التشدد في اختيار السفراء وفي ضبط تمويل السفارات بعدم اقتناع فلورنسا بجدوى العمل الدبلوماسي، وهو الأمر الذي يؤكد نهج

⁶⁸⁵ Décret du Grand Conseil du 22 décembre 1268; Idem, p.122.

⁶⁸⁶ MOEGLIN, op.cit, pp. 11-36.

⁶⁸⁷ DELOISON, op.cit, p. 242.

⁶⁸⁸ بلاك، م.س.، ص 77.

⁶⁸⁹ GILLI, op.cit, p.175.

الدبلوماسية الدفاعية وإيلائها اهتماما كبيرا للجوانب التنظيمية والمالية للعمل الدبلوماسي أكثر من الدبلوماسية نفسها⁶⁹⁰.

وتجدر الإشارة إلى أن الخلفية الاجتماعية والوظيفة للمبعوث كان لها دور أساسي في تحديد قيمة التعويض المالي، ونورد مثال السفير الإنجليزي Nicholas WEST الذي انتدب للسفارة إلى فرنسا يونيو 1510م حيث كان يشغل حينئذ منصب عميد وينسدور Doyen de Windsor، حيث حدد تعويضه اليومي في جنيه واحد، غير أنه بمجرد ترقيته ليشغل منصب أسقف Évêque d'Ely خصص له في السفارة الثانية التي انتدب لها إلى فرنسا شهر نوفمبر 1518م جنهين وثلاثة عشر شلن وأربع بنسات في اليوم.⁶⁹¹

وإلى جانب تمويل السفارات تعتبر المراسم البروتوكولية إحدى آليات العمل الدبلوماسي التي حظيت باهتمام بالغ من قبل سلاطين وملوك المغرب، حيث تعدد الإشارات بشأنها في عدد من المصادر والوثائق الدبلوماسية الوسيطية، وهو ما سوف نعمل على بسط تفاصيله في الفقرة التالية.

4.2 المراسم الدبلوماسية

على مر الحقب والعصور ظلت الطقوس والماراسم الدبلوماسية المفعمة بالرمزية أمراً مركزياً في العمل الدبلوماسي، وهي الأهمية التي جعلت منها عرفاً⁶⁹² أصيلاً لا يمكن تجاوزه في الترتيبات المرافقة لوفود ومغادرة البعثات الدبلوماسية، واجتماع الملوك والسلاطين، التي تبتدئ بالإذن بالقدوم مروراً بالحفلات والاستعراضات ووصولاً إلى تبادل الهدايا وما يصاحبها من طقوس وأعراف⁶⁹³. وخلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط انضبط معظم ملوك وسلاطين وأمراء الغرب الإسلامي وكذلك الغرب المسيحي للمراسم المتعارف عليها، وهو الأمر الذي استقيناه من مجموعة من الرسائل والوثائق التي أوردها عدد من المؤرخين والإخباريين كابن الخطيب في كتابيه "كناسة الدكان" و"الريحانة"، وابن خلدون في كتاب العبر..، والقلقشندي في كتاب "صبح الأعشى"، وكذلك في من خلال الرسائل التي أوردها دي ماص لا تري وميشيل أماري.

⁶⁹⁰ GILLI, op.cit p.176.

⁶⁹¹ DELOISON, op.cit, p. 242.

⁶⁹² يعد العرف أحد المصادر الرئيسية للتشريع إلى جانب المعاهدات الدولية والاجتهاد القضائي، وحين نتحدث عن الدبلوماسية، يعد العرف أهم مصدر من مصادر التشريع الدبلوماسي خاصة في العصور الوسطى، في ظل غياب نصوص قانونية محلية أو دولية تؤطر العمل الدبلوماسي وتسهر على حسن سيره خلال هذه الفترة. (رأي شخصي)

⁶⁹³ يلاك، م.س.، ص 50.

وقد جرت الأعراف أن تستبق البعثات الدبلوماسية بتقديم طلب للوفادة أو طلب الإذن بالقدوم، غالباً ما كان يوجه لأقرب ممثل للبلد المقصود بالسفارة، وقد تعددت الإشارات إلى هذا الأمر في عدد من الوثائق التي اطلعنا عليها، كالرسالة وردت على أبي زيد عبد الرحمان والي المستنصر الموحي سنة 620هـ /1223م بغرض طلب الإذن في قدوم الزعيم الأراغوني بلاسكو دي دراكون Plasco DE ARAGON على الخليفة الموحي بمراكش⁶⁹⁴، وكذا طلب السفير الليوني فرناندو رودريكيث دي كاسترو Fernando Rodriguez DE CASTRO من والي إشبيلية في رمضان 563هـ الإذن بالقدوم على الخليفة الموحي في مراكش، وهو الطلب الذي أرسل على إثره رقااص إلى الخليفة الذي أذن للبعثة الدبلوماسية في القدوم إلى مراكش، حيث تم استقبال أعضائها وأنزلوا بدار الكرامة التي أقاموا فيها لمدة خمسة أشهر، كانوا خلالها محل إعزاز وترحاب كبيرين حتى كاد السفير الليوني أن يُسلم حسب تعبير ابن صاحب الصلاة.⁶⁹⁵

ونورد أيضاً في السياق ذاته خبر سفارة الملك القشتالي المخلوع ألفونسو العاشر الذي أوفد سنة 681-1282م بعثة دبلوماسية ضمت مجموعة من البطارقة والرهبان لطلب المساعدة على استعادة عرشه، حيث ابتدر الوفد السفاري السلطان المريني أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق بطلب الإذن في القدوم، وقد نقل ابن أبي زرع عن الملك القشتالي قوله :

" .. أيها الملك المنصور إن النصارى نقضوا عهدى، وثاروا عليّ مع ولدى، وقالوا شيخ كبير قد ذهب رأيه وفني عقله، فأعني عليهم، ويكون ميرى معك إليهم... " ⁶⁹⁶

وهو الطلب الذي أجابه إليه السلطان المريني حيث عُقد لقاء خاص، على مقربة من مدينة رندة، شهر ربيع الثاني 681هـ /غشت 1282م⁶⁹⁷، وأمدّه على إثرها ب 100 ألف من مال المسلمين استرهن مقابلها تاجه الملكي.⁶⁹⁸

وتحفل كتب المؤرخين والإخباريين بالعديد من الأمثلة عن الترتيبات المتعلقة بالقدوم، اكتفينا منها بما أوردناه، والجدير بالذكر أن الإذن في القدوم كان يتم عن طريق مخاطبة أقرب ممثل سياسي للدولة

⁶⁹⁴ القلقشندي، م.س.، ج 6، ص 534: أنظر أيضاً التازي، الوسيط، م.س.، م 2، ص 48.

⁶⁹⁵ م.س.، ص 82: أنظر أيضاً المراكشي، المعجب، م.س.، ص 182، والتازي، الوسيط، م.س.، م 2، ص 24.

⁶⁹⁶ ابن أبي زرع، الأنيث، م.س.، ص 441.

⁶⁹⁷ الناصري، م.س.، م 1، ص 402.

⁶⁹⁸ ابن خلدون، العبر، م.س.، ص 1926.

المراد إيفاد السفارة إليها كالولادة وحكام المدن، ثم يخاطب هؤلاء المركز بشأن الإذن في القدوم ثم يخبرون الرسل بمآل طلبهم، وهي الطلبات التي كان يرفض بعضها، كالطلب الذي تقدمت به بعثة الملك القشتالي ألفونسو العاشر التي أوفدها للسلطان المريني أبي يوسف يعقوب في أكتوبر 1277م من أجل عقد الصلح، والطلب الثاني الذي تقدم به الملك نفسه⁶⁹⁹ من أجل التحالف ضد غرناطة، وهو الطلب الذي حظي بدعم الأمير المريني يوسف ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق الذي خاطب أباه في شأن الإذن للسفارة القشتالية بالقدوم عليه، وهو الطلب الذي رفض بشكل قاطع من قبل السلطان المريني.

لقد كانت الموافقة على قدوم السفارة أو عقد لقاء قمة ينشئ مجموعة من الحقوق للبعثات الدبلوماسية والالتزامات للسلطات المستقبلية، وهي في مجملها حقوق والتزامات عُرفية لا أساس تعاقدية لها، في مقدمتها حق التنقل والحماية، وهو الأمر الذي يكون في الغالب موضوع رسالة كتابية تسلم للوفد السفاري المعني بالأمر، يبلغ مضمونها للولادة والحكام الواقعة مدتهم ومناطق حكمهم على طريق البعثة الدبلوماسية من أجل اتخاذ التدابير اللازمة لتسهيل تنقلهم وحمايتهم.

وتجدر الإشارة إلى أن الفترات المتأخرة من العصر الوسيط عرفت عقد مجموعة من لقاءات القمة بين عدد من الملوك والسلاطين المغاربة ونظرائهم المسلمين والمسيحيين، كاللقاء الذي تم بين المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين سنة 474هـ/1081م، حيث ذكر صاحب الحلل الموشية أن الأمير المرابطي نزل بالجزيرة الخضراء ثم عزم على التوجه نحو اشبيلية، فخرج المعتمد لاستقباله على مشارف المدينة، فسلم عليه وهم بتقبيل يديه 700، فبادر ابن تاشفين لمعانقته، ثم رافقهم إلى اشبيلية حيث أكرم وفادتهم،⁷⁰¹ كما نقل لنا صاحب الحلل الموشية خبر لقاء ثان جمع بين المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين في المغرب، حين انتقل من اشبيلية في خاصته وعبر البحر فتلقيه ابن تاشفين بالمعمورة بالقرب من مصب وادي سبو، حيث قابله بالسلام والترحيب، بوجه طلق، وصدر رحب وإكرام.⁷⁰²

⁶⁹⁹ الناصري، م، س، ج 1، ص 400.

⁷⁰⁰ انتقلت مسألة تقبيل اليد حسب لجاك لوغوف إلى أوروبا من خلال التأثير الإسلامي، خاصة الأندلسي، حيث أورد أنموذج طلب الخليفة عبد الرحمن الثالث من السفير Jean de Gorze مبعوث الملك^{ef} Otton تقبيل يده، وهو طقس رمزي لتأكيد الخضوع لسلطة الخليفة، كما أورد أنموذجاً آخر هو استقبال الحكم الثاني بمدينة الزهراء ل Ordone IV.

LE GOFF, op.cit, p.237.

⁷⁰¹ مجهول، م، س، صص 50 - 51.

⁷⁰² نفسه، صص 67 - 68.

وفي عهد محمد الناصر بن يعقوب المنصور عُقد لقاء قمة بين الخليفة الموحي وملك نفار سانشو السابع في ذي الحجة 607هـ / يونيو 1211م، حيث قدم ملك نفار مع زوجته وحاشيته، وجرى هذا الاستقبال في موكب عظيم؛ فقد اصطف جنود الموحيون من قرمونة إلى اشبيلية في أبهى حللهم، وعلى أبواب اشبيلية وقف الخليفة الناصر لاستقبال سانشو، وتولى الترجمة بينهما قائد أندلسي، ثم قدم ملك نفار هدية إلى الخليفة الموحي تتضمن مصحفاً قديماً كان قد وقع في يدي النصاري كانوا يعتنون به ويحتفظون به في علبة من الذهب، وقد أشار ابن أبي زرع إلى أن الهدية كانت عبارة عن رسالة النبي ﷺ لهرقل كانت محفوظة لديهم⁷⁰³ وليس مصحفاً كما أسلفنا الإشارة، وكان ضمن الهدية أيضاً أحجار كريمة وغيرها، وقد رد الناصر على الهدية بما يناسب مقام الملك⁷⁰⁴.

وهناك أيضاً خبر لقاء القمة الذي جمع بين الناصر الموحي وملك ليون ألفونسو التاسع وهو اللقاء الذي استبق بطلب الإذن في القدوم تقدم به وفد سفاري نيابة عن ملك ليون، وهو الطلب الذي تمت الموافقة عليه، كما تم إبلاغ الوفد السفاري بالترتيبات الواجب اتباعها من قبيل المكوث ثلاث ليال بكل مدينة أندلسية يعبرها في طريقه إلى إشبيلية، وإبقاء ألف فارس من الجيش المرافق له بكل مدينة يقيم بها، على أن يتم استقباله خارج مدينة إشبيلية⁷⁰⁵.

وخلال الفترة المرينية تعددت لقاءات القمة بين السلاطين المرينيين ونظرائهم من سلاطين وملوك وأمراء الأندلس، نذكر منها اللقاء الذي جمع بين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق والملك الأراغوني جاك الأول في جمادى الأولى 672هـ / نونبر 1274م في برشلونة،⁷⁰⁶ كما نسوق مثال لقاء القمة التي جمع بين السلطان أبي الحسن المريني والملك القشتالي سانشو الرابع، وهي القمة التي استبقتها مجموعة من اللقاءات بين الوفود السفارية القشتالية والسلطان المريني، والتي انتهت بموافقة أبي الحسن على عقد اللقاء بالأندلس، ولأجل ذلك أرسل سفيره أبا محمد عبد الحق ابن الترجمان إلى اشبيلية من أجل إبلاغ الملك القشتالي بإجابة طلب عقد الصلح والسهر على الترتيبات الواجب اتخاذها، كتحديد أعضاء الوفد المرافق للملك وإيفاد الأمير يوسف بن يعقوب المريني لاستقباله بمشارف مدينة شريش قبيل التوجه إلى الجزيرة الخضراء للقاء السلطان المريني يعقوب حيث عقد اللقاء في أكتوبر 1285م بحصن عين الصخرة

⁷⁰³ ابن أبي زرع، الأنيس، م.س، صص 309-311.

⁷⁰⁴ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000، ج 1، ص 305.

⁷⁰⁵ ابن أبي زرع، الأنيس، م.س، صص 335-336.

⁷⁰⁶ DE MAS LATRIE, TI, op.cit, pp. 285- 286.

على مقربة من وادي لكة، وتجدر الإشارة أن السلطان المريني أمر العامة والخاصة بلبس البياض والخروج لإستقبال الموكب⁷⁰⁷.

تميز استقبال الأمير يوسف بن يعقوب المريني للملك القشتالي سانشو بتبادل الهدايا بين الطرفين،⁷⁰⁸ وعقدت اتفاقية الصلح يوم الأحد 20 شعبان 684 هـ / 21 أكتوبر 1285م، تلتها احتفالات عديدة كعروض الخيالة واللعب بالسلح بالقرب من مدينة شريش ابتهاجاً بالمصادقة على الصلح⁷⁰⁹، ولدى عودته أهدي الملك سانشو للسلطان المريني ثلاثة عشر حملاً من الكتب، من ضمنها كتب التفسير لابن عطية النعالي وكتب في الحديث وشروحها كالتهذيب والاستذكار وفي الأصول والفروع واللغة والأدب وغيرهما.⁷¹⁰

لقد كانت لقاءات القمة بين الملوك والسلطين والأمراء المسلمين ونظرائهم المسيحيين مناسبة يمتزج فيها الهاجس الأمني بالبعد البروتوكولي، وفرصة لاستعراض القوة ومظاهر الثراء والتحضر، وتقديم اللقاء كنصر للمسلمين، خاصة أن أغلب هذه اللقاءات تم كما أورده إخباريو هذا العصر في ظل التفوق العسكري والسياسي لدول الغرب الإسلامي، الأمر الذي فرض على الوفود المسيحية الانضباط للشروط والتدابير التي يفرضها المسلمون، ابتداء من تقديم طلب الإذن في القدوم، ومروراً بتحديد عدد المرافقين وانتهاء بتحديد مكان انعقاد اللقاء.

وبخصوص استقبال الوفود السفارية، تضمنت كتب الإخباريين والمؤرخين الوسيطيين إشارات عديدة عن الأعراف والماراسيم المرافقة لاستقبال البعثات الدبلوماسية ووداعها، وفي هذا الصدد نورد مثال البعثة الدبلوماسية التي أوفدها الملك الإنجليزي جوهان سنة 1211م على الخليفة الموحي يعقوب المنصور،⁷¹¹ حيث أنه بمجرد وصول البعثة الدبلوماسية إلى مراكش تمت مرافقتها إلى مقر إقامة الخليفة بهدوء ودون تعقيد حسب تعبير ماثيو باريس⁷¹² Matthieu PARIS الذي أورد خبر هذه السفارة⁷¹³، وبمجرد

⁷⁰⁷ ابن أبي زرع، الأنيس، م.س.، صص 359-363.

⁷⁰⁸ الناصري، م.س.، ج 3، صص 62 - 63.

⁷⁰⁹ ابن أبي زرع، الأنيس، م.س.، ص 362.

⁷¹⁰ الناصري، م.س.، ج 3، صص 62 - 63.

⁷¹¹ عبد الهادي التازي، الدبلوماسية المغاربة وانطباعاتهم حول المجتمع الانجليزي، مجلة المناهل، ع 27، وزارة الشؤون الثقافية، يوليو

1983، ص 93.

⁷¹² A. HUIILLARD-BRÉHOLLES, Grande Chronique de Matthieu Pâris, présenté par le duc de Luynes, T1, Paulin libraire éditeur, Paris, 1840, p. 592.

دخولهم عليه انحنوا له، وسلموا عليه وأبلغوه تحية ملك إنجلترا، وشرحوا له سبب مجيئهم وسلموا له الرسالة التي بعثها معهم، وتم على الفور استدعاء مترجم قام بترجمة ما جاء فيها،⁷¹⁴ و بعد انقضاء سفارتهم أهدى لهم الخليفة مجموعة من الهدايا.⁷¹⁵

من جانبه تحدث ابن خلدون⁷¹⁶ عن مراسيم استقباله من قبل الملك القشتالي بيدرو الأول Pierre LE CRUEL نهاية سنة 765 هـ / 1364م موفداً إليه من لدن السلطان النصري محمد الخامس⁷¹⁷، من أجل المصادقة على اتفاقية سلم سبق وأن وقع نظيراً لها السفير المغربي ابن مرزوق لفائدة السلطان المريني عبد العزيز بن أبي الحسن⁷¹⁸. وقد تحدث ابن خلدون عن مجموعة من الهدايا التي حملها معه من بينها أثواب حريرية وخيول أصيلة ومجوهرات ذهبية، وعدد آخر من الهدايا، كما تحدث عن حسن استقباله من قبل الملك القشتالي في إشبيلية، ومدحه والثناء عليه أمام طبيب الملك القشتالي اليهودي⁷¹⁹ Ibrâhim IBN ZARZÂ، كما تحدث عن تزويده بالمؤونة والركوب لدى عودته، من ضمنها بغلة تحمل أحمالاً من الذهب قدمها للسلطان النصري الذي كافأه بتفويت قرية البيرة Elvira التي تضم عدداً كبيراً من الأراضي والضيايع المسقية في سهل غرناطة.⁷²⁰ وتظل شهادة ابن خلدون مهمة جداً على الرغم من أنها لم

⁷¹³ HUIILLARD-BRÉHOLLES, op.cit, p. 555

⁷¹⁴ ب ج روجرز، تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية حتى عام 1900، ترجمة وتعليق يونان لبيب رزق، دار الثقافة ط 1، المغرب، 1981، ص 33.

Voir aussi, Rogers, P.G, History on anglo – Morrocaon relation to 1900, London Foreign and Commonwealth Office, 1978.

⁷¹⁵ نفسه، ص 36.

⁷¹⁶ ذكر عبد الهادي التازي في معرض حديثه عن انتداب ابن خلدون للسفارة أن خبرته في التعامل مع الملوك هي التي أهلتة لشغل المهام الدبلوماسية، حيث أنه عرف أمراء تونس وفاس وغرناطة وملك قشتالة، وأمير بجاية وقسطنطينية وأمير تلمسان وسلاطين مصر وأمراء دمشق وأخيراً ملك التتر، كما حضر عدداً كبيراً من الاستقبالات والاحتفالات والمهرجانات التي تخصص لعلية القوم، بل وحضر عدداً من لقاءات القمة بين الملوك، والقادة والزعماء؛ عبد الهادي التازي، ابن خلدون سفيراً، م. س.، ص 365.

⁷¹⁷ التقى محمد الخامس بابن خلدون في منفاه بمدينة فاس، حيث قدم له مجموعة من الخدمات الأمر الذي جعل محمد الخامس يصطفيه ويقربه، وكرد للدين أرسله محمد الخامس سفيراً إلى بلاط قشتالة، وهو الأمر الذي كان يقتصر فقط على المقربين من السلطان، كما يدل على المكانة التي ارتقى إليها ابن خلدون في عهد الملك محمد الخامس؛ نفس المرجع والصفحة.

⁷¹⁸ عبد الهادي التازي، ابن خلدون سفيراً، م. س.، ص 371.

⁷¹⁹ يذكر المؤرخ المغربي عبد الهادي التازي أن شيئاً واحداً كان ينقص ابن خلدون هو عدم معرفته للغات أخرى، لكنه اكتسب إلى كل تلك الصفات مواهب أخرى جعلت منه مرشحاً لمحاوره الملوك ومفاتيحة الأمراء، كما جعلت منه رسولا خبيراً لمعالجة المستعصيات ومقارعة المشكلات، نفسه، ص 365.

⁷²⁰ Abdeslam CHEDDADI, A propos d'une ambassade d'Ibn Khaldun auprès de Pierre le Cruel : contacts politiques et culturels entre Etats chrétiens et musulmans dans l'Andalousie médiévale, in Hesperis T, 1982-83, vol. XX-XXI, fascicule unique, pp 7 – 8.

تورد معلومات عن ترتيبات السفارة أو جوانبها التقنية، وإغفالها الحديث عن مضمونها وطبيعتها ومضامين المعاهدة والسياق الذي صاحب توقيعها⁷²¹.

والجدير بالذكر، أنه جرت العادة خلال الاستقبال وأثناء الاجتماعات العلنية أن يعتمد خطاب رسمي لا يتجاوز حدود تبادل الإطراء والمدح وتبليغ فحوى الرسائل من دون زيادة أو نقصان، في حين كانت الاجتماعات السرية أو المفاوضات تتميز بهيمنة خطاب برغماتي على النقيض تماماً من الخطاب المعتمد في اللقاءات العلنية.⁷²²

من جهة أخرى، وردت عدة إشارات بخصوص دعوة السفراء لحضور الحفلات والاستعراضات، أو القيام بجولات سياحية، وفي هذا الصدد نورد خبر إيفاد السلطان المريني أبي يعقوب يوسف الناصر سنة 705هـ / 1305م لبعثة سفارية حجازية للتجول في أنحاء المغرب بعد قضاء أغراضهم السفارية، وهو الأمر نفسه الذي تكرر سنة 706هـ / 1306م حيث أخرج السلطان المريني الناس لاستقبال سفارة السلطان المصري الناصر محمد بن قلاوون، وإيفاده البعثة المصرية للتجول والسياحة في المغرب بعد قضاء غرض سفارتهم. كما نسوق خبر سفارة لسان الدين ابن الخطيب إلى المغرب، حيث دعي من قبل السلطان أبي عنان فارس لمشاهدة مصارعة بين الأسد والثيران، وهي المناسبة التي نظم بشأنها ابن الخطيب عدة أبيات شعرية:

أَنعَامُ أَرْضِكَ تَهْتَرُ الْأَسَادَا طَبَعًا كَسَا الْأَرْوَاحُ وَالْأَجْسَادَا
كَانَ الْهَزِينُ مُحَارِبًا فَجَزِينُهُ نَجْرَاءُ مِنْ فِي الْأَرْضِ دَامَ فُسَادُ⁷²³

وكانت مسألة الانضباط للمراسم والأعراف شديدة الأهمية، وكان خرقها أو التهاون بشأنها ينذر بنشوب أزمة دبلوماسية، كما حدث حين تقاعس سلطان تونس أبو بكر الثاني المتوكل على الله الحفصي عن حضور لقاء القمة الذي كان منتظراً مع السلطان المريني أبي الحسن سنة 738هـ / 1338م، وهو الأمر الذي أغضبه بعد أن طال مقامه بمتيجة بالمغرب الأوسط وتعرضه لوعكة صحية كادت أن تودي

⁷²¹ CHEDDADI, op.cit, p.14 .

⁷²² MOEGLIN, op.cit, p. 5.

⁷²³ الماخي، م.س.، ص 274.

بحياته⁷²⁴. ولم تكن مسألة الانضباط للأعراف والماراسم الدبلوماسية مقصورة فقط على الغرب الإسلامي، بل كانت لها الأهمية نفس والرمزية ذاتها في الغرب المسيحي، ففي سنة 1455م وبمناسبة زفاف الأمير Ferrant ابن الملك Alphonse بمدينة نابولي أدى انسحاب السفير الفلورنسي Giannozzo Manetti احتجاجاً على موضع جلوسه بعيداً عن الملك، مقابل تقريب الوفد البندقي منه على الرغم من المكانة السياسية والاقتصادية المتقدمة لفلورنسا على البندقية، إلى نشوب أزمة دبلوماسية بين نابولي وفلورنسا.⁷²⁵

وقد ارتبطت بعض الوظائف بالمراسيم الدبلوماسية خلال الحقبة الوسيطية، فقد أشارت عدة مصادر إلى وظائف كالمزوار في المغرب والمهمندار في المشرق اللذان كانا يشرفان على استقبال الوفود. وقد ذكر هويسي ميراندا Huissi MIRANDA في كتاب التاريخ السياسي للدولة الموحدية أن الخليفة الناصر الموحي استحدث وظيفة مماثلة يقوم صاحبها باستقبال وفود الملوك المسيحيين والسهر على إقامتهم والقيام بعملية الترجمة أثناء محادثتهم مع المسؤولين الموحدين، وذكر اسمين هما أبا أويل "نرجح أنه تحريف لأبي عبد الله" الذي عوض ابتداء من 1211م بأبي الجليس محارب. كما تحدث القلقشندي عن وظيفة المهمندار وهو الشخص الذي كان يُعهد إليه باستقبال الرسل والبعثات الدبلوماسية الواردة على السلطان والسهر على ضيافتهم وقضاء حوائجهم⁷²⁶. ووردت أيضاً مجموعة من الإشارات عن إسناد عدد من السلاطين والملوك المغاربة لبعض الوزراء والحجاب والكتاب مهام الاستقبال والإشراف على المراسيم، فلقد عُهد لابن خلدون من قبل السلطان المريني أبو سالم إبراهيم سنة 763 هـ / 1362م بمهام استقبال سفارة السودان التي بعث بها إلى المغرب السلطان مالي منسى ماري زاطة Mensa Mari Diata بفاس، فكان على رأس مستقبلي الوفد السوداني الذي كان مصحوباً بالزرافة هدية للسلطان المريني كما سبقت الإشارة⁷²⁷.

أما بخصوص الأزياء التي كان يتزى بها الملوك والسلاطين المغاربة وحاشيتهم لدى استقبالهم الملوك والسفراء، فلقد أورد القلقشندي أن السلاطين والأمراء وكبار موظفي الدولة المرينية وكبار قادة الجيش يضعون فوق رؤوسهم عمام طويلة، قليلة العرض من كتان، ويُعمل فوقها إحرامات يلقون بطرفها على أكتافهم، ويتقلدون السيوف تقليداً بدوياً، ويلبسون الخفاف في أرجلهم ويشدون المهاميز فوقها، ويتخذون

⁷²⁴ ابن خلدون، العبر، م.س.، صص 1963 - 1962.

⁷²⁵ MOEGLIN, op.cit, p.4.

⁷²⁶ القلقشندي، م.س.، ج 5، ص 459.

⁷²⁷ عبد الهادي التازي، ابن خلدون سفيرا، م.س.، ص 368.

المناطق المسماة بـ "المضيمات" من فضة أو ذهب، وأضاف أنه ربما بلغت كل مضمة منها ألف مثقال⁷²⁸. أما السلطان فيختص بلبس البرنس الأبيض الرفيع دون غيره، باستثناء العلماء، أما زي القضاة والكتاب وعامة الناس، فقريب من لبس الجند إلا أن عمائمهم خضر ولا يلبس أحد منهم الأخفاف⁷²⁹. وقد ذكر الأستاذ محمد المنوني ارتباطاً بالموضوع ذاته أن المرينيين امتازوا باستعمال البياض، فهو كان لون العلم واللباس والحفلات الرسمية، ولون أخبية الجيش بما فيها خباء السلطان العظيم "أفراك"، كما كان اسم ومظهر المدينة المرينية "فاس الجديد"⁷³⁰.

وعند خروج السلطان في موكبه يُرفع شعاره الذي كان عبارة عن علم أبيض من حرير مطرز بخيوط الذهب على شكل دائرة بها آيات من القرآن الكريم، يسمونه العلم المنصور، يحمل بين يده في الموكب، كما تحمل أعلام مختلفة الألوان يحملها ثلاثة من خاصته أو وصفائه⁷³¹، ويتقدم الموكب أكابر القواد من العلوج الفرنج والأندلسيين خلفه وأمامه، في حين يحمل خمسون رجلاً مشدودي الأوساط رماحاً طوال وقصار، بيد كل واحد منهم رمحان، رمح طويل وآخر قصير. كما تقاد أمام السلطان الجنائب وهي خيول عليها سروج مخروزة بالذهب كالزركش، وركبائها ذهب كل ركاب زنته ألف دينار، وعليها ثياب سروج من الحرير مرموقة بالذهب، ويعبرون عن الجنائب بالمقادات، وعن ثياب السروج بالبراقع، كما تعزف الأبواق وتدق الطبول خلف ساقته وهي مراسم مقصورة على السلطان لا يجوز لأحد من الأمراء أو الوزراء التشبه بها⁷³².

وارتباطاً بالموضوع ذاته، تحدث ابن خلدون عن المراسم التي اعتبرها تدخل ضمن مقتضيات الأبهة والبذخ التي يتميز بها السلطان عن الرعية والبطانة وسائر رؤساء دولته، حيث تحدث في هذا الصدد عن الآلة، التي اعتبرها من شارات الملك، وعزفها بكونها نشر الألوية والرايات وقرع الطبول والنفخ في الأبواق والقرون، وإن كان ابن خلدون قد تحدث عن دور الآلة في الحرب فإن رسوم الآلة وأعرافها كانت توظف في الموكب السلطانية المغربية⁷³³ خاصة لدى استقبال الملوك والسفراء، وكان من السلاطين من يقتصر موكبه "الساقة" على سبع من العدد تبركا بالرقم سبعة، كما هو في دولة الموحدين وبني الأحمر

⁷²⁸ عبد الهادي التازي، ابن خلدون سفيرا، م.س.، ص 203.

⁷²⁹ القلقشندي، م.س.، ج 5، ص 204.

⁷³⁰ المنوني، م.س.، ص 155.

⁷³¹ القلقشندي، م.س.، ج 5، ص 206.

⁷³² القلقشندي، م.س.، ج 5، ص 208.

⁷³³ كانت مواكب الخلفاء والسلاطين الموحدين والمرينيين متشابهة تقريباً؛ ابن خلدون، العبر، م.س.، ص 130.

بالأندلس، ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند المرينين، وقد بلغت أيام أبي الحسن المريني حسب قوله مائة من الطبول ومائة من البنود ملونة بالحرير ومنسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير، كما تحدث ابن خلدون عن اتخاذ القشتاليين والأراغونيين ألوية قليلة ترفع عالياً يصاحبها قرع الأوتار من طناوير ونفخ الغيطات يذهبون فيها مذهب الغناء⁷³⁴.

⁷³⁴ نفسه، ص 131.

3- المحددات التجارية والدينية للعمل الدبلوماسي

أسهمت التحولات الاقتصادية التي شهدتها الشطر الغربي من الحوض المتوسطي خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط في توجيه دفعة العلاقات الدولية لصالح دول أوروبا الغربية على حساب دول المغرب، حيث لم تعد هذه العلاقات رهينة للمحددات السياسية والعسكرية، بقدر ما أصبح يتدخل فيها عامل المصلحة الاقتصادية والتجارية، وهو ما سنحاول بسطه خلال هذا المبحث الذي نستعرض فيه أيضاً أبرز خصائص العمل القنصلي ومؤسسة الفندق التي ارتبطت بشكل وثيق بالتجارة الوسيطية في عالم البحر المتوسط.

1.3 المحدد التجاري

على الرغم من التوازن الاقتصادي النَّسي الذي تحقق أثناء خلال القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجريين / 8 و9م بين دول الغرب الإسلامي من جهة، والدول المسيحية من جهة أخرى، إلا أن التحول الذي طرأ على المشهد الاقتصادي مع تعاظم قوة الدول والممالك المسيحية وتمكنها من تقنيات الملاحة البحرية،⁷³⁵ جعل ميزان القوة يميل لصالحها، حيث أضحت تمتلك زمام المبادرة وتفرض توجهاتها التجارية على الدول التي تعاقبت على حكم المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط، معتمدة في ذلك على عدة آليات قانونية لحماية مصالحها كالاتفاقيات التجارية التي سعت لإبرامها مع مختلف دول الجنوب، وهي الأوفاق التي كانت تعتبر إلى غاية هذا العهد بدعة في حياة دول المغرب⁷³⁶، التي ظلت تراهن على الجنوب من أجل تعزيز اقتصادها القائم على احتكار الطرق التجارية العبرة للصحراء⁷³⁷، تاركة التجارة البحرية للأوروبيين⁷³⁸.

⁷³⁵ إبراهيم الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، نشر المنجي الكعبي، 1968، صص 353-354.

⁷³⁶ سيطر تجار جنوة تدريجياً على تجارة المغرب كما سيطر أهل البندقية على الشرق الإسلامي كل ذلك في إطار المد الصليبي، حيث كانت هذه المعاهدات والأوفاق بدعة في حياة دول المغرب تضمن أمن وسلامة التجار وتنظم سير المبادلات بما فيها حد الرسوم على الصادر والوارد؛ لقد كانت المبادرة بيد الأوروبيين، وحتى حين كانت تجارة القوافل بيد التجار المغاربة لم يبادروا إلى عقد معاهدات مع المناطق التي تزودهم بالسلع جنوب الصحراء، وهو الأمر الذي يؤكد ما ذهب إليه العروي من أن المعاهدات كانت بدعة فرضت على المغرب من قبل التجار الأوروبيين، عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 2، 2009، ص 326.

⁷³⁷ محمد القبلي، حول تاريخ المجتمع المغربي في العصر الوسيط مقدمات أولية وقضايا، نشر الفنك، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء، 1998، ص 20.

⁷³⁸ القيرواني، م.س.، ص 325.

حرصت القوى التجارية الأوروبية الصاعدة خلال هذه الفترة على عقد مجموعة من الاتفاقيات التجارية مع المغرب لفائدة تجارها سواء على عهد المرابطين أو الموحيدين أو المرينيين، وهو ما رصدنا بعضاً منه في جدول المعطيات الإحصائية المتعلقة بالسفارات الوافدة على المغرب والموفدة منه خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط، حيث تمحورت معظم بنود الاتفاقيات الموقعة بين الجانبين على توفير الحماية للتجار وممتلكاتهم، وتأمين خطوط الملاحة التجارية، ومساعدة السفن الجانحة، كما تضمن عدد منها تفاصيل تتعلق بالفنادق وظروف إقامة القناصل والتجار. ومن بين أبرز هذه الاتفاقيات نجد تلك التي وقعت مع الخليفة الموحيدي أبي يوسف يعقوب يوسف بن عبد المومن في 4 رجب 561 هـ / 5 ماي 1166 م والتي مثل فيها بيزة القنصل Coco GRIFFI، وحصلت بموجبها على مجموعة من الامتيازات التجارية من ضمنها حق إقامة فندق تجاري⁷³⁹، وهي الاتفاقية التي تلتها مجموعة أخرى عقدت بين بيزة من جهة والموحيدين من جهة أخرى سنوات 1179 م و 1181 م و 1182 م و 1210 م، كما استفادت جنوة من وضع تفضيلي، واستطاعت أن تحصل في سنوات 1153-1154 م و 1160-1161 م و 1235 م على معاهدات تجارية نالت بمقتضاها امتيازات تتعلق بحرية التنقل والإبحار والحماية، فكانت السفن الجنوية تتراد عدداً من الموانئ المغربية كسبتة وسلا وغيرهما، وهي الامتيازات نفسها التي استفادت منها مدن إيطالية أخرى كالبنديقية⁷⁴⁰، في حين كان من النادر أن تتضمن الاتفاقيات السالفة الذكر امتيازات خاصة بالتجار المغاربة وذلك راجع إلى عدة اعتبارات سنقف عندها في الفقرات التالية⁷⁴¹.

عُقدت خلال الفترة المرينية مجموعة من الاتفاقيات التجارية أبرزها الاتفاق الذي عقد بين الأمير المريني عبد الرحمان ابن الحسن والملك الأراغوني بيدرو الرابع Pedro IV سنة 755 هـ / 1354 م للتوصية بالتجار الأراغونيين وطلب توفير الحماية لهم ومنحهم حرية التنقل. ثم الاتفاق التجاري بين الملك الفرنسي شارل السابع Charles VII والسلطان المريني عبد الحق ابن عثمان سنة 680 هـ / 1456 م بخصوص تأمين خطوط الملاحة التجارية الفرنسية الوافدة على المغرب.

وإلى جانب عقد الاتفاقيات، لم يتردد ملوك وحكام الممالك المسيحية التي كانت لهم علاقة تجارية بالمغرب في الاتصال بنظرائهم المغاربة كلما دعت الضرورة إلى ذلك، ولم يجد هؤلاء أدنى حرج في الاتصال

⁷³⁹ التازي، الوسيط، م. س.، ج 2، ص 73.

⁷⁴⁰ محمد حناوي، جوانب من العلاقات الاقتصادية والبشرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط قبيل القرن العاشر، صص، أعمال ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، م. س.، ص 157.

741 البزاز، في م. س.، ص 86.

بهم لعرض كل ما يعترض عملياتهم التجارية من صعوبات، ويؤيد ذلك الرسالة التي بعث بها حكام بيزة إلى أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن بتاريخ 19 ماي 1181م عن الصعوبات التي أعاقت عددا من تجار مدينة بيزة الإيطالية من أجل استخلاص جلود بجاية⁷⁴²، بالمقابل قام المغاربة أيضاً بالاتصال بنظرائهم في مختلف المدن الإيطالية تارة بغرض الاحتجاج على بعض الاعتداءات التي كانت تقوم بها من حين لآخر سفنهم على الموانئ المغربية، كما حدث سنة 1200م حين اعتدت سفن بيزة على مرسى تونس، وهو الأمر الذي كان موضوع عدد من المراسلات بين ناظر ديوان تونس عبد الرحمان بن أبي طاهر وحكام بيزة بغرض الاحتجاج وتعويض الأضرار الناجمة عن الاعتداء. وكما حدث سنة 751هـ / 1350م على عهد السلطان المريني أبي عنان فارس حين خاطب بيدرو الرابع ملك أراغون بخصوص اعتداء سفن تابعة لمملكته على قرقورة مغربية، وجدير بالذكر أن رسالة السلطان المريني تعد من بين الرسائل النادرة التي تضمنت أحد المبادئ الأساسية للعمل الدبلوماسي وهو مبدأ المعاملة بالمثل، حيث جاء في رسالته :

" .. وذكرت عما يلزمك من النظر في مصالح رعاياك، واعلم وفقك الله أنه كما يلزمك النظر في مصالح رعاياك فكذلك يلزمنا أن ننظر في صلاح رعايانا بأحسن النظر.."⁷⁴³

وهو المبدأ نفسه الذي وقفنا عليه في رسالة التوصية⁷⁴⁴ بالتجار الفرنسيين التي أرسلها الملك الفرنسي لمجموعة من الملوك والأمراء من بينهم سلطان المغرب المريني آنذاك⁷⁴⁵، والتي نقلها من اللاتينية إلى الفرنسية DE CENIVAL، ولأهميته نورد منها المقتطف التالي :

« .. Par la grâce de Dieu roi de France, .. afin que nos sujets puissent profiter du secours des circonstances, nous avons jugé bon d'envoyer nos galéasses et nos navires d'ici vers vos régions de l'Orient et du Midi pour y faire le commerce sous la conduite de Dieu tout puissant. C'est pourquoi nous vous prions et vous instamment de bien vouloir, pour nous complaire, accueillir avec ferveur et

⁷⁴² إبراهيم القادري بوتشيش، تاريخ الغرب الإسلامي ، م.س.، ص 94.

⁷⁴³ Archivo de Aragon, op.cit, pp. 209 - 210

⁷⁴⁴ وردت الرسالة على شكل دورية أرسلت لعدد من ملوك وأمراء المشرق وشمال إفريقيا من أجل تأمين الملاحة التجارية الفرنسية، وفتح آفاق التعاون بين فرنسا وعدد من دول الحوض المتوسطي. لأول مرة في العصر الوسيط يعبر ملك فرنسي عن رغبته في إقامة علاقات تجارية مع المغرب.

DE CENIVAL, op.cit, p.459.

⁷⁴⁵ النص الأصلي كتب باللغة اللاتينية وترجم من قبل DE CENIVAL إلى اللغة الفرنسية؛ أرسلت الرسالة عن طريق سفينة تجارية متوجهة نحو مرسى سبتة حملها Pierre le VEAUX المعروف أيضا باسم Petrus de VALLIBAS أحد تجار وسماسرة مدينة منبولىيه.

Ibid, pp 452 - 454.

bonté ces navires avec leurs et passagers sous la garantie de votre sauf-conduit, comme nous ferons des vôtres, s'il leur arrive de naviguer jusqu'à nos contrées..».⁷⁴⁶

.. من أجل ذلك نُهيبُ بكم حسن استقبال سفننا وركابها، وضمان حرية تنقلهم كما سنفعل بالمقابل مع سفنكم إذا بلغت بلادنا..⁷⁴⁷

وخاطب الخلفاء والسلاطين المغاربة نظراءهم المسيحيين بخصوص التوصية ببعض التجار البيزين اليهود المتعاونين مع السلطات الموحدية والمرينية. في حين لم نقف على سفارات بعث بها الحكام المغاربة إلى أوروبا خلال هذه الفترة من أجل قضاء أغراض تجارية محضة أو عقد اتفاقيات في هذا الصدد، وهو ما يعزز فرضية احتكار التجار الأوروبيين لزام المبادرة في المجال التجاري خلال الفترات الوسيطة المتأخرة. وعززت هذه الفرضية المعطيات الإحصائية التي توفرت لدينا والتي تفيد أن نسب الأغراض التجارية مقارنة ببقية أغراض البعثات السفارية الوافدة والموفدة من المغرب خلال الفترة موضوع البحث تراوحت بين الضعيفة والمتوسطة؛ ففي الوقت الذي غابت فيه هذه الأغراض عن الفترة المرابطية، لم تتجاوز نسبتها خلال الفترة الموحدية 12% وانخفضت إلى 10% في عهد المرينيين، كما لم نقف على أي اتفاقية تجارية بين الممالك الإسلامية، لأن المسلمين لم يكونوا يعتبرون أنفسهم أجنب.⁷⁴⁸

وتجدر الإشارة إلى أن النسب السالفة الذكر تتعلق بالسفارات التي كانت لها أغراض تجارية خالصة، وهي في معظمها سفارات واردة على المغرب. ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن عدداً من اتفاقيات السلم والصالح بين الدول المتعاقبة على حكم المغرب وعدد من الممالك المسيحية كانت تتضمن في أغلب الأحيان بنوداً تتعلق بالتجارة، كالاتفاق الذي عُقد بين السلطان المريني أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق والملك الأراغوني جاك الأول سنة 672هـ/1274م الذي كان غرضه الأساسي الصلح وتقديم المساعدات العسكرية للمرينيين من أجل استعادة سبتة، والذي تضمن بنوداً تتعلق بتسهيل مأمورية التجار الأراغونيين بالمغرب وحمايتهم.⁷⁴⁹ ونورد في السياق ذاته الاتفاق الذي عقد بين السلطان المريني أبي الربيع سليمان والملك

⁷⁴⁶ رسالة شارل السابع لم يكن لها أي اثر إيجابي على العلاقات التجارية بين فرنسا والمغرب بالنظر إلى السياق السياسي والاجتماعي المضطرب الذي كان يعرفه المغرب آنذاك

DE CENIVAL, op.cit, p.459.

⁷⁴⁷ قمنا بترجمة لأسطر الأربعة الأخيرة من نص الرسالة الفرنسية.

⁷⁴⁸ مصطفى نشاط، م.س.، ص 157.

⁷⁴⁹ DE MAS LATRIE, op.cit, Tl, pp. 285–286

الأراغوني خايبي الثاني بغرض التحالف سنة 1309م، والذي تضمن بدوره مجموعة من البنود المتعلقة بالتجارة⁷⁵⁰. بالإضافة اتفاق السلم الموقع سنة 751هـ/1350م بين السلطان أبي عنان فارس والملك الأراغوني بيدرو الرابع الذي أناب عنه السفير فرانسيسكو بورتيل Francesesco PORTEL، وهو الاتفاق الذي تضمن بنوداً تتعلق بحرية التنقل وحماية الخطوط الملاحية البحرية الأراغونية لمدة 14 شهراً⁷⁵¹.

إجمالاً، كانت الإتفاقيات تتضمن بنوداً تتعلق بالضمانات التي كانت توفرها السلطة المركزية وممثلها في مختلف المراسي والمدن للتجار والسفن التجارية، والتي كانت تتعلق أساساً بضمانات الحماية⁷⁵² وحرية التنقل، كما تضمن بعضها بنوداً مقصورة على الحكام أو النخب السياسية، وبنوداً أخرى تتعلق بتحديد المسؤوليات في حالة نشوب نزاع بين الطرفين أو خرق أحد بنود هذه الاتفاقيات، والتي كانت تؤطرها بعض المبادئ القانونية كمبدأ المعاملة بالمثل الذي سبقت الإشارة إليه، ومبدأ المسؤولية التضامنية بين الحكام والتجار، وهو الأمر الذي كان موضوع مراسلات ناظر ديوان تونس عبد الرحمان ابن أبي طاهر الذي احتجز مجموعة من السفن البيزية وباع وسقها لفائدة المتضررين من الاعتداء على مرسى تونس وذلك عملاً بهذا المبدأ. وتجدر الإشارة إلى أن تأثير الفقهاء والكنيسة في التجارة كان جلياً، من خلال وضع ضوابط على المواد المصدرة في كلا الاتجاهين حيث تشدد الفقهاء في مسألة تصدير الأسلحة والأقوات والخيول حتى لا يستقوي بها أعداء الإسلام، كما تشددت الكنيسة في مسألة تصدير الأسلحة أو نقل تقنيات الملاحة البحرية وصناعة السفن وصناعة الأسلحة للمسلمين، وهي المحظورات التي كان يتم خرقها من حين لآخر.

على الرغم من أن عقد هذه الاتفاقيات كان بغرض تنظيم علاقة السلطة بالتجار الأجانب إلا أنها تضمنت مجموعة من البنود التي عززت موقع النخب الحاكمة ومن يدور في فلكهم على حساب بقية التجار المحليين، ومكنتهم من تحقيق أرباح من الاتفاقيات ومن التجارة مع المسيحيين مقابل الضمانات

⁷⁵⁰ Archivo de Aragon, op. cit, pp.169-165

⁷⁵¹ Ibid, pp.216

⁷⁵² عموماً تمنح الاتفاقية أماناً عاماً للأجانب المشمولين ببنودها وفصولها، وهو الأمر الذي لا يتعارض مع ضرورة التوفر في كل رحلة يقوم بها التاجر على أمان شخصي وتصريح بالتنقل *sauf-conduit*، وهو أمر كان يطبق أيضاً على التجار القادمين من شمال إفريقيا، الأمر الذي تؤكد مجموعة من الوثائق البندقية بخصوص السفن القادمة من المغرب Berbérie منذ 1438م، حيث تشير إحدى هذه الوثائق إلى إلزام أحد التجار اليهود القادمين من بجاية متوجهاً إلى مرسيليا بأداء رسوم بقيمة 2 tomini مقابل الحصول على تصريح التنقل، وهي الوثيقة التي كانت تسلم للتجار قبل نزولهم من السفينة، وفي بعض الأحيان قبل إبحارها.

Dominique VALÉRIAN, Les élites politiques et l'activité économique des ports maghrébins (XIIe -XVe siècle), in Rev. Histoire urbaine, n° 19, 2007/2, p. 124.

التي كانوا يمنحونها إياهم⁷⁵³، وهو الأمر الذي يتفق مع ما ذهب إليه ابن خلدون حين تحدث عن تجارة السلطان، ويؤكد أن النخب الحاكمة ومن يدور في فلكها كانا أكبر المستفيدين من مداخل احتكار بعض أنواع التجارة والضرائب والرسوم، وهو ما أسهم في ندرة انتقال التجار المغاربة إلى الضفة الشمالية للمتوسط، وهو مما فاقمه كراهة الفقهاء لانتقال التجار إلى "دار الحرب"، وضعف الأسطول التجاري المغربي وغياب آليات تأمين الملاحة التجارية،⁷⁵⁴ بالإضافة إلى ندرة الفنادق الإسلامية خاصة في الغرب المسيحي، حيث ظلت التجارة مع الخارج مجرد محاولات فردية من قبل بعض التجار والمغامرين الذي توجب عليهم تجاوز الحواجز الدينية والنفسية والسياسية والثقافية⁷⁵⁵ التي كان يجب أن يواجهها التاجر المغربي بمجرد أن تطأ قدماه دار الكفر من أجل العيش والتأقلم والمتاجرة⁷⁵⁶. وجعلت ندرة التجار المغاربة في الخارج، معظم الاتفاقيات الموقعة مع الممالك والمدن المسيحية تُغيب قاعدة المعاملة بالمثل وتتضمن بنوداً وامتيازات مقصورة على التجار الأجانب.

لقد ساعد هذا الوضع المختل الممالك المسيحية على مراكمة الأرباح والامتيازات والسيطرة تدريجياً على طرق الملاحة التجارية في حوض البحر المتوسط، مقابل انكماش التجارة المغربية نحو الداخل⁷⁵⁷، وذلك على الرغم من استمرار حضور مظاهر القوة العسكرية والسياسية إلى غاية انهيار الدولة المرينية. لقد أسهم هذا التحول الذي طرأ على البنى والتنظيمات الاقتصادية في رسم ملامح جديدة للسياسة الخارجية للدول المتعاقبة على حكم المغرب خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط، وفرض عليها نبذ السياسات القديمة القائمة على اعتبارات دينية كمحدد رئيسي لتدبير العلاقات الخارجية، واكتساب تدريجي لتقاليد براغماتية جديدة تقوم على المصالح الخاصة وتعتمد على القنوات الدبلوماسية من أجل تصريحها،⁷⁵⁸ وهو الأمر الذي سرع من وتيرته الربح الذي أضحي يحققه الخلفاء والسلاطين من التجارة والذي حفزهم على ربط علاقات دبلوماسية مع أعدائهم بغرض حماية التجار والتجارة وضمان تدفق المداخل المالية عليهم، سواء كانت على شكل رسوم أو ضرائب أو غيرها. والملاحظ أن النصوص

⁷⁵³ VALÉRIAN, op.cit, p.125.

⁷⁵⁴ كونستابل، م.س.، ص 470.

⁷⁵⁵ نظن أن عزوف التجار المسلمين عن خوض غمار التجارة في الأسواق الأوروبية يرتبط أساساً بالمرور الثقافي والديني الذي عمل بشكل كبير في الحد من توافد التجار على دار الكفر أو دار الحرب، ناهيك عن رغبة التجار المسلمين في تلافي خوض غمار البحر أو المغامرة بالتجارة في بلاد الكفر لما في ذلك من مخاطر عظيمة على النفس والمال.

⁷⁵⁶ Zaki M'BAREK, le Maroc et la méditerranée, études et histoire, institut universitaire de la recherche scientifique, université mohammed V, Souissi Rabat, 2003, p. 64.

⁷⁵⁷ القيرواني، م.س.، ص 326.

⁷⁵⁸ أحمد عزوي، مختصر تاريخ الغرب الإسلامي، القرون الإسلامية الأولى، ربات، 2007، الرباط، ج 1، ص 125.

العربية لم تتحدث بشكل كاف عن التجارة مع الأوروبيين حيث لم ترد المعلومات المتعلقة بالأنشطة الاقتصادية إلا عرضاً في سياق التعرض لبعض الحوادث السياسية، أو رحلات الحج وما شابه ذلك،⁷⁵⁹ وهو إعراض مرده كذلك إلى عدم رغبة الإخباريين المسلمين التعرض لموضوع التجارة مع النصارى لأنه يدخل في خانة المواضيع المسكوت عنها، وكذلك لتجنب الإشارة إلى النخب السياسية التي كانت تتعاطى أو تستفيد من التجارة مع النصارى حتى لا تهتز صورتهم لدى العامة والخاصة. هذا الإعراض يوازيه تعاطي المصادر اللاتينية بتجرد مع التجارة والتجار المسلمين، حيث أبرزت إسهام هذه النخب في التجارة مع النصارى، من خلال إيراد معطيات تتعلق بمجموعة من العقود التجارية التي تضمنت أسماء وصفات أطرافها، وإيراد رسائل الاحتجاج والتظلم التي تضمنت أسماء عدد من التجار والنخب السياسية، خاصة تلك المتعلقة بالمنازعات التجارية والقرصنة.⁷⁶⁰

لقد سعت مختلف الدول المتعاقبة على حكم المغرب خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط إلى الحفاظ على العلاقات التجارية الخارجية لما توفره من موارد مالية قارة كانت تعوض الخسائر الناجمة عن تراجع التجارة العابرة لصحراء، حيث سعت معظم الدول المغربية إلى السيطرة على المدن المراسي وعقد مجموعة من الاتفاقيات التي التزمت خلالها بتقديم عدة خدمات للتجار الأجانب مقابل أداء الرسوم والضرائب للسلطات المحلية.⁷⁶¹

أسهمت التجارة بشكل كبير في تطور العلاقات الدبلوماسية وآليات عملها، خاصة في المدن التجارية الإيطالية كبيزة والبندقية وجنوة وغيرها، التي أضحت تولي اهتماما كبيرا لمسألة تكوين المبعوثين الدبلوماسيين عن طريق إنشاء مدارس متخصصة في تطوير قدرات المرشحين للسفارة في عدة تخصصات، كاللغات، وكتابة التقارير. كما سعت هذه المدن إلى إنشاء نظام تمثيل قنصلي استند إلى شبكة من الفنادق التي أقيمت بأهم المدن المتوسطية، وهي التوجهات التي أسهمت في انتقال العمل الدبلوماسي من الهواية إلى الاحتراف والسفارة من المأمورية إلى الإقامة ابتداء من أواخر القرن 15م، وهو التطور الذي قابله ركود العمل الدبلوماسي المغربي الذي ظل رهينة إرادة الملوك والسلطين وطرائق العمل الوسيطة، فظلت الدبلوماسية المغربية خلال هذه الفترات وما تلاها هاوية وظرفية، تملها الحاجة الآنية وتنقضي بأداء مهامها، وهو ما لم يساعد على التحول الوظيفي كما لم يسهم في بروز مؤسسات دبلوماسية

⁷⁵⁹ VALÉRIAN, op.cit, p. 118.

⁷⁶⁰ Ibid, op.cit, p.119.

⁷⁶¹ Ibid, p. 128.

مغربية. ويمكن سحب هذا الأمر على معظم الممالك المسيحية خلال هذه الفترة كقشتالة وأراغون وفرنسا وإنجلترا، حيث لم يتطور فيها العمل الدبلوماسي إلا في فترات متأخرة من القرن السادس عشر.

وإلى جانب المحدد التجاري، كان للمحدد الديني دور رئيسي في رسم معالم العمل الدبلوماسي الوسيطى سواء في الغرب الإسلامي أو الغرب الأوروبي، من خلال مجموعة من المفاهيم والتوجيهات التي كان على المشتغلين في هذا الحقل الانضباط لها، أو تطويع بعضها تماشياً مع الحاجة لخلق قنوات للتواصل.

2.3 المحدد الديني

تحدث عدد كبير من الفقهاء والكتاب والمؤرخين الوسيطيين عن السفارة والعمل الدبلوماسي، ومن خلال حديثهم وضعوا مجموعة من الضوابط التي تتعلق باختيار السفراء وامتيازاتهم وطرائق الكتابة الدبلوماسية ومخاطبة الأجانب وأنواع السفارات، التي سبق وأن تعرضنا لبعضها، حيث استندوا في كتاباتهم إلى قواعد مستوحاة من الكتاب والسنة، وعقدوا لذلك في كتب الحديث والسير والأحكام السلطانية فصولاً مطولة⁷⁶²، وهو الأمر الذي كان له أثر بالغ في العمل الدبلوماسي المغربي الوسيطى، الذي تأثر بالمؤثرات الفقهية التي قسمت العالم إلى دار إسلام⁷⁶³ ودار حرب ودار عهد ودار كفر. وبالرجوع إلى السياق السياسي والاقتصادي الذي أفرز هذا التقسيم، نخلص إلى أنه أسس على فرضية استمرار سطوة الدول الإسلامية على ما سواها من الدول "الكافرة"، ولم يأخذ بالحسبان الانقلاب الذي قد يقع في موازين القوة، والذي قد يدفع بالدولة الإسلامية إلى البحث عن سبل أخرى لتجاوز ضعفها.

وعموماً لا تقرر الشريعة الإسلامية في الأصل الدول الكافرة، ولا تعترف لها بالشرعية إلا في حالات استثنائية، وهو ما كان له دور في بقاء تطور الدبلوماسية الوسيطية لدى الدول المتعاقبة على حكم المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط، حيث أنه على الرغم من تعدد المدارس الفقهية التي اعتمدت كأساس إيديولوجي لكل دولة، كالْمذهب المالكي، والعقيدة التومرتية والعقيدة الأشعرية، ناهيك عن المؤثرات الشيعية وغيرها، إلا أننا الأصل في التعامل مع دار الحرب ظل واحداً، حيث لم تكن تعترف هذه الدول بالكيانات السياسية الكافرة التي كانت في نظرها قائمة على أساس باطل، وهو الأمر الذي جعل الأصل في العلاقات بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول هو الحرب، فكانت الدولة الإسلامية

⁷⁶² حسن السائح، في الدبلوماسية المغربية، مجلة الثقافة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1973، ج 9، ص 43.

⁷⁶³ "دار الإسلام اسم للموضع الذي يكون تحت يد المسلمين وعلمة ذلك أن يأمن فيها المسلمون"؛ السرخسي، م.س.، ج 4، ص 1245.

الوسيطية ملزمة بإخضاع الدول الكافرة للحكم الإسلامي ولو بالقوة، لأن الجنوح للسلم لا يكون إلا في حالة الضعف وقلة عدد المسلمين وكثرة عدوهم، وهي القاعدة التي حاول بعض الفقهاء نفياً، مؤكدين أن الأصل في هذه العلاقات هو السلم، وأن الحرب مبررها الوحيد هو منع الفتنة بين المسلمين ودفع العدوان عنهم⁷⁶⁴.

وعلى الرغم من عدم اعترافهم بشرعية العلاقات بالدول الكافرة، فقد أقامت الدول المتعاقبة على حكم المغرب خلال الفترة الوسيطية علاقات مع عدد من الكيانات السياسية في دار الحرب، سعت لتبريرها شرعاً بالاستناد إلى مجموعة من النصوص القرآنية والحديثية، أوكلت مهمة تفسيرها وتأويلها إلى الفقهاء والمفسرين الذين صاغوا في مؤلفاتهم مجموعة من الضوابط المؤطرة للعلاقات الدبلوماسية مع دار الكفر، كالدعوة للدين الإسلامي أو لحاجة المسلمين إلى التجارة أو افتكاك الأسرى أو غيرها من الضوابط التي سوف نعرض لها في الفقرات المقبلة، كما وضعت بالمقابل ضوابط للتعامل بين الدول الإسلامية بعد انفراط عقد دولة الخلافة وتعدد الكيانات السياسية المسلمة.

إن التغير الذي طال السياق السياسي وتوازن القوى جعل فقهاء السياسة المسلمين يوسعون مفهوم دار الكفر إلى دار العهد؛ وهكذا كانت السلطات الإسلامية تمنح "العهد" أو "الأمان"⁷⁶⁵ لغير المسلمين خاصة المسيحيين منهم الذين يسافرون إلى دار الإسلام، مما أدى إلى تسهيل وتطور العلاقات التجارية والدبلوماسية ما بين الدول الإسلامية والدول المسيحية، وشجع على استقرار المسيحيين بالعالم الإسلامي لما كانوا يتمتعون به من حماية باعتبارهم "معاهدين".

غير أن الملاحظة الأساسية التي يمكن إبدائها في هذا الصدد هو أن مقابل "قانون الأمان" الذي كان يمنحه المسلمون للمسيحيين الأوروبيين، لم يكن يوجد "قانون أمان" بالنسبة للمسلمين الذين كانوا يسافرون أو يقيمون في أوروبا، بمعنى آخر أن حياتهم كانت معرضة للخطر في أي لحظة، ولعل السبب يكمن في اعتبار العالم المسيحي نفسه نظاماً سياسياً دينياً معادياً للإسلام ورافضاً لأي توسع لهذا الأخير، ولهذا تحولت أوروبا في كتابات المسلمين إلى عدو مركزي من دون منازع، كما شكلت حالة الصراع والحرب بين المغرب (دار الإسلام) وأوروبا (دار الحرب) حاجزاً سياسياً وعسكرياً وأيضاً نفسياً حال دون إمكانية انتقال واستقرار المسلمين بتلك الديار.

⁷⁶⁴ محمد أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، دار الفكر العربي، مصر، 1995، ص 47.

⁷⁶⁵ وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه، دار الفكر، دمشق، ط 3، 1998، ص 296.

وفي هذه الظروف تكونت العلاقات الدبلوماسية المغربية الأوروبية، حيث تضاعفت الاتصالات خلال القرون المتأخرة من العصر الوسيط، بعد أن أخذت أوروبا تولي الدبلوماسية مكانة متميزة باعتبارها أداة توغل واختراق، وكان السفراء الأوروبيون يأتون إلى المغرب بهدف توقيع معاهدات تجارية أو افتكاك الأسرى غالباً، وهي المعاهدات التي مهدت لتوافد عدد كبير من الأوروبيين على ديار الإسلام ومكنت من تجاوز دائرة الصراع بين دار الكفر ودار الإسلام وحدود العلاقة التي رسمتها مختلف المدارس الفقهية.

وفي هذا السياق لابد من الإشارة إلى أن بعض السفراء مكثوا لمدة طويلة في بلاد المغرب والأندلس استطاعوا خلالها أن يجمعوا أخباراً كثيرة عن البلاد في المجال السياسي والاقتصادي والعسكري، مكنت عدداً من الدول المتربصة بالمغرب من التوفر على معلومات ومعطيات غاية في الأهمية وظفتها فيما بعد لخدمة مصالحها. وهو الأمر الذي يؤكد أن الوظيفة الدبلوماسية في العصر الوسيط كانت تشمل بالإضافة إلى أدوارها السالفة الذكر مهمة التجسس و جمع الأخبار والمعلومات، وهي الأدوار التي ساهمت في اتخاذ السفارات تدريجياً شكلاً مؤسسياً خاصة سفارات بعض المدن الإيطالية، وذلك لضمان استمرار تزويدها بالمعطيات السياسية والاقتصادية، والسهل على رعاية مصالحها ومصالح رعاياها.

وفي مقابل ذلك، ظل المغرب حبيس ثقافته المنغلقة التي تعتبر السفر إلى بلاد الكفار حراماً أو على الأقل مكروهاً يستحسن تجنبه، وهو ما يفسر قلة البعثات السفارية الموجهة إلى أوروبا الغربية مقارنة مع نظيرتها التي توافدت على المغرب خلال الفترة ذاتها، وقصر مدة مقامها مقارنة مع ما كان يقضيه السفراء الأوروبيون بالمغرب، وهو الأمر الذي يعكس سوء تقدير لدور البعثات الدبلوماسية من قبل الدول المتعاقبة على حكم المغرب التي لم تهتم بتعيين سفراء دائمين حيث كانت ترسل بعثات لفترات قصيرة جداً وفي مهام مضبوطة ومحددة سلفاً، وكان من الضروري عند إرسال أي بعثة سفارية تبرير ذلك شرعاً، فالسفارة لا بد أن تكون من أجل مصلحة اقتضتها ضرورة الحفاظ على مكانة دار الإسلام وهيبته. هذا، في حين اعتمدت الدول الأوروبية سفارات دائمة منذ أواسط القرن الخامس عشر جاعلة من العالم الإسلامي إحدى مجالات تركزها بما في ذلك المغرب. ولم يساعد هذا السياق السفراء المغاربة على استيعاب التطورات والمستحدثات الضخمة التي كانت أوروبا مسرحاً لها خلال هذه الفترة، ولم يساعد كذلك الدبلوماسية المغربية على فهم التحولات التي كان يشهدها حوض المتوسط، وما يتبع ذلك من ضرورة الانفتاح على الآخر والعمل أكثر على فهمه.

بالموازاة مع الضوابط التي وضعها كتب الفقه والتفسير لإقامة علاقات دبلوماسية مع دار الكفر، وضعت أيضاً مجموعة من القواعد الفقهية لصياغة المعاهدات والأوفاق مع أهل الحرب، كإمكانية الموافقة على معاهدة الهدنة المؤقتة مقابل تعويض أو من دونه فقد قبل الفقهاء بمبدأ إجابة دعوة الكفار إلى السلم دون الدعوة إليه، حيث يقول ابن قدامة :

"يعقد لأهل الحرب عقدا على ترك القتال مدة بعوض وبغير عوض تسمى موادة ومعاهدة"⁷⁶⁶

استناداً لقوله تعالى "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ"⁷⁶⁷، وقوله تعالى " فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَغْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ"⁷⁶⁸، وكذلك قوله تعالى "إِنَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَوْدَعُوا إِيَّاهُمْ وَبَدَّلُوا الْعَهْدَ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ"⁷⁶⁹، كما أوجب الفقهاء ضرورة اقتران مصلحة المسلمين العامة بموضوع المعاهدة، خاصة إذا ظهر الضعف والوهن منهم وخيف الغلبة من أهل الحرب.

وإلى ذلك حصر الفقهاء توقيع المعاهدة في الإمام أو من ينوب عنه، وفي هذه الحالة قد يكون سفيراً أو رسولاً، ويقول ابن قدامة في هذا السياق :

" لا يجوز عقد هدنة إلا من الإمام أو نائبه لأنه عقد مع جملة الكفار وليس ذلك لغيره"⁷⁷⁰

ومن جهة أخرى، أوجبت المنظومة الفقهية تحديد مدة المعاهدات، أسوة بالرسول صلى الله عليه وسلم، الذي عقد صلحا مؤقتا مدته عشر سنوات، في حين حرمت المعاهدات الدائمة، بحجة أنها تعطيل للجهاد، هو أمر اختلف فيه عدد من الفقهاء.

والجدير بالملاحظة أن الاتفاقيات الثنائية التي أبرمها المغرب مع غيره لم تتقيد في معظمها بمسألة الزمن، وهكذا نجد من الاتفاقيات ما يحدد بعشر سنوات، ومنها ما يكون طوال حياة الملك، وفيها المؤبد وفيها ما يحدد بربع قرن، على أن في الاتفاقيات ما يكون لمدة قصيرة حسب الظروف⁷⁷¹.

⁷⁶⁶ ابن قدامة، م.س.، ج 10، ص 520.

⁷⁶⁷ سورة الأنفال، الآية 61.

⁷⁶⁸ سورة محمد، الآية 35.

⁷⁶⁹ سورة التوبة، الآية 4-6.

⁷⁷⁰ ابن قدامة، م.س.، ج 10، ص 520.

⁷⁷¹ انظر جدول السفارات الوافدة والموفدة على المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط.

إلى جانب تأثير العقيدة في العلاقات بين المغرب ومختلف الممالك والدول المسيحية في غرب أوروبا، كان للعقيدة أيضاً دور كبير في رسم ملامح العلاقات الدبلوماسية المرابطية والموحدية مع الخلافة العباسية في المشرق، حيث قبلت الأولى بالاستناد إلى الاجتهادات الفقهية المالكية التبعية الاسمية للسلطة المركزية في بغداد، وهو ما دفع إلى التمييز المبكر بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية، فاعترفوا للخلافة العباسية السنية بالولاء، ثم تخلوا للمتعاونين معهم من بين فقهاء المالكية عن الأحكام كلياً كما أشركوهم ضمناً في القرار عن طريق المشورة الدائمة والاستفتاء؛ وفي مقابل قبول المرابطين بالخضوع الشكلي للعباسيين، نجد أن الدولة الموحدية قد بادرت إلى وضع الحكم على أساس آخر بحكم استناده إلى مرجعية الإمام المعصوم الجامع بين مختلف السلطات، وبالتالي فإن النظام يعتبر نفسه نظام خلافة مستقلة عن غيرها إن لم يكن يعتقد أنه مقر الخلافة الحق⁷⁷²؛ وهو ما أسس لوجود خلافتين متنافستين مستقلتين عن بعضهما في دار الإسلام، كل واحدة تستند إلى منظومة فقهية متشعبة، لإضفاء الشرعية على إمساكها بمقاليد الحكم، وهو الأمر الذي كان له دور كبير في توجيه دبلوماسية الدولة الموحدية إلى العمل على إثبات استقلال الموحدين عقائدياً وسياسياً عن بغداد، وشجعها على نسج علاقات مباشرة مع مختلف القوى الأوروبية دون استمداد الشرعية من خلافة المشرق كما فعل المرابطون.

لقد فرض هذا الواقع الجديد على الدول المتعاقبة على حكم المغرب في العصر الوسيط ضرورة صياغة مواقف دبلوماسية واضحة تؤطر علاقاتها بالشرق وغرب أوروبا دون الاصطدام بالمنظومة الفقهية، التي تعد بمثابة الخلفية الأيديولوجية التي توجه استراتيجياتهم السياسية وتضفي الشرعية على سلطانهم. وعلى الرغم من ذلك بقيت الدبلوماسية المغربية ولقرون رهينة بالبنية الثقافية والفكرية للفقهاء والسلطين، كما أنها ظلت مرتبطة بمدى حاجة هذه الدول إلى أوروبا، والتي على الرغم من تعاظم الحاجة إليها في القرون المتأخرة للعصر الوسيط إلا أن التفكير لم يمتد إلى تطوير آليات عملها ومأسستها كما تم الأمر مع الحجابة والقضاء والوزارة.

يقودنا الحديث عن العمل المؤسسي إلى دراسة مؤسسة الفندق التي كان لها خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط أدوار دبلوماسية رائدة إلى جانب دورها التجاري، وهي المؤسسة التي اعتبرها عدد من المؤرخين إحدى أهم آليات انتقال الدبلوماسية من الهواية إلى الاحتراف. وسنحاول خلال الفقرات

⁷⁷² محمد القبلي، م.س.، ص 21.

التالية تعريف هذه المؤسسة تعريفاً وظيفياً، قبل أن نبرز خصائصها وأدوارها في العمل الدبلوماسي، من دون إغفال الحديث عن الوظيفة القنصلية التي تعد نواة العمل السفاري القار والدائم.

3.3 البعد الدبلوماسي لمؤسسة الفندق

اشتق مصطلح فندق⁷⁷³ من مصطلحي فنداكو Fundaco و فندوكيوم Fundocum اللاتينيين⁷⁷⁴، وهي مؤسسة تمثيلية وجدت في معظم المدن الإسلامية المتوسطة⁷⁷⁵، حيث اختصت كل بلاد أو جماعة بفندق،⁷⁷⁶ فكان للبيزيين فنادقهم، كما كان للبندقيين والمرسيليين والجنوبيين واليهود وغيرهم فنادقهم الخاصة⁷⁷⁷، في حين كان من النادر وجود فنادق خاصة بالمسلمين في الديار الأوروبية. وبالمقابل كانت الفنادق المرصودة للتجار المسلمين داخل المدن الإسلامية المتوسطة تعد بالمئات، حيث كان عدد منها يُحبس على المساجد كالفندق الكبير بالشماعين بمدينة فاس الذي أوقف على جامع القرويين، حيث اعتمدت مداخله لتمويل توسعته خلال الفترة المرينية، كما اعتمدت لتأدية أجور القائمين عليه، وبلغ مجموع غلات الأوقاف المحبسة على الجامع في عهد السلطان أبي يعقوب المريني 10.000 دينار سنوياً. والجدير بالذكر أن السلطان أبي يعقوب هو من أمر بإصلاح فندق الشماعين الذي أصابه الخراب، كما أمر بتحبيسه على الجامع⁷⁷⁸.

وتستعمل المصادر العربية مصطلح فندق للتعبير عن مقر إقامة التجار المسيحيين، وهو المصطلح عينه المعتمد في الوثائق اللاتينية، لكن لا يجب أن يُفهم من هذا المصطلح أنه يعني الفندق بمفهومه المتداول اليوم، بل يشير إلى حي كبير أو مدينة صغيرة تقع بجوار المدينة المغربية أي في ربضها.⁷⁷⁹

⁷⁷³ في الموروث الثقافي الشعبي المغربي خاصة في المدن العتيقة كفاس يستعمل مصطلح الفندق للإشارة إلى البيوت المستباحة، أوكار الدعارة ومعاقرة الخمر، الفوضى والضجيج، كما يستعمل مصطلح الهندقا الإسباني للدلالة على الجلبة والضجيج؛ ولا يزال هذان المصطلحان متداولان في الخطاب الدارج إلى اليوم؛ رواية شفوية، 9 يناير 2020.

⁷⁷⁴ كونستابل، م.س.، ص 166.

⁷⁷⁵ نفس المرجع والصفحة.

⁷⁷⁶ نفسه، ص 167.

⁷⁷⁷ فندق اليهودي بفاس خصص لاستقبال التجار اليهود؛ نفسه، ص 164.

⁷⁷⁸ علي الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط 2، الرباط، 1991، ص 79؛ انظر كونستابل، م.س.، ص 130.

⁷⁷⁹ إبراهيم القادري بوتشيش، تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1994، ص 95.

وعموماً، كانت الفنادق الأوروبية بالمغرب، خاصة بمدينة سبتة، تنتظم على شكل أحياء شبه معزولة خارج أسوارها، فمنها الحي الجنوبي والحي المرسيلي والحي البيزي وغيرها، كما شملت هذه الأحياء إلى جانب الفنادق مجموعة من المرافق العامة كالمخابز ودور التوثيق ودور العبادة التي لم تكن ترقى إلى مستوى الكنيسة، بل كانت مجرد فضاء معد للعبادة يسكنه بعض القساوسة⁷⁸⁰. كان وجود الأحياء الفندقية خارج أسوار المدينة يجعلها عرضةً لعدد من المخاطر، أبرزها التعرض للاعتداء والنهب، كالهجوم الذي شنته القبائل المجاورة لسبتة سنة 1234م، والذي سبقت الإشارة إليه عند حديثنا عن الأمن السفاري.

وضمت مدينة سبتة خلال الفترة المرينية أكثر من 360 فندقاً منها سبعة خاصة بالأجانب محاطة بسور، بالقرب منها تقع إدارة الديوان المخصص لمراقبة المعاملات التجارية وتحصيل الرسوم، وكان أعظم الفنادق الثلاثمائة والستون بناءً وأوسعها ساحة الفندق الكبير المعد لاختزان الزرع، يليه في الكبر من الفنادق المعدة لسكنى الناس من التجار وغيرهم المعروف فندق "غانم" الذي يشتمل على ثلاث طبقات وثمانين بيتاً وتسع مصريات؛ وهو قديم البناء سجل محمد بن القاسم الأنصاري السبتي أنه يعود إلى عهد المرابطين، وكان أبدعها صنعة فندق الوهراني الذي جمع بين صنائع الجص والنجارة، وعلى بابه وضع عقاب غريب الشكل مفقود النظير. وجملة من هذه الفنادق مشتملة على العديد من سوازي الرخام وأعمدته.⁷⁸¹

لقد كانت الغاية من إقامة الفنادق هي تأمين مجموعة من الخدمات للتجار الأوروبيين، وهو الأمر الذي سمحت به السلطات المغربية خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط، كما سمحت بتطوير هذه الخدمات وشغل أدوار جديدة تماشياً مع تطور العلاقات التجارية بين أوروبا والمغرب وتطور العائد الجبائي المتحصل عليه منها.

وكانت هذه الفنادق موضوع عدد من الاتفاقيات الدبلوماسية، حيث فاوضت معظم المدن التجارية ودول جنوب أوروبا من أجل معاهدات مستقلة وذات امتيازات مع الدول المتعاقبة على حكم

⁷⁸⁰ كونستابل، م.س.، ص 168.

⁷⁸¹ محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط 2، الرباط، 1983، صص 38 – 39.

المغرب خلال هذه الفترة⁷⁸²، وقد أصبح تضمين الوعد بإقامة الفندق وغيره من المنشآت أمراً مألوفاً في هذه المعاهدات وفي كل الفصول التجارية، شأنه في ذلك شأن البنود المتعلقة بالأمان والامتيازات الجبائية وغيرها⁷⁸³. وفي هذا السياق، نذكر المعاهدة التي وقعت بين بيزة والخليفة الموحي عبد المومن (1163 – 1184م) سنة 1167م، وفيها وعد بإقامة فندق باشبيلية⁷⁸⁴، كما تحدث إيمانويل شارل دوفورك Emanuel Charles DUFOURCQ عن سماح السلطات المرينية لمرسيليا⁷⁸⁵ بإقامة فندق بمدينة سبتة سنة 1236م⁷⁸⁶، وللأراغونيين بالمدينة نفسها وبمنطقة ALCUDIA سنتي 1356م و 1359م⁷⁸⁷.

وكان للفندق وظائف متعددة، أهمها وظيفة الإيواء، حيث كان يضم مجموعة من الغرف المخصصة لإيواء القناصل والمبعوثين والتجار ودوابهم⁷⁸⁸، كما كانت له وظيفة تجارية تتمثل في تخزين السلع ومراقبة الأنشطة التجارية والبريد وتوثيق⁷⁸⁹ العقود التجارية، ووظيفة جبائية تتمثل في جمع الضرائب والرسوم لفائدة السلطات المحلية.⁷⁹¹ كما كانت للفنادق بعض الوظائف الدينية، حيث ضم عدد منها دوراً للعبادة خاصة بالمسيحيين. وفي المقابل، سهرت الفنادق على توفير بعض الخدمات الخاصة، حيث سُمح للتجار المسيحيين بمعاقرة الخمر في بعضها، وفي البعض الآخر تم التغاضي عن أنشطة القمار والدعارة. والجدير بالذكر أنه كان يمنع في الحانات التي الموجودة في الفنادق بيع الخمر للمسلمين، فعلى سبيل المثال كانت القوانين البلدية المرسلية منذ 1228م تمنع المشرف على تدبير الفندق من بيع الخمر للمسلمين في مدن تونس وبجاية وسبتة ووهران.⁷⁹² غير أنه هذا الواقع لم يكن هو حال معظم الفنادق، حيث كان ينظر لبعضها خاصة فنادق المسلمين كمكان محترم للإقامة،⁷⁹³ كالفنادق التي

⁷⁸² كونستابل، م.س.، ص 172.

⁷⁸³ نفسه، ص 174.

⁷⁸⁴ نفسه، ص 195.

⁷⁸⁵ كونستابل، م.س.، ص 196.

⁷⁸⁶ DE MAS LATRIE, op.cit, T 1, p. 167.

⁷⁸⁷ DUFOURCQ, la question de Ceuta au XII siècle, op.cit, p. 72.

⁷⁸⁹ لم يكن الفندق يتوفر على فضاء لإتمام المعاملات التجارية، حيث كانت بعض العقود الموثقة تبرم في غرف الإقامة التي كان يشير إليها الموثقين ب CASA في حين كانت أغلب المعاملات تتم بين تجار مختلف الجاليات المسيحية وفي حالات نادرة مع تجار مسلمين في الفناء الذي يتوسط الفندق حيث كانت تتكدس البضائع وتضيق الحركة؛

VALERIEN, op.cit, p.443.

⁷⁹⁰ كونستابل، م.س.، ص 217.

⁷⁹¹ نفسه، ص 218.

⁷⁹² DE MAS-LATRIE, op.cit, T 1, p. 89.

⁷⁹³ كونستابل، م.س.، ص 473.

خصصت للتجار المسلمين في مملكة أراغون منذ عهد الملك خاييمي الأول في القرن 13 م وبلنسية خلال القرنين 14 و 15 ميلاديين⁷⁹⁴، وغرناطة ابتداء من سنة 1498 م وهي الفنادق التي كانت تعرف "بالهندقا".⁷⁹⁵

وإلى جانب الوظائف السالفة الذكر، كان الفندق يتحول في أحيان كثيرة وبأمر من السلطات المحلية إلى سجن إذا ما تعلق الأمر بالحبس المؤقت لبعض الغرباء إلى حين التأكد من هويتهم، أو حبس بعض المتشردين. وفي هذا السياق ينصح ابن عبدون في رسالته عن الحسبة في بداية القرن 7 هـ / 13 م بإشبيلية، أنه يتوجب إيقاف الغرباء الذين يعثر عليهم وهم يتسكعون ليلا في المدينة وتقديمهم للسلطات في الصباح، حيث يمكن الاحتفاظ بهم⁷⁹⁶. كما جعل مهمة الإشراف على الفنادق حكرا على الرجال حيث قال :

" لا يكون متقبّل فنادق التجار والغرباء امرأة فذلك عين الزنى".⁷⁹⁷

وفي المقابل كان يعهد بتسيير الفنادق المسيحية لمشرفين مسيحيين، كان يوجد تحت إمرتهم عدد من الموظفين الدائمين منهم إداريون ورجال دين وكتاب عدول ومحاسبون وخبازون وخدم⁷⁹⁸.

وكان الفندق بمثابة ثغر مسيحي لا يلجئه المسلمون على الرغم من أنهم غير ممنوعين قانونياً من دخوله، كما كان من حق المشرف على الفندق مراقبة الداخلين إليه⁷⁹⁹، وهو الحق الذي تساهلت بشأنه المعاهدات، حيث سمح للمشرفين بالترخيص أو رفض ولوج الأجانب وإقامتهم في الفندق⁸⁰⁰، وهو ما شجع بعض الجاليات المسيحية على وضع قواعدها وأنظمتها الخاصة التي صيغت دون تدخل البلدان أو المدن المحتضنة⁸⁰¹.

⁷⁹⁴ نفسه، ص 471.

⁷⁹⁵ نفسه، ص 472.

⁷⁹⁶ نفسه، ص 145.

⁷⁹⁷ نفسه، ص 49؛ وقد اطلعنا على كتاب ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1955.

⁷⁹⁸ كونستابل، م.س.، ص 202.

⁷⁹⁹ انظر الفصل 17، معاهدة البندقية - تونس لسنة 1231؛

DE MAS LATRI, op.cit, T 1, pp. 196 - 199.

⁸⁰⁰ يحق للمشرفين على أبواب الفندق منع دخول المسلمين أو أي شخص دون موافقة القنصل وبقية التجار"، الفصل 4، معاهدة 1397 م بين تونس وبيزة؛

Ibid, pp. 70-87.

⁸⁰¹ VALERIAN, op.cit, p.442.

وظل وجود التجار الأجانب خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط منحصراً في المدن الساحلية التي كانت تتوفر على فنادق، حيث كانوا يقيمون لمدة طويلة قد تصل لعدة سنوات. وتجدر الإشارة إلى أن بعض المعاهدات كانت تفرض قيوداً صارمة على إقامة التجار الغربيين. وعلى سبيل المثال المعاهدات الموقعة مع الموحدين، التي لم تكن تسمح برسو السفن التجارية وبنزول التجار الأجانب سوى بعدد محدود من الموانئ. وفي سنة 1186م لم يسمح للبيزنيين بالرسو والمتاجرة سوى في مدن سبتة، وهران وبجاية وتونس وألمرية، مع استثناء الحالات الطارئة كالجنوح أو لضرورة قصوى كالتزود بالمؤونة والماء⁸⁰². غير أنه كان يتم خرق ذلك في المعاهدات اللاحقة، وقد جرت العادة في الفترة الوسيطة أن لا يتردد التجار الغربيون سوى على المراسي والمدن الساحلية، وفي بعض الحالات الاستثنائية على بعض المدن الداخلية⁸⁰³.

ومع تعاظم الوجود الأجنبي وتوقيع السلطات المغربية لعدد من الاتفاقيات المتعلقة بوجود الجاليات المسيحية بالمغرب كالاتفاقية التي وقعت بين المأمون الموحي والملك فيرديناند سنة 1228م⁸⁰⁴، تمكن التجار الأجانب من الحصول على امتيازات جديدة كالترخيص لهم بتأسيس أبرشية بمدينة سبتة سنة 1225م⁸⁰⁵، والحصول على الحق في ارتياد حمامات المسلمين مرة كل أسبوع⁸⁰⁶، وهو البند الذي اعتمد ابتداء من سنة 1188م⁸⁰⁷.

وجدير بالذكر في هذا السياق، أن الأهمية الدبلوماسية والتجارية لمدينة سبتة خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط خاصة في القرن 7هـ / 13م⁸⁰⁸، جعلها محط أطماع عدد من الممالك والمدن

⁸⁰² D MAS LATRIE, op.cit, T 1, pp. 28-30.

⁸⁰³ VALERIAN, op.cit, p. 442.

⁸⁰⁴ DUFOURCQ, La question de Ceuta, op.cit, p. 77.

⁸⁰⁵ كان من بين أدوار هذه الأبرشية إرسال البعثات التنصيرية إلى العمق المغربي، كان مصير عدد منها الفشل، كما حدث مع البعثة التي أرسلت سنة 1227م التي كان مصيرها أفرادها القتل، حيث دفن الرهبان الفرنسيين الإيطاليين السبعة بالحي البندقي بمدينة سبتة. وفي سنة 1260م تم إنشاء أبرشية بالمدينة من قبل l'Archevêque de Tolède بأمر من ملك قشتالة، وكلف للقيام بأمرها الراهب الفرنسي سكاني لورينزو دي برتغال LORENZO de Portugal.

DUFOURCQ, La question de Ceuta, op.cit, p. 77.

⁸⁰⁶ VALERIAN, op.cit, p. 443 ص

⁸⁰⁷ تم توقيع معاهدة بين جنوة وأمير ميورقة نص فصلها السادس على الفصل في الحمام بين الأجانب والمسلمين، وبين الأجانب أنفسهم؛

DE MAS-LATRIE, op.cit, T 1, pp. 113-115 ; Voir aussi, VALERIAN, op.cit, p. 451.

⁸⁰⁸ من بين الإشكاليات التي تعترض الدارسين لهذه المدن المينائية المغربية ولمجتمعاتها ونخبها هي قلة المصادر التي تطرقت لها، سواء تعلق الأمر بالوثائق الرسمية، أو كتب الرحلات أو غيرها، فقلة من هذه المصادر تطرقت للنخب التجارية خاصة إسهام الحكام في التجارة في الفترات المتأخرة من العصر الوسيط؛

الأوروبية، كما أغرت أهميتها الجيوستراتيجية حكامها في فترات ضعف السلطة المركزية بالاستقلال، كما كانت هذه الأهمية وراء استقطاب عدد كبير من التجار الأوروبيين،⁸⁰⁹ حيث استقر بها تجار، وسماسرة وبحارة وقناصلة من آفاق مختلفة، كجنوة⁸¹⁰ وبيزة والبرتغال وأراغون ومرسيليا والبندقية⁸¹¹ وغيرها⁸¹².

وبعد سقوط مدينة سبتة بيد البرتغال سنة 1415م، واستبداد الاضطرابات الداخلية بالمغرب، تراجعت المكانة الاقتصادية للواجهة المتوسطية بشكل كبير، وضعفت على إثرها العلاقات التجارية مع معظم المدن التجارية المتوسطية، وهو التدهور الذي استمر على الرغم من تحول المنافذ البحرية للمغرب إلى الواجهة الأطلسية، حيث لم تستطع مراسي طنجة والعرائش وأصيلا تعويض الخسائر الناجمة عن سقوط سبتة.⁸¹³

4.3 العمل القنصلي : نواة العمل السفاري الدائم

بخصوص العمل القنصلي، الذي ارتبط بشكل وثيق بمؤسسة الفندق، فيرجع عدد من المؤرخين تداول مصطلح القنصل للفترات الرومانية وما قبل الرومانية، حيث دل في الفترة الممتدة بين 509-542 ق م على أعلى مراتب السلطة لدى الرومان Cursus honorum، وجرى اعتماد مصطلح قنصل Consul للدلالة على الاستشارة والحرص على اتخاذ التدابير الملائمة.

وفي العصور الوسطى ألحقت بلفظ القنصل معاني ودلالات جديدة، حيث شاع اعتماده في عدد من الجمهوريات الإيطالية للدلالة على مجموعة من الوظائف المرتبطة بالتجارة البحرية، في حين وظفته مدن أخرى ك Perpignan للدلالة على المشرف على التدبير الإداري المحلي.⁸¹⁴

وفي نهاية العصور الوسطى اختفت بشكل تدريجي التفرعات الوظيفية لمصطلح القنصل، واقتصر الأمر على اعتماد هذا المصطلح في المنطقة المتوسطية للدلالة على الشخص الذي يشرف تنظيمياً

VALERIAN, op.cit, p.117.

⁸⁰⁹ DUFORCQ, la question de Ceuta, op.cit, p. 69.

⁸¹⁰ احتكر تجار جنوة تجارة سبتة، وغالباً ما كانوا يتجسسون لصالح الأراغونيين والقشتاليين؛ العروي، م. س.، ص 385.

⁸¹¹ كان تجار البندقية كانوا يقصدون كل سنتين مرفأ بادس الذي كان يعتبر ميناء فاس؛ نفس المرجع والصفحة.

⁸¹² أولى المعاهدات بين المغرب وجنوة تعود إلى أواسط القرن الثاني عشر كما جرى توقيع عدد آخر من المعاهدات بين 1208 و 1223م.

DUFORCQ, La question de Ceuta, op.cit, p. 70.

⁸¹³ DE CENIVAL, op.cit, pp 457 – 458.

⁸¹⁴ Jörg Ulbert et Gérard Le Bouëdec, La fonction consulaire à l'époque moderne, L'affirmation d'une institution économique et politique (1500-1800), Presses universitaires de Rennes, 2006, p. 9.

وقضائيا على مجموعة من التجار أو المواطنين الذين ينتمون إلى المدينة أو دولة واحدة، ويسهر على حماية مصالحهم لدى الدولة أو المدينة التي اعتمد لديها، وهو الانتقال الوظيفي الذي رسم ملامح التنظيم القنصلي في شكله الراهن⁸¹⁵.

وقد عرفت الوظيفة القنصلية منذ العهد القديم تحت مسميات عدة، حيث شاع اعتماد مصطلح Proxène في الفترة الإغريقية أي منذ القرن السابع ق.م لوصف مجموع الأعمال التي يقوم بها بعض مواطني المدن الإغريقية لصالح تجار أو مواطنين أجانب بمدنهم الأصلية، كالمساعدة على بيع وتصريف وتخزين البضائع، وتحويل الأموال وضمان القروض، أو مساعدتهم قضائياً في حالة نشوب نزاع مع أحد تجار أو مواطني المدينة. في مقابل ذلك كان le proxène يحصل على عدد من الامتيازات، منها الحصانة القضائية والإعفاء من القسط الأكبر من الضرائب، في حين أنه لا يحصل على مقابل مادي مباشر من المدينة التي يسهر على رعاية مصالح تجارها ومواطنيها، غير أنه يسمح له بالتجارة معها⁸¹⁶، وبعد ضم المدن اليونانية للإمبراطورية الرومانية اختفى نظام التمثيل القنصلي المتبادل واختفت معه وظيفة le proxène، ولم تعد هذه الوظيفة للظهور إلا بداية القرن الثاني عشر hgmيلادي في الضفة الشرقية للبحر المتوسط، حيث أدت الحركية الديموغرافية والتجارية الناجمة عن الحملات الصليبية إلى ظهور الحاجة إلى وظائف التمثيل القنصلي من أجل رعاية مصالح التجار والحجاج بمختلف مدن المشرق، فقد أرسلت مدينة البندقية، على سبيل المثال قمصا vicomte إلى مدينة عكا بعد سقوطها بيد الصليبيين سنة 1104م أسندت له عدة مهام قنصلية لرعاية مصالح تجارها، حيث كانت المدينة تعج بالجاليات الصليبية خاصة البندقيين والجنويين والبيزيين، إلى جانب فرسان الهيكل، بالنظر إلى كونها توجد في الطريق نحو بيت المقدس وكذلك بالنظر وجود أحد أهم المرافق البحرية بها.

ولم يتداول مصطلح قنصل بشكل كبير سوى ابتداء من سنة 1117م حيث تم اعتماده بشكل رسمي في بداية القرن الثالث عشر، إلى حين اعتماده بشكل رسمي. وقد تراوحت المصطلحات المعتمدة بين القمص ونائب القمص vicecomites بالنسبة لقناصلة بيزة وجنوة، و bailo أو baiulo بالنسبة للبندقية، كما اعتمدت بشكل أقل مصطلحات من قبيل recteur في مدينة جنوة و القائد alcade و procureur في مدن أراغون وبعض المدن الأسبانية الأخرى⁸¹⁷.

⁸¹⁵ Ulbert et Le Bouëdec, op.cit, p. 10.

⁸¹⁶ Ibid, p.11.

⁸¹⁷ Ibidem.

وتضاعف عدد التمثيليات القنصلية منذ بداية الفترة الوسيطة حيث كانت الجمهوريات الإيطالية في مقدمة الكيانات السياسية التي أنشئت شبكة من التمثيليات القنصلية لرعاية مصالحها التجارية في حوض البحر المتوسط، تليها بعد ذلك مجموعة من المدن والدول المسيحية كمرسيليا وأراغون ومونبوليه وبرشلونة ومايوركا وبلنسية⁸¹⁸. وفي هذا السياق، يمكن التمييز بين أربع وظائف قنصلية خلال هذه الفترة:

- قنصل التجار le consul des marchands⁸¹⁹
- قنصل البحر consulatus maris/ le consul de la mer
- قنصل بحري le consul sur mer⁸²⁰
- قنصل ما وراء البحر le consul d'outre-mer⁸²¹.

لقد كان القنصل خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط أهم موظف في الفندق، وهو إما معين من قبل بلده الأصلي، وإما ينتخبه التجار من بينهم، وهو المسؤول عن المبنى وكل ما في داخله، وكان هو الممثل لبلده أو مدينته في كل ما له علاقة بالسلطات المحلية، كما كانت تسند له صلاحيات قضائية للبت في المنازعات بين تجار بلده. وقد أصبح من المعتاد أن تفرد المعاهدات التجارية بين الدول المسيحية والإسلامية فصولاً تتعلق بصلاحيات القنصل، كما تدرج فقرات تتعلق بحقوق التجار في الفندق، وقد توجد في بعض الأحيان ترتيبات تتعلق بالقنصل ولكن من دون الفندق، مما يعني أنه قد يوجد قنصل من دون أن يكون هناك فندق ولكن من النادر أن نجد فندقاً من دون قنصل يشرف عليه⁸²². وإلى حدود النصف الأول من القرن 13م تفيد مجموعة من الدلائل أن الملامح الوظيفة القنصلية لم تكتمل بعد، خاصة ما يتعلق بصلاحياته، وواجباته وأجره⁸²³.

⁸¹⁸ Ulbert et Le Bouëdec, op.cit, p. 11.

⁸¹⁹ عبارة عن ممثلين لجماعات التجار المحليين، لديهم صلاحيات تنظيمية وقضائية لضمان مصالح التجار على مستوى المدينة التي ينتمون إليها؛

L. DE VALROGER, Étude sur l'institution des consuls de la mer au Moyen Âge, L. LAROSE et FORCEL, Paris, 1891, p. 1.

⁸²⁰ كانت مهام القنصل البحري الأساسية تقتصر على مرافقة البضائع والقوافل البحرية إلى وجهتها النهائية، وكانت له مجموعة من الصلاحيات القضائية والتنظيمية إزاء التجار في المرافئ والموانئ المستقبلية للسفن التي تقلهم؛

A.BERNE, Consuls sur mer et d'outre-mer de Montpellier au Moyen Âge (XIIIe et XIVe siècles), Carcassonne, 1904, p. 23.

⁸²¹ يعين هذا القنصل من قبل حكام المدينة التي اعتمدته، حيث يعطونه مجموعة من الصلاحيات التنظيمية والقضائية لتدبير أمور مواطنهم من التجار المتواجدين غالباً في مرافئ أحد المدن التي لديهم فيها نشاط تجاري كبير.

⁸²² كونستابل، م.س.، ص 203.

⁸²³ نفسه، ص 204.

وفي بداية القرن 13م أقرت مدينة بيزة شروطاً لاختيار قناصل ما وراء البحار، واشترطت في المرشح توفر شرط المواطنة والمولد، كما اشترطت وجوب انتخابه من بين التجار البيزيين كل ستة أشهر، ويفترض هذا الشرط يفترض وجود جالية كبيرة نسبياً من التجار، إلى حد يمكن الاختيار من بينهم مرشحين لشغل المهام القنصلية كل سنة، وهي المدة التي يمكن أن تمتد إلى سنتين غير قابلتين للتجديد، إلا بعد مضي 10 سنوات⁸²⁴.

أما بالنسبة لمدينة البندقية، فقد حدد المجلس الكبير سنة 1281م مدة انتداب القناصل ورواتهم⁸²⁵. وبخصوص القناصل المرسلين بمدينة سبتة فقد كان القنصل يعين لمدة سنة، ويقوم بمساعدته نقابيون ورؤساء الحرف، وكان يقسم بالإنجيل على عدم السماح بالدعارة وبيع الخمر للأجانب في الفندق الذي يشرف عليه، ولا ببراء الحوانيت للأجانب دون استشارة المسؤولين في بلده الأصلي، كما كان يلتزم بالدفاع عن مصالح الجاليات المسيحية سواء تجاه السلطات المحلية أو الأجانب، والقضاء بين الرعايا إذا استدعى الأمر ذلك⁸²⁶.

وتجدر الإشارة في هذا السياق، إلى أن مجموعة من الوثائق سجلت وجود علاقات تجارية بين المغرب ومدن نابونة ومونبوليه عن طريق ميناء سبتة⁸²⁷ وكذلك مدينة مرسيليا منذ سنة 1227م، حيث كان للتجار المرسليين فندق بمدينة سبتة خارج أسوار المدينة، كما استفادوا بدورهم من وضعية قانونية مميزة حسب DE CENIVAL الذي تحدث أيضاً عن وجود قنصل غير دائم بالمدينة كان يعين لمراقبة السفن المتوجهة إلى سبتة وكان يتوفر على مجموعة من الصلاحيات القانونية والسلطات تجاه أطقم السفن والبضائع⁸²⁸.

لقد تزايدت أهمية القنصل وتعددت مهامه بالموازاة مع تطور المبادلات التجارية بين ضفتي المتوسط، حيث جمع بين المهام الدبلوماسية والتجارية حتى صار أقرب إلى السفير. وتجدر الإشارة إلى أنه إلى جانب مهام القنصل التمثيلية كان يعهد إليه بمراقبة تطبيق الاتفاقيات والمعاهدات والتنبيه إلى أي خرق لبنودها، كما عهد إليه بجمع مداخيل الرسوم لدولته وللسلطات المحلية. ومقابل ذلك كان يحصل

⁸²⁴ نفسه، ص 206.

⁸²⁵ نفسه، ص 208.

⁸²⁶ إبراهيم القادري بوتشيش، م.س، ص 96.

⁸²⁷ DE CENIVAL, op.cit, p. 452.

⁸²⁸ Ibid, p. 451.

عادة على نسبة مئوية من مداخيل الفندق (الإقامة والطعام والتخزين) ومن الرسوم على البضائع التي تمر عبر الفندق الذي يشرف عليه، وفي حالات أخرى كان يتقاضى راتباً قاراً⁸²⁹. وعلى سبيل المثال كان مجلس مدينة البندقية يمنح القناصلة ثلثي دخل الفندق والفرن والحانة، في حين يعود الثلث المتبقي إلى مجلس المدينة، وكانت أموال الغرامات تخصص لترميم وإصلاح الفندق⁸³⁰. وإلى جانب النسب المئوية من مداخيل الفندق والرسوم على البضائع، كان القناصلة يستفيدون من مجموعة من الامتيازات التجارية، حيث كان مسموحاً لهم إستيراد البضائع وتصديرها عبر الفندق، لحسابهم الخاص⁸³¹.

و إلى جانب القنصل، عرفت بعض الفنادق وظيفة المشرف على الفندق، الذي كان بمثابة نائب عنه⁸³²، كما كان في بعض الأحيان يشكل مجلس للتجار يتكون من 12 عضواً لمساعدة القنصل على تدبير الفندق ورعاية مصالحهم، وهو مشابه للمجالس التي كانت بمدنهم الأصلية⁸³³.

لقد ساهمت مؤسسة الفندق والوظيفة القنصلية في تطوير آليات العمل الدبلوماسي الوسيط، وذلك بعد أن أسندت إليهما أدوار دبلوماسية إلى جانب أدوارهما التجارية الخالصة، كما أدى الربط بين المصالح السياسية والتجارية إلى تحول هذه المؤسسة إلى إحدى أهم أدوات العمل الدبلوماسي في أواخر القرن الخامس عشر، الأمر الذي دفعنا إلى لقول بكون مؤسسة الفندق والعمل القنصلي هما النواة الأولى للتمثيل الدبلوماسي القار، وذلك خلافاً لمعظم الآراء السائدة بخصوص التمثيل الدبلوماسي الدائم والتي ترجعه إلى أواخر القرن السادس عشر.

خلاصة القول، أولت معظم الكيانات السياسية بالجنح الغربي للحوض المتوسطي أهمية بالغة لمعاري الرفعة الوظيفية والاجتماعية والكفاءة العلمية والمعرفية عند اختيار المرشحين لشغل مهام دبلوماسية. ويمكن التأكيد على إمكانية التمييز بين نظامين دبلوماسيين خلال الفترة الوسيطية المتأخرة من خلال تراتبية معايير انتقاء السفراء، حيث نحت الأنظمة السياسية الملكية والأميرية نحو ترجيح كفة

⁸²⁹ كونستابل، م.س.، ص 207.

⁸³⁰ نفسه، ص 208.

⁸³¹ نفسه، ص 209.

⁸³² تفصل القرارات الصادرة عن مجلس مدينة مرسيليا سنة 1225م بين وظيفتي المشرف والقنصل، حيث لا يمكن للمشرف على الفندق أن يبيع الخمر إلا حسب القواعد التي يحددها القنصل، ويؤدي خرق هذه القواعد إلى الفصل عن الوظيفة، من جهة أخرى ألحقت قرارات مجلس مدينة مرسيليا على عدم التدخل في مهام المشرف على الفندق، ولا في أي مما عهد به إليه بهذه الوظيفة من قبل أعضاء المجلس؛ نفسه، ص 205.

⁸³³ VALERIEN, op.cit, p.442.

معيار الرفعة الاجتماعية والوظيفية، في حين اختارت معظم الأنظمة السياسية القائمة على نظام المجالس كبعض المدن الإيطالية، معيار الكفاءة العلمية والمعرفية، وهو التوجه الذي كان للمصالح الإستراتيجية أثر كبير فيه، حيث كانت الأنظمة السياسية الوراثية توجه دبلوماسيتها للدفاع عن مصالحها السياسية عن طريق عقد اتفاقيات التحالف والهدن وغيرها، وهو ما كان يقتضي ترجيح عامل القرب والولاء على الكفاءة والمعرفة، وبالمقابل فرضت المصالح التجارية على المدن الإيطالية ترجيح ذوي الكفاءة والتجربة فكان أغلب من اعتمدوا للسفارة والعمل القنصلي تجاراً، كما كانت معظم الاتفاقيات التي أبرموها مع المغرب تجارية محضة.

من جهة أخرى، عملنا خلال هذا الفصل على تسليط الضوء على عدد من المبادئ والأعراف الدبلوماسية الوسيطة، وفي مقدمتها الأعراف المرتبطة بالأمن والحصانة القضائية والمراسم والهدايا، حيث حاولنا عن طريق النهج الإحصائي التحليلي والمقارن وعن طريق إيراد بعض النماذج المستقاة من المصادر والوثائق الدبلوماسية بسط الخصائص العرفية والقانونية للعمل الدبلوماسي في المغرب. وإلى جانب ذلك، أفردنا حيزاً مهماً للحديث عن تمويل البعثات السفارية وطرق تنقلها، وذلك على الرغم من ندرة المادة المصدية، كما خصصنا المبحث الأخير من هذا العمل للحديث عن دور المحددات التجارية والدينية في توجيه دفة العمل الدبلوماسي المغربي من خلال استعراض نماذج من الاتفاقيات التجارية التي أبرمها المغرب مع مختلف الدول والممالك المجاورة، ونماذج من الآراء الفقهية المتعلقة بالعمل الدبلوماسي، وفي الختام ارتأينا تسليط الضوء على مؤسسة الفندق وعلى العمل القنصلي لما لهما في اعتقادنا من دور محوري في تطور العمل الدبلوماسي الوسيطي وتسريع وتيرة انتقاله من الهواية إلى الاحتراف.

خاتمة

عملنا من خلال هذا البحث على رصد أبرز خصائص العمل الدبلوماسي خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط، وذلك وفق مقارنة إحصائية تحليلية دون أن نغفل أفراد حيز مهم لمقارنة الدبلوماسية المغربية بنظيراتها في أوروبا الغربية والمشرق، وهي المقارنة التي ساعدتنا على تعميق فهمنا لهذا العمل وآليات اشتغاله.

وبالاستناد إلى مختلف المصادر والمراجع والوثائق الدبلوماسية التي اطلعنا عليها، استطعنا صياغة قاعدة بيانات إحصائية تتعلق بـ 117 رسالة دبلوماسية و 270 بعثة سفارية و 433 مبعوثاً، وهي المعطيات التي قمنا بتحليلها وربطها بسياقها السياسي والاقتصادي والتاريخي، وانطلقنا منها للإجابة على عدد من التساؤلات والتأكد من بعض الفرضيات التي أوردناها في مستهل هذا العمل.

وهكذا، تمكنا من خلال تحليلنا للمعطيات المتعلقة بالعمل الدبلوماسي من رصد مختلف أبعاد التنظيم الدبلوماسي المغربي خلال الفترة الزمنية موضوع البحث، انطلاقاً من الوثيقة ومروراً بمعايير انتقاء السفراء ومبادئ العمل الدبلوماسي وأعرافه وآليات اشتغاله، ووصولاً إلى محدداته التجارية والدينية، حيث استطعنا تفكيك أبرز خصائص الوثيقة الدبلوماسية الوسيطية والوقوف على مميزاتها البلاغية واللغوية ومعاييرها الشكلية والتقنية، كما استطعنا رسم ملامح الكتابة الديوانية الدبلوماسية المغربية، ومدى تأثيرها وتأثرها بغيرها من طرائق الكتابة الديوانية في الأندلس والمشرق، وسجلنا تفرد الأسلوب المغربي عن الأساليب المشرقية وقربه الشديد من الكتابة الأندلسية، كما أثار انتباهنا وفرة المادة المصدرية بخصوص الكتابة الديوانية، التي تعرضت لأدق تفاصيلها، وهو الأمر الذي يدل على مدى وعي حكام وكتاب ومؤرخي هذه الفترة بأهمية المراسلات الدبلوماسية في تدبير العلاقات البينية بين المغرب ومختلف الدول المجاورة.

ولا تفوتنا في هذا السياق الإشارة إلى أننا عملنا على وضع معظم الرسائل الدبلوماسية التي اعتمدنا عليها في هذا العمل في ملحق خاص بـغية توفير الجهد والمشقة على الباحثين والقراء، كما عملنا من خلال عدد من الرسوم البيانية على تحويل المعطيات المتعلقة بأغراض هذه الرسائل إلى نسبٍ وأرقام، حيث سجلنا هيمنة الأغراض المرتبطة بعقد اتفاقيات السلم والتحالف والهدن والاستغاثة، مقابل ضعف

النسب المتعلقة بأغراض التجارة والإخبار، وهو الأمر الذي يتفق مع السياق السياسي - الاقتصادي السائد خلال هذه الفترة، كما يتفق مع النسب المسجلة بخصوص أغراض السفارات التي أوردناها في الباب الثاني من هذا العمل.

إلى جانب الوثيقة الدبلوماسية، أولى حكام المغرب خلال هذه الفترة اهتماماً كبيراً بالعنصر البشري، تجلّى ذلك في إخضاع معايير انتقاء المرشحين للمهام السفارية لتراتبية كان الغرض منها انتقاء الأشخاص المؤهلين والمناسبين للدفاع عن مصالحهم، حيث اشترط معيار الرفعة الاجتماعية والوظيفية فيمن يترشح لمهام السفارة، وذلك لما يعنيه من قربٍ من دائرة السلطة ولما يضمنه من ولاء للسلطان أو الملك. وإلى جانب معيار الرفعة الاجتماعية والوظيفية، اشترط أيضاً في المرشحين لشغل مهام دبلوماسية التوفر على الكفاءة والتجربة والإطلاع المعرفي على عدد من العلوم، كما اشترطت بعض المواصفات الأخلاقية والخلقية فيهم، وهي المعايير التي قلما اجتمعت في شخص واحد، لذا جرى العرف أن يُعتمد للسفارة عدة أفراد، فإن غاب شرطٌ عن أحدهم حضر في الآخر.

و تجدر الإشارة إلى أن شكل النظام السياسي وتراتبية المصالح الاستراتيجية كان لهما دور كبير في تحديد تراتبية معايير انتقاء المرشحين للسفارة، حيث كانت الأنظمة الملكية والأميرية تؤثر معايير الرفعة الاجتماعية والوظيفية، في حين أولت الأنظمة السياسية القائمة على نظام المجالس التنفيذية والاستشارية اهتماماً بالغاً بمعيار الكفاءة والتجربة، وذلك لارتباط مصالحها الاستراتيجية بالتجارة؛ وهكذا يمكن القول إن مسألة انتقاء المرشحين لشغل مهام دبلوماسية قسمت دول الجناح الغربي للبحر المتوسط إلى قسمين استناداً إلى شكل النظام السياسي ونوع المصالح الإستراتيجية.

إلى جانب الوثيقة الدبلوماسية ومعايير انتقاء السفراء، عملنا على تسليط الضوء على مجموعة من المبادئ والأعراف الدبلوماسية التي اعتمدت في صياغة الأوفاق والمعاهدات وتدير العلاقات البينية بين مختلف دول الغرب الإسلامي والمسيحي، حيث استعرضنا المبادئ والأعراف المرتبطة بالمبعوثين الدبلوماسيين كالأمن الشخصي والحصانة القضائية والامتيازات المالية، كما بسطنا بعض المبادئ المعتمدة في الاتفاقيات والمعاهدات من قبيل المعاملة بالمثل والمسؤولية التضامنية، وأفردنا حيزاً مهماً للحديث عن الأعراف المرتبطة بالمراسم الدبلوماسية والهدايا وتمويل السفارات وتنقل أفرادها، حيث أوردنا عدة أمثلة بهذا الخصوص مكنتنا من رصد تطابق المراسم الدبلوماسية لدول الحوض الغربي

للمتوسط، خاصة المراسم المرتبطة بوفادة البعثات الدبلوماسية ومغادرتها، وهو الأمر الذي يؤكد ما ذهب إليه بعض المؤرخين عن حجم التأثير الإغريقي - الروماني في دبلوماسية دول حوض البحر المتوسط.

وبخصوص تنقل أفراد البعثات الدبلوماسية، استوقفتنا هيمنة وسائل النقل البحري على تنقل البعثات الدبلوماسية الوافدة أو الموفدة إلى المغرب خلال فترة البحث، وهو الأمر الذي حاولنا تفسيره من خلال قراءة وتحليل المعطيات المتعلقة بتنقل البعثات الدبلوماسية، حيث سجلنا تركيزاً كبيراً لتنقلها بين المغرب ودول شبه الجزيرة الإيبيرية التي كانت تعتمد على السفن لعبور مضيق جبل طارق، كما سجلنا الأمر ذاته بالنسبة لبعض السفارات الوافدة من إفريقية والمشرق أو الموفدة إليها التي كانت تضطر للتنقل عبر السفن كلما اضطربت الأوضاع الأمنية في المغرب الأوسط. والجدير بالذكر إلى إنه بالاستناد إلى مجموعة من المعطيات الإحصائية عملنا على رسم خريطة لتنقل البعثات السفارية خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط، وطناً عليها أبرز الطرق البحرية والمسالك البرية التي كانت معتمدة من قبل هذه البعثات.

وارتباطاً بالموضوع ذاته، خصصنا جزءاً من هذا العمل للحديث عن تمويل السفراء والبعثات الدبلوماسية، وقد خلصنا إلى أن مسألة غياب رواتب قارة للسفراء والرسل واقتصار عائدتهم المالي على تعويضات ظرفية وامتيازات ضريبية تنزع عن العمل الدبلوماسي بعده الوظيفي وتبقيه في مرتبة المهمة المؤقتة زمنياً ومكانياً، التي ينقضي أثرها بانتهاء مهمتها، والتي لا يمكن معها الحديث عن وظيفة " السفارة " خلال هذه الفترة على الأقل.

عملنا أيضاً على بسط أبرز خصائص المحددات التجارية والوظيفية واستعراض أدوارها في توجيه دفعة العمل الدبلوماسي المغربي، حيث وقفنا على الدور المحوري للتجارة في تطوير الدبلوماسية والخروج بها من نسق الهواية إلى الإحتراف، وذلك من خلال رصد حضورها في عدد من المعاهدات والاتفاقيات التي جمعت المغرب بعدد من الدول والمدن المجاورة والتي أخضعناها لقراءة معمقة أدت بنا إلى رصد تأثيرها في العمل الدبلوماسي في المغرب وفي الغرب المسيحي عموماً، ودورها في تسريع وتيرة تطوره خاصة في عدد من المدن الإيطالية، كما سجلنا غياب هذا المحدد عند الحديث عن العمل الدبلوماسي بين المغرب وغيره من الممالك الإسلامية.

وبخصوص المحدد الديني، فإننا حاولنا تفكيك أبرز ضوابط العمل الدبلوماسي الفقهية وفهمها على ضوء المعطيات التي اطلعنا عليها، حيث استعرضنا عدداً منها خاصة التقسيم الفقهي للعالم " دار إسلام" و "دار حرب" و "دار عهد"، كما رصدنا ما يتعلق منا بصياغة المعاهدات وأمن البعثات السفارية، وهي الضوابط التي أسهمت حسب اعتقادنا، في إبقاء العمل الدبلوماسي المغربي رهين مقاربة المأمورية ولم تساعد على تطوره نحو العمل السفاري المؤسساتي القار والدائم، على النحو الذي سارت عليه معظم دول الغرب المسيحي ابتداء من القرن السادس عشر.

وفي ختام هذا العمل، خصصنا حيزاً للحديث عن مؤسسة الفندق وعن العمل القنصلي، حيث عملنا على إبراز خصائصهما القانونية والتنظيمية ودورهما في تسريع انتقال العمل الدبلوماسي من الهواية إلى الاحتراف.

وخلاصة القول، إننا وقفنا من خلال هذا العمل على وعي مبكر لمختلف حكام الدول التي تعاقبت على حكم المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط بأهمية العمل الدبلوماسي، غير أن هذا الوعي لم يسهم في تطوير آلياته التي ظلت رهينة مقاربات وأساليب الفترة الوسيطية، وهو النهج المحافظ نفسه الذي سارت عليه خلال الفترة الحديثة والمعاصرة وصولاً إلى فرض الحماية على المغرب سنة 1912م وتحول الاختصاصات الدبلوماسية من المؤسسة السلطانية إلى مؤسسة الحماية، ليسدل الستار بذلك على مرحلة دبلوماسية المأمورية وتستهل مرحلة جديدة انضبطت فيها الدبلوماسية المغربية للمعايير المتعارف عليها دولياً.

إلى هنا بلغت سفينة بحثنا وجهتها، وحان وقت رسوها واستراحة أطقمها في انتظار رحلة معرفية جديدة في بحر التاريخ ودروبه.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، رواية ورش عن نافع.

المصادر

- ابن إبراهيم أبو يوسف يعقوب، كتاب الخراج، طبعة مطبعة دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- التلمساني المقرئ أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق الساقا مصطفى، الأبياري إبراهيم، شلبي عبد الحفيظ، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات، مطبعة فضالة، 1978، ج 2.
- -----، نفح الطيب مي غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت، م 3.
- الجزنائي علي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط 2، الرباط، 1991.
- الحنبلي أبي العون محمد بن أحمد، شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد، تحقيق المزيدي أحمد وابن سعد عادل، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009، ج 2.
- الجزري عز الدين بن الحسن علي بن محمد، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار ابن حزم، بيروت، 2012.
- ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الإلفة والألاف، ض.ن. طاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط 1، مصر، 1975.
- -----، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصير وعبد الرحمن عمر، دار الجيل، ط 2، بيروت، 1996، ج 1.
- ابن خلف علي الكاتب، مواد البيان، تحقيق حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق، 2003.
- ابن خلدون عبد الرحمان، رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.
- -----، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الأردن، د.ت.
- ابن الخطيب لسان الدين، الإشارة إلى أدب الوزارة، تحقيق محمد شبانة كمال، التراث الأندلسي، مطبعة الساحل، الرباط، 1980.
- -----، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي ط 1، القاهرة، 1974، م 2.
- -----، أعمال الأعلام فيمن بوع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق ذلك من كلام، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج 2.

- -----، أوصاف الناس في التواريخ والصلوات، تلمها الزواجر والعظاات، تحقيق محمد كمال شبانة، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب. دت.
- -----، ربحانة الكتاب ونجعة المنتخب، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة ط 1، 1980، ج 1 و 2.
- -----، كناسة الدكان بعد انتقال السكان، حول العلاقات السياسية بين مملكتي غرناطة والمغرب في القرن الثامن الهجري، تحقيق محمد كمال شبانة ومحمود حسن، وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكاتب للطباعة والنشر، القاهرة، 1966.
- الدرامي أبو محمد عبد الله بن بهرام ، سنن الدرامي، كتاب السير، باب النهي عن قتل الأسير، طبعة دار الفكر، بيروت، دت.
- الدمشقي أبي شامة، الروضتين، مطبعة وادي النيل، القاهرة، 1287 هـ، ج 2.
- ابن أبي زرع علي الفاسي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، 1972.
- -----، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مراجعة عبد الوهاب بنمنصور، ط 2، المطبعة الملكية، الرباط، 1999.
- السبتي محمد بن القاسم الأنصاري، اختصار الأخبار عما كان بسبته من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط 2، الرباط، 1983.
- السرخسي محمد بن أحمد، شرح كتاب السير الكبير محمد بن الحسن الشيباني، تحقيق صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، 1972، ج 4.
- الشافعي محمد بن إدريس، كتاب الأم، تحقيق محمد زهري النجار، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان، 1973، ج 7.
- الشوكاني محمد بن علي بن عبد الله الصنعاني، نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار للإمام مجد الدين بن تيمية، إصدارات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية دت، ج 8.
- الشافعي شهاب الدين، الروضتين في أخبار الدولتين، مطبعة وادي النيل، القاهرة، 1288 هـ، ج 2.
- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، ط 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.
- ابن عبد الظاهر محي الدين، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل مراجعة محمد النجار، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، جمهورية مصر العربية، 1969.
- ابن عبدون، ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1955.
- ابن الفراء أبو علي الحسين بن محمد، كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحقيق صلاح المنجد، الطبعة الثالثة، دار الكتاب الجديدة، بيروت، 1993.
- ابن القنفذ، الفارسية في تاريخ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النبكي وعبد الحميد الشرقي، تونس، 1968.
- ابن قدامة أبو محمد عبد الله، المغني، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983، ج 10.
- القلقشندي أبي العباس أحمد، صبح الأعشى، دار الكتب الخديوية، المطبعة الأميرية، 1915 - 1922، ج 1 - 8.

- ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر الشافعي، تفسير القرآن العظيم، دار الشعب، القاهرة، ج 2، د ت.
- -----، جامع المسانيد والسنن، مسند أنس بن مالك، خرجه عبد المعطي أمين قلعه جي، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ق 2، ج 22.
- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، دت، ج 14- م 2، و ج 23- م 3.
- الماوردي أبي الحسن علي بن محمد، الأحكام السلطانية، دار الفكر، بيروت، دت.
- المرادي أبو بكر محمد بن الحسن، الإشارة إلى أدب الإمارة، تحقيق رضوان السيد، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط 1، بيروت 1981.
- المراكشي ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س كولان وليفي بروفنصال، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج 3.
- المراكشي ابن القطان، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، 1990.
- المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد زينهم ومحمد عزب، دار الفرجاني، القاهرة، 1994.
- المقرئ تقي الدين بن علي، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق أحمد جليلي، دار الغرب الإسلامي، 2002، بيروت، م 4.
- مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، ط 1، 1979، الدار البيضاء.
- السرخسي محمد بن أحمد، شرح كتاب السير الكبير محمد بن الحسن الشيباني، تحقيق صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، 1972، ج 4.
- النميري ابن الحاج، فيض العباب وإفاضة قدامح الآداب في الحركة السعيدة إلى القسطنطينية والزاب، دراسة وإعداد محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1990، بيروت.
- الهروي أبو ذر، الجامع الصحيح للبخاري، تحقيق، شعبة الحمد عبد القادر، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط 1، 2008، ج 1.
- ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1990، ج 4.
- ابن واصل جمال الدين، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، دار الكتب والوثائق القومية - المطبعة الأميرية، القاهرة - جمهورية مصر العربية الإسكندرية، 1957، ج 2.
- الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المعرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، وزارة الأوقاف الشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ج 1.

المراجع

- أحمد موسى عز الدين عمر، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، ط 1، بيروت، 1983.
- الألوسي همام هاشم، الدبلوماسية، خصائصها الأساسية وتعاملاتها في المجالات الدبلوماسية والقنصلية والبروتوكولية والعلاقات الدولية المتعددة الأطراف، دار القلم للنشر والطباعة والتوزيع، ط 1، الرباط، 2007.
- بوتشيش إبراهيم القادري، تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1994.
- بلاك جيريمي، تاريخ الدبلوماسية، ترجمة أحمد علي سالم، ط 1، هيئة أبو ظبي للثقافة والسياحة، أبو ظبي، 2013.
- بنمليح عبد الإله، الرق في بلاد المغرب والأندلس، منشورات الانتشار العربي، بيروت، 2004.
- بوعمامة فاطمة، اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجري الموافق 14 - 15 م، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2011.
- التازي عبد الهادي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مطابع فضالة، 1988، المحمدية، م 7.
- -----، الرموز السرية في المراسلات المغربية عبر التاريخ، المعهد الجامعي للبحث العلمي، مطبعة المعرفة الجديدة، الرباط، 1983.
- -----، الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب، دار نشر المعرفة، الرباط، 2001، ج 1 و 2.
- حمادة أحمد ماهر، الوثائق السياسية في الأندلس وشمال إفريقيا، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1980.
- حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، 2000، ج 1.
- الحريري محمد عيسى، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، "610 هـ - 1213 م" 869 هـ - 1465 م"، دار العلم، ط 1، 1987، الكويت.
- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، ط 1، مصر، 1980.
- حسين خليل، التنظيم الدبلوماسي، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، 2012.
- دندش عصمت عبد اللطيف، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، 340 - 515 هـ / 1038 - 1221 م، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1988، بيروت.
- روجرز ر ب ج، تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية حتى عام 1900، ترجمة وتعليق يونان لبيب رزق، دار الثقافة ط 1، المغرب، 1981.
- رشدان عبد الفتاح علي، الموسى محمد خليل، أصول العلاقات الدبلوماسية والقنصلية، المركز العلمي للدراسات السياسية، ط 1، الأردن. 2005.
- الرقيق القيرواني إبراهيم، تاريخ إفريقيا والمغرب، نشر المنجي الكعبي، 1968.
- زهرة محمد أبو، العلاقات الدولية في الإسلام، دار الفكر العربي، مصر، 1995.

- شتا أحمد عبد الونيس، الأصول العامة للعلاقات الدولية في الإسلام زمن السلم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996.
- شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات بالأندلس، دار المعارف، القاهرة، 1999.
- -----، الفن ومذاهبه في النثر العربي، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، ط 9، جمهورية مصر العربية، د ت.
- عزاوي أحمد، رسائل موحدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة نصوص ووثائق، رقم 2، ط 1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1995 و 2001، ج 1 و ج 2.
- -----، مختصر تاريخ الغرب الإسلامي، القرون الإسلامية الأولى، ربايت، 2007، الرباط، ج 1.
- عنان محمد عبد الله، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، مؤسسة الخانجي، ط 4، القاهرة، 1962.
- عودة عبد القادر، لتشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، دار الكتاب العربي، بيروت، د ت، ج 1.
- العاني رشدي محمود رشيد، يهود الخزر وأدوارهم السياسية في التاريخ، العبيكان للنشر، ط 1، الرياض، 2018.
- العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 2، 2009.
- غربال محمد شفيق وآخرون، الموسوعة العربية الميسرة، دار نهضة لبنان، بيروت 1998، ج 1.
- الغاشي مصطفى، الرحلة المغربية والشرق العثماني، محاولة في بناء الصورة، دار الانتشار العربي، ط 1، 2015.
- فاضل محمد زكي، الدبلوماسية في النظرية والتطبيق، ط 1، وزارة المعارف، بغداد، 1960.
- فوده عز الدين، النظم الدبلوماسية، تطور الدبلوماسية وتقنين قواعدها، القاهرة، دار الفكر العربي، 1961.
- الفتلاوي سهيل حسن، الدبلوماسية الإسلامية دراسة مقارنة بالقانون الدولي المعاصر، دار الثقافة، ط 1، عمان، 2005.
- قدوري عبد المجيد، سفراء مغاربة في أوروبا 1610 – 1922 في الوعي بالتفاوت، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 13، مطبعة النجاح، الجديدة الدار البيضاء، 1995.
- -----، المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000.
- قيسي فلاح، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، جار البشير لنشر والتوزيع، ط 1، بيروت، 1989.
- القاسمي خالد بن محمد بن مبارك، العلاقات الخارجية في العصر الإسلامي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2008.
- القبلي محمد، حول تاريخ المجتمع المغربي في العصر الوسيط مقدمات أولية وقضايا، نشر الفنك، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء، 1998.
- كور أوغست، دولة بني وطاس 1420 م - 1554 م، ترجمة فتحة محمد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط 1، الرباط، 2010.
- كونستابل أوليفيا ريبي، إسكان الغريب في العالم المتوسطي، السكن والتجارة والرحلة أواخر العصر القديم والوسيط، تعريب تقديم محمد الطاهر المنصوري، المدار الإسلامي، دار الكتاب الجديد، لبنان، 2013.

- مقلد إسماعيل، علاقة السياسة الدولية، دراسة في الأصول والنظريات، منشورات ذات السلاسل، ط 5، الكويت، 1972.
- ميراندا أمبروسو هويثي، التاريخ السياسي للدولة الموحدة، ترجمة عبد الواحد اكيمير، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2004.
- مديرية الوثائق الملكية، مجلة الوثائق الملكية، مجموعة وثائق دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية، المطبعة الملكية، الرباط، 1976، م 1.
- المعهد الدبلوماسي، دليل قواعد وأصول التنظيم الدبلوماسي والقنصلي وتطبيقاتها في دولة قطر، وزارة الخارجية القطرية، ط 2. الدوحة، نونبر 2014.
- الماحي على، المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1986.
- المجذوب محمد، القانون الدولي العام، منشورات الحلبي الحقوقية، ط 5، بيروت، 2004.
- المنوني محمد، ورقات عن الحضارة المرينية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة بحوث ودراسات رقم 20، ط 3، 2000، الرباط.
- آل مصطفى إبراهيم محمد، سفارات الأندلس إلى ممالك أوروبا المسيحية الكاثوليكية 422هـ-138م/ 755هـ-1031م، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2012.
- الناصري أبو العباس السلاوي، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق محمد عثمان، الدولة المرينية - الدولة السعدية، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 2007، م 1 و 2.
- هوبكنز ج. ف. ب، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، ترجمة أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 1980.

المقالات

- أحمام محمد، السفارة المتبادلة بين بيزنطة وقرطبة سنتي 839-840م، ندوة التاريخ والدبلوماسية، قضايا المصطلح والمنهج، تنسيق القدوري عبد المجيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 105، مطبعة النجاح الجديدة، ط 3، الدار البيضاء، 2003، صص 89 – 101.
- أعفيف محمد، الولاء والدبلوماسية نموذج العلاقات بين اليابان وهولندا في القرن 17، ندوة التاريخ والدبلوماسية، قضايا المصطلح والمنهج، تنسيق عبد المجيد القدوري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 105، مطبعة النجاح الجديدة، ط 3، الدار البيضاء، 2003، صص 141 – 172.
- البدوي آمنة سليمان، الأندلسيون والمغاربة ورحلاتهم، تقص وعرض (ق3هـ - ق9هـ)، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، ع 2، م 41، 2014، صص 399 – 410.
- البزاز محمد الأمين، حول نقل البحرية المسيحية لحجاج الغرب الإسلامي: تأملات في رحلة ابن جبير، أعمال ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، تنسيق محمد أحمام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 48، ط 1، 1995، صص 81 – 92.

- التازي عبد الهادي، ابن خلدون سفيراً، أعمال ندوة ابن خلدون بمناسبة مرور ستمائة سنة على تحرير ابن خلدون للمقدمة، من 14 - 17 فبراير 1979 منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، 1981، صص 365 - 386.
- حناوي محمد، جوانب من العلاقات الاقتصادية والبشرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط قبيل القرن العاشر، ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، تنسيق محمد احمام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 48، ط 1، 1995، صص 151-167.
- السائح حسن، في الدبلوماسية المغربية، مجلة الثقافة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1973، ج 9، صص 42 - 54.
- السعداني خليل، الهدايا في السياسة الاستعمارية الفرنسية بلويزيانا خلال القرن الثامن عشر، الولاء والدبلوماسية نموذج العلاقات بين اليابان وهولندا في القرن 17، قضايا المصطلح والمنهج، تنسيق عبد المجيد القدوري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 105، مطبعة النجاح الجديدة، ط 3، الدار البيضاء، 2003، صص 173 - 191.
- ساجد مخلف حسن، المعطيات الحضارية في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين ابن الخطيب، مجلة العلوم الإسلامية، ع 2، شعبان 1430هـ، صص 170 - 204.
- الشاذلي المصطفى، الرسالة السلطانية بين إشكالية المعجم والخطاب، ندوة التاريخ والدبلوماسية قضايا المصطلح والمنهج، تنسيق القدوري عبد المجيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 105، مطبعة النجاح الجديدة، ط 3، الدار البيضاء، 2003، صص 37 - 48.
- علوي محمد لمrani، الإطار العام للعلاقات المغربية مع الجمهوريات الإيطالية البحر في تاريخ المغرب، ندوة تاريخ المغرب والبحر، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، أيام 24-25-26 أكتوبر 1996، تنسيق رقية بالمقدم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، سلسلة ندوات رقم 07، صص 209 - 222.
- العبادي أحمد مختار، لسان الدين ابن الخطيب وكتابه التاريخية، مجلة عالم الفكر، م 6، ع 2، يوليو، غشت، سبتمبر 1975، صص 29 - 62.
- قدوري عبد المجيد، دبلوماسية المأمورية - دبلوماسية التأسيس، ندوة التاريخ والدبلوماسية، قضايا المصطلح والمنهج، تنسيق قدوري عبد المجيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 105، مطبعة النجاح الجديدة، ط 3، الدار البيضاء، 2003، صص 255 - 269.
- المغراوي راجع عبد الله، أصل الدبلوماسية بين الأندلس النصرية والمغرب المريني من خلال رسائل ابن الخطيب الأندلسي (750-770 هـ)، موقع مجلة التاريخ العربي العدد 06 السنة ربيع 1998، صص 63-100؛ مقالة رقمية نشرت على الرابط التالي : <http://www.attarikh-alarabi.ma/Html/adad6partie14.htm>، اطلعت عليها في 05 يونيو 2019.
- المحمدي علي، السفير في مفهوم المخزن، ندوة التاريخ والدبلوماسية قضايا المصطلح والمنهج، تنسيق القدوري عبد المجيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 105، مطبعة النجاح الجديدة، ط 3، الدار البيضاء، 2003، صص 283 - 286.

- النعيم نورة بنت عبد الله، سفارة عمرو بن هند " ملك الحيرة إلى بلاط الإمبراطور جستين الثاني حسب رواية المؤرخ منندار، الجزيرة العربية واليونان وبيزنطة التواصل الحضاري عبر العصور القديمة والوسيط، مؤلف جماعي، كلية الآداب جامعة الملك سعود، 2012، الرياض، المملكة العربية السعودية، م 1، صص 377 – 394.

مراجع باللغة الفرنسية

- ARGOD-DUTRAD Françoise, COCULA Anne-Marie, La diplomatie au temps de Brantôme, cahiers brantôme, volume 3, presse universitaire de Bordeaux, Bordeaux. 2007.
- BERNE. A, Consuls sur mer et d'outre-mer de Montpellier au Moyen Âge (XIIIe et XIVe siècles), Carcassonne, 1904.
- CHRISTOL Michel, Essai sur l'évolution des carrières sénatoriales : Deuxième moitié du IIIe siècle après j.-c, nouvelles éditions latines, 1986.
- CONTAMINE Philippe, LENTZ Thierry, Histoire de la diplomatie française, du moyen âge à l'empire, collection Tempus, éditions Perrin, Paris, 2005.
- DE MAS LATRIE. L, Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique au moyen âge, Plon, Paris, T 1 et T2, 1866 – 1872.
- DE VALROGER. L, Étude sur l'institution des consuls de la mer au Moyen Âge, L. LAROSE et FORCEL, Paris, 1891
- HUILLARD-BRÉHOLLES. A, Grande Chronique de Matthieu Pâris, présenté par le duc de Luynes, T1, Paulin libraire éditeur, Paris, 1840.
- LE GOFF Jacques, Pour un autre Moyen Age, Temps, travail et culture en Occident, Gallimard, 1991,
- Lettres sur le congrès d'AIX LA CHAPELLE, n°1, J.L Chanson imprimeur libraire, Paris, septembre 1818.
- M'BAREK Zaki, le Maroc et la méditerranée, études et histoire, institut universitaire de la recherche scientifique, Université Mohammed V, Souissi Rabat, 2003,
- MANOU le sage, Lois de MANOU, Manava-Dharma-Sastra, traduit du sanscrit et accompagné de notes explicatives par Auguste LOISELEUR-DESLONGCHAMPS, Arbre d'Or, Genève, juin 2007.
- MILLARD Clara, Les papes et le Maghreb aux XIII et XIV siècles, études de lettres pontificales de 1199 à 1419, BREPOLs, Belgique, 2014.
- MOEGLIN Jean- marie et PEQUIGNOT stéphane, Diplomatie et relations internationales au moyen age IX – XV siècle, nouvelle clio, puf, 1^{er} édition, Paris, 2017.
- MOORE Michel, Dictionnaire encyclopédique d'histoire, Bordeaux, Tome II, 1978.
- Ulbert Jörg et Le Bouëdec Gérard, La fonction consulaire à l'époque moderne, L'affirmation d'une institution économique et politique (1500-1800), Presses universitaires de Rennes, 2006.

مقالات باللغة الفرنسية

- ABITBOL Michel, Juifs d'Afrique du Nord et expulsés d'Espagne après 1492, in Rev de l'histoire des religions, 210-1, 1993, pp. 49-90.
- BAUTIER Robert-Henri, Caractères spécifiques des chartes médiévales, actes du colloque de Rome (20-22 mai 1975), présentés par Lucie Fossier - André Vauchez - Cinzio Violante, in Rev Informatique et histoire médiévale, publications de l'école Française de Rome, Rome 1977, pp. 81-96.
- BECKER Audrey, DROCOURT Nicolas, Ambassadeurs et ambassades au coeur des relations diplomatiques Rome – Occident Médiéval – Byzance (VIIIe s. avant j.-c. - XII^e S. après j.-c.), études réunies par Audrey BECKER et

Nicolas DROCOURT, Centre de recherche Universitaire Lorrain d'histoire, Université de Lorraine – site de Metz, METZ, 2012, pp.1-10.

- BENSILIMANE Fatma, Diplomatie et vocabulaire à travers la chronique de Ibn abi Diyaf (1862-1872), sujets de la terminologie et de la méthodologie, Histoire et diplomatie, coordination Abd elmjid KADOURI, publications de la faculté de lettres et des sciences humaines de Rabat, Université Mohammed V, collection séminaires et conférences 105, éditions Anajah Al jadida, Casablanca, pp.63- 85.
- BUQUET Thierry, Les animaux exotiques dans les ménageries médiévales. Jacques Toussaint. Fabuleuses histoires des bêtes et des hommes, Trema - Société archéologique de Namur, pp.97-121, 2013; Article en ligne <https://halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-00905429>, consulté le 26 Juillet 2019.
- BURESI Pascal, À propos d'une correspondance entre l'Empire almohade et la cité de Pise (début XIIIe siècle), Les relations diplomatiques entre le monde musulman et l'Occident latin (XIIe-XVIe siècle), 88/2, Oriente Moderno, Istituto per l'Oriente C.A. Nallino, 2008, pp.297- 309. Article mise en ligne le 20 Oct 2016, <https://hal.archives-ouvertes.fr/hal-01384598>, consulté le 09 Decembre 2019.
- CAILLÉ Jacques, Un consul de Louis XIV au Maroc, in le Monde diplomatique, decembre 1958; article en ligne, <https://www.monde-diplomatique.fr/1958/12/CAILLE/22840>, consulté le 22 Novembre 2019.
- DE CENIVAL Pierre, Les relations commerciales de France avec le Maroc, in Rev Outre-Mers, revue d'histoire, n° 89, 1932, pp. 451-460.
- CHEDDADI Abdeslam, A propos d'une ambassade d'Ibn Khaldun auprès de Pierre le Cruel : contacts politiques et culturels entre Etats chrétiens et musulmans dans l'Andalousie médiévale, in Rev Hesperis, 1982-83, vol. XX-XXI, fascicule unique, pp. 5-23.
- DREILLARD Rodolphe, Fidélité et protection, le traitement des ambassadeurs dans le Royaume de France et sur ses marges à l'époque Carolingienne VIII – IX siècles, dans la mobilité des personnes en méditerranée et de l'atlantique à l'époque moderne, procédure de contrôle et d'identification, in Rev EFR, Rome, 2004, pp. 591-614.
- DROCOURT N., Les animaux comme cadeaux d'ambassade entre Byzance et ses voisins (VII-XII siècles), dans B. Doumerc et C. Picard, Byzance et ses peripheries (Monde grec, balkanique et musulman), coll Meridiennes, Toulouse, 2004, pp. 67-93.
- E. DUFOURCQ Charles, La question de Ceuta au XIIIe siècle, in Rev hesperis, 1955, T XLII, 1 et 2 trimestre, pp. 67 – 128.
- GERD Theissen, Pax romana et pax christi : Le christianisme primitif et l'idée de paix, in Rev de théologie et de philosophie, n°142, 1992, pp. 61-84.
- GILLI Patrick, La fonction d'ambassadeurs dans les traités juridiques italiens du XVe siècle: l'impossible représentation, p. 173-187, in Rev MEFRM – 121/1 – 2009.
- GIRY-DELOISON Charles, Le personnel diplomatique au début du XVIe siècle. L'exemple des relations franco-anglaises de l'avènement de Henry VII au Camp du Drap d'Or (1485-1520), In Journal des savants, 1987, n° 3 - 4, pp. 205-253.
- GRILLON Pierre, La correspondance du consul général Louis Chénier, chargé d'affaires de France au Maroc (1767-1782), In Rev d'histoire moderne et contemporaine, n°1, janvier-mars 1963, T 10, pp. 65-76.
- HABLO Laurent, Les signes de l'entente, le rôle des devises et des ordres dans les relations diplomatiques entre les ducs de bourgogne et les princes étrangers de 1380 à 1477, in Rev du Nord, n°2, 2002, pp. 319 – 341.

- LE ROUX Patrick, La romanisation en question, in *Rèv Annales HSS, Histoire, Sciences Sociales*, éditions de l'EHESS 59^{ème} année, avril – mars 2004/2. pp. 287 – 311.
- MALETTKE klaus, Les traités de paix de westphalie et l'organisation politique du saint empire romain, in *Rev Dix-septième siècle*, presses universitaires de france, n° 210 - 2001/1, pp. 113 - 144.
- MAULDE DE LA CLAVIÈRE René, Les instructions diplomatiques au Moyen Âge, in *Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, 36 année, n° 2 ; article en ligne en DOI: https://doi.org/10.3406/crai.1892.70081www.persee.fr/doc/crai_00650536_1892_num_36_2_70081, consulté le 15 Octobre 2019.
- MOEGLIN Jean-Marie, La place des messagers et des ambassadeurs dans la diplomatie princière à la fin du Moyen Age, in *Rev études de lettres*, n°3, 2010, pp.11-36.
- NECHAEVA Ekaterina, Les activités secrètes des ambassadeurs dans l'antiquité tardive, , étude, *Ambassadeurs et ambassades au coeur des relations diplomatiques rome – occident médiéval – byzance (VIII s. avant j.-c. - XIIe s. après j.-c.)*, études réunies par BECKER et DROCOURT, pp 183 – 203.
- Patrick ARABEYRE, Un prélat languedocien au milieu du XV^e siècle : Bernard de Rosier, archevêque de Toulouse (1400-1475), in *Journal des savants*, 1990, n° pp. 291-326.
- PÉQUIGNOT Stéphane, Les diplomaties occidentales, XIII^e-XV^e siècle, Les relations diplomatiques au moyen âge, formes et enjeux, Congrès de la SHMESP, Lyon, 3-6 juin 2010, société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public, édition de la Sorbonne, collection histoire medievale, Paris, 2011, pp. 47-66.
- Pierre DE CENIVAL, Les relations commerciales de Fance avec le Maroc, in *Rev Outre-Mers, revue d'histoire*, n° 89, 1932, pp. 451-460.
- PROVENÇAL LÉVI, Evariste - Un recueil de lettres officielles almohades: in *Rev Hisperess*, 1941, T. XXVIII, pp 01 – 80.
- SPITZBARTH Anne-Brigitte, Le choix des ambassadeurs bourguignons sous Philippe le Bon, troisième duc Valois de Bourgogne (1419-1467) : La stratégie de la spécialisation, entre savoir-être et savoir-faire , in *Rev études de lettres*, n° 3 | 2010 2016, URL : <http://edl.revues.org/251> ; DOI : 10.4000/edl.251, mis en ligne le 15 septembre 2013, consulté le 04 octobre 2018 .
- STOUDEUR Ghislaine, Des manuels de diplomatie à l'usage du légat romain, étude, *Ambassadeurs et Ambassades au coeur des relations diplomatiques Rome – Occident Médiéval – Byzance (VIII s. avant j.-c. - XII s. après j.-c.)*, études réunies par Audrey BECKER et Nicolas DROCOURT, Centre de recherche universitaire lorrain d'histoire universite de lorraine – site de metz, Metz, 2012, pp.11- 30.
- TISSERANT E et WIET Gaston, Une lettre de l'almohade Murtada au Pape Innocent IV, in *Rev Hesperis*, 1926, T. VI, 1^{er} trimestre, librairie larose paris, pp. 27-54.
- TRAMPUS, Le diplomate vénitien entre les XVI et XVIII siècles : Statut, rôles et fonctionsin, in *Rev études de lettres*, n° 3, 2010, pp. 119 -136.
- ULBERT Jörg, Qu'est-ce qu'un chancelier de consulat ? Une approche par les textes de droit français, mélanges de l'École française de Rome - Italie et Méditerranée modernes et contemporaines, 128-2/ 2016, article en ligne, <http://journals.openedition.org/mefrim/2892> ; DOI : 10.4000/mefrim.2892, mis en ligne le 22 novembre 2016, consulté le 21 Novembre 2019.
- VALÉRIAN Dominique, Les élites politiques et l'activité économique des ports maghrébins (XII^e -XV^e siècle), in *Rev, Histoire urbaine*, n° 19, 2007/2, pp. 117-128.

مراجع بلغات أجنبية

- AMARI Michele, Diplomi Arabi del R. Archivio Fiorentino, testo originale, in firenze, dalla tipografia di felice le monnier, MDCCCLXIII.
- BARBARO Ermolao, Epistalea, Orationes et carmina, éd , V. Branca, vol, Florance, 1943.
- Bernard DE ROSIER, Ambaxiator brevilogus, annalium ecclesiasticorum post illustriss et reverendiss dom caesarem baronium S.R.E cardinalem bibliothecarium, édition A.Bzovius, XV, cologne, A. Boetzer, 1622.
- BLACK Jeremy, History of diplomacy, relation books, frist published, london, 2010.
- GRATI DA LODI Martino, Tractatus de principibus, con l'edizione critica della rubrica de principibus, instituto editoriale casalpino, 1968.
- MAXIMILIANO A. ALARCON Y SANROS y DE LINARES Ramon Garcia, Los documentos arabes diplomaticos del archivo de la Corona de Aragon, imprenta de estanislao maestres, Madrid, 1940.
- PARIS Mathieu, Historia anglorum in Ex rerum Anglicarum scriptoribus saec. XIII, (éd. par F. Liebermann), coll. Monumenta Germaniae historica, Scriptores, vol. 28, Hannovre, 1888.
- ROGERS, P.G, History on anglo – Morrocaon relation to 1900, London Foreign and Commonwealth Office, 1978.

مقالات باللغة الإسبانية

- CALDERÓN ORTEGA José manuel, DÍAZ GONZÁLEZ Francisco javier, El rescate de prisioneros y cautivos durante la edad media hispánica, aproximación a su estudio, Universidad de Alcalá de Henares, article en ligne, http://institucional.bus.es/revistas/historia/38/art_1.pdf, consulté le 13 Novembre 2019.
- MIRANDA Ambrosio Huici, La toma de sale por la escudra de Alfonso X, in Rev hesperis, XXXIX -1952, pp. 41- 71.
- OCHOA Miguel Angel, Diplomacia y su historia, in Rev Boletin informativo, n°189, pp. 35 – 39.

نصوص قانونية دولية

- Congrès de Vienne (1814 / 1815), acte du congrès de Vienne du 9 juin 1815, avec ses annexe, édition officielle, imprémerie imperiale et Royale, Vienne, 1815.
- Convention de Vienne sur les relations consulaires 1963, faite à Vienne le 24 avril 1963, Entrée en vigueur le 19 mars 1967, Nations Unies, Recueil des Traités, vol. 596.
- Convention de vienne sur les relations diplomatiques 1961, faite à vienne le 18 avril 1961, entrée en vigueur le 24 avril 1964, Nations Unies, recueil des traités, vol. 500.

فهرس الرسوم البيانية والجداول والخرائط

فهرس الرسوم البيانية والخرائط

الرقم	العنوان	الصفحة
1	الرسائل الدبلوماسية الصادرة والواردة على الدول المتعاقبة على حكم المغرب خلال العصر الوسيط حسب الغرض	77
2	الرسائل الدبلوماسية الصادرة والواردة على الدولة المرابطية حسب الغرض	78
3	الرسائل الدبلوماسية الصادرة والواردة على الدولة الموحدية حسب الغرض	79
4	الرسائل الدبلوماسية الصادرة والواردة على الدولة المرينية حسب الغرض	80
5	المصطلحات المتعلقة بصفات السفراء والرسائل الواردة في رسائل الاعتماد والصلاحيات الصادرة عن دوقية بورغون	116
6	توزيع العاملين في الحقل الدبلوماسي بدوقية بورغون حسب الخلفية الوظيفية	118
7	توزيع أفراد البعثات الدبلوماسية الفرنسية حسب الخلفية الاجتماعية	120
8	توزيع أفراد البعثات الدبلوماسية الإنجليزية حسب الخلفية الاجتماعية	121
10	توزيع المبعوثين الدبلوماسيين الفرنسيين حسب السن	123
11	توزيع المبعوثين الدبلوماسيين الإنجليز حسب السن	123
12	الانتماء الوظيفي لأفراد البعثات الفرنسية الموفدة على إنجلترا	126
13	الانتماء الوظيفي لأفراد البعثات الإنجليزية الموفدة على فرنسا	128
14	توزيع المبعوثين الدبلوماسيين الوافدين والموفدين على المغرب حسب الخلفية الوظيفية	137
15	توزيع المبعوثين الدبلوماسيين خلال الفترة المرابطية حسب الخلفية الوظيفية	138
16	توزيع المبعوثين الدبلوماسيين خلال الفترة الموحدية حسب الخلفية الوظيفية	139
17	توزيع المبعوثين الدبلوماسيين خلال الفترة المرينية حسب الخلفية الوظيفية	140
18	النسب العامة لتوزيع المبعوثين الدبلوماسيين الوافدين والموفدين على المغرب حسب الانتماء الديني	154
19	توزيع المبعوثين الدبلوماسيين حسب الانتماء الديني خلال الفترة المرابطية	154
20	توزيع المبعوثين الدبلوماسيين حسب الانتماء الديني خلال الفترة الموحدية	155
21	توزيع المبعوثين الدبلوماسيين حسب الانتماء الديني خلال الفترة المرينية	155
22	توزيع الهدايا حسب النوع	264
1 خ	خريطة الطرق البرية والبحرية المعتمدة من قبل البعثات الدبلوماسية الوافدة والموفدة على المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط	271

فهرس الجداول

الرقم	العنوان	الصفحة
1	الألقاب المعتمدة في المراسلات الدبلوماسية المغربية	71
2	الرسائل الدبلوماسية الصادرة والواردة على الدول المتعاقبة على حكم المغرب حسب الغرض	77
3	الرسائل الدبلوماسية الصادرة والواردة على الدولة المرابطية حسب الغرض	78
4	الرسائل الدبلوماسية الصادرة والواردة على الدولة الموحدية حسب الغرض	79
5	الرسائل الدبلوماسية الصادرة والواردة على الدولة المرينية حسب الغرض	80
6	المبعوثون الأجانب المعتمدون من قبل إنجلترا	121
7	المبعوثون الأجانب المعتمدون من قبل فرنسا	122
8	توزيع المبعوثين الدبلوماسيين الفرنسيين الموفدين إلى إنجلترا بين 1485 - 1520 م حسب الانتماء الجهوي	122
9	الدرجات العلمية لبعض المبعوثين الدبلوماسيين الإنجليز	124
10	الدرجات العلمية لبعض المبعوثين الدبلوماسيين الفرنسيين	125
11	توزيع المبعوثين الدبلوماسيين خلال الفترة المرابطية حسب الخلفية الوظيفية	138
12	توزيع المبعوثين الدبلوماسيين خلال الفترة الموحدية حسب الخلفية الوظيفية	139
13	توزيع المبعوثين الدبلوماسيين خلال الفترة المرينية حسب الخلفية الوظيفية	140
14	مجموع المعطيات الإحصائية المتعلقة بالسفارات الوافدة على المغرب والموفدة منه خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط بين	141
15	توزيع المبعوثين الدبلوماسيين حسب الانتماء الديني خلال الفترة المرابطية	154
16	توزيع المبعوثين الدبلوماسيين حسب الانتماء الديني خلال الفترة الموحدية	155
17	توزيع المبعوثين الدبلوماسيين حسب الانتماء الديني خلال الفترة المرينية	155
18	جدول الوظائف الرسمية التي شغلها بعض الرقيق في بلاد المغرب والأندلس في العصر الوسيط	168
19	معطيات إحصائية عن العمل الدبلوماسي الوسيط	171
20	البعثات الدبلوماسية المرفقة بهدايا	264
21	التوزيع الجغرافي للبعثات الدبلوماسية الوافدة والموفدة إلى المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط	270

فهرس الموضوعات

7	تقديم
24	الباب الأول : خصائص الدبلوماسية المغربية الوسيطة
25	الفصل الأول : التأصيل الاصطلاحي والمفهومي
25	1- الدبلوماسية الوسيطة، غياب المصطلح وحضور المفهوم
36	2- السفارة و السفير
41	3- الغاية الظاهرة والمُضمرة في العمل الدبلوماسي الوسيطي
47	الفصل الثاني : الخصائص الشكلية واللغوية للوثائق الدبلوماسية الوسيطة
48	1- ديوان الإنشاء، مصنع الكتابة السلطانية
52	2- كُتَّاب دواوين الإنشاء
58	3- الضوابط الشكلية
68	4- الضوابط اللغوية والبلاغية
80	الفصل الثالث : الأغراض الرئيسية للرسائل الدبلوماسية : دراسة إحصائية تحليلية
90	1- الاستغاثة و الاستنجاد
103	2- الشكر والتهنئة
104	3- الإخبار
106	4 - أغراض التهديد والوعيد والاحتجاج

114.....	الباب الثاني : آليات ومحددات العمل الدبلوماسي الوسيط
115.....	الفصل الرابع : معايير انتقاء السفراء
115.....	1 - معايير انتقاء السفراء في الغرب المسيحي
116.....	1.1 المدن الإيطالية
120.....	2.1 دوقية بورغون
124.....	3.1 فرنسا وإنجلترا
136.....	2- معايير اختيار السفراء في الغرب الإسلامي
136.....	1.2 المحدد الاجتماعي والوظيفي
145.....	2.2 المحدد المعرفي والعلمي
150.....	3.2 المحدد الأخلاقي والخلقي
155.....	3 - الأقليات الدينية والوظيفية في خدمة العمل الدبلوماسي
155.....	1.3 الأقليات الدينية
166.....	2.3 الأقليات الوظيفية والعمل الدبلوماسي : أنموذج العبيد
175.....	4- معطيات إحصائية عن العمل الدبلوماسي
250.....	الفصل الخامس : آليات العمل الدبلوماسي القانونية والعرفية ومحدداته التجارية والدينية
250.....	1- مبادئ العمل الدبلوماسي : أنموذج الأمن والحصانة
250.....	1.1 البعد العرفي والتعاقد
258.....	2.1 الحصانة الدبلوماسية
264.....	3.1 الحوادث الدبلوماسية
267.....	2- آليات ومراسم العمل الدبلوماسي

267.....	1.2 الهدية الدبلوماسية.....
274.....	2.2 تنقل البعثات السفارية.....
278.....	3.2 تمويل البعثات السفارية.....
281.....	4.2 المراسم الدبلوماسية.....
291.....	3- المحددات التجارية والدينية للعمل الدبلوماسي.....
291.....	1.3 المحدد التجاري.....
298.....	2.3 المحدد الديني.....
303.....	3.3 البعد الدبلوماسي لمؤسسة الفندق.....
308.....	4.3 العمل القنصلي : نواة العمل السفاري الدائم.....
314.....	خاتمة.....
318.....	قائمة المصادر والمراجع.....
330.....	فهرس الرسوم البيانية والجداول والخرائط.....